

جَوَاهِرُ الْأَدَبِ

في أدبيات وإنشاء لغة العرب

تأليف
السيد أحمد الهاشمي



طبعة جديدة لوزان



292.202
892.701
5

17/4/66

مَجْلَدُ الْأَدَبِ فِي

أَدَبِيَّاتِ وَإِنْشَاءِ لُغَةِ الْعَرَبِ

892.701

عفا
ح

تأليف

المرحوم السيد أحمد الهامشي



طبعة جديدة بحفلة ومنقحة
Institution of the Al-Azhar Library (CAI)

أشرفت على تحقيقه وتصحيحه

لجنة من الجامعيين

الجزء الأول

مؤسسة المعارف
بيروت



قراءة ممتعة

مع تحيات يحيى الصوفي

مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

مقدمة

كان أبرز الأهداف المنشودة من « تأسيس الدار » أن تركز جهودها لخدمة اللغة العربية ، لغة القرآن ، ما استطاعت الى ذلك سبيلا . فوقفت طاقتها على تحقيق كنوز التراث العربي القديم ونشر ذخائره ، كلما أمكنتها الفرص ، وساعفتها الظروف . بيد ان مهمة التحقيق بانته عسيرة أول الأمر ، لولا أن ذللتها عقول نيّرة ، وإرادات خبيرة ، وتضحيات كبيرة قام بها رجال أبوا إلا التواضع ، فلم يشأوا حق التنويه بخدماتهم الجليلة ، أو الإشارة بجهودهم المشكورة .

وقد وقعنا في الطبعة الأولى من كتاب « جواهر الأدب » على أخطاء لغوية نزره مصنف الكتاب الجليل عن الوقوع في مثلها ، وعلى أخرى مطبعية لا يجوز أن ترد في كتاب قيّم له مثل هذا المقام الرفيع بين أمهات المنتخبات ومراجع الأدب . وحزّ في نفسنا أن تظل الطبعة المتداولة من هذا السّفر يشينها عدم الضبط في العديد من المواضع ، وتحفل بالمواقب المترتبة على عجلة منضد الحروف في المطبعة ، فاستغرنا الله ، وقررنا الاضطلاع بدفع الكتاب الى لجنة من المحققين الذين حرصوا ، بقدر ما يحرص إنسان ، على الدقة في تحريري النص ، والتدقيق في إخراجيه مطبوعاً في حلة زاهية .

والحق ، اننا شعرنا بالحرج من عبء المهمة أول الأمر ، لكن اعتزازنا بالكتاب والنصوص الثمينة التي يحويها بين دفتيه ، واعتبارنا الأدب العربي ملكاً قين بالاغتراف منه كل ناطق بالضاد ، وما آلىناه على انفسنا من خيرة الله في عدم التفريط بترائنا الغالي — كل ذلك دفعنا الى مواجهة المشكلة عاملين ما استطعنا على أن نتعاشى الأخطاء التي وقع فيها السابقون ، ومعترفين مع ذلك بأن النقص مجبول عليه الانسان ، فالكال الله وحده .

الناشر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أحلى ما سجت بهِ بلابلُ الأقلامِ ، وأغلى ما انتظمت فيه عقودُ البلاغةِ
والانسِجامِ ، وأشهى ما ينعت بهِ (جواهر الأدب) حمدُ مولانا الذي شرف
لغة العرب ، وأرسل لنا نبياً عربياً منزهاً عن جميع الرِّيبِ ، سيدنا محمداً ﷺ
وعلى آله وَمَنْ صَحِبَ .

(أمّا بعدُ) فهذا كتابٌ سمّيتهُ « جواهر الأدب » ، في أدبيات لغة
العرب « أودعته ما وقع عليه اختياري ، لا من نثري وأشعاري ، فليس لي
في تأليفه من الافتخار ، أكثر من الاختيار ، واختيارُ المرءِ قِطْعةً من عقله ،
تدلّ على تخلُّقه وفضله ، وفضيلةُ هذا التأليف هي في جمع ما افترق ، بما
تناسبَ واتسَقَ ، واختيار عيون ، وترتيب فنون ، من أحاديثِ قبوية ،
ومكاتبات أدبيّة ، وحِكَمٍ باهية ، وأبياتٍ نادرة ، وأمثالٍ شاردة ، وأخبار
واردة ، ووصايا نافعة ، ومواعظَ جامعة ، ومناظرات مُستظرفة ، ومقامات
مُستظرفة ، وأوصافٍ عليّة ، وخطبٍ اجتماعية ، لينتفع بهِ مُقتنيه ،
ويستغني عن غيره الرّاغِبُ فيه ؛ إذْ كان أحسنَ من الزهر والرياح ، والحدائق
والغياض ، والزبرجد والمرجان ، والذر والعقيان ، والأكاليل والتّيجان ،
والنزه والبُستان ، إن دُعي أسرع ، وإن تحدّث أمتع ، وإن سُئل أجاب ،
وإن حُكم أصاب ، جليس لصاحبه في الحضر ، وأنيس له في السفر ، نديم
ظريف ، وسمير حصيف ، بالغت في تهذيبه ، وبذلت مجهوداً في حسن ترتيبه ،
وأجزلت التّشحُّف ، وانتقيت الطرفة ، وبالله نستعين ، وهُوَ حسبنا ونعم الوكيل .

المؤلف

السود أحمد الهاشمي

تقريظ

وتقدير العلماء والعظماء لكتاب جواهر الأدب

١ - كتب إليَّ صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر شيخ الأزهر الشيخ حسونة النواوي ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي علّم بالقلم، علّم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على أفصح العرب، وعلى آله وصحبه الذين انتهجوا منهج الأدب «أما بعد» فقد اطلعت على الكتاب المسمّى «جواهر الأدب» في أدبيات وإنشاء لغة العرب «لؤلفه الألمعي ولدنا الأستاذ الفاضل السيد أحمد الهاشمي ، فألفيته مشتتة على فن الإنشاء والأمثال وافيًا بالمقصود واسع المجال ، صحيح العبارة واضح الإشارة ، نافعًا في بابه ، مفيدًا لمطالعيه وطلابه . نفع الله به وبؤلفه ومحبيه ، يجاه نبيه وآله وصحبه وتابعيه .
كتبه حسونه النواوي

٢ - وكتب إليَّ أستاذي الإمام الحكيم فيلسوف الشرق المرحوم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله، وعلى آله وصحبه ومن اتبعه فوالاد « وبعد » فقد اطلّعت على مجموع كتاب (جواهر الأدب) المنتخب من حقائق العرب ، فإذا هو مجموعة لا بأس بها ، وافيًا بما تريده الطلبة من الكتابة ووسائلها :

كما أزهت روضات حسن وأثمرت فأضحت وعُجّمت الطير فيها تغرّد
فقد جمع لهم من عيون الكلام وروائع اللفظ ما يحتذون حذوه ، وينسجون على منواله ، حتى لا تستعصي عليهم الكتابة بل يسلس لهم قيادها ، وبُعِيدَ أن يصل من يحاول (صناعة الإنشاء) إلى ما يرضى منه بدون أن يرد الطرف في كثير من كلام الفصحاء ، ويرد من مناهله كل عذب صاف ، ويحيط بشيء عظيم من أساليب الكتاب حتى يتشبع من كلامهم ، وتنطبع فيه صورة عن مجموع صورهم ،

ولم يكن فيما بين أيديهم من الكتب ما يفي لهم بهذا الغرض ، حتى وفق حضرة ولدنا الأستاذ (الهاشمي) لسدّ هذه الثَّلمة بما كابده من التعليم زمنًا كبيراً - ولا بدع فخير الأطباء من عرف حقيقة الداء ، فيصف له أنجع الدواء . ولقد عرف هذا الأستاذ العصامي حاجة العصر وناشئته إلى كتاب موضوع على أسلوب عصري يلائم أذواق بني العصر من معلّمين ومتعلّمين ، فإذا حاول أهل العلم والتعليم أن يشكروا له صنيعه فقد حاولوا عظيماً وطلبوا خطيراً ، وحسب العامل أن يقوم بشكره عمله ، فالعمل أعرف شيء يحمّل عامله ، وفقنا الله وإياه ، لما يحبّه ويرضاه ، وأسأله أن ينفع به الطلاب ، ويحزل فيه الثواب . محمد عبده

٣ - وكتب شيخ الاسلام صاحب الفضيلة أستاذي الأكبر المرحوم الشيخ سليم البشري شيخ الجامع الأزهر ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنشأ العالم على أبداع مثال ، ونظم أحواله بمعارف أرباب العلوم حتى بلغ حدّ الكمال ، ونثر عجائب المعارف في أرجائه ، وغرائب العوارف في أنحائه ، والصلاة والسلام على ينبوع العلم و«جواهر الأدب» سيدنا ونبينا محمد أشرف مخلوق في العجم والعرب ، وعلى آله وصحبه ذوي المناصب والرتب «أما بعد» فقد تناولت كتاب «جواهر الأدب في لغة العرب» كما يتناول الكتاب المرقوم ، وفضضته كما يفيض الرحيق المختوم ، واطلعت عليه فوجدته حوى من المباني أدقها ، ومن المعاني أرقها ، ومن النثر أعلاه ، ومن النظم أحلاه ؛ ارتحت لعيانه ، واهتزرت لعنوانه ؛ إذ قد جمع فيه الأجناس ومما لا يستحيل الانعكاس ما أدهش قاطبة الناس ، فلو شامه (البهائي) قبل تأليف (مخلاته و كشكوله) لاعترف لهذا المؤلف وارعوى من فضوله ، وهو حضرة العالم الهمام اللوذعي ، الإمام ولدنا السيد أحمد الهاشمي - أكثر الله من أمثاله بجاه النبي وآله . كتبه سليم البشري

٤ - وكتب إليّ فضيلة أستاذي المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المفتش الاول بوزارة المعارف العمومية ، فقال : بسم الله الرحمن الرحيم

أي بنيّ الجهبذ النحرير والفنّ العبقري (السيد أحمد الهاشمي) قد تصفّحت مجموعتك المختارة التي أسميتها (جواهر الادب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فإذا هي دائرة معارف كبرى لا يستغني عنها أديب، كلها صحاح وعلم صراح : وما عسى أن يقال في وصف صحاح الجوهرية

إي وربّي إنه لكتاب صرّح على الخوض زبده، وأسفر عن الأدب، فلم تتلفّش بفضل مئزرها دعد، وانفردت سطوره عن فضل اختيار، وتعرى ليل عن بياض نهار، جلاه الفرناس، على صفحات القرطاس.

اختار في كتابه هذا من منتخبات الكتاب والشعراء ما يشفي الغلة، ويروي الصدى، ولقد أتى فيما انتقاه لكتابه الثمين بيوت الكلام من أبوابها، وميز أبقارها من أترابها، وأهدى إلى هؤلاء الشادين كلاماً يلطف كالهواء رقة، ويسيل كالماء عذوبة، يمتزج بالنفوس لنفاسه، ويشرب بالقلوب لسلاسته :

أحاديث لو صيغت لأهت بحسنها عن الوشي أو شمت لأغنت عن المسك « وبعد » فإن سنن مؤلفك العظيم القويم، ما مني بشين، فخشيت عليه العين. وما أطيب الحزامي في قول بعض القدامى :

ما كان أحوج ذا الكمال إلى عيب يوقيه من العين كيف لا، وقد عرفنا هذا المؤلف النابغة كاتباً مجيداً يقلّ الحز، ويطبق المفصل، له حلى من البلاغة يتقلّدها، فيكاد السحر يحسدها، يدل عليه بيانه، كما يدل على الجواد عنانه فمن عرفه فقد اكتفى - ومن قصر فلينشد :

قد عرفناك باختيارك إذ كان دليلاً على اللبيب اختياره فما أجدر كتابه أن يختص بسرعة المجال في المجالس، وخفة المدار في المدارس بل إن (هذا الكتاب يهدى للتي هي أقوم) جرى الله مؤلفه خير الجزاء وأثابه أحسن المثوبة، وأكثر في الأمة من أمثاله، لتبلغ من حسن القول والفعل غاية الكمال .

كتبه الفقير إليه جل شأنه في ليلة ١٢ ربيع الأول سنة ١٣١٨ هـ حمزة فتح الله.

٥ - وكتب إليّ صديقي المرحوم حسن افندي توفيق العدل المدرس بكلية (كمبردج) .

عزيزي حضرة الاستاذ الفاضل السيد احمد الهاشمي

تشرفت بكتابك المسمى (جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب) فوجدت بين اسمه ومسامه مناسبة اقتضاها طبعك السليم ، واتصالاً قريباً كاتصال الصديق الحميم . فما أنفست فرائده ، وأثمنت فوائده ، وأفصح مقالته ، وأفسح مجاله . صدر هذا الكتاب عن علم سابق ، وفكر ثاقب ، وذهن رائق ، ونفس صادق ، وروية ملأت تصانيفها المغارب والمشارق ، فأكرم به من كتاب (جواهر) تكونت من ألفاظ عذاب ، ومواهب لا تدرك بيد اكتساب ، فسبحان من يرزق من يشاء بغير حساب ، إذا تدبّره الأديب أغنته تلك الأفانين ، عن نعمات القوانين وإذا تأمله الأريب نزّه طرفه رياض البساتين ، قد سوّر على كل فنّ من البديع باب ، لا يدخله إلا من خص من البلاغة باللباب ؛ والله تعالى يؤتيه الحكمة وفصل الخطاب .

حسن توفيق العدل

المدرس بمدرسة المعلمين الناصرية بنظارة المعارف العمومية

وقال صاحب الدولة المرحوم سعد باشا زغلول مخاطباً مؤلف هذا الكتاب :
كتابك هذا يا أستاذ « فضل ونعمة » .

« ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

وإنه لدائرة معارف أدبية كبرى ، وأنفس كتاب ألف في اللغة العربية وتاريخ آدابها ، صدر عن تجربة وحكمة .
« ومن يؤتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً » .

كتبه : سعد زغلول

إليكم معشر الكتاب

أمّا بعد— حَفِظْكُمْ اللهُ يَا أَهْلَ صِنَاعَةِ الْكِتَابَةِ وَحَاطْكُمْ وَوَفَّقْكُمْ وَأَرْشِدْكُمْ فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ جَعَلَ النَّاسَ بَعْدَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ، وَمِنْ بَعْدِ الْمُلُوكِ الْمَكْرُمِينَ أَصْنَافاً وَإِنْ كَانُوا فِي الْحَقِيقَةِ سَوَاءً، وَصَرَفَهُمْ فِي صُنُوفِ الصَّنَاعَاتِ وَضُرُوبِ الْمَحَاوِلَاتِ إِلَى أَسْبَابِ مَعَاشِهِمْ وَأَبْوَابِ أَرْزَاقِهِمْ. فَجَعَلَ لَكُمْ مَعِشَرَ الْكِتَابَةِ فِي أَشْرَفِ الْجِهَاتِ أَهْلَ الْأَدَبِ وَالْمَرْوَةِ وَالْعِلْمِ وَالرَّوَايَةِ. بِكُمْ تَنْتَظِمُ لِلْخِلَافَةِ مَحَاسِنُهَا، وَتَسْتَقِيمُ أُمُورُهَا، وَبِنَصَائِحِكُمْ يُصْلِحُ اللَّهُ لِلْخَلْقِ سُلْطَانَهُمْ، وَيَعْمُرُ بُلْدَانَهُمْ. لَا يَسْتَغْنِي الْمَلِكُ عَنْكُمْ، وَلَا يَوْجِدُ كَافٍ إِلَّا مِنْكُمْ. فَمَوْقِعُكُمْ مِنَ الْمُلُوكِ مَوْقِعُ أَسْمَاعِهِمْ الَّتِي بِهَا يَسْمَعُونَ، وَأَبْصَارِهِمُ الَّتِي بِهَا يُبْصِرُونَ، وَالسِّنِينَ الَّتِي بِهَا يَنْطِقُونَ، وَأَيْدِيهِمُ الَّتِي بِهَا يَبْطِشُونَ^١، فَأَمْتَعَكُمْ^٢ اللَّهُ بِمَا خَصَّكُمْ مِنْ فَضْلِ صِنَاعَتِكُمْ وَلَا نَزَعَ عَنْكُمْ مَا أَضْفَاهُ^٣ مِنَ النِّعْمَةِ عَلَيْكُمْ، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الصَّنَاعَاتِ كُلِّهَا أَحْوَجَ إِلَى اجْتِمَاعِ خِلَالِ الْخَيْرِ الْمَحْمُودَةِ وَخِصَالِ الْفَضْلِ الْمَذْكُورَةِ الْمَعْدُودَةِ مِنْكُمْ.

أَيْهَا الْكِتَابَةُ : إِذَا كُنْتُمْ عَلَى مَا يَأْتِي فِي هَذَا الْكِتَابِ مِنْ صِفَتِكُمْ، فَإِنَّ الْكَاتِبَ يَحْتَاجُ مِنْ نَفْسِهِ وَيَحْتَاجُ مِنْهُ صَاحِبُهُ الَّذِي يَثْقُ بِهِ فِي مُهِمَّاتِ أُمُورِهِ أَنْ يَكُونَ حَلِيماً فِي مَوْضِعِ الْحِلْمِ فَهِمّاً فِي مَوْضِعِ الْحُكْمِ، مِقْدَاماً فِي مَوْضِعِ الْإِقْدَامِ، مُحْجَاجاً فِي مَوْضِعِ الْإِحْجَامِ^٤، مُؤْتِراً^٥ لِلْعَفَافِ وَالْعَدْلِ وَالْإِنْصَافِ، كَتُوماً لِلْأَسْرَارِ، وَفِيّاً عِنْدَ الشَّدَائِدِ، عَالِماً بِمَا يَأْتِي مِنَ التَّوَازُلِ، يَضَعُ الْأُمُورَ

(١) يدافعون

(٢) أبقاكم

(٣) أفاضد

(٤) التأخر

(٥) مختاراً له

مَوَاضِعِهَا ، وَالطُّوَارِقَ أَمَا كَيْنَهَا قَدْ نَظَرَ فِي كُلِّ فَنٍّ مِنْ فَنُونِ الْعِلْمِ فَأَحْكَمَهُ
فَإِنْ لَمْ يَحْكِمْهُ أَخَذَ مِنْهُ بِمَقْدَارٍ مَا يَكْتَفِي بِهِ ، يَعْرِفُ بِفَرِيضَةِ عَقْلِهِ وَحُسْنِ أَدَبِهِ
وَفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ مَا يَرُدُّ عَلَيْهِ قَبْلَ وَرُودِهِ ، وَعَاقِبَةُ مَا يَصْدُرُ عَنْهُ قَبْلَ صُدُورِهِ ،
فِيُعَدُّ لِكُلِّ أَمْرٍ عُدَّتَهُ^١ وَعَتَادَهُ ، وَيَهَيِّئُ لِكُلِّ وَجْهِ هَيْئَتَهُ وَعَادَتَهُ .
فَتَنَافَسُوا يَا مَعْشَرَ الْكِتَابِ صُنُوفَ الْأَدَابِ ، وَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَابْتَدَءُوا بِعِلْمِ كِتَابِ
اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالْفَرَائِضِ ثُمَّ الْعَرَبِيَّةِ ، فَإِنَّهَا ثِقَافٌ^٢ أَلَسْتُمْكُمْ ، ثُمَّ أَحْيَدُوا الْخَطَّ
فَإِنَّهُ حَلِيَّةٌ كُتِبَتْكُمْ ، وَارْتَوُوا الْأَشْعَارَ وَاعْرِفُوا غَرِيبَهَا وَمَعَانِيَهَا وَأَيَّامَ الْعَرَبِ
وَالْعَجَمِ وَأَحَادِيثَهَا وَسِيرَهَا ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُعِينٌ لَكُمْ مَا تَسْمُو إِلَيْهِ هِمَّتُكُمْ ، وَلَا
تُضَيِّعُوا النَّظَرَ فِي الْحِسَابِ فَإِنَّهُ قَوَامٌ^٣ كُتِّبَ الْخَرَجُ ، وَارْتَبُوا بِأَنْفُسِكُمْ عَنْ
الْمَطَامِعِ سَنِيَّتِهَا^٤ وَدُنْيَاهَا ، وَسَفَسَافِ^٥ الْأُمُورِ وَمَحَاقِرِهَا فَإِنَّهَا مَزَلَّةٌ لِلرَّقَابِ
مُفْسَدَةٌ لِّلْكِتَابِ ، وَنَزْهُوا صِنَاعَتَكُمْ عَنِ الدَّنَاءَةِ وَأَرْبَأُوا^٦ بِأَنْفُسِكُمْ عَنِ السَّعَايَةِ
وَالنَّمِيمَةِ وَمَا فِيهِ أَهْلُ الْجَهَالَاتِ . وَإِيَّاكُمْ وَالْكِبَرَّ وَالصَّلَفَ وَالْعِظَمَةَ فَإِنَّهَا
عَدَاوَةٌ^٧ مُجْتَلِبَةٌ مِنْ غَيْرِ إِحْنَةٍ^٨ وَتَحَابُّوا فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فِي صِنَاعَتِكُمْ وَتَوَاصَوْا
عَلَيْهَا بِالَّذِي هُوَ أَلْيَقُ بِأَهْلِ الْفَضْلِ وَالْعَدْلِ وَالنُّبُلِ^٩ مِنْ سَلَفِكُمْ ، وَإِنْ نَبَأَ^{١٠}
الزَّيْمَانُ بِرَجُلٍ مِنْكُمْ فَاعْظَمُوا عَلَيْهِ وَوَأَسَّوْهُ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْهِ حَالَهُ ، وَيَثُوبَ^{١١}
إِلَيْهِ أَمْرُهُ ، وَإِنْ أَقْعَدَ أَحَدًا مِنْكُمْ الْكِبَرَ عَنْ مَكْسَبِهِ وَلِقَاءِ إِخْوَانِهِ فَزُورُوهُ
وَعِظَّمُوهُ وَشَاوَرُوهُ وَاسْتَظْهَرُوا بِفَضْلِ تَجَرُّبَتِهِ وَقَدِيمِ مَعْرِفَتِهِ ، وَلْيَكُنْ
الرَّجُلُ مِنْكُمْ عَلَى مَنْ اصْطَنَعَهُ وَاسْتَظْهَرَ بِهِ لِيَوْمِ حَاجَتِهِ إِلَيْهِ أَحْفَظُ مِنْهُ عَلَى
وَلَدِهِ وَأَخِيهِ ، فَإِنْ عَرَضَتْ فِي الشُّغْلِ مَحْمُودَةٌ^{١٢} فَلَا يَصْرِفُهَا إِلَّا إِلَى صَاحِبِهَا ، وَإِنْ
عَرَضَتْ مَذْمُومَةٌ^{١٣} فَيَحْتَمِلُهَا هُوَ مِنْ دُونِهِ ، وَلْيَحْذَرْ السَّقَطَةَ وَالزَّلَّةَ وَالْمَلَلَ عِنْدَ

(١) مَا أَعْدَدْتَهُ لِحَوَادِثِ الدَّهْرِ (٢) الْعِدَّةُ (٣) تَعْدِيلُهَا (٤) نِظَامُ

(٥) رَفِيعُهَا (٦) الرَّدِيءُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ (٧) أَعْرَضُوا وَفَرُّوا

(٨) إِضْمارُ حَقْدٍ (٩) الرِّفْعَةُ وَالسُّمُو (١٠) قَصْرٌ وَنَقْرٌ (١١) يَرْجِعُ

تغيّر الحال فإن الغيب إليكم معشر الكتّاب أسرع منه إلى الفراء^١ وهو لكم أفسد منه لها ، فقد علمتم أنّ الرّجل منكم إذا صحّبه الرّجل يبدّل له من نفسه ما يجب له عليه من حقّه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائيه وشكره ، واحتماله وخيره ونصيحته وكيّان سرّه وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ، ويصدق ذلك فعلمه له عند الحاجة اليه والاضطرار إلى ما لديه ، فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم في حالتي الرّخاء والشّدّة والحرمان والمواساة والإحسان والسرّاء والضّرّاء ، فنيّعت الشّيمة هذه لمن وسّم بها من أهل هذه الصّناعة الشريفة ، وإذا ولي الرّجل منكم أو صيّر اليه من أمر خلق الله أمرٌ فليرقب الله عزّ وجلّ وليؤثر طاعته وليكن على الضّيف رقيقاً ، وللمظلوم منصفاً فإنّ الخلق عيال الله ، وأحبّهم اليه أرفقهم بعياله ، ثم ليكن بالعدل حاكماً وللأشراف مكرماً وللقيّ^٢ موفّراً وللبلاد عامراً ، وللرعيّة متألّفاً ، وعن أذاهم متخلّفاً . وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً وفي سجلّات خراجهِ واستقصاء حقوقه دقيقاً ، وإذا صحّب من أحدكم رجلاً فليختبر خلّاقته ، فإذا عرّف حسنّها وقبيحها أعانه على ما يوافقّه الحسّن ، واحتال على صرفه عما يهواه من القبيح بالطف حيلة وأجمل وسيلة ، وقد علمتم أنّ سائس البهيمة إذا كان بصيراً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً لم يهجنها إذا ركبها وإن كانت شَبوباً اتّقاها من بين يديها وإن خاف منها شروداً توقّأها من ناحية رأسها وإن كانت حروناً قمع هواها برقيق في طريقها^٣ فإن استمرّت عطفها يسيراً فيسّاس^٤ له قيادها ، وفي هذا الوصف من السباسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم .

والكاتب بفضل أدبه وشريف صنّعه ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاول من الناس وينظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق بصاحبه ، ومداراته

(١) الجلد ، لأنه سريع العطب

(٢) الغنيمة والخراج

(٣) في مرة من المرات

(٤) وفي نسخة يسلس اي ينقاد ويسهل

وتقويم أوده من سائس البهيمه التي لا تفقه جواباً ولا تعرف صواباً ولا تفهم خطاباً إلا بقدر ما يُصيرها إليه صاحبها الرّاكب عليها ؛ ألا فأمعنوا رَحِمَكُمُ اللهُ في النظرِ ، واعملوا فيه ما أمكنكم من الرّوية والفكر تأمنوا بإذن الله من صِحْبَتِ مُؤَهِّ النِّبُوَّةِ^١ والاستِثقال والجفوة وبصير منكم إلى الموافقة وتصيروا منه إلى المؤاخاة والشفقة إن شاء الله - ولا يحاوزنّ الرّجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه ، فإنكم مع ما فضّلكم به الله من شرف صنعكم خدمة^٢ لا تحمّلون في خدمتكم على التقصير وحفظة^٣ لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير - واستعينوا على أفعالكم بالقصد في كلّ ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف^٤ فإنهما يعقبان الفقر ويدلان الرّقاب ويفضحان اهلها ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب، وللأمور أشباه^٥ وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتلف^٦ أعمالكم بما سبقت إليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير اوضحها بحجة^٧ وأصدقها حجة^٨ وأحمدوا عاقبة واعلموا ان للتدبير آفة^٩ متلفة^{١٠} وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن إنفاذ علمه ورؤيته ، فليقصد^{١١} الرّجل في مجلسه قصد الكافي من منطقته ، وليؤجز^{١٢} في ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فإن ذلك مصلحة^{١٣} لفعله ومدفعة^{١٤} للشاغل من إكثاره .

وليضرع^{١٥} إلى الله في صلة توفيقه وإمداده بتسديده مخافة وقوعه في الغلط المضرب بدنه وعقله وأدبه فإنه إن ظن منكم ظان^{١٦} أو قال قائل^{١٧} إن الذي برز من جميل صنعته وقوة حركته إنما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه أو مقالته إلى ان يكله الله عز وجل إلى نفسه فيصير منها إلى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف .

ولا يقلُّ أحدٌ منكم إنه أبصرُ بالأمور ، وأحلُّ لعبِ التدبير من مرافقه
 في صناعته ومُصاحبه في خدمته ، فإنَّ أعقلَ الرجلين عند ذوي الألباب مَنْ
 رمى بالعُجبِ وراء ظهره ، ورأى أنَّ صاحبه أعقلُ منه وأجملُ في طريقته .
 وعلى كلِّ واحد من الفريقين أن يعرف فضلَ نعم الله عليه جل ثناؤه من
 غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا تكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه
 وعشيرته . وحمدُ الله واجبٌ على الجميع ، وذلك بالتواضع لعظمته ، والتذلل
 لعزته ، والتحدث بنعمته .

وأنا أقول في كتابي هذا ما سبق به المثلُ (مَنْ تَلَزَمَهُ النَّصِيحَةُ يَلْزَمَهُ
 الْعَمَلُ) وهو (جواهر) هذا الكتاب وغُرَّة كلامه بعد الذي فيه من ذكر الله
 عزَّ وجلَّ . فلذلك جعلته آخره وتمننه به ؛ تولانا الله وإياكم يا معشر الكتَّبة
 بما يتولى به مَنْ سبق علمه بإسعاده وإرشاده ، فإن ذلك اليه وبيده ، والسلام
 عليكم ورحمة الله وبركاته .

عبد الحميد الكاتب المتوفى سنة ١٣٢ هـ

(١) هو عبد الحميد بن يحيى العامري ، كاتب دولة مروان بن محمد آخر خلفاء
 الأمويين — قتله السفاح ١٣٢ هـ .

تمهيد في مبادئ علم الأدب

الأدب عبارة "عن معرفة ما يُختَرَز به من جميع أنواع الخطأ وهو قسبان؛ طبيعيٌ وكسبيٌ - فالطبعي ما فطرَ عليه الإنسان من الأخلاق الحسنة والصفات الحمودة كالكرم والحلم - والكسبي ما اكتسبه بالدرس والحفظ والنظر وهو المقصود لنا في هذا الكتاب فحينئذ يعرف بأنه "علمٌ صناعيٌ" تعرف به أساليب الكلام البليغ في كلِّ حال من أحواله ، وهو المدعو (بعلم الأدب) .
وموضوعه الكلام المنظوم والمنثور من حيث فصاحته وبلاغته .
وغايته الإجابة في فني المنظوم والمنثور على أساليب العرب ، وتهذيب العقل ، وتذكية الجنان .

وفائدته أنه يعصم صاحبه من زلة الجهل ، وأنه يروّض الأخلاق ويلين الطباع وأنه يعين على المروءة ، وينهض بالهيم إلى طلب المعالي والأمور الشريفة .
(وأرْكانه أربعة) الأول : قوى العقل الغريزية ، وهي خمسة :
الذكاء ١ ، والخيال ٢ ، والحافظة ٣ ، والحس ٤ ، والذوق ٥ .
الثاني : معرفة الأصول وهي مجموع قوانين الكتابة ، وفيها تبيان طرق حُسن التأليف وضروب الإنشاء وفنون الخطابة .

(١) الاستعداد التام لإدراك العلوم والمعارف بالفكر وفي كتب اللغة الذكاء عبارة عن حدة الفؤاد وسرعة الفطنة (٢) قوة باطنة تحفظ صور المحسوسات بعد غيبوبة المادة وهو من أكبر أسباب النجاح في فن الكتابة (٣) قوة من شأنها حفظ ما يدركه العقل من المعاني فتدكره عند الحاجة ولذلك سميت ذاكرة (٤) قوة يتأثر بها الإنسان من صور المدركات كاللذة والألم وهو من شروط الكتابة إذ يعين الكاتب مما يحدث فيه من التأثير على رسم صور المحسوسات رسماً يحكي حقيقة قدر إذ ذاك على تحريك العواطف واستمالة القلوب ، ألا ترى أن الكلام العذب إذا حل في القلب أحدث فيه حركة وهزة (٥) قوة غريزية لها اختصاص بإدراك لطائف الكلام ومحاسنه الخفية وتحصل بالمثابة على الدرس وبالممارسة لكلام البلغاء وتكراره على السمع والتفطن لخواص معانيه وتراكيبه وتنزيه العقل والقلب عما يفسد الأخلاق والآداب .

وتنقسم هذه الأصول إلى قسمين: عامة وخاصة، فالعامة (كالنأليف الأدبية من منظوم ومنثور في أغراض شتى) والخاصة (كالنأليف المنفردة بالرسائل أو بالأمثال).

الثالث - مطالعة تصانيف البلغاء بالتأني والتبصر فيها، ليدّخر الكاتب كل لفظ مؤنق شريف وكل معنى بديع بحيث يتصرف بهما عند الضرورة. وشروطها ثلاثة (الأول) أن يستقلّ المطالع بعض علماء اللغة وأئمة الأدب فيقتصر على درسه حتى ينسج على منوالهم. (الثاني) أن يطيل النظر في هذه المطالعة ويردد مراراً ما استحسّنه من تصانيفهم كي يروض الذهن في حلبة^١ سباقهم فيتقّف على غريب أسلوبهم وعجيب تراكيبيهم (الثالث) أن يلتقي منها شيئاً مما استجاده^٢ من اللفظ الحرّ والتراكيب الصحيحة والمعاني البليغة ذُخراً لذاكرته وميماً^٣ لقرينته

الرابع - الارتياض وهو التدرب بوجوه الإنشاء بأن تتوسّع في شرح بعض المعاني فتبينه بأوجه شتى وتُنمّقه بأشكال البديع وبأن تجتهد في وضع بعض مواضيع وجيزة فتصوغ ثارة وصف مدينة أو مدحاً أو تهنية، وأخرى تسرد مثلاً أو تسبك رواية إلى غير ذلك - وأن تحذو حذو المتقدمين في أوضاعهم باستعمال ألفاظهم ومعانيهم وبأن تحلّ النظم فتأتي به نثراً أنيقاً، تعقد النثر فتصوغه صوغاً رشيقاً^٥

مقدمة في علم الإنشاء

الإنشاء لغة: الشروع والإيجاد والوضع، تقول: أنشأ الغلامُ يمشي إذا سَرَحَ في المشي، وأنشأ الله العالم: أوجدهم، وأنشأ فلان الحديث: وضعه. واصطلاحاً علم يُعرف به كيفية استنباط المعاني وتأليفها مع التعبير عنها

- (١) الميدان (٢) وجده جيداً (٣) حديدة تكون في مؤخر خف الرائد للمهر
(٤) معجباً (٥) حسناً

بلفظ لا تقي بالمقام وهو مستمد من جميع العلوم. وذلك لأن الكاتب لا يستثنى صنفاً من الكتابة فيخوض في كل المباحث ويتعمد الإنشاء في كل المعارف البشرية. وينحصر المقصود منه في ثلاثة أبواب وخاتمة وملحق.

الباب الأول : في أصول الإنشاء

وهي أربعة : موادة وخواصه وطبقاته ومحاسنه .

أما موادة فثلاث : الأولى الألفاظ الفصيحة^١ الصريحة^٢، الثانية المعاني^٣، الثالثة إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، ومرجعها إلى الفصاحة وعلمي المعاني والبيان

(١) الألفاظ البينة الظاهرة المتبادرة إلى الفهم والمأنوسة الاستعمال لمكان حسنها .
(٢) الألفاظ التي تدل على نفس المطلوب بحيث تكون كقالب لمعناها ويتوصل إلى ذلك بمعرفة المترادفات والصفات والأبدال .

(٣) بحيث يكون المعنى واضحاً أي سهل المأخذ خالياً من اللبس والإشكال كقول الأخطل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الاعمال
وأن يكون المعنى سديداً أي أن يكون القول مطابقة للواقع كقول لبيد :
ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
وأن يكون مطابقاً لمقتضى الحال كقول أبي العتاهية :
إذا أنت لم تزرع وأبصرت حاصداً ندمت على التفريط في زمن البذر
ولهذا قال أبو الفتح البستي :
تكلم وسدد ما استطعت فإنما كلامك حي والسكوت جماد
فإن لم تجد قولاً سديداً تقوله فصمتك عن غير السداد سداد
والمراد بمقتضى الحال الأمر الذي يقتضيه الداعي إلى المتكلم على وجه مخصوص
الناشئ عن مراعاة أحوال المتكلم والمخاطب ومقام الكلام - والمعنى أما أن
يكون مبتكراً أي مخترعاً كقول ابن النبيرة :

الناس للموت كخيل الطراد فالسابق السابق منها الجواد
وكقول آخر في وصف الشتاء :

والنار فأكهة الشتاء فمن يرد أكل الفواكه شاتياً فليصطل

= أو دقيقاً فهو ما لطف مأخذه وبعد مرامه ودل على توقد فهم قائله كقول ابن عنين في فخر الدين الرازي وكانت قد دخلت إلى مجلسه حمامة خلفها صقر يريد صيدها فاستجارت بحجرتة :

جاءت سليمان الزمان حمامة والموت يلمح في جناحي خاطف
من أنبأ الورقاء أن محلكم حرم ، وأنك ملجأ للخاطف
أو فطرياً وهو ما أورده الطبع السليم بلا تصنع ولا إعمال روية ودل على
بعض السذاجة في قائله ، كقول أحدهم وقد سئل هلا تسافر بجرأ فأنشد :
لا أركب البحر أخشى عليّ منه المعاطب
طين أنا ، وهو ماء ، والطين في الماء ذائب
وكقول الصياد :

سبحان ربي يعطي ذا ويحرم ذا هذا يصيد وهذا يأكل السمكه
أو ليناً وهو ما كان لطيف التعبير سلس الألفاظ دالاً على أشياء تطرب
المسامع وتبهج القلب كقوله :
إن السماء إذا لم تبك مقلتها لم تضحك الأرض عن شيء من الزهر
أو نافذاً وهو ما وصل إلى الفهم بسرعة البرق وأخذ لحدته ومضائه بمجامع
القلب كقول عنتره :

وما دانيت شخص الموت إلا كما يدنو الشجاع من الجبان
أوجامعاً وهو ما أفاد باللفظ القليل المعنى الكثير كقول أبي تمام في المعتصم :
تراه إذا ما جثته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله
تعود بسط الكف حتى لو أنه أراد انقباضاً لم تطعه أنامله
وكقول المتنبي :

قد شرف الله أرضاً أنت ساكنها وشرف الناس إذ سواك إنساناً
أومتيناً وهو ما اتسم بالضبط والحزم وتمكن من ذهن سامعه كقول أبي العتاهية :
لدوا للموت وابنوا للخراب فكلكم يصير إلى ذهاب
والموغل والإيغال هو ما فتن بسموه القلب وسبى العقل وبلغ الغاية القصوى
من البلاغة ، كما قال قائل على لسان ربه :
= (٢ - جواهر الأدب)

وأما خواصه فهي محاسنه السبعة ، وهي ؛ أولاً : الوضوح^١ بأن يختار المفردات البينة الدالة على المقصود أن يعدل عن كثرة العوامل^٢ في الجملة الواحدة ، وأن يتحاشى الالتباس في استعمال الضمائر ، وأن يسبك الجمل سبكاً جلياً بدون تعقيد والتباس ، وأن يتحاشى كثرة الجمل الاعتراضية .
وثانياً : الصراحة بأن يكون الإنشاء^٣ سالماً من ضعف التأليف و غرابة التعبير بحيث يكون الكلام حراً مهذباً تناسب ألفاظه المعاني المقصودة كما قيل :
تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائحات المعاني
ويكون الكلام صريحاً بانتقاء الألفاظ الفصيحة والمفردات الحرة الكريمة وكذا بإصابة المعاني وتنقيح العبارات مع جودة مقاطع الكلام وحسن صوغه وتأليفه . وكذا بمراعاة الفصل والوصل وهو العلم بمواقع العطف والاستئناف والاهتداء إلى كيفية إيقاف حروف العطف في مواقعها .
وثالثاً : الضبط وهو حذف فضول الكلام وإسقاط مشتركات الألفاظ كقول قيس بن الخطيم المتوفى سنة ٦١٢ م :

= سألت عبدي وأنت في كنفِي وكل ما قلت قد سمعناه
سلني بلا خشية ولا رهب ولا تخف ، إني أنا الله
واعلم أنه ليس لهذه المعاني مصدر خاص ، وإنما يحصل عليها الأديب من مطالعة كتب البلغاء وإعمال الفكرة الطويلة والتبصر في الموضوع الذي يقصد وصفه ليستخرج منه المعاني اللاتقة به ، وإنما يلتجئ إلى هذه المعاني عند مسيس الحاجة وذلك يختلف باختلاف أحوال المتكلم ، ومقام المخاطب ، ومواقع الكلام .
(١) كقوله :

ليس الجمال بأثواب تزيننا إن الجمال جمال العلم والأدب
ليس اليتيم الذي قدمته والده بل اليتيم يتيم العلم والحسب
(٢) كقول بعضهم :

* أقسم لا أعود أقوم أخطب فيكم *

أَرَى الْمَوْتَ لَا يَرُوعِي عَلَى ذِي قَرَابَةٍ وَإِنْ كَانَتْ فِي الدُّنْيَا عَزِيزًا بِمَقْعَدٍ
لَعَمْرُكَ مَا الْأَيَّامُ إِلَّا مُعَارَاةٌ فَمَا اسْتَطَعْتَ مِنْ مَعْرِوْفَهَا فَتَزَوَّدْ
ورابعاً : الطَّبَعِيَّةُ بِأَنْ يَخْلُو الْكَلَامُ مِنَ التَّكْلِيفِ وَالتَّصْنُوعِ كَمَا قَالَ فِي
رِثَاءِ ابْنِهِ أَبُو الْعَتَاهِيَةِ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٢١١ هـ :

بَكَيْتَكَ يَا بُنَيَّ بِدَمْعٍ عَيْنِي فَلَمْ يُغْنِ الْبُكَاءُ عَلَيْكَ شَيْئاً
وَكُنْتَ فِي حَيَاتِكَ لِي عِظَاتٌ وَأَنْتَ الْيَوْمَ أَوْعِظُ مِنْكَ حَيًّا
وَذَلِكَ لِأَنَّ مَنْ تَطَبَّعَ بِغَيْرِ طَبْعِهِ نَزَعَتْهُ الْعَادَةُ حَتَّى تَرُدَّهُ إِلَى طَبْعِهِ كَمَا أَنَّ
الْمَاءَ إِذَا اسْتَخْنَتْهُ وَتَرَكْتَهُ عَادَ إِلَى طَبْعِهِ مِنَ الْبُرُودَةِ وَحِينَئِذٍ فَالطَّبْعُ أَمْلَكَ .
وخامساً : السَّهُولَةُ بِأَنْ يَخْلُصَ الْكَلَامُ مِنَ التَّعَسُّفِ فِي السَّبْكِ وَأَنْ يَخْتَارَ مَا
لَانَ مِنْهَا كَمَا قَالَ فِي الْأَشْوَاقِ يَهْيَاؤُ الدِّينَ زَهِيرَ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٦٥٦ هـ :

شَوْقِي إِلَيْكَ شَدِيدٌ كَمَا عَلِمْتَ وَأَزِيدُ
فَكَيْفَ تَنْكَرُ حَبًّا بِهٍ ضَمِيرُكَ يَشْهَدُ
وَأَنْ تُهَذَّبَ الْجُمْلُ وَأَنْ يَأْتَلَفَ اللَّفْظُ مَعَ مُرَاعَاةِ النَّظِيرِ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ
فِي الْوَدَاعِ :

فِي كَنَفِ اللَّهِ ظَاعِنٌ ظَعَنًا أَوْدَعَ قَلْبِي وَدَاعَهُ حَزَنًا
لَا أَبْصَرْتُ مُقْلَتِي حَاسِنَةً إِنْ كُنْتُ أَبْصَرْتُ بَعْدَهُ حَسَنًا
قَالَ بَعْضُ الْبُلَغَاءِ : أَحْذَرُكُمْ مِنَ التَّقْمِيرِ وَالتَّعَمُّقِ فِي الْقَوْلِ وَعَلَيْكُمْ بِمَحَاسِنِ
الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي الْمُسْتَخَفَّةِ الْمُسْتَمْلَحَةِ فَإِنَّ الْمَعْنَى الْمَلِيحَ إِذَا كُسِّيَ لَفْظًا حَسَنًا
وَأَعَارَهُ الْبَلِيغُ مَخْرَجًا سَهْلًا كَانَ فِي قَلْبِ السَّامِعِ أَحْلَى وَلِصَدْرِهِ أَمْلَأُ - قَالَ الْبُسْتِي :
إِذَا انْقَادَ الْكَلَامُ فَقْدَهُ عَفْوًا إِلَى مَا تَشْتَهِيهِ مِنَ الْمَعَانِي
وَلَا تُكْرَهُ بَيَانُكَ إِنْ تَأْتَى فَلَا إِكْرَاهَ فِي دِينِ الْبَيَانِ
وَسَادِسًا : الْإِتْسَاقُ بِأَنْ تَتَنَاسَبَ الْمَعَانِي كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ٣٤٦ هـ :

وَمَا زِلْتُ حَتَّى قَادِنِي الشُّوقُ نَحْوَهُ ١ يُسَايِرُنِي فِي كُلِّ رَكْبٍ لَهُ ذِكْرٌ ٢
وَأُسْتَكْبِرُ الْأَخْبَارَ قَبْلَ لِقَائِهِ ٣ فَلَمَّا التَّقَيْنَا صَغِيرَ الْخَبَرِ الْخُبْرُ ٤
وَسَابِعًا: الْجَزَالَةَ وَهِيَ إِبْرَازُ الْمَعَانِي الشَّرِيفَةِ فِي مَعَارِضَ مِنَ الْأَلْفَاظِ الْأَنِيقَةِ ٥
اللطيفة كقول الصَّابِيءِ المتوفى سنة ٣٨٤ هـ :
لَكَ فِي الْحَافِلِ مَنْطِقٌ يُشْفِي الْجَوَى ٦ وَيَسُوعُ فِي أَذُنِ الْأَدِيبِ سُلَافُهُ ٧
فَكَأَنَّ لَفْظَكَ 'لَوْلُو' مَتَنَخَّلٌ ٨ وَكَأَنَّآ آذَانَنَا أَصْدَافُهُ ٩
وَأَمَّا عُيُوبُهُ فَسَبْعَةٌ. الْهُجْنَةُ بِأَنْ يَكُونَ اللَّفْظُ سَخِيفًا وَالْمَعْنَى مُسْتَقْبَحًا كَقَوْلِهِ
وَإِذَا أَدْنَيْتَ مِنْهُ بِصَلَا غَلَبَ الْمُسْكُ عَلَى رِيحِ الْبَصْلِ
وَالْوَحْشِيَّةُ كَوْنُ الْكَلَامِ تَجُّهُ الْأَسْمَاعِ وَتَنْفَرُ مِنْهُ الطَّبَاعُ كَقَوْلِهِ :
وَمَا أَرْضَى لِمَقْلَتِهِ بِحُلْمٍ إِذَا انْتَبَهَتْ تَوَهَّمَهُ ابْتِشَاحًا ١٠
وَالرَّكَابَةُ أَيُّ ضَعْفِ التَّأْلِيفِ وَسَخَافَةِ الْعِبَارَةِ كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ المتوفى سنة ٣٤٦ هـ :
إِنْ كَانَ مِثْلُكَ كَانَ أَوْ هُوَ كَأَنْ فَبَرِئْتُ حَيْلُذَ مِنَ الْإِسْلَامِ
وَالسَّهْوُ عِبَارَةٌ عَنْ ضَعْفِ الْبَصَرِ بِمَوَاقِعِ الْكَلَامِ كَقَوْلِ الْمُتَنَبِّيِّ يُشَبِّهَهُ مَمْدُوحُهُ
بِاللَّهِ تَعَالَى (وَهُوَ كَفَرٌ) :
تَنْقَاصُ الْأَفْهَامِ عَنْ إِدْرَاكِهِ مِثْلُ السَّيِّدِ الْأَفْلَاكِ مِثْنُهُ وَالْدُّنْيَى ١١
وَالْإِسْهَابُ أَيُّ الْإِطَالَةِ الزَّائِدَةِ الْمُمِيلَةِ فِي شَرْحِ الْمَادَّةِ وَالْعُدُولِ إِلَى الْحَشْوِ كَقَوْلِهِ :
وَأَعْنِي فَتَى لَمْ تَذَرِ الشَّمْسَ طَالِعَةً ١٢ يَوْمًا مِنَ الدَّهْرِ إِلَّا ضَرًّا أَوْ نَفْعًا

(١) خبر زلت يسايرني، والركب جماعة الراكبين، أي ما زلت أسمع ذكره
في كل ركب صحبته حتى قادني الشوق إلى زيارته، والمتنبي يمدح علياً الأنطاكي ؛
ومعنى البيت الثاني : إني ما زلت أستعظم ما يذكر لي من أخباره حتى لقيته
فصغرت عندي تلك الأخبار بالنسبة إليه لأنني وجدته أعظم مما وصفوا. (٢) المعجبة.
(٣) الحرقعة . (٤) الحمرة . (٥) مصطفى ومختار . (٦) يقول : وإن حدثه حلم
في نومه عن شكري له فلا أرضى به لعله يتوهم كذباً . (٧) الدنيا .

والجفاف والإيجاز والاختصار المخل كقول الحارث بن حِزَّة المتوفى سنة ٢٣٢هـ :
والعيش خيرٌ في ظلال الذوك^١ من عاش كدًا^٢
وَوَحْدَةً السِّياق التَّزام أسلوب واحد من التعبير وطريقة واحدة من التركيب
بحيث تكون للأذهان كلالًا^٣ وللقلوب ملالًا^٤.

والكلام عيوبٌ كثيرة منها اللحنُ ومخالفة القياس الصُّرْفُ في وَضع التَّأليف
والتعقيدُ اللفظي والمعنوي والتكرار وتتابعُ الإضافات إلى غير ذلك من
الأشياء التي تكون ثقيلة على اللسان مخالفةً للذوق والعُرْفُ غريبة على السَّمْعُ .
وأما طبقاته فنثلاثُ (الأولى الطبقة السُّفلى) ومرجعُها إلى الإنشاء السَّاذج
وهو ما عَرَى عَنْ رقة المعاني وجَزَّ أَلْفاظًا والتأنق في التعبير فهو بالكلام
العمادي أشبهُ لسهولة مأخذه وقُرب مورده، ويُستعمل في المحافل العمومية
ليقرب منال المعاني على جمهور السامعين وفي المقالات والتأليف العلمية لينصرف
الذهن إلى أخذ المعنى وليس دونه حائلٌ من جهة العبارة، وفي المكاتبات الأهلية
والرحلات والأسفار والأخبار وما شابه ذلك (الثانية الطبقة العليا) ومرجعها إلى
الإنشاء العالي، وهو ما شُحِنَ بغيرِ الألفاظ، وتعلّق بأهداب المجاز ولطائف
التخيّلات وبدائع التشابيه فيفتن ببراَعته المَقُولُ وَيَسْحَرُ الألباب ويصلح
في التَّرسُّل بين بُلغاء الكُتّاب وفي المجالس الأدبية وديباجة بعض التصانيف
إلى غير ذلك من المواضع التي من شأنها الزجر وتحريك العواطف والحماة .

(١) بفتح النون وضمها المحق. (٢) تعبا. (٣) سيئة. (٤) سامة.
(٥) حكى عن الصفي الحلي أن بعض الفضلاء بلغه أنه اطلع على ديوانه وقال
لا عيب فيه سوى أنه خال من الألفاظ الغريبة فأجابه الصفي :

إنما الحيزبون والدردبيس والطخا والنقاخ والعلطيس
لغة تنفر السامع منها حين تروى وتشمئز النفوس
وقبيح أن يسلك النافر الوحشي منها ويترك المأنوس
إن خير الألفاظ ما طرب السامع منه وطاب فيه المجلس.
ولذيذ الألفاظ مغناطيس

(الثالثة الطبقة 'الوسطى') ومَرَّجِعها إلى الإنشاء الأنيق^١ وهو ما تَوَسَّط بين الإنشاء العالي والساذج فيأخذ من الأول رَوْنَقَه وَرَشاَفَتَه ومن الثاني جِلاءه وسلاسته - وَيَصْلُحُ في مُراسلات ذَوِي المراتب وفي الروايات المُنمقة والأوصاف المُسهبَة ، وفي خُطب المحافل وما أشبه ذلك^٢ .
وأما محاسنه فهي أساليب وطرائق معلومة وُضعت لتزَيِّن الكلام وتُنمِقه لغرض أن يتمكن البليغ من ذِهن السامع بما يورده من أساليب الكلام المُستحسنة فيحرك أهواء النفس ويثير كامن حركاتها ، والغرض أن يكون قوله أشد اتصالاً بالعقل وأقرباً للادراك بتصرفه في فنون البلاغة .

كيفية الشروع في عمل مواضيع الإنشاء

إذا عن^٣ لك أو اقترح عليك إنشاء موضوع فأنت مَنوط^٤ ، إذا بأمرين :
التفكير أولاً ، والكتابة ثانياً . فإذا أنعمت الفكر ملياً^٥ في أجزاء الموضوع بعد استيلاء الإحساس بها على قلبك ، وقلبتبها على جميع الأوجه الممكنة فيها تولد في خيالك لكل جزء عدة صور^٦ تتفاوت في تأديته كتفاوت صور المنظوم في الحسن والقبح ، فبعضها يستميل النفوس بتأثيره في الحواس ، وبعضها

(١) المحب .

(٢) الذي اشتهر بالإنشاء الساذج السيوطي والماوردي والغزالي وأبو الفرج الأصهباني وابن الأثير وأبو الفداء . والذي اشتهر بالإنشاء الأنيق الثعالبي وابن خلكان وابن خلدون والطبري والفخري وابن المعتز والبهاء زهير وابن المقفع والمسعودي . والذي اشتهر بالإنشاء العالي الحريري والهمداني والمعري والأخطل وجرير وأبو تمام والبحقري والمتني وابن خاقان والعتبي والفارسي . واعلم أن طبقات الإنشاء كثيراً ما تختلط ببعضها فيصعب تعيين طبقتها فرماجاء في القطعة الواحدة أشياء من الطبقات الثلاث لا يميزها إلا المنتقد البصير .

(٣) عرض . (٤) ملازم (٥) ساعة طويلة . (٦) أما إذا تساوت في حسن تأدية الغرض أخذ إحداها فقط ولا يحسن جمعها .

يُوجب نفورَها، بَيْنَ بَيْنٍ، وإذا تشَخَّصَتِ الصُّوَرُ في الخيال يتخيَّرَ العقل منها ما له المكانة الرفيعة في حُسْنِ تأدية الغرض المناسب للمقام، فإن كانت المقامُ للتشخيص على القتال مثلاً انتخبَ الصورة المهيَّجة للاحساس^١، المشجِّعة للنفس على اقتحام الأخطار وإن كان المقامُ مقامَ فرحٍ وسُرورٍ انتخبَ ما يشرح الصدورَ. وبعد تشخيص الصُّوَرِ وتخيُّرِ المناسب منها تعيَّنَ أيها المُنشئُ - بحسْنِ تأليفٍ وترتيبٍ ما تخيَّرته بأن تجمَعَ الصور المناسبة التي يرتبطُ بعضها ببعض بدون تكلفٍ بحيث يكون منسجماً يضيِّ وَاحِدَةً مع النفس دون علاجٍ وتعبٍ في فَهْمِ الغرض منه وحينئذٍ يُمكنك إظهارُ هذه الصورة المعقولة في صورة محسوسة بواسطة القلم.

أركان الكناية

اعلم أن للكناية أركاناً لا بُدَّ من إيداعها في كل كتاب بلاغيٍّ ذي شأنٍ؛ أولها: أن يكون مطلعُ الكتابِ عليه جدَّةٌ^٢ ورشاقةٌ، فإنَّ الكاتبَ من أجاد المطلعَ والمقطعَ، أو يكون مبنياً على مقصدِ الكتاب. الثاني أن يكون خروجُ الكاتب من معنى إلى معنى برابطةٍ لتكون رقابُ المعاني آخذة بعضها

(١) الأحزان .

تنبيه: يراعى حال المخاطب ومنزلته فإن ما يحسن عند الذكي لا يحسن عند الغبي، وما يناسب إذا الجد لا يناسب الهزلي، وما يصلح للرئيس لا يصلح للمرءوس فخاطب كلا على قدر أهله وجلالته وعلوه وارتفاعه وفطنته ونباهته، فزن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان التصريف إذا عرضت وعابر الكلمة بمعياريها إذا سئمت فكلما انحلى الكلام وعذب وراق وسهلت نخارجه كان أسهل ولوجاً في الأسماع وأشد اتصالاً بالقلوب وأخف على الأفواه، ولا سيما إذا كان المعنى البديع مترجماً بلفظ مؤنق شريف ومعايراً بكلام عذب بدون تكلف ولا تعقيد، فالمعنى الخفي أشبه بالروح الخفي واللفظ الظاهر أشبه بالجثمان الظاهر، وإلا تضاعف المعنى الحسن تحت اللفظ القبيح كتضاعف الحسناء في الأطمار الرثة .

(٢) صار جديداً مبتكراً، وهو نقبض الخلق الذائب .

ببعض ولا تكون مقتضبة. الثالث أن تكون ألفاظ الكتاب غير 'مخلوطة بكثرة الاستعمال' ، ولا أريد بذلك أن تكون ألفاظاً غريبة فإن ذلك عيبٌ فاحش بل أريد أن تكون الألفاظ المستعملة مسبوكة سبكاً غريباً يظن السامع أنها غير مألوفة أيدي الناس ، وهي مما في أيدي الناس ، وهناك مُعْتَرَك الفصاحة التي تظهر فيه الخواطر براعتها والأقلام شجاعته. وهذا الموضع بعيد المنال كثير الإشكال يحتاج إلى لطف ذوق وشهامة خاطر ، وليس كل خاطر بَرَّاق إلى هذه الدرجة (ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ) ومع هذا فلا تظن - أيها الناظر في كتابي - أنني أردت بهذا القول إهمال جانب المعاني بحيث يؤتى باللفظ الموصوف بصفات الحسن والملاحة ، ولا يكون تحتها من المعنى ما يماثله ويساويه فإنه إذا كان كذلك كان كصورة حسنة بديعة في حسنها إلا أن صاحبها بليد أبله . والمراد أن تكون هذه الألفاظ المشار إليها جسماً لمعنى شريف ، على أن تحصيل المعاني الشريفة على الوجه الذي أشرت إليه أيسر من تحصيل الألفاظ المشار إليها. ولقد رأيت كثيراً من الجهال الذين هم من السُّوقَة أرباب الحرف والصنائع ، وما منهم إلا من يقع له المعنى الشريف ويظهر من خاطره المعنى الدقيق ، ولكنه لا يحسن أن يزوج بين لفظتين . فالمعبرة عن المعاني هي التي بها تحلب العقول ، وعلى هذا فالناس كلهم مشتركون في استخراج المعاني ، فإنه لا يمنع الجاهل الذي لا يعرف علماً من العلوم أن يكون ذكياً بالفطرة .

واستخراج المعاني إنما هو بالذكاء لا بتعلم العلم .

فاذا اكملت معرفة هذه الأركان وأتيت بها في كل كتاب بلاغي ذي شأن فقد استحققت حينئذ فضيلة التقدم ، ووجب لك أن تسمي نفسك كاتباً .

(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية نظم الكلام

إذا أردت أن تصنع كلاماً فأخطِر معانيه ببالك، وتنق له كرائم اللفظ، واجعلها على ذكر منك ليقرب عليك تتاولها ولا يتعبك تطلبها، واعمله ما دمت في شباب نشاطك، فإذا غشيك الفتور وتخونك الملل فأمسك، فإن الكثير مع الملل قليل، والنفيس مع الضجر خسيس، والخواطر كالنابيع يسقى منها شيء بعد شيء، فتجد حاجتك من الرئي، وتنال أريك من المنفعة فإذا أكرت عليها نضب ماؤها وقسلت عنك عتأؤها. واعلم أن ذلك أجدى عليك مما يعطيك يومك الأطول بالكد والمطالبة والمجاهدة والتكلف والمعاناة. وإيتاك والتوغر، فإن التوغر يسلمك إلى التعقيد والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك ويشين ألفاظك.

ومن أراد معنى كريماً فليلتبس له لفظاً كريماً، فإن من حق المعنى الشريف اللفظ الشريف.

فإذا لم تجد اللفظة واقعة موقعها صائرة إلى مستقرها حالة في مركزها متصلة بسلكها، بل وجدت قلقة في موضعها نافرة عن مكانها فلا تكررها على اغتصاب الأماكن والنزول في غير أوطانها، فإنك إن لم تتعاط قريرض الشعر المنظوم ولم تتكلف اختيار الكلام المنشور، لم يعينك بذلك أحد. وإن تكلفتته ولم تكن حاذقاً مطبوعاً ولا محكماً لشأنك بصيراً، عابك من أنت أقل عيباً منه، وزرى عليك من هو دونك.

فإن لم تسمح لك الطبيعة بنظم الكلام في أول وهلة، وتعصى عليك بعد إجماله الفكرة، فلا تعجل، ودعه سحابة يومك ولا تضجر، وأمهله سواد ليلتك وعأوده عند نشاطك، فإنك لا تعدم الإجابة والمؤاتاة، فإن قدس عليك بعد ذلك - مع ترويح خاطر وطول الإمهال - فتحول

من هذه الصناعة إلى أشهى الصناعات إليك وأخفها عليك : فإنك لم تشتهها إلا وبينكما نسب .

والشيء لا يحن إلا إلى ما شاكله .

وينبغي أن تعرف أقدار المعاني ، فتوازن بينها وبين أوزان المستمعين وبين أقدار الحالات ، فتجعل لكل طبقة كلاماً ، ولكل حال مقاماً ، حتى تقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات ، وأقدار المستمعين على أقدار الحالات . (من « كتاب الصناعتين » باختصار)

الطريق إلى تعلم الكتابة

إن الطريق إلى تعلم الكتابة على ثلاث شعب :

الأولى : أن يتصفح الكاتب كتابة المتقدمين ، ويطالع على أوضاعهم في استعمال الألفاظ والمعاني ، ثم يحدو حدوهم : وهذه أدنى الطبقات عندي .

والثانية : أن يمزج كتابة المتقدمين بما يستجيده لنفسه من زيادة حسنة ، إما في تحسين ألفاظ ، أو في تحسين معاني ، وهذه هي الطبقة الوسطى ، وهي أعلى من التي قبلها .

والثالثة : أن لا يتصفح كتابة المتقدمين ، ولا يطالع على شيء منها ، بل يصرف همه إلى حفظ القرآن الكريم وعدة من دواوين فحول الشعراء ممن غلب على شعره الإجادة في المعاني والألفاظ . ثم يأخذ في الاقتباس ، فيقوم ويقع ويخطئ ، ويصيب ويضل ، ويهتدي حتى يستقيم على طريقة يفتتحها لنفسه ، وأخلق بتلك الطريق أن تكون مبتدعة غريبة لا شركة لأحد من المتقدمين فيها . وهذه الطريق هي طريق الاجتهاد وصاحبها يعد إماماً في فن الكتابة ، إلا أنها مستورة جداً . ولا يستطيعها إلا من رزقه الله لساناً هجاءً وخاطراً رقماً . ولا أريد بهذه الطريق أن يكون الكاتب مرتبطاً في كتابته بما يستخرجه من القرآن

الكريم والشعر ، بحيث 'إنه' لا 'ينشئ' كتاباً إلا 'من' ذلك ، بل 'أريد' أنه إذا حَفِظَ القرآنَ وأكثر من حفظ الأشعارِ ثم نَقَبَ عن ذلك تنقيباً مُطَّلَع على معانيهِ مَفْتَشٍ عن دَفَائِنِهِ وقلبه 'ظهِراً لبطن عرف حينئذ من أين تؤكل الكتف' فيما يُنشئه من ذاتِ نفسه ، واستعان بالمحفوظ على الغريزة الطبيعية .
(عن « المثل السائر » باختصار)

كيفية تهذيب الكلام وأوقات تأليفه

تهذيبُ الكلام : عبارة عن ترددِ النظرِ فيه بعد عمله - نظماً كان أو نثراً - وتغيير ما يجبُ تغييره ، وحذف ما ينبغي حذفه وإصلاح ما يتعينُ إصلاحه ، وتحرير ما يدقُّ من معانيه ، وإطراح ما يتجافى عن مضاجع الرقة من غليظ ألفاظه ، لتشرق 'شموس' التهذيب في سماء بلاغته ، وترشف الأسماع على الطرب رقيق سُلافته ، فإن الكلام إذا كان مَوْصُوفاً بالمهذب ، منعوتاً بالمنتقى ، علت رُبَّتُهُ وإن كانت معانيه غيرَ مبتكرة ، وكلُّ كلامٍ قيل فيه : لو كان موضع هذه الكلمة غيرُها ، ولو تقدَّم هذا المتأخَّر وتأخَّر هذا المتقدم أو لو تمَّ هذا النقص بكذا ، أو لو حذفت هذه اللفظة ، أو لو اتضح هذا المقصد وسهل هذا المطلب لكان الكلام أحسن والمعنى أبين - كان ذلك الكلام غير منتظم في نوع التهذيب .

وكان زهير بن أبي سلمى معروفاً بالتنقيح والتهذيب ، وله قصائد تعرف بالحوليات - قيل : إنه كان ينظم القصيدة في أربعة أشهر ، ويهذبها وينقحها في أربعة أشهر ، ويعرضها على علماء قبيلته أربعة أشهر ، ولهذا كان الخليفة عمر بن الخطاب - مع جلالة في العلم ، وتقدمه في النقد - يقدمه على سائر الفضول من طبقة .

وما أحسن ما أشار أبو تمام إلى التهذيب بقوله :
خُذْهَا ابْنَةُ الْفَكْرِ الْمَهْذَبِ فِي الدُّجَى وَاللَّيْلِ أَسْوَدُ رَقْعَةٍ الْجَلْبَابِ

فإنه خص تهذيب الفكر بالدخى لكون الليل تهدأ فيه الأصوات وتسكن الحركات ، فيكون الفكر فيه مجتمعاً ومِرآة التهذيب فيه صقيلة ، خلوة الحاطر وصفاء القريحة ، لاسياً وسط الليل .

قال أبو عبادة البُخترى : كنت في حدائقي أروي الشَّعر ، وكنت أرجع فيه إلى طبع سليم ، ولم أكن وقفت له على تسهيل مأخذٍ ووُجوهٍ اقتضاب حتى قصدت أبا تمامٍ وانقطعتُ إليه واتسكتُ في تعريفه عليه ، فكان أول ما قال لي : يا أبا عبادة ، تخيّر الأوقات وأنت قليلُ الغموم ، صِفْ من الغموم .

واعلم أن العادة في الأوقات إذا قصد الإنسان تأليف شيءٍ أو حفظه أن يختار وقت السحر — وذلك أن النفس تكون قد أخذت حظها من الراحة وقسطها من النوم وخفّ عليها ثقل الغذاء ؛ واحذر المجهول من المعاني وإيتاك أن تشين شعرك بالألفاظ الوحشية وناسب بين الألفاظ والمعاني في تأليف الكلام ، وكن كأنك خياطٌ تقدّر الثياب على مقادير الأجسام ، وإذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل إلا وأنت فارغ القلب ولا تنظم إلا بشهوة ، فإن الشهوة نعم المعين على حسن النظم ، وجملة الحال : أن تعتبر شعرك بما سلف من أشعار الماضين فما استحسن العلماء فاقصده وما استقبحوه فاجتنبه .

(عن « خزانة الأدب — وزهر الآداب » باختصار)

محاسن الإنشاء ومعايه

إنّ للنثر محاسن ومعايه ، يجب على المنشىء أن يفرّق بينهما محترزاً استعمال الألفاظ الغريبة ، وما يخلّ بفهم المراد ويوجب صعوبته — ولا بد من أن يجعل الألفاظ تابعة للمعاني دون العكس ، لأن المعاني إذا تركت على سجيئتها

طلبت لأنفسها ألفاظاً تليقُ بها فيحسنُ اللفظُ والمعنى جميعاً ، وأما جعلُ الألفاظِ متكلفةً والمعاني تابعةً لها ، فهو شأن من لهم شغفٌ بإيراد شيءٍ من المحسنات اللفظية فيصرفون العناية إليها ، ويجعلون الكلام كأنه غير مسوقٍ لإفادة المعنى ، فلا يُبالون بخفاء الدلالات وركاكة المعنى .

ومن أعظم ما يليقُ بمن يتعاطى الإنشاء أن يكتب ما يُراد لا ما يُريد ، كما قيل في الصاحب والصابيء : ان الصابيء يكتب ما يُراد ، والصاحب يكتب ما يُريد .

(عن « آداب المشي » ببعض تصرف)

فصاحة الألفاظ ومطابقتها للمعاني

فصاحة الألفاظ تكون بثلاثة أوجه :

الأول : بجانب الغريب الوحشي حتى لا يجهل سماعه ، ولا ينفر منه طبعه .
والثاني : تنكب اللفظ المبتذل ، والبعد عن الكلام المسترذل حتى لا يستسفه خاصي ، ولا ينبو عنه فهم عامي ، كما قال الجاحظ في كتاب البيان :
أما أنا فلم أرَ قوماً أمثلَ طريقة في البلاغة من الكتاب : وذلك أنهم قد التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعراً وحشياً ، ولا ساقطاً عامياً .

والثالث : أن يكون بين الألفاظ ومعانيها مناسبة ومطابقة .

أما المطابقة : فهي أن تكون الألفاظ كالقوالب لمعانيها فلا تزيد عليها ولا تنقص عنها .

وأما المناسبة : فهي أن يكون المعنى يليقُ ببعض الألفاظ — إما لعرف مستعمل ، أو لاتفاق مستحسن — حتى إذا ذكرت تلك المعاني بغير تلك

الألفاظ كانت نافرة عنها، وإن كانت أفصح وأوضح لاعتقاد ما سواها .
(عن « أدب الدين والدنيا » باختصار)

حقيقة الفصاحة

اعلم أن هذا موضوع متعذر على الواجب ، ومسلك متوعر على الناهج ،
ولم تزل العلماء من قديم الوقت وحديثه يكثرون القول فيه والبحث عنه ، ولم
أجد من ذلك ما يمول عليه إلا القليل ، وغاية ما يقال في هذا الباب : إن
الفصاحة هي الظهور والبيان في أصل الوضع اللغوي - يقال : أفصح الصبح
إذا ظهر ، ثم إنهم يقيفون عند ذلك ولا يكشفون عن السر فيه ، وبهذا القول
لا تتبين حقيقة الفصاحة ، لأنه يعترض عليه بوجوه من الاعتراضات :

أحدها : إذا لم يكن اللفظ ظاهراً بيئاً لم يكن فصيحاً ثم إذا ظهر وتبين
صار فصيحاً .

الوجه الثاني ، أنه إذا كان اللفظ الفصيح هو الظاهر البيّن فقد صار ذلك
بالنسبة والإضافات إلى الأشخاص ؛ فإن اللفظ قد يكون ظاهراً لزيد ولا
يكون ظاهراً لعمري ، فهو إذاً فصيح عند هذا ، وغير فصيح عند ذاك ؛ وليس
كذلك بل الفصيح هو فصيح عند الجميع لا خلاف فيه بحال من الأحوال ولأنه
إذا تحققت هذه الفصاحة وعرف ما هي ، لم يبق في اللفظ الذي يختص به خلاف .

الوجه الثالث : أنه إذا جيء بلفظ قبيح ينسب عنه السّمع وهو مع ذلك
ظاهر بيّن ينبغي أن يكون فصيحاً ، وليس كذلك لأن الفصاحة وصف حسن
للفظ لا وصف قبيح .

ولما وقفت على أقوال الناس في هذا الباب ملكتني الحيرة فيها ،

ولم يثبتُ عندي منها ما أُعَوِّلُ عليه ، ولكثرةِ مُلابستي هذا الفنَ ومُعاركتي آيَّاهُ ، انكشفَ لي السِّرُّ فيه - وسأوضحُه في كتابي هذا وأُحقِّقُ القولَ فيه فأقولُ :

إنَّ الكلامَ الفصيحَ هو الظاهرُ البَيِّنُ ، وأعني بالظاهر البَيِّنُ : أن تكونَ ألفاظُه مفهومةً لا يُحتاجُ في فهمها إلى استخراجِ لُغَةٍ .

وانما كانتْ بهذه الصفةِ لأنها تكونُ مألوفةً الاستعمالِ بين أربابِ النظم والنثر دائرةً في كلامهم ، وانما كانتْ مألوفةً الاستعمالِ دائرةً في الكلام دون غيرها من الألفاظِ لمكانِ حُسْنِها ، وذلك أن أربابَ النظم والنثر غرَّبُوا اللغةَ باعتبارِ ألفاظها ، وسبَّروا وقَسَّمُوا ، فاخترُوا الحسَنَ من الألفاظِ حتى استعملوه وعلموا القبيحَ منها فلم يستعملوه ، فحسنُ الاستعمالِ سببُ استعمالِها دونَ غيرها ، واستعمالها دونَ غيرها - سببُ ظُهورها وبيانها ؛ فالفصيحُ إذاً من الألفاظِ هو الحسنُ .

فإن قيلَ : مِن أيِّ وجهٍ علِمَ أربابُ النظم والنثر الحسنَ من الألفاظِ حتى استعملوه ، وعلموا القبيحَ منها حتى نَفَوْهُ ، ولم يستعملوه ؟ قلتُ في الجوابِ : إنَّ هذا من الأمورِ المحسوسة التي شاهدوها من نفسها ؛ لأنَّ الألفاظَ داخلةً في حَيْزِ الأصوات ، فالذي يستلذه السَّمْعُ منها ويميلُ إليه هو الحسنُ والذي يكرهه وينفِرُ عنه هو القبيحُ . ألا ترى أنَّ السَّمْعَ يستلذُّ صَوْتِ البُلْبُلِ من الطيرِ وصَوْتِ الشَّحْرِورِ ويميلُ إليهما ، ويكرهُ صَوْتِ الغرابِ وينفِرُ عنه ؟ وكذلك يكرهُ نهيقَ الحِمَارِ ، ولا يجدُ ذلك في صهيلِ الفَرَسِ ؟ والألفاظُ جاريةٌ هذا المجرى ، فإنه لا خلافَ في أنَّ لفظَةَ المَزْنَةِ والديمَّةَ حسنةٌ يستلذُّها السَّمْعُ ، وأنَّ لفظَةَ البُعَاقِ قبيحةٌ يكرهها السَّمْعُ ، وهذه اللفظَاتُ من صفةِ المطرِ ، وهي تدلُّ على

معنى واحد ، ومع هذا فإنك ترى لفظي المزنّة والدّيمة وما جرى مجراهما مألوفتي الاستعمال — وترى لفظ البعاق ، وما جرى مجراه متروكاً لا يُستعمل ، وإن استعمل فلنما يستعمله جاهلٌ بحقيقة الفصاحة ، أو من ذوّقه غير ذوّقٍ سليم .

ولا جرم أنه ذمّ وقُدح فيه ولم يلتفت إليه وكان عربياً محضاً من الجاهلية الأقدمين ؛ فإن حقيقة الشيء إذا علّمتُ وجب الوقوفُ عندها ولم يُعْرَج على ما خرج عنها .

(عن « ابن الأثير » باختصار)

الانسجام

الانسجام لغة : جريان الماء ، وعند أهل البلاغة هو أن يأتي النساظم أو النائر بكلامٍ خالٍ من التّعقيد اللفظي والتّعقيد المعنوي بسيطاً مفهوماً دقيقاً الألفاظٍ جليلاً المعنى ، لا تكلف ولا تعسف فيه ، يتحدثُرُ كتحدّرِ المساءِ المُستجيمِ ، فيكادُ لسهولة تركيبه ، وعذوبة ألفاظه ، أن يسيل رقةً .

ولا يكون ذلك إلا في من هو مطبوعٌ على سلامة الذّوق ، وتوقّدَ الفكرة وبراعة الإنشاء وحُسْن الأساليب .

وإنّ فحول هذا الميدانِ ما أنقلوا كاهل سهولته بنوعٍ من أنواعِ البديعِ ، اللهمّ إلا أن يأتي عفواً من غير قصد .

وعلى هذا أجمع علماءُ البديع في حدّ هذا النوع ، فإنهم قرروا أن يكون بعيداً عن التصنع ، خالياً من الأنواعِ البديعيّةِ إلا أن يأتي في ضمنِ السّهولةِ من غير قصدٍ ، فإن كان الانسجامُ في النثر تكونُ أغلبُ فقراته موزونةً من غير

قصدي ، وإن كان في النظم فتكاد الأبيات أن تسيل رقة وعذوبة ورُبما دخلت في المطرب المرقص .

(عن « بديعة العميان وبديعة المحوي »)

حل الشعر

حل الأبيات الشعرية إلى ثلاثة أقسام :

الأول منها وهو أدناها مرتبة أن يأخذ الناثر بيتاً من الشعر فينثره بلفظه من غير زيادة ، وهذا عيب فاحش . ومثاله كمن أخذ عقداً قد أتقن نظمه وأحسن تأليفه فأوهاه وبدّده ، وكان يقوم عذرُهُ في ذلك أن لو نقلته عن كونه عقداً إلى صورة أخرى مثله أو أحسن منه ، وأيضاً فإنه إذا نثر الشعر بلفظه كان صاحبه مشهور السرقة ، فيقال هذا شعر فلان بعينه : لكون ألفاظه باقية لم يتغير منها شيء . وقد سلك هذا المسلك بعض العراقيين فجاء مُستهجنًا ، كقوله في بعض أبيات الحماسة :

والدّ ذي حنقٍ عليّ كأنما تغلي عداوة صدره في مرّجلٍ
أزجيتُه عنّي فأبصر قصده وكويتُه فوق النواظر من علّ

فقال في نثر هذين البيتين : « فكلم لقي الدّ ذا حنق كأنه ينظر إلى الكواكب من علّ ، وتغلي عداوة صدره في مرّجل ، فكواه فوق ناظره وأكبه لفمه ويديه » . فلم يزد هذا الناثر على أن أزال رونق الوزن وطلاوة النظم لا غير . ومن هذا القسم ضرب محمود لا عيب فيه : وهو أن يكون البيت من الشعر قد تضمّن شيئاً لا يمكن تغيير لفظه فحينئذٍ يُعذر ناثره إذا أتى بذلك اللفظ وكذلك الأمثال السائرة فإنه لا بد من ذكرها على ما جاءت في الشعر .

(٣٠ - جواهر الأدب ١)

وأما القسم الثاني - وهو وسط بين الأول والثالث في المرتبة - فهو أن ينثر المعنى المنظوم ببعض ألفاظه ، ويعبّر عن البعض بألفاظٍ آخر - وهناك تظهر الصنعة في المائلة والمشابهة ، ومؤاخاة الألفاظ الباقية بالألفاظ المترجلة. فإنه إذا أخذ لفظاً لشاعرٍ مجيدٍ ، قد نقشه وصحّحه فقرّنه بما لا يلائمه ، كان كمن جمع بين لؤلؤة وحصاة ، ولا خفاء بما في ذلك من الانتصاب للقدح والاستهداف للطعن . والطريقُ المسلك إلى هذا القسم : أن تأخذ بعض بيت من الأبيات الشعرية هو أحسن ما فيه ثم تماثله .

وسأوردُ ههنا مثلاً واحداً - ليكون قدوةً للتعلم - فأقول : قد وردَ هذا البيت من شعر أبي تمام في وصف قصيدة له :

حدثاء تملأ كلّ أذنٍ حكمةً وبلاغةً وتُدرّ كلّ وريد

فقوله (تملأ كلّ أذنٍ حكمةً) من الكلام الحسن ، وهو أحسن ما في البيت فإذا أردت أن تنثر هذا المعنى فلا بُدّ من استعمال لفظه بعينه ، لأنه في الغاية القصوى من الفصاحة والبلاغة . فعليك حينئذ أن تؤاخيه بمثله .

وهذا عسيرٌ جداً ، وهو عندي أصعب منالاً من نثر الشعر بغير لفظه ، لأنه مسلكٌ ضيقٌ لما فيه من التعرّض للمائلة ما هو في غاية الحسن والجودة . وأمّا نثر الشعر بغير لفظه فذلك يتصرّف فيه فائزُهُ على حسب ما يراه ، ولا يكون مقيّداً فيه بمثال يضطرُّ إلى مؤاخاته . وقد نثرْتُ هذه الكلمات المشار إليها وأتيتُ بها في جملة كتابٍ فقلتُ : وكلامي قد عُرفَ بينَ الناسِ واشتهرَ ، وفاقَ مسيرَ الشمسِ والقمرِ ، وإذا عُرفَ الكلام صارتِ المعرفة له علامةً وأميناً من سرقةٍ إذ لو سُرِقَ لدلت عليه الوسامة - ومن خصائص صفاته أن يملأ كل أذنٍ حكمةً ، ويجعل فصاحة كل لسانٍ عجمةً . وإذا جرت نفثاته في الأفهام ، قالت : أهذه بنت فكرة أم بنت كريمة ؟

فانظر: كيف فعلت في هذا الموضع، فلإني [حين] أخذت تلك الكلمات من البيت الشعري التزمت بأن أؤاخيها بما هو مثلها أو أحسن منها، فجئت بهذا الفصل كما تراه، وكذلك ينبغي أن يفعل في ما هذا سبيله.

وأما القسم الثالث - وهو أعلى من القسمين الأولين - فهو أن يأخذ المعنى فيصاغ بألفاظ غير ألفاظه. ومن ثم يتبين حذق الصائغ في صياغته ويعلم مقدار تصرفه في صناعته، فإن استطاع الزيادة على المعنى فتلك الدرجة العالية، وإلا أحسن التصرف وأتقن التأليف ليكون أولى بذلك المعنى من صاحبه الأول.

واعلم أن من أبيات الشعر ما يتسع المجال لنثره فيؤدبه بضروب من العبارات، وذلك عندي شبيه بالمسائل السبالة في الحساب التي يجاوب عنها بعدة من الأجوبة. ومن الأبيات ما يضيق فيه المجال حتى يكاد الماهر في هذه الصناعة أن لا يخرج من ذلك اللفظ، وإنما يكون هذا لعدم النظر. فأما ما يتسع المجال في نثره فكقول أبي الطيب المتنبي:

لا تعذل المشتاق في أشواقه حتى يكون حشاك في أحشائه

وقد نثرت هذا المعنى، فمن ذلك قولي: لا تعذل المحبة في ما يهواه حتى تطوي القلب على ما طواه. ومن ذلك وجه آخر، وهو: إذا اختلفت العينان في النظر فالعذل ضرب من الهذر، وأما ما يضيق فيه المجال فيعسر على النثر تبديل ألفاظه - كقول أبي تمام:

تردي ثياب الموت حراً فما أتى لها الليل إلا وهي من سندس خضر

قصد أبو تمام: المؤاخاة في ذكر لوني الثياب من الأحمر والأخضر، وجاء ذلك واقعاً على المعنى الذي أراده من لون ثياب القتل وثياب الجنة، وهذا البيت لا يمكن تبديل ألفاظه - وهو وأمثاله مما يجب على النثر أن يحسن

الصنعة في فكّ نظامه لأنه يتصدّى لنثره بألفاظه، فإن كان عنده قوّة تصرفٍ ، وبسطة عبارةٍ ، فإنه يأتي به حسناً رائقاً .

وقد قلت في نثره : لم تكنسه المنايا نسجَ شفا رهاسا حتى كسته الجنّة
نسجَ شعارها فبدّل أحمرُ ثوبه بأخضره ، وكأسُ حمامه بكأس كوثره .

وإذا انتهى بنا الكلامُ إلى ههنا في التنبيه على نثر الشعر ، وكيفية نثره ، وذكر ما يسهلُ منه ، وما يعسرُ ، فلنتبع ذلك بقولٍ كلّتي في هذا الباب فنقول :

من أحبّ أن يكون كاتباً أو كان عنده طبعٌ مجيبٌ ، فعليه بحفظ
الدواوين ذوات العدد ، ولا يقنعُ بالقليل من ذلك ، ثم يأخذ في نثر الشعر من
محفوظاته .

وطريقه أن يبتدىء فيأخذ قصيداً من القصائد فينثره بيتاً بيتاً على التوالي .
ولا يستنكف في الابتداء أن ينثر الشعر بألفاظه أو بأكثرها فإنه لا
يستطيع إلا ذلك .

وإذا مرنت نفسه ، وتدرّب خاطره ، ارتفع عن هذه الدرجة ، وصار
يأخذ المعنى ويكسوه عبارة من عنده ، ثم يرتفع عن ذلك فيكسوه ضرباً من
العبارات المختلفة ، وحينئذ يحصل لخاطره مباشرة المعاني لِقاحٌ فيستنتج منها
معاني غير تلك المعاني .

وسبيله : أن يكثر الإدمان ليلاً ونهاراً ، ولا يزال على ذلك مدّة طويلة حتى
تصير له ملكةٌ ؛ فإذا كتب كتاباً أو خطب خطبةً تدفقت المعاني في أثناء
كلامه وجاءت ألفاظه معسولةً ، وكان عليها جدّة حتى تكاد ترقصُ رقصاً -
وهذا شيء خبرته بالتجربة ، ولا ينبئك مثل خبير .

(عن « المثل السائر » باختصار)

التخلص والاقتضاب في مواضيع الإنشاء

التخلص : هو أن يأخذَ مؤلف الكلام في معنىٍّ من المعاني ، فبينما هو فيه إذ أخذ في معنى آخر غيره ، وجعل الأول سبباً إليه ، فيكونُ بعضُهُ آخذاً برقاب بعض من غير أن يقطعَ كلامه ، ويستأنف كلاماً آخر ، بل يكون جميع كلامه كأنما أفرغ إفراغاً ، وذلك مما يدلُّ على حذق الشاعر وقوّة تصرفه من أجل أن نطاق الكلام يضيق عليه ، ويكون متّبعاً للوزن والقافية ، تؤاثره الألفاظ على حسب إرادته .

وأما النائر فإنه مطلق العنان يمضي حيث شاء ، فلذلك يشقُّ التخلصُ على الشاعر أكثر مما يشقُّ على النائر ، ومما جاء من التخلصات الحسنة قول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ :

خليليّ إنّي لا أرى غير شاعري فليمّ منهم الدعوى ومني القصائد
فلا تعجبا ؛ إن السيوف كثيرة ، ولكنّ سيف الدولة اليوم واحد

وهذا هو الكلام الآخذ بعضه برقاب بعض ، ألا ترى أن الخروج إلى مدح المدح في هذه الأبيات كأنه أفرغ في قالب واحد ؟

والاقتضاب : أن يقطع الشاعر كلامه الذي هو فيه ، ويستأنف كلاماً آخر غيره من مديح أو هجاء أو غير ذلك ، ولا يكون للثاني علاقة بالأول : كقول أبي نواس - المتوفى سنة ١٩٨ هـ - في قصيدته النثونية التي لم يكمل حسمها بالتخلص من الغزل إلى المديح ، بل اقتضبه اقتضاباً ؛ فبينما هو يصف الخمر ويقول :

فاسقني كأساً على عدلٍ	كرهتُ مسموعه أذني
من كُمتِ اللّون صافية	خير ما سلست في بدني
ما استقرت في فؤاد فتى	فدري ما لوعة الحزن

حتى قال :

تَضَحُّكُ الدُّنْيَا إِلَى مَلِكٍ قَامَ بِالْآثَارِ وَالسُّنَنِ
سَنَ لِلنَّاسِ النَّسَى فَنَدَوَا فَكَأَنَّ الْبُخْلَ لَمْ يَكُنْ

وإذا لم يحسن التخلص ، بأن كان قبيحاً ممسوخاً فلاقتضاب أولى منه .
فينبغي لسالك هذه الطريقة أن ينظر إلى ما يتصوغه ، فإن أتاها التخلص
حسناً كما ينبغي ، وإلا فليدعه ولا يستكرهه ، حتى يكون مثل هذا .
واعلم أن التخلص غير ممكن في كل الأحوال ، وهو من مستصعبات علم
البيان فليتدبر الشاعر ذلك .

(عن « المثل السائر » بتصرف)

كيفية افتتاح مواضيع الإنشاء وختامها

الافتتاح أن تجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالاً على المعنى المقصود
من ذلك الكلام : إن كان فتحاً ففتحاً ، وإن كان هناءً فهناءً ، أو كان عزاءً
فغزاءً وهكذا ، وفائدته أن يُعرَفَ من مبدئ الكلام ما المراد منه ، فإذا نظم
الشاعر قصيدة — فإن كانت مديحاً صِرَفاً لا يختص بجادة من الحوادث ، فهو
غير بين أن يفتتحها بغزل ، وبين أن يرتجل المديح ارتجالاً من أولها — كقول
القائل :

إِنْ حَارَتْ أَلْبَابُ كَيْفَ تَقُولُ فِي ذَا الْمَقَامِ فَعُذْرُهُمَا مَقْبُولُ
سَامِعْ بِفَضْلِكَ مَا دَحِيكَ فَمَالَهُمْ أَبْدَأُ إِلَى مَا تَسْتَحِقُّ سَبِيلُ
إِنْ كَانَ لَا يَرْضِيكَ إِلَّا مُحْسِنٌ فَالْمُحْسِنُونَ إِذَنْ لَدَيْكَ قَلِيلُ

وأما إذا كان القصيد في حادثة من الحوادث كفتح مقفل ، أو هزيمة جيش
أو غير ذلك ، فإنه لا ينبغي أن يُبدَأَ فيه بغزل ، ومن أدب هذا النوع أن لا يذكر
الشاعر في افتتاح قصيدة المديح ما يُنْطِيرُ منه ، أو يُسْتَقْبِحُ لاسياً إذا كان في التهامي ،

فإنه يكون أشد قبجحا، وإنما يُستعمل في الخطوب النازلة، والنوائب الحادثة، ومتى كان الكلام في المديح مفتتحا بشيء من ذلك، تطير منه سامعه، وإنما خُصت الابتداءات بالاختيار لأنها أول ما يطرق السمع من الكلام، فإذا كان الابتداء لائقا بالمعنى الوارد بعده توفرت الدواعي على استعماله، والختام: أن يكون الكلام مؤذنا بتمامه، بحيث يكون واقعا على آخر المعنى، فلا ينتظر السامع شيئا بعده؛ فعلى الشاعر والناثر أن يتأنقا فيه غاية التأنق، ويحودا فيه ما استطاعا لأنه آخر ما ينتهي إلى السمع، ويتردد صداه في الأذن، ويعلق بجواشي الذكر فهو كمقطع الشراب، يكون آخر ما يمر بالفم، ويُعرض على الذوق، فيشعر منه بما لا يشعر من سواه، ولذلك ينبغي أن يكون الختام مميّزا عن سائر الكلام قبله بنكتة لطيفة أو أسلوب رشيق أو معنى بليغ، ويختار له من اللفظ الرقيق الحاشية، الخفيف المحمل على السمع والسهل الورود على الطبع، ويتجافى به عن الإسهاب والتعقيد والثقل، وغير ذلك، وحكم الختام كما سبق أن يكون مؤذنا بتمام الكلام بحيث يكون واقعا على آخر المعنى فلا ينتظر السامع شيئا بعده، وإذا لم يكن المعنى دالا بنفسه على الختام حسن أن يدل عليه بكلام آخر، يُذكر عقب الفراغ من سياقه الأغراض السابقة، وحكمه أن يكون منزعجا مما سبقه فيقفى به تقريراً لشيء من الأغراض أو إجمالا لِمَفْصَلِها، مُورداً على وجه من وجوه البلاغة، أو الكلام الجامع، أو مخرج المثل، أو الحكمة، أو ما شاكل ذلك، مما تعلقه الخواطر وتقيده الأذهان، كقول المتنبي المتوفى سنة ٣٤٤ هـ:

وما أخُصُّكَ في بُرٍّ بِشَهْنِيَّةٍ إِذَا سَأَلْتُ فَكُلُّ النَّاسِ قَدْ سَلِمُوا

وكقول الزمخشري المتوفى سنة ٥٢٨ هـ في ختام إحدى مقالاته: «إن الطيش في الكلام يُترجم عن خيفة الأحلام، وما دخل الرفق شيئا إلا زانه، وما زان المتكلم إلا الرزانة».

وأما في غير ذلك، فالأكثر فيه أن يُضْمَنَ غرضاً آخر من الدعاء، أو عَرَض النفس على خدمة المكتوب إليه، أو توقُّع الجواب منه، أو غير ذلك ممَّا تحتمله مقامات الكلام، وتقتضيه دواعي الحال.

وأكثر ما يختصونها في النثر بعد الأغراض المذكورة بقولهم: «إن شاء الله» أو «بمن الله وفضله» وما أشبه ذلك.

وكثيراً ما يختتم النثر بقوله: «والسلام» أو «بلا حول ولا قوة إلا بالله» أو بقوله: «والله المستعان» أو بقوله: «والحمد لله أولاً وآخراً، باطناً وظاهراً» أو بقوله: «والله أعلم» أو غير ذلك.

وربما خُتِمَ بِمَثَلٍ، كخِتام الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ رسالته بقوله: «ولقد سلك الأمير من الكرم طريقاً يستوحش فيها لقلبة سالكها، ويتيه في قفارها لدروس آثارها، وانهدام منازلها، أعانه الله على صعوبة الطريق، وقلة الرفيق، وألهمه صبراً يهون عليه احتمال المغامر، ويقرّب عليه مسافة المكارم».

فبالصبر تنال العلاء، وعند الصبح يُحمد السرى».

ومن أمثلته في الشعر قول ابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ:

سلامٌ عليكم ما أحبّ وصالكم وغاية مجهودِ المُقلِّ سلام

تقسيم الإنشاء إلى فني النظم والنثر

اعلم أن لسان العرب وكلامهم يدور على فنين: فن الشعر المنظوم، وهو الكلام المُقَفَّى الموزون بأوزان مخصوصة، وفن النثر، وهو الكلام غير الموزون، فأما الشعر ففنه المدح والهجاء، والرثاء، وأما النثر ففنه ما يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، ويسمى سجعاً، وهو ثلاثة أقسام: القسم الأول: أن يكون

الفصلان 'متساويين' ، لا يزيد أحدهما على الآخر ؛ كقوله تعالى : « فَأَمَّا
الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ » ، وأما السائل فَلَا تَنْهَرْ » ، وهو أشرف السجع منزلة
للاعتدال الذي فيه ، والقسم الثاني أن يكون الفصل الثاني أطول من الأول ، لا
طويلاً يخرج به عن الاعتدال خروجاً كبيراً ، فإنه يقبُح عند ذلك ، ويُستكره ،
ويعدّ عيباً . فمما جاء من ذلك قوله تعالى : « بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا
لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا . إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا
تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا . وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ
'ثُبُورًا' »^١ ، فالفصل الأول ثمان لفظات ، والثاني والثالث تسع تسع . ويستثنى
من هذا القسم : ما كان من السجع على ثلاث فقر ؛ فإن الفقرتين الأوليين تحسبان
في عدّة واحدة ، ثم تأتي الثالثة ، فينبغي أن تكون طويلة طويلاً يزيد عليها ،
وقد تكون الثلاث متساويات ، كقوله تعالى : « فِي سِدْرٍ^٢ خِضْدٍ^٣ وَطَلْحٍ^٤
مَنْضُودٍ^٥ وَظِلٍّ^٦ مَمْدُودٍ^٧ . » . والقسم الثالث أن يكون الفصل الآخر أقصر من
الأول وهو عيب فاحش^٨ . وأما النثر المرسل ، فهو ما يؤتى به قطعاً من غير
تقيّد بقافية ولا غيرها ، وهو الذي يُطلَقُ فيه الكلام إطلاقاً ، ولا يُقَطَّعُ
أجزاءً ، بل يُرْسَلُ إرسالاً من غير تقيّد بقافية .

(من « المثل السائر » باختصار)

(١) ويلا . (٢) شجر النبق .

(٣) مقطوع شوكه . (٤) الموز .

(٥) متراكم بعضه فوق بعض .

(٦) للسجع أربعة شروط : اختيار المفردات الفصيحة واختيار التأليف
الفصيح وكون اللفظ تابعاً للمعنى لا عكسه — وكون كل واحدة من الفقرتين أو
الفقر دالة على معنى لئلا يصبح الكلام طويلاً معيباً .

كيفية عمل الشعر

اعلم أن لعمل الشعر وإحكام صناعته 'شروطاً' :

أولها : الحفظ^١ من جنسه - أي من جنس شعر العرب - حتى تنشأ في النفس ملكة ينسج على منوالها ، ويُتخيرُ المحفوظُ من 'الحرف' النقي الكثير الأساليب ، وهذا المحفوظ المختارُ أقلُّ ما يكفي فيه شعرُ شاعر من فحول الإسلام ، مثل : ابن أبي ربيعة^٢ ، وكثير ، وذو الرمة ، وجري ، وأبي نواس ، وأبي تمام ، والبُحتري ، والشريف الرضي ، وأبي فراس ، وأكثره شعرُ 'كتاب الأغاني' ، لأنه جمع شعرَ أهل الطبقة الإسلامية كله ، والمختار من شعر الجاهلية .

ثم لا بُدَّ له من الخلوة واستجادة المكان المنظوم فيه ، باشتاله على مثل المياه والأزهار ، وكذا استجادة المسموع ، لاستنارة القريحة باستجماعها ، وتنشيطها بملأ الشُرور . ثم مع هذا كله ، فشرطه أن يكون على جام^٣ ، ونشاط ، فذلك أجمع له وأنشط للقريحة أن تأتي بمثل ذلك المنوال الذي يساعد في حفظه ، قالوا : وخيرُ الأوقات لذلك أوقات البُكر^٤ عند الهبوب من النوم ، وفراغ المعدة ، ونشاط الفكر ، وربما يكون من بَوَاعته العشق

(١) ومن كان خالياً من المحفوظ فنظمه قاصر رديء - ولا يعطيه الرونق والخلوة إلا كثرة المحفوظ فمن قل حفظه أو عدم لم يكن له شعر وإنما هو نظم ساقط . واجتناب الشعر أولى بمن لم يكن له محفوظ . ثم بعد الامتلاء من الحفظ ، وشحذ القريحة للنسج على المنوال ، يقبل على النظم وبالإكثار منه تستحكم الملكة وترسخ . وربما يقال : إن من شروطه نسيان ذلك المحفوظ لتمحى رسومه الحرفية الظاهرة ، إذ هي صادرة عن استعمالها بعينها . فإذا نسيها ، وقد تكيفت النفس بها انتقش الأسلوب فيها كأنه منوال يأخذ في النسيج عليه بمثلها من كلمات أخرى ضرورة .

(٢) الراحة . (٣) جمع بكرة وهو الصباح ووزانه غرفة وغرف

والانتشاء. قالوا: فإن استصعب عليه بعد هذا كله، فليتركه إلى وقت آخر، ولا يكره نفسه عليه، وليكن بناء البيت على القافية من أول صوغه ونسجه، يَضَعُهَا وَيَبْنِي الْكَلَامَ عَلَيْهَا إِلَى آخِرِهِ، لَأَنَّهُ إِنْ غَفَلَ عَنْ بِنَاءِ الْبَيْتِ عَلَى الْقَافِيَةِ صَعِبَ وَضَعُهَا فِي مَحَلِّهَا، فَرُبَّمَا تَجِيءُ نَافِرَةٌ قَلْقَةٌ. وَإِذَا سَمَحَ الْخَاطِرُ بِالْبَيْتِ وَلَمْ يَنَاسِبِ الَّذِي عِنْدَهُ، فَلْيَتْرَكْهُ إِلَى مَوْضِعِهِ الْأَلْتَقَى بِهِ، فَإِنْ كُلُّ بَيْتٍ مُسْتَقِلٌّ بِنَفْسِهِ، وَلَمْ تَبْقَ إِلَّا الْمُنَاسِبَةُ، فَلْيَتَخَيَّرْ فِيهَا كَمَا يَشَاءُ، وَلْيُرَاجِعْ شِعْرَهُ بَعْدَ الْخُلَاصِ مِنْهُ، بِالتَّنْقِيحِ^١ وَالتَّنْقِذِ، وَلَا يَضِينَ^٢ بِهِ عَلَى التَّرَاكُكِ إِذَا لَمْ يَبْلُغِ الْإِجَادَةَ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ مَفْتُونٌ بِشِعْرِهِ، إِذَا هُوَ بَنَاتُ فِكْرِهِ، وَاخْتِرَاعِ قَرِيحَتِهِ، وَلَا يَسْتَعْمَلُ فِيهِ الْكَلَامَ إِلَّا الْأَفْصَحَ مِنَ التَّرَاكُيبِ، وَالْخَالِصَ مِنَ الضَّرُورَاتِ اللَّسَّانِيَّةِ فَلْيَنْهَجْ رُحْمًا فَإِنَّمَا تَنْزَلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ، وَقَدْ حَظَرَ أُمَّةُ اللُّسَّانِ عَلَى الْمُؤَلِّدِ^٣ ارْتِكَابَ الضَّرُورَةِ، إِذَا هُوَ فِي سَعَةِ مِنْهَا بِالْعَدُولِ عَنْهَا إِلَى الطَّرِيقَةِ الْمُثَلَّى مِنَ الْمَلَكَةِ، وَيَحْتَنِبُ أَيْضًا الْمُعَقَّدَ مِنَ التَّرَاكُيبِ جَهْدَهُ، بِحَيْثُ تَكُونُ أَلْفَاظُهُ عَلَى طَبَقٍ مَعَانِيهِ تَسَابِقُ أَلْفَاظَهُ إِلَى الْفَهْمِ، وَيَحْتَنِبُ أَيْضًا الْحَوَاشِي مِنَ الْأَلْفَاظِ، وَالْمَقْصَرِ، وَكَذَلِكَ السُّوْقِيُّ الْمُبْتَذِلُ، فَإِنَّهُ يَنْزِلُ بِالْكَلَامِ عَنْ طَبَقَةِ الْبَلَاغَةِ أَيْضًا، فَيَصِيرُ مُبْتَذِلًا، وَيَقْرُبُ مِنْ عَدَمِ الْإِفَادَةِ، وَفِي هَذَا الْقَدَرِ كَفَايَةٌ لِمُتَعَاظِي صِنَاعَةِ الْإِنشَاءِ.

(عن « ابن خلدون » باختصار)

(١) بالتهذيب .

(٢) بفتح الضاد وكسر ها لا يبخل .

(٣) هو من وجد بعد اختلاط المعجم بالعرب كالعباس بن الأحنف ومن بعده .

فنون الإنشاء

'فنون الإنشاء سبعة' وهي : 'المكاتبات' ، 'المناظرات' ، 'الأمثال' ، 'الأوصاف' ، 'المقامات' ، 'الروايات' ، 'التاريخ'

الفن الأول

في المكاتبات والمراسلات

المكاتبة ، وتعرف أيضاً بالمراسلة ، هي مخاطبة الغائب بلسان القلم . وفائدتها أوسع من أن 'تختصر من حيث أنها 'ترجمان' الجنان ، ونائب الغائب في قضاء أوطاره ^١ ، ورباط' الوداد مع تباعد البلاد . وطريقة المكاتبة هي طريقة 'المخاطبة البليغة مع 'مراعاة أحوال الكاتب والمكتوب إليه والنسبة بينهما ^٢ ، وخواتمها خمس : 'السذاجة' ، 'الجلالة' ، 'الإيجاز' ، 'الملاءمة' ، 'الطلاوة' ^٣ . فالسذاجة : تجعل 'الكلام' فطرياً سليماً من شوائب التكلف ، 'منزهاً عن زخرف' القول ، بعيداً عن بهرجة' الكلام . والجلالة : هو 'العدول' عن الكلام 'المغلق' ، والتشابه 'المستبعدة' ، والتراكيب 'الملتبسة' إلى الكلام 'المهذب الصريح' . والإيجاز : تنقيح' الرسالة من حشو الكلام ، وتطويل 'الجل' ، فيبرزها وافية' الدلالة على المقصود ، مقتصرة' على 'المحسنات' القريبة

(١) الحاجات . (٢) قال إبراهيم بن محمد الشيباني : إذا احتجت إلى مخاطبة أعيان الناس أو أوساطهم أو سوقيتهم فخاطب كلا على قدر أهله وجلالته وعلوم مكانته وانتباهه وفطنته . ولكل طبقة من هذه الطبقات معان ومذاهب يجب عليك أن ترعاها في مراسلتك . فلا تكتب لمن أصيب في ماله أو في عياله كما تكتب لمن فرغ به ووفر ماله . وقال آخر : ان بلاغة الرسالة تستفاد من ملاحظة مقامات الكلام وأوقاته ومراعاة أحوال المخاطبين بالنسبة إلى المتكلم — واعلم أن لكل مقام مقالاً .

(٣) بتثليث الطاء . (٤) مزوره . (٥) العدول عن الجادة المقصودة .

المنال^١ . والملاءمة ، تنزل الألفاظ والمعاني على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، فلا تعطى خسيس الناس رفيع الكلام ، ولا رفيع الناس خسيس الكلام ، على أنها تجعل الرسالة وتعايرها مستعذبة الأوضاع ، حسنة الارتباط ، يأخذ بعضها بأزمة بعض . والطلاوة : تكسب الكلام رونقاً وإشراقاً يجودة العبارة ، وسلامة المعاني ، وسلاسة الألفاظ^٢ ، وتجعله بذلك أحسن موقفاً عند سامعه .

أبواب الرسائل

تنقسم الرسائل باعتبار موضوعها إلى ثلاثة أقسام : الأول 'الرسائل الأهلية والثاني 'الرسائل المتداولة' ، والثالث 'الرسائل العلمية'

الكلام على الرسائل الأهلية

الرسائل 'الأهلية' — وتعرف برسائل الأشواق — هي ما دارت بين الأقارب والأصدقاء ، وأسفرت^٣ عن مكنون الوداد ، وسرائر الفؤاد ، ولا حرج على الكاتب إذا بسط فيها الكلام على أحواله ، وأخفى السؤال في أحوال أصحابه . وتتفرد هذه الرسائل بأن يطلق الكاتب فيها العنان للأقلام ، ويتجافى عن الكلفة ، ويمدح عن الانقباض . وقد قيل : « الأنس 'يذهب' المهابة ، والانقباض 'يضيّع' المودة » . هذا ، ولا بد من مراعاة مقتضى الحال ، والاعتصام بركن الفطنة أخذاً بقول أبي الأسود الدؤلي :

لا ترسلن رسالة مشهورة لا تستطيع إذا مضت إدراكها

(١) ولا يعد مناقضاً للإيجاز ما يستدعيه المقام من البسط في الموضوع : إمام عزيزاً للمعنى وإماماً حذراً من الإبهام ، أو دلالة على عواطف القلب ، أو رغبة في تفكيه الخواطر ، قال الأقدمون : « خير الكلام ما قل ودل » ، ولم يطل فيعمل .

(٢) سهولتها . (٣) كشف . (٤) مستور .

وإلى هذا الباب ترجع مكاتبات الشوق ، والتعارف قبل اللقاء ، والهدايا ، والاستعطاف ، والاعتذار وغير ذلك ولنذكر شذرات من أقوال الكتاب^١ .

الفصل الأول في الشوق

كتب أبو منصور الثعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

شوقي إليك رهين قلبي ، وقرين صدري ، والزعيم^٢ بتعليق فكري ، وتفريق صبري ، وسمير ذكرى ، ونديم فكري ، زادي في سفري ، وعتيادي^٣ في حضري ، لا يستقل به صدري ولا يقوى عليه صبري ، يكاد يكون لزماً ويعد غراماً لا ير حل مقيمته ، ولا يصرف غريمته ، استخف نفسي واستفزها ، وحرك جوانحي وهزها . شوقي أخذ بسمع خاطري وبصره ، وحال بين مؤرد قلبه ومصدره^٤ شوق قد استنفد جلدي^٥ وملك خلدي^٦ ، شوق يراني برني الحلال^٧ ، ومحقي تحق الهلال ، شوق تركني حرصاً^٨ ، وأوسعني مضضاً^٩ أراني الصبر حسرة ، والوجد مينة ويُسرة ، شوق يزيد الأيام^{١٠} توقداً وتأججاً ، وتضرماً وتوهجاً ، نار الشوق حشو ضلوعي ، وماء الصبابة ملء جفوني ، أنا من لواعج الشوق بين غنائم ؛ لا تمطر إلا صواعق وسمائ^{١١} ، قد قدحت كبدي من الحرقنة بهذه الفرقة ، ما يفوت أيسره حد الشكاية^{١٢} ، ويجوز أضعفه كئنه الكتابة ، شوق الروض الماحل^{١٣} إلى الغيث الهاطل .

(١) قد أفردنا للرسائل الأهلية كتاباً خاصاً أسميناه (إنشاء المكاتبات العصرية والمراسلات العربية) وطبعناه عدة طبعات متوالية ، فارجع إليه إذا شئت ولهذا نختصر في هذا الكتاب أبواب الرسائل ونذكر ما تمس إليه الحاجة فقط (٢) الرئيس (٣) ما أعددت له لحادث الدهر (٤) موضع الورود (٥) الرجوع (٦) القوة (٧) القلب (٨) الضعف (٩) مريضاً (١٠) وجعا (١١) بضم الهمزة وكسرهما الدخان (١٢) الرياح الحارة (١٣) المجدب

وكتب في تشبيه الشوق :

ما الأعرابية حنّنتُ إلى نجد ، وأنّنتُ من وجد ، بأشدّ مني كلفاً^١ ،
وأتمّ منّي شغفاً ، أنا في شدة الشوق إليك كالعطشان كُشِفَ له عن ماءٍ عندب^٢ ،
ومُنِعَ منه بمنع صَعَب ، شوق لو فُرّقَ على القلوب الخالية لاشتغلت^٣ ، ولو قُسّمَ
على الأكباد الباردة لاشتغلت^٤ ، أنا أشتاقُك مع كلِّ صباحٍ طالع ، وضياءِ شارق
ونجم طارق^٥ .

وكتب في أثر الفراق :

وَجَدْتُ يَتَكَرَّرُ عَلَى كَرٍّ الْجَدِيدِينَ^٦ ، وَيَسْتَفِرُقُ سَاعَاتِ الْمَوَيْنِ^٧ ، قَدْ تَحَمَّلْتُ
مَعَ يَسِيرِ الْفُرْقَةِ ، عَظِيمِ الْحَرْقَةِ ، وَمَعَ قَلِيلِ الْبُعْدِ ، كَثِيرِ الْوَجْدِ ، قَدْ انْتَشَيْتُ^٨
بِحَسَمِ نَاحِلٍ ، وَصِرْتُ مِنْ صَبْرِي عَلَى مَرَاحِلِ ، فَأَرْقُتَنِي^٩ وَفَرَقْتَ جَمِيعَ صَبْرِي
وَاسْتَصْحَبْتَ فَرِيقاً مِنْ قَلْبِي ، فَرَقْتَ بَيْنَ عَيْنِي وَالرُّقَادِ^{١٠} وَجَنِي وَالْمَهَادِ^{١١} ، مَا أَعُولُ^{١٢}
إِلَّا عَلَى الْعَوِيلِ^{١٣} لَوْ كَانَ يُغْنِي ، وَلَا أَسْتَنْصِرُ غَيْرَ الْوَجْدِ لَوْ كَانَ يُجْدِي^{١٤} ، يَدَيَّ
لَا تُسَاعِدَنِي ، وَخَطَّتِي لَا يُشْبِهُ فِي الدَّقَّةِ إِلَّا بَدَنِي ، لَوْلَا حَصَانَةُ^{١٥} الْأَجَلِ ،
لَخَرَجْتُ رَوْحِي عَلَى عَجَلٍ ؛ فَأَرْقُتَنِي فَتَفَرَّقَ عَنِّي شَمْلُ^{١٦} أَنْسٍ مُنْتَظَمٍ ؛ وَتَمَكَّنَ مِنِّي
بَرَحُ شَوْقٍ مُضْطَرِّمٍ ؛ فَأَرْقُتَنِي فَفَرَقْتَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْبَدَنِ ، وَتَرَكْتَنِي وَالْزَّاعِ فِي
قَرْنِ^{١٧} ، قَدْ صِرْتُ حَلِيفَ وَحْشَةٍ وَإِنْ كُنْتُ ثَاوِيّاً^{١٨} فِي وَطْنٍ ، وَقَرِينَ كَرْبَةٍ
وَإِنْ كُنْتُ بَيْنَ جِيرَةٍ وَسَكَنٍ .

عسى الدهر يُدْنِينَا وَيُدْنِي دِيَارَكُمْ^{١٩} وَيَجْمَعُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمُ الشَّمْلَا

-
- (١) كلفاً مصدر كلف من باب فرح : التغير (٢) الآتي ليلاً (٣) الليل والنهار
(٤) الليل والنهار أيضاً (٥) أسهرتني (٦) النوم (٧) مكان النوم
(٨) رفع الصوت بالبكاء (٩) ينفع (١٠) حفظ وهو مصدر
(١١) قرن وقرن من باب فرح التقى (١٢) مقياً .

فاشكوت بريح الغرام إليكُمو وحرّ جوى يُبلي عظامي وما يبلى

وكتب البسطامي المتوفى سنة ٥٣٣٢هـ .

فلّبي ينار الهوى 'معدّب' شوقاً إلى حضرة 'المهذب'
شوقاً إلى ماجدٍ كريمٍ يخطرُ لي ذكرُهُ فأطربُ

وبعدُ فالعبدُ ينهى من لوّاقح^١ شوقه ، ولوّافح^٢ توقّه^٣ ، إلى شهود
ذاتكم الجميلة ، ومشاهدة صفاتكم الجليلة ، لينشّق عُرْفُكم^٤ الفاتح ، وبخور
عُرْفُكم^٥ الفاتح ، مد الله سبحانه وتعالى ظِلِّكم ، وأدرّ وبلِّكم^٦ وطلِّكم^٧ .

أحبُّ الوعدَ منك وإن تمادى وأقنعُ بالخيالِ إذا ألتا
عسى الأيامَ تسمَحُ لي بوصلٍ وتأخذُ لي من الهجرانِ سُلماً
والجنابُ منذ طوى عنّا أبوابَ مُلّاقاته ، وزوى منّا أطيابَ أوقاته ،
قبض العبدُ عنانَ مقالهِ وخفض لسانَ حالهِ :

شكوت وما الشكوى بمثلِ عادةٍ^٨ ولكن تفيض العين عند امتلائها

فجلس الفراقُ بعظيمِ حجابهِ ، وألِّم عذابه ، على ذرّوةٍ^٩ عرشهِ ،
وافترس بقوة بطشه ، وصار للسرّ جاراً ، وأوقد للحرب ناراً جهاراً :

طوعاً لقاضٍ أتى في حكمهِ عجباً أفنق بيسفكٍ دمي في الحل والحرم

وهذه حالته ، المفصح عنها مقالته^{١٠} :

إنّ الأمورَ إذا التوت وتعمّدت جاء القضاء من الكريمِ فحلّها

(١) الرياح (٢) الرياح الحارة (٣) الشوق الطيب

(٤) الريح الطيبة (٥) نبت يقال له النام طيب الرائحة

(٦) المطر الكثير (٧) الندى (٨) بضم الذال وكسرهما أعلاه .

فلعلَّ يُسرّاً بعد عُسرٍ علّتها ولعلَّ مَنْ عَقَدَ العقودَ يحلّتها

فلعلَّ غروس التّمني قد أثمرتْ ، وليالي الحظّ قد أقرتْ .

سألتُ أحبّتي ما كان ذنبي أجابوني وأحشائي تَذُوبُ
إذا كان المُحبُّ قليلَ حظٍّ فما حسَناته إلا ذُنُوبُ

فرعى الله أياماً لاحت^١ فيها أقنمار^٢ غُرُوزها وفاحت فيها أطرار
طروزها ، من بهاء سماءها ، على منار ضيائها ، من ذات جلالها ، وصفات دلالها ،
في جنّات عواطفها وحنّات تعاطفها .

فإن كنتُ لا أطرقُ^٣ رَحْبَ ، فِنائكم^٤ ، فقد أطرقُ بابَ ثنائكم :

لئن غيبتني عن ذُرّاك حَواذٍ فليس ثنائِي عن فِناك بغائبٍ

وكتب عبد الرحمن محمد بن طاهر المتوفى سنة ٩٣١ هـ :

كتبت - أعزّك الله - عن ضمير انشدَمَج^٦ على سِرِّ اعتقادك دُرّه ،
وتبلج^٧ في أفق ودّادك بدُرّه ، وسالَ على صَفحات ثنائك مسكه ، وَصار
في رَاحتي سَنائك^٨ ملكه . ولما ظفرت بفلان حملته من تحيتي زهراً جنياً ،
يوافيك عَرفه ذِكياً ، ويؤاليك أنسه نُجياً^٩ ، ويقضي من حقّك فرضاً
مأتياً^{١٠} . على أن شخص جلالك لي مائل^{١١} ، وبين ضلوعي نازل^{١٢} ، لا يملّسه
خاطر ولا يمسّه عرض دائر^{١٢} ، إن شاء الله عزّ وجلّ .

وكتب أبو الفضل بن العنيد المتوفى سنة ٨٣٦ هـ .^{١٣}

قد قُربَ (أيدك الله) تحلّلك على تراخيه ، وتَصاقَب مُستقرّك على

(١) ظهرت (٢) مراده ما تخرجه الأغصان من النوار (٣) آتي ليلاً

(٤) المتسع (٥) بكسر الفاء متسع البيت (٦) خفي واستتر (٧) أضاء

(٨) رفعتك (٩) مناجيا (١٠) آتياً (١١) متمثل (١٢) هالك.

(١٣) حاذى وجاور . (٤ - جواهر الأدب ١)

تنائييه ، لأنَّ الشَّوقَ يُمِثِّلُكَ ، والذِّكْرُ يُخَيِّلُكَ ، فنحنُ في الظَّاهرِ على افتراقٍ ، وفي الباطنِ على تلاقٍ ، وفي النِّسْبَةِ مُتَبَايِنُونَ ، وفي المعنى متواصلون ، ولئن تفرَّقتِ الأشباحُ لقد تعانقتِ الأرواحُ .

وكتب بديع الزَّمانِ الهَمْدَانِي المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

بِعِزِّهِ عَلِيٍّ - أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَ مَوْلَايَ - أَنْ يَنْوِبَ فِي خِدْمَتِهِ قَلَمِي عَنْ قَدَمِي ، وَيَسْعِدَ بِرُؤْيَيْهِ رَسُولِي دُونَ وَصُولِي ، وَيَرِدَ مَشْرَعَةَ الْأَنْسِ بِهِ كِتَابِي : قَبْلَ رَكَابِي وَلَكِنْ ، مَا الْحِيلَةُ وَالْعَوَاقِقُ حِمَّةٌ !!

* وَعَلِيٌّ أَنْ أَسْمَى وَلَيْسَ عَلِيٌّ إِدْرَاكُ النِّجَاحِ *

وقد حضرتُ دارَهُ ، وقبَّلتُ جِدَارَهُ ، وما بي حُبُّ الْحَيَاطَانِ ، ولكن شَغَفًا بِالْقُطَّانِ ، وَلَا عِشْقُ الْجِدْرَانِ وَلَكِنْ شَوْقًا إِلَى السَّكَّانِ :

أمرُّ على الدِّيَارِ دِيَارِ سَلَمَى أَقْبَلُ ذَا الْجِدَارِ وَذَا الْجِدَارِ
وَمَا حُبُّ الدِّيَارِ شَغَفَن قَلْبِي وَلَكِنْ حُبُّ مَنْ سَكَنَ الدِّيَارِ

وحينَ عدتُ العَوَادِي عَنْهُ ، أَمْلَيْتُ ضَمِيرَ الشَّوْقِ عَلَى لِسَانِ الْقَلَمِ ، مَعْتَذِرًا إِلَى مَوْلَايَ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَنْ تَقْصِيرِ وَقَعٍ ، وَفُتُورٍ فِي الْخِدْمَةِ عَرَضَ ، وَلَكِنِّي أَقُولُ :

إِنْ يَكُنْ تَرْكِي لِقَصْدِكَ ذَنْبًا فَكُفِّسْ أَنْ لَا أَرَاكَ عَقَابًا

وكتب أبو محمد عبد الله البَطْنَلِيّوسِي المتوفى سنة ٦٢٧ هـ :

يَا سَيِّدِي الْأَعْلَى ، وَعَمَادِي الْأَسْنَى ، وَحَسَنَةَ الدَّهْرِ الْحَسَنَى ، الَّذِي جَلَّ قَدْرُهُ وَسَارَ مَسِيرَ الشَّمْسِ ذِكْرُهُ ، وَمَنْ أَطَالَ اللَّهُ بَقَاءَهُ ، لِفَضْلِ يُعْلِي مَنَارَهُ ، وَعَلِمَهُ يُحْيِي آثَارَهُ - نَحْنُ (أَعَزُّكَ اللَّهُ) نَسْتَدَانِي إِخْلَاصًا ، وَإِنْ تَنَاءَيْنَا أَشْخَاصًا ، وَيَجْمَعُنَا الْأَدَبُ ، وَإِنْ فَرَّقَنَا النِّسَبُ ، فَالْأَشْكَالُ أَقَارِبُ ، وَالْآدَابُ مَنَاسِبُ ، وَلَيْسَ يَضُرُّ تَنَائِي الْأَشْبَاحِ ، إِذَا تَقَارَبَتِ الْأَرْوَاحُ :

نَسِيبِي فِي رَأْيِي وَعِلْمِي وَمَذْهَبِي وَإِنْ بَاعَدَتْنَا فِي الْأَصُولِ الْمَنَاسِبُ

وكتب بديع الزّمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

أراني أذكرُ « مولاي » إذا طلعت الشمس ، أو هبت الريح ، أو نجمَ
النجم أو لمع البرق ، أو عرض الغيث ، أو ذُكرَ الليث ، أو ضحك
الرّوض ، وأنسى ١ للشمس نحياه ٢ وللريح ريتاد ٣ ، وللنجم حُلاه وعُلاه ،
وللبرق سناؤه ٤ وسناه ٥ وللغيث نِداه ٦ ونِداه ٧ ، وفي كل صالحة ذكراه ،
وفي كلّ حادثة أراه ، فحق أنساه ٨ واشدّة شوقاه ، عسى الله أن يجمعني وإياه .

وكتب الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٢٤ هـ :

ما زلتُ أدافعُ النفسَ عما تتقاضاني من شكنوى أشواقها ، وفي
الشكنوى شفاء ، واستنزال أثرٍ من لدنك تتعلّلُ به مسافةُ البين ٨ ، إلى أن
يُنزِلَ الله باللقاء ، ومن دون إجابتها مشاده ٩ قد شغلت الذرع ١٠ ، وشواغلُ
قد أفرغ من دونها الوسع ، إلى أن غلبَ جيش الوجد على معاقل الصبر ،
وزاحمَ مناكب العذوّاء حتى ضربَ أطنابَه ١١ بين الحجاب ١٢ والصدر ،
فاتخذتُ هذه الرقعة أزعجها ١٣ إليك ، وفيها من وقر ١٤ الشوق ما ينوء ١٥
برسولها ، ومن رقّة الصّبا ما يكاد يطيرُ بها ، أو يخلفها فيصافحُ الأعتاب
قبل وصولها ، راجياً لها أن تتلصّقى بما عهدَ في سيدي من الطلاقة والبشر ،
وأن لا يَضنَّ ١٦ عليها بما عودَني من تمهيد العذر ، ويصليّني من بعدها بأنبائه ١٧
الطيّبة ، عائدة عنه بما يكون للناظر قرّة ، وللخاطر مسرّة ، إن شاء الله
تعالى بمنّته وكرمه .

-
- (١) أي من أين (٢) وجهه (٣) رائحة طيبة (٤) الرفعة
(٥) بالقصر الضوء (٦) بضم النون وكسرها أشهر الصوت (٧) العطاء
(٨) البعد (٩) مشاغل (١٠) بسط اليد (١١) الحبل يشد به سرادق البيت
(١٢) لحة رقيقة بين الجنين (١٣) أرفعها (١٤) بكسر الواو الحمل الثقيل
(١٥) يثقل به (١٦) أي لا يبخل (١٧) أخباره .

وكتب أيضاً :

وافاني كتابك العزيز - فأهلاً بأكرم رسول : جاء ببيتات الإخلاص
والوفاء ، مصدقاً لما بين يديه من ذممة الوداد والإخاء ، يتلو عليّ من حديث
الشوق ، ما شهد بصحته سقمي ، وهتف مؤذنه في كل مفصل من جسمي ،
وينكرني من عهدك ، ما طالما أذكرني البرق إذا لمع ، والبدر إذا طلع ،
والقمر^١ إذا سجع ، وإنما عداني عنك : ما أنا فيه من مجاذبة الشواغل ،
ومسورة^٢ البلبل^٣ :

وفي القلب ما في القلب من شجن الهوى تبدلت الحالات وهو مُقيم
وأنا - (على ما بي من غلّ البنان^٤ ، وشغل الجنان^٥) - ما زالت
أنباؤك^٦ عندي ، لا يخطئني بريدها ، ولا ينقطع عني ورودها ، أهنيء
النفس منها بما تتمنى لك من سلامة لا يرث^٧ لها شعار^٨ ، وإقبال لا يعترضه
بإذن الله إدبار^٩ .

وقضاري المأمول في كرمك : أن تعاملني بما سبق لك من جميل الصلة ،
إلى أن يمن الله بالاجتماع ، ويُغني بالعيان عن السماع ، وما ذلك على الله بعزيز .
وكتب أبو العباس الغساني المتوفى سنة ٤٩٨ هـ :

سُرّ إلى مجلس يكاد يسير شوقاً ، وبطير بأجنحة من جواه^{١٠} حق يحل
بين يديك ، فله در^{١١} كاله : إن طلعت بدرأ بأعلاه ، وجماله : إن ظهرت
غرّة^{١٢} بمحيّاه ؛ فهو أفق قد حوى نجومًا نتشوق^{١٣} إلى طلوع بدورها ،
وقطر^{١٤} قد اشتمل على أنهار نتشوق^{١٥} إلى بحرها ، لنستعيد منها - إن
منفت بالحضور ، وإلا فيا خيبة السرور .

(١) طير من جنس الحمام يقال لأنثاه قمرية ، ولذا ذكر ساق أحمر .

(٢) ملابس (٣) الأحزان (٤) الأصابع (٥) القلب

(٦) أخبارك (٧) لا يبلى (٨) كلمة تعجب (٩)

وكتب الصاحب إسماعيل بن عبّاد المتوفى سنة ٣٨٥ هـ :
 مجلسنا يا سيدي مُفتقرٌ إليك ، معولٌ في شوقه عليك ، ولقد تورّدت
 خُدودُ بِنَفْسِهِ ، وَفَتَقْتُ فَأَرَّةً نَارِجَةً ١ ، وانطلقت ألسُنُ الأوتار ، وقامت
 خطباءُ الأطيّار ، وهبتُ رِيّاحُ الأقداح ، ونفقتُ ٢ سُوقُ الأُنسِ والأفراح .
 وقد أبتُ راحته أن تصفوَ إلا أن تتناوَلها يَنّاك ، وأقسم غناؤُهُ لا طيبَ
 حقٍ تَعِيهِ أَذُنّاك ، ووجناتُ أترُجَةٍ قد احمرّت خجلًا لإبطائك ، وعُيونُ
 نرجسِيَةٍ قد حَدَقَت ٣ ، تأمِيلاً للقائك ، ونحن لغيبتك كعقد ذَهَبٍ
 واسطته ٤ ، وشباب قد أخذتُ جُدَّتَهُ ٥ ، وإذا غابت شمسُ السماء عَنّا ، فلا
 أن تَدْنُو شمسُ الأرض مِنّا . فإن رأيتَ أنْ تحضر لتتصل الواسطة بالعقدِ ،
 ونحصلَ بك في جَنّة الخُلد . فكن إلينا أَسْرَعَ من السَّهم في مِرّة ، والماء إلى
 مَقَرِّهِ ، لئلا يخبث منْ يومي ما طابَ ، ويعود منْ نومي ما طار .

وكتب أبو بكر الخوارزمي - المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :

كتّابي : وأنا بما يبلُغني من صالح أخبار (السيد) مُغتبطٌ مسرورٌ ، وبما
 يعرفهُ الزمانُ وأهلُه من اعتضادي ٦ به مَصُون موفور ، والله على الأولى محمودٌ ،
 وعلى الأخرى مشكور ؛ التَّطَفُّل وإن كان محظوراً في غير مَوَاطِنِهِ ؛ فإنّه
 مباحٌ في أَمّاكِنِهِ . وهو وإن كان في بعض الأحوال يجمع عاراً ووَزْراً ، فإنّه في
 بعضها يجمع فخرًا وذخراً ، وربّ فعلٍ يصاب بهِ وقتُهُ فيكونُ سُنَّةً ، وهو
 في غير وقتِهِ بدعةٌ ، وقد تطفّلت على « السيد » بهذه الأحرف ، أخطب بها
 مَوَدَّتَهُ إليه ، وأعرض فيها مَوَدَّتِي عليه وأسأله أن يرسم لي في لساني وقلبي
 رَسْمًا ، ويختم عليها خَتْمًا ، فقد جعلتها باسمه وقصرتها على حكمه ، وسأضعها

- | | | |
|-----------------|------------------------------------|----------|
| (١) فجّات المسك | (٢) ثمر ، معرب بربك | (٣) راجت |
| (٤) تأقت | (٥) الجوهرة التي في وسطه وهي أجوده | |
| (٦) الطريقة | (٧) استعاني . | |

تحت ختمه ، وبرئت إليه منها ، وصيرت وكيله فيها ، فنهها على غيره حمى^١
لا يُقرب ، و'بجيرة'^٢ لا تحلب ، ولا تركب . ولما نظرت إلى آثار السيد على
الأحرار ، ونشيت طيراز محاسنه من أيدي القاصدين والزوار ، ورأيت
نفس غفلا^٣ من سمعة^٤ مودته ، وعطلا^٥ من جمال عشرته حميتتها من أن
يحمي عليها ورد مؤرود ، ويحسر^٦ عنها ظل على الجميع ممدود ، وعجبت
من :

سحاب خطاني جوده^٧ وهو صيب^٨ وبحر عداي سيله وهو مفعم^٩
وبدر أضاء الأرض شرقاً وغرباً وموضع رجلي منه أسود مظلم
كتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

مولاي: أمّا الشوق إلى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم^{١٠}
وردة صميم^{١١} ، وخلة لا يزيدوها تعاقب الملوك^{١٢} وتالتق^{١٣} النيرين^{١٤} إلا
وثوقاً في العرى ، وإحكاماً في البناء ، ونماء في الفيراس وتشبيهاً في الدعائم^{١٥}
ولا يظن سيدي أن عدم ازدياري^{١٦} ساحته الشريفة واجتلائي طلعتة المنيعة
لتقاعس^{١٧} أو تقصير ، فإن لي في ذلك معذرة اقتضت التأخير ، والسيد
(أطال الله بقاءه) أجدر^{١٨} من قبل معذرة صديقه وأغضى عن ريث^{١٩}
استدعته الضرورة .

١ وبعد) فرجائي من مقامكم السامي أن لا تكون معذرتي هذه عائقاً لكم
عن زيارتي فللكم منناً طوقتمونيها ، ولكم فيها فضل البداءة ، وعلي
دوام الشكران . والسلام .

- (١) محذور (٢) الشاة التي إذا نتجت عشرة أبطن شقوا أذنفا فكانت
حراماً لحما ولبنها وركوبها (٣) من لا علامة عليه (٤) العلامة (٥) من لا حل
عليها (٦) يتكشف (٧) المطر الشديد (٨) ذو المطر (٩) الممتلئ
(١٠) القريب الذي يهتم لأمره (١١) الخالص (١٢) الليل والنهار
(١٣) المعان (١٤) الشمس والقمر (١٥) الأركان (١٦) زيارتي
(١٧) التأخير (١٨) أحق (١٩) البطء .

وكتب المرحوم محمد بك دياب المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ :
 كتابي إليك : وقد طال بي الانتظار ، وشوقي يحلُّ عن الكيف والانحصار
 فشخصك دائم المثل ١ أمام إنساني ٢ ، وعن سواك من الأخلاء ألهاني
 وأنساني . فله أيام قضيناها ، وليالٍ من الدهر اختلسناها ٣ ، كان السرور فيها
 ضارباً خيامه ، والأنس ناشرأ أعلامه — طُوي بساطها ، وكانت الأمر ما
 كان غير أنها زرعَتْ بفؤادي شجرة الأشجان ٤ ، لكن عودها حليف
 أو بتك ٥ وتجدها رهين إشارتك . فمق يقرب المزار ، وتنجلي سحب
 الأكدار ؟ فاضرب لعودك أجلاً ، فالعود لاشك أحد ، واكتب بقربك وصل
 فالوصل أضمن للعهد ، وعهدي من خُلقك الوفاء ، وحسن الولاء ، فلا تجعل
 صفة ٦ شوقي إليك خسرأ بل هبني بعد العسر يسراً .

وكتب وفاء أفندي محمد المتوفى سنة ١٣١٩ هـ :

أما بعد سلامي عليك ، فهذا كتابي إليك ، 'ينبشك' ٧ عني وعن شوقي وعن
 ودّي ٨ ولا أزيدك علماً أني ما كتبت من دواء ، ولا أجريت عليه قلماً ،
 ولكنها دموع وشوق سالت على القرطاس ، وجرت على حركات الخواطر
 والأنفاس وهبت عليه حرارة كبدي بالأشواق ، ووجدني بالفراق ، فبينما هي
 عقيقة حرام ، إذ صارت فحمة سوداء ! ألا وإن كتابي هو قلبي ولساني . أما
 تراه على رقته ، ولطف عبارته ، وصدق طويته ، بين يديك مقبلاً عليك ؟
 ينشره الشوق ويطويه ، لا يخفي عليك أمراً ولا يكتُم عنك سرأ ، وتلك
 صفات لساني وقلبي معك . فما الذي أبتغيته بعد ؟ ! وقد بعثت إليك بالأصغرين ٩ !
 وما أنا إلا بهذين ! نعم أرجو بقاءك ، ممتاً بنعمائك ، لأكون على الدوام محل

(١) القيام منتصباً (٢) إنسان عيني وهو ما يرى في السواد (٣) انتهزنا فرصتها

(٤) الأحزان (٥) رجوعك (٦) أصلها لعقد البيع

(٧) يخبرك (٨) بتثليث فائه (٩) القلب واللسان .

نظرك والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

كتابي لديك ، يصفُ شوقي إليك ، ولا يخفى عليك ، فخذ فارقتني فرقت
بين أنسي ونفسي ، بل بين رُوحِي وجسمي . ولا تعجب إذا كنتُ أغدو
وأروح فالطيرُ يمشي من الألم وهو مذبح ، وإنسي أشكو إليك من ألم الوحشة
غراماً لا يشعر به إلا من ذاق أنسك وعرفَ مقدارَ نفسك وشاهدَ جمالَ
لطفك ، ورأى كمالَ أدبك وظرفك . ولقد أودع الله في شخصك نوراً
لعيني ، وفي حديثك سروراً لفؤادي ، وفي صفاتك ترويحاً لرُوحِي ، وفي كرم
خُلُقِك تفريحاً لنفسي :

وإذا وصف الناسُ أشواقهمُ فشوقي لوجهك لا يوصفُ

فعندي لك من المحبة والشوق ، والتلهف والتوق ، ما لا يصفه الواصفون
ولا يُعبّر عن حقيقته العارفون :

الشوق فوق الذي أشكو إليك وهل تخفى عليك صباباتي وأشواقي ؟

فيا شوقي لي لُغتيك ! وواللهي على جمال 'محيّاك' اقيدت أُملي عن
سواك وبهرت ناظري بنظرة سناك وكسرت جيش قرارِي ؛ وتركتني لا
أفرق بين ليلي ونهاري :

فؤادي والهوى سِلْمٌ وحربٌ وسُلواني أقامَ على الحيادة
وشوقي كَامِلٌ ما فيه نقصٌ فلستُ عليه أطمع في الزيادة

فليت شعري ، ماذا أصنع في شوقي أنا مدفوعٌ إليه من صادق حي ،
بعوامل صادفت منى قلباً خالياً ، فتمكّنت بالتعارف ، ولم تدع للسُلوان
سبيلاً ؟

عرفت هواه قبل أن أعرف الهوى فصادف قلباً خالياً فتمكّنا

إي ورربي ، إن شوقي إليك شوقُ الظمآن إلى برْد الشراب ، وحنيني لك
حنينُ الشيخ إلى زمن الشباب ، فما الإبلُ وقد حنّست إلى أعطانها ، والغرباءُ وقد
أنّست إلى أوطانها ، بأعظم منّي حنيناً ، ولا أكثر أنيناً

ولكنّ التفرّق طال حتى توقّد في الضلوع له حريق

فكلّمنا نخطرُ ببالي ، في أي وقتٍ من الأوقات ، يمثّل لي التذكّر منك
منك محاسنَ ولطائفَ ، تجذبني ميلاً إليك ، وتطربني شغفاً بك واغتياباً
بإخائك ، فلا عجب أن كان شوقي لرؤيتك عظيماً ، لأنه كما قيل « من كرم
الرجل حنينه إلى أوطانه ، وشوقه إلى إخوانه » :

يا خلاصَ الأسير يا صحبةَ المُدِّف يا زوارةً على غير وعدٍ
يا نجاةَ الغريقِ يا فرحةَ الأوْبَةِ يا قفلةَ أنتِ بعدُ بعدُ
إرض عني فدتك نفسي إني لك عبدٌ أذلُّ من كلِّ عبد

ناشدتك الله أن ترفقَ بحالي ، وتعيدَ وصالي ؛ وارْعِ الودَّ القديم ، وأبدلْ
شقاءَ محبتك بالنعيم ؛ وأغمد سيفَ ظلمات القطيعة المسلولة ، وأوف بالعهد إن
العهد كان مسئولاً .

الفصل الثاني في التعارف قبل اللقاء

كتب أبو منصور الشعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

نحن في الظّاهر على افتراق ، وفي الباطن على تلاق ، نحن نتناجى
بالضائير ونتخاطب بالسرائر ، إذا حصل القُربُ بالإخلاص ، لم يضُر البُعد
بالأشخاص ، أنا أناجيك بخواطر قلبي ، وإن كان قد غاب شخصك عني ، إن
أخطأتك يدي بالمكاتبة ، ناجاك سرّي بالمواصلة ، ربّ غائبٍ بشخصه حاضرٌ

مخلص نفسه . إن تراخى اللقاء ، فإننا نتلاقى على البعاد ، ونتلافى ^١ نظر العين بالفؤاد .

وكتب أيضاً :

أنا أشتاقك كما تشتاق الجنان ، وإن لم تتقدم لها المينان ، أنا وإن كنت ممن لا يسعد بلفائك ، فقد اشتمل عليّ الأنس ببقائك ، والشوق إلى محاسنك التي سارت أخبارها ، ولاحت آثارها ، لا زالت الأيام تكشف لي من فضلك ، والأخبار تعرض عليّ من عقلك ، ما يشوقني إليك ، وإن لم أرك ، ويزيدني رغبة في ودك وقد سمعت خبرك .

وكتب الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

كما أن شغف ^٢ الجنان ^٣ بالحسن والإحسان ، تكون داعيته المشاهدة وتسريح الأنظار ، في محيّا الكمال ، ومُجتلى الجمال ، فتتري العين من تلك الفرّة ، ما يملؤها قِرّة ، فكذلك السماع يستدعي هذا الشغف ؛ فيتأثر الفؤاد بما يشغف ^٤ الأذن ، مما تهديه إليه طرائف ^٥ الأخبار ، حتى كأن حاسي السمع والبصر في ذلك صنوان ^٦ ، بل أخوان في هيكل هذا الجشّان ^٧ . وقد يعلم السيد (أطال الله بقاءه وأدام ارتقاءه) أن ذلك الأمر (أي الشغف بالسماع) ليس بالحديث العهد ، ولا القريب الجدة ^٨ ، بل هو أمر عُرِف قديماً أن يهدي السماع إلى سويداء القلب لاعج ^٩ الحب سمره ^{١٠} من الأنباء ^{١١} عُرِف ^{١٢} شميم ^{١٣} فتهيم ^{١٤} بمجرد استنشاق ذلك الشميم ^{١٥} حتى يقول الشاعر العربي :

* والأذن تعشق قبل العين أحياناً *

- (١) نتدارك (٢) دخول الحب في غلاف القلب (٣) القلب (٤) يزين (٥) المستملحة (٦) هافرعا الذخلة (٧) بالثناء والسين والجسم (٨) الخطوة (٩) المتردد (١٠) أوقده (١١) الأخبار (١٢) الريح الطيبة (١٣) مشموم (١٤) تذهب (١٥) المرتفع .

أَجَلٌ^١ ! والقُدْرَةُ في هذا المعنى ، والأس^٢ لذلك المَبْنَى ، قوله صلى الله عليه وسلم : « إني لأشتمُّ نفسَ^٣ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ الْيَمَنِ ، لما أَمَلَّتْهُ العِناية الرَّبَّانِيَّةُ ، والمَلِكُ الرَّوْحَانِي ، على قلبه الشَّريف من نَبَأ^٤ القرني^٥ أُويس^٦ ، ولم يكن رآه بعد .

ألا وإن محاسن السَّيِّد الأجل ، لما سارت بها الركبان ، وأثنى عليها كلِّ لسان ، ما بين أخلاق أبيه من الرِّوض النَّضِير^٧ ، وأعرّاق أشهى من عذيب النَّمِير^٨ قد احتلت من فؤادي ، لا أقول منزلاً رحيباً ، ولا وادياً خصيباً ، بل منزلة شماء^٩ ، ودائرة^{١٠} عُلَيَّاء ، وأوجاً^{١١} بطوالها السَّعيدة يُسْتَعَد ، ويلوح بها من ذكراه كلِّ حين فَرَقْد^{١٢} فلم أنشَبْ^{١٣} أن قدّمت كتابي هذا لمولاي بين يدي اللِّقَاءِ علته أن يسمح به الزَّمان ، وتُسَفَّر^{١٤} عنه الليالي والأيام لِيَسْتَأْخِذَ^{١٥} لي رِيَّ الفؤاد بما أرويه من حديث زيد الخيل ، الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد الخير ، وقال له : « ما وُصِفَ لي أحد فرأيتُهُ إلا وجدته دونَ ما وصف لي سِوَاكَ ، وإن فيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ : الحلم ، والأناة » . مقتدياً بالإمام (محمود جار الله) في تقديم هذا الحديث الشريف ، على ما أنشده إياه (الشريف بن الشَّجَرِيّ) أوّل ما لقيه ، وكان قد تحابَّ بالسماع :

كانت مُسَاءَلَةُ الرُّكبان تخبرنا عن جابر بن رباحٍ أَطِيبَ الْخَبَرِ
حتى اجْتَمَعْنَا فَلَاحَ اللهُ مَا سَمِعْتَ أَذُنِي بِأَحْسَنَ مِمَّا قَدْ رَأَى بَصَرِي

-
- (١) حرف جواب مثل نعم (٢) الأصل (٣) كناية عن الوجي
(٤) الخبر (٥) نسبة إلى قرن وهي قبيلة (٦) هو سيد التابعين أويس بن عامر قتل في واقعة صفين مع علي كرم الله وجهه وخبره قوله صلى الله عليه وسلم يأتاكم أويس بن عامر مع أعداد اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرئ منه إلا موضع درهم وله والدته هو بها بار ولو أقسم على الله لأبره (٧) الحسن (٨) الماء الزاكي (٩) مرتفعة (١٠) دارا (١١) علوا (١٢) النجم (١٣) لم تزل (١٤) تكشف (١٥) يعطي .

وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م :

يعلم الله ما عندي من الشوق إلى لقاء السيد ، وإن لم يرَ البصر ، والشوق إلى شهوده ، وإن لم يكتحل بإثمد^١ محاسنه النظر ، والشغف^٢ بسماع الحديث منه ، كما سمعته عنه ، فقد سبقت^٣ ذكرى محاسنه إلى السمع ، ووصل خبر^٤ لظائفه إلى النفس (وما المرء إلا ذكره^٥ وما أثره^٦) وحسدت العين^٧ عليه الأذن^٨ وودت^٩ لو أنها السابقة إلى اجتلاء رقائقه ، وشهود حقائقه

* فللعين عشق^{١٠} مثل ما يعشق^{١١} السمع *

لا جرم أن ما تعارف من الأرواح ائتلف ، وما تناكر منها ، كما قيل ، اختلف ، ونحن - وإن بعدت^{١٢} بيننا الشقة^{١٣} ، ولم يسبق لنا باللقاء عهد^{١٤} - فاحمة^{١٥} الأدب تجمعنا ، ووحدة الوجهة تضمنا ، ولحمة^{١٦} الأدب أقوى من لحمة^{١٧} النسب ، وجامعة الوجهة فوق اجتماع الوجوه ؛ وقد رأيت أن أزدلف^{١٨} إليك بالمكاتبة ، وأتوسل إلى شرف التعرف بالمراسلة ، حتى لم يبق في الصبر على الافتراق مسكة^{١٩} ، ولبي الجسم دعوة^{٢٠} الروح ، فاندفع^{٢١} إلى طلب الاجتماع ، أكون قد مهدت^{٢٢} له سبيلا ، ووطأت^{٢٣} له طريقا ، فلا تبهرني^{٢٤} فرحة^{٢٥} اللقاء ، ولا يغرني^{٢٦} طرب^{٢٧} الظفر ، فمن فرح^{٢٨} النفس ما يقتل^{٢٩} ، ومن نشوة^{٣٠} الروح ما يزهق^{٣١} الأرواح .

فإن رأى السيد أن يكتب عبده^{٣٢} ، ويعتقه من رق^{٣٣} الفرقة ، عجل يجواب هذا الكتاب ، ليعلم العبد أن نيقته صادقت^{٣٤} قبولاً ، وأن وسيلته

(١) كحل بالحجاز (٢) بالضم والكسر الناحية (٣) قرابته (٤) أتقرب (٥) قوة أو عقد (٦) بالتخفيف والتشديد هيأت (٧) لا تغلبنني (٨) لا يعلوني (٩) بفتح النون وكسرهما السكر (١٠) الخمر (١١) وجدت

اتخذتُ إلى سيدي سبيلاً ، قَرَّبَ اللهُ زَمَنَ اللِّقَاءِ وَقَصَّرَ أَمَدَ النِّوَى ^١ ،
حتى أنشيد في الختام :

تطابق الخبرُ في عليك والخبرُ وصدق السمعُ في أو صافيك البصرُ
وكتب أحمد أفندي سيمر المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

يعلم سيدي أن المودة لا تباع ولا تشرى ، وإنما هي نتيجة الاجتماع
والتعارف ، وقد خُلِقَ الإنسان مضطراً إليهما ، لأن انتظام العمران
عليهما موقوف ، ولهذا شهد العيان بأن المنفرد بأعماله المستبد بآرائه ، عرضة
للخطأ ، مظنة لعدم الثقة ، بخلاف ما إذا كان الاشتراك في الفكر قاعدة
للعمل فلا بد أن الصواب يتمحض منه ، لضعف التفرد وقوة الاجتماع ، إذ لا
جرم أن المرء كما قيل : « قليل بنفسه كثير بإخوانه » .

وقد سمعتُ عن السيد ، وقرأت من آثاره الماثورة ما حبه إليّ ، وشاقني
للتعريف به ، لنسنترك في منفعة تبادل الأفكار ، فإني لا أكتفي بمجرد
السمع ولا أقول : « أن الأذن تمشق قبل العين » ، وإنما هي جارحة صغيرة -
ولكن كلي مبالٍ إليه ، محبٌ لاستجلاء مرآة ، عالمٌ أني إذا دخلتُ إلى
مودته من باب التلاقي ، لا أجد دهري

يقرب مني كل شخص كرهته ويبعد عني من إليه أميلُ
فإن لم يتيسر أن يراني أو أراه . فليسعدني ببضعة أسطر تضمن لي رضاه
عن هذه المعرفة الترسلية . لنترأى بأعين الطروس ^٢ ، قبل أعين الرؤوس ،
وتتجاذب أحاديث المراسلة ، إن عزت المقابلة ، وقد وقفت عليه خالص
وُدِّي ، واخترتُه من بين رجال العصر ، سعيًا لكسب المعالي بمعرفته . فكلُّ

أمرى بما كَسَّبَ رَهْنٌ ١ ، وأن لَيْسَ لِلنَّاسِ إِلَّا ما سَمَى
عن المرء لا تسألْ وَاَسَلْ عن قَرِينِهِ فكل قرين بالمُقَارَن يقتدي
وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

لم أكن فيما أكتبه لك إلا سارياً في ليل التعارف على ضياء خِلَالِكَ ٢ ، التي
أملأها على لسان المدح ، الذي شرّق وغرّب ، وطبق الأرضَ صيته ، وإني
وإن لم أكن أَسْعِدْتُ من قبل باجتلاء طلعتك الزاهرة ، واجتناء مُمَّا كَهْتِكَ
الفضة ٣ ، فقد دلّني على الليث زئيره ، وعلى البحر خريره ٤ ، وعلى العقل
أفره ، وعلى السيف أفره ٥ . ولئن لم تجمعنا لحمه ٦ النسب ، فقد جمعنا حرفة
الأدب ، أو لم يضمننا قبل مصيف ٧ وشرّ تبع ٨ ، فالطيور على أشكالها تقع ، وشبه
الشيء مُنْجَذِبٌ إليه ، وأخو الفضائل هو المُعْتَوَّل عليه .

وهذه الرقعة وإن وصفت لك بعض ما أنا مطوي عليه من التهافُتِ على
رؤيتك ، والليل إلى صداقتك ، فَقَلَمًا تَنْتُوبُ عن المشافهة ، أو تقضي حاجات
في النفس طالما تردد صداها . وفي ظنّي أن (سيدي) يودّ ما أودّه . وعا
قليل يُسفر صبحُ اللقاء ، ونتجاذبُ أهْدَابِ المعرفة ، وأرى من (سيدي)
فَتَوْق ما توسمته وسمعته ، ويرى مني ما يرضيه والسلام .

وكتب الشيخ طه محمود المتوفى سنة ١٣٢٥ هـ :

أيها (السيد) العزيز الجنب ، العزيز الآداب :

قد علمت - ولا أزيدك علماً ، زادك الله ولا نقصك - أن الإنسان كما اشتق
اسمه من الأُنس ، كذلك جُبل عليه مسماه ، وأن المجتمع الإنساني عقد يتحلى

(١) مرهون (٢) مصادقتك وإخائك (٣) اللينة (٤) صوته

(٥) صوته أيضاً (٦) جوهره (٧) القرابة .

به صدر الزمان ، نظامه متآلف ، ووساطته ^١ التعارف ، فهذان الأمران هما قطب المدار في هذه الدار ، لهذا العالم ، من لدن آدم ، وليس إلا بهما يحسنُ الحال وينعم البال ، وتدرّ ضرور المنافع ، وتتنجّر عيون الفوائد ، ومن ثم كان أوفر الناس حظاً من مغنم الإنسانية ، من يآلف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا ... ولا ، وناهيك بخلق امتن الله به على عباده ، إذ قال عز من قائل : « وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا » .

ذلك - (أيها السيد) هو الذي بعثني أن أكتب إليك ، أستفتح باب مودتك بمفتاح الترسل واستصبح في سبيل صحبتك بمصباح التوسل ، لا أبالي بما ينسب إلي ويُلْتَقَمُ عليّ ، ممن عسى أن يقول : مالك ولهذا الفضول ! وكيف تتطفل على مأدبة أدبية لم تدع إليها !! وهل هذا منك ألا أشبه بالتبرج ^٢ لغير خاطب ؟

أيها المنتقد : هون عليك ما تجد ، فلو علمت أن ظل الآداب شامل ، ودعوة المودة الجفلى ^٣ لا يذاد ^٤ عنها واغيل ^٥ : لأسرعت معي الى الوغول ^٦ ، ولم تر في التودد إلى أهل الفضل من فضول . وأي عيب على النكرة في التحلي بجلية المعرفة ؟ ومصاحبه الأعلام ؟! أما سمعت قول القائل :

بصُحبتك الكرام تعدُّ منهم وتأمن من مُلَمَّات الزمان !

وكيف أضع نفسي بحيث يقول الأول :

دع المكارم لا ترحل لبُغْيَتِها ^٧ واقعد فإنك أنت الطّاعم الكاسي !

وشتان ما بين الرجلين : رجل يهوى المكارم وبقيها ، ويدتغي المناقب

(١) الجوهرة التي في وسط العقد وهي أجوده (٢) إظهار المرأة زينتها

للرجال (٣) العامة للجماعة (٤) لا يطرد (٥) المتطفل

(٦) التطفل (٧) بكسر الباء الطلب وبضمها الحاجة .

وذَوِّبْهَا ، وَيَقِفْ نَفْسَهُ عَلَى مَسْأَلَةِ يَعْلَمُهَا ، وَفَضِيلَةَ يَتَحَلَّى بِهَا ، وَآخِرُ بَيِّنَاتٍ وَجْهَهُ
المصون ، فِي مِلَّةِ الْحَقَائِبِ ١ وَالْبَطُونِ !

هذا : وَقَدْ رَجَوْتُ أَنْ أَكُونَ الرَّجُلَ الْأَوَّلَ بِصَحْبَتِكَ « أَيُّهَا السَّيِّدُ » فَسَمَّ
رُؤْيِي لَنَا مِنْ أَحَادِيثِ فَضَائِلِكَ الصَّحَاحِ ، وَتَلَّى عَلَيْنَا مِنْ آيَاتِ فَضَائِلِكَ الْحَسَنِ ،
مَا ٢ أَشْخَصَ إِلَيْكَ الْقُلُوبَ قَبْلَ قَوْلِهَا وَأَوْفَدَ عَلَيْكَ الْأَرْوَاحَ قَبْلَ أَشْبَاحِهَا ،
وَأَعْجَلَنِي أَنْ أَكْتُبَ إِلَيْكَ بِهَذَا الرَّقِيمِ ، التَّمَسُّ بِالتَّعَرُّفِ إِلَى جَنَابِكَ الْكَرِيمِ ، مَا
التَّمَسُّ الْكَلِمَ مِنْ صَحْبَةِ ذِي الْوَجْهِ النَّصْرِ ٣ ، أَبِي الْعَبَّاسِ الْخَضِرِ . وَإِنِّي وَلِمَنْ
كَنْتُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ مَنْ آمَنُوا بِالْغَيْبِ ، وَلَيْسَ عِنْدِي فِي صَدَقِ هَذِهِ الْآيَاتِ مَرِيَّةٌ ٤
وَلَا رَيْبٌ ، بَيِّنَةٌ ٥ أَنَّ لِلصَّحْبَةِ فَضْلًا لَا يَنْكُرُ ، وَلِلْمُؤَاخَاةِ مَزِيَّةً لَا يَتَّارَى ٦ فِيهَا
اثنان :

فَإِذَا وَرَدَ عَلَى السَّيِّدِ كِتَابِي هَذَا : وَانْشَرْحْ صَدْرَهُ - شَرْحَ اللَّهِ صَدْرَهُ - إِلَى
إِجَابَةِ سُؤْلِي ، وَارْتَأَحَتْ نَفْسُهُ إِلَى اصْطِنَاعِي كُتِبَ إِلَى عَبْدِهِ بِمَا يَكُونُ آيَةً
جَلِيَّةً عَلَى ارْتِبَاحِهِ ، لِتَحْقِيقِ هَذِهِ الْأَمْنِيَّةِ

حَتَّى أَقُولَ لَوْجَهُ آمَالِي ابْتِهَاجٌ ٧ لِأَوْلَيْتَيْكَ قَبِيلَةً ٨ تَرْضَاهَا

وَكُتِبَ الْمَرْحُومُ مُحَمَّدٌ بَكْ أَبُو النَّصْرِ الْمَتُوفِي سَنَةِ ١٩٣٠ م :

إِنْسَانُ الْعَيْنِ ، وَعَيْنُ الْإِنْسَانِ :

المودة - وَصَلَ اللَّهُ بِأَجْفَانِ الْأَشْوَاقِ أَهْدَابَهَا ، وَفَتَحَ لَنَا أَبْوَابَهَا - أَمْرٌ عَزِيزٌ
الْمُرْتَقَى ، عَلَى مَنْ يَصْطَفِي صَدِيقَهُ ، وَيَرْعَى حَقُوقَهُ ، وَإِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ
بِرِسَالَتِي هَذِهِ ، وَعَهْدِي بِكَرَمِ سَجَايَاكَ أَنْ تَصَافِيحَهَا بِرَاحَةِ الْقَبُولِ ، وَتَتَّخِذَهَا
فَاتِحَةً وَدَّ طَارَتْ بِهِ إِلَيْكَ رِيَّاحُ فَضْلِكَ ، بَعْدَ مَا مَثَلَتْ آيَاتُهُ لَكَ فِي الْقُلُوبِ
مَعْنَى ظَهَرَتْ فِي مَرَاةِ الْأَعْيُنِ صُورَتَهُ .

(١) الزكائب (٢) ما : فاعل روى (٣) الحسن (٤) شك (٥) غير (٦) لا يختلف

فإنْ أبيتَ ودادي غيرَ مكترِثٍ فعنك ما دُمتُ حيًّا لا أرى بدلا

وحاشاك عن مثل ذلك الإباء، ونحن وإن لم نحفظ أشباحنا باللقاء، فأرْ واحنا من قبل جنود، وأعياننا شهود، فإن أنت منحتني ولاء خالصا، وإخاء صادقا، (وإلا فهبني أمرءا هالكا) ولا إخالك ترضاه، وإن كنت المتطفل على مائدة مودتك، فلي نفس أديب لا ترى العز إلا في الترامي على ذرى الكمال، لا رلت على مرقي الجلال، والسلام .

وكتب الفاضل السيد محمد الببلاوي :

سيدي : إن مكارم الأخلاق ومعالي الهيم مما تسترقُّ القلوب ، وتسرقُ العقول ، وتمتلك الأرواح ، وإن لم تتلاقِ الأشباح ، فإنني منذُ سرى إليّ النسيم بأخلاقكم الغراء ، وابتسم لي نغمة هذا العصر عن آثاركم الزهراء ، وتواترت الأخبار بجمكم للفضل وأهله ، وارتياحكم للعلم وذويه ، وأنا مشغوف الفؤاد بالتعرف بسيادتكم ، مشغول البال بالتوسُّل إلى رياض مودتكم . وِلعلمي أن للصدّاقة حقوقا ، وللمُصاحبة شروطا ، ربما صعبت على من حولها ، وعزّت على من أراد الوفاء بها ، كنت أرى الوحدة لي أوّلى ، والانفراد بي أسلم ، ولكن ما زالت تنمي إليّ أحاسنُ شمائلكم المشرفة ، وتتواردُ على مسامعي بحاسنُ سيركم المطهرة ؛ فيتنمو الوجد ويزداد الشوق « والأذن تعشق قبل العين أحيانا » ، وما كنت أجدُ سبيلا للتعرف ولا سببا للتودّد ، ولا تجسر نفسي على المراسلة ابتداءً : إلى أن رأيتُ سيدي قد اهتم للأدب فأعلى منارة ، ونظرَ للإنشاء فرفع مقداره ؛ ونصر دولته وأحيا صوّلته ، وأعاد شبابهُ ، وفتح لأدباء هذا العصر بابهُ فعلمت أنّ الدهر قد ساعدني ، والفرصة قد امكنتني من مُصافحة ما أملتُ ومُصافاة ما أردت ، من اجتناء ثمار مودة سيدي ، والتعرف به

(١) تزيد .

(هـ - جواهر الأدب ١)

والتمسك بأهداب فضائله والتزوّد من آدابه، فإن الأدب أحسن ما يُستصبح بأنواره^١، وأشرف ما يتسابق لاقتطاف أثماره^٢ ويُحَمَّدُ التطفّل على موائده، ويمدح التنافس في التيقاط فوائده، فجعلت طلب الانتظام في سلك أرباب الأعلام وسيلة لوُرودِ عذب وِداده، ونمير^٣ التعرّف به، فإن رأى سيدي أن يعمد نفس حرّ في عِدَاد معارفه، ويُقابل رسالته بما اشتهر من لطائفه حتى تتمتع بالرؤية الأبصار، كما تمتعت السامعُ بطبيب الأخبار، كنت مُدِيمَ الشكر لأفضاله، مُستمرّ الشناء على كماله.

وكتب الشيخ عبد الكريم سلمان المتوفى سنة ١٣٣٦ هـ :

أما بعد - فهذه رسالة أكتبها إلى من لم تكن لي به جامعة جسمية، ولم تضمني راياهُ حفلةُ تعارف شخصية، وهي وإن كانت في عُرْفٍ غيري تعدّ مُجْزِئاً، أو تُحَسِّنُ فُضُولاً، إلا أني أعتقِد أنها أوفِدَتْ على كريم بكرم وفادتها ويتقبّل ما تهديه إليه من زعيم نحية وجليل إجلال، ويحتلي من خيالاتها إرادةً ودّي، ورجاءً ولامٍ وبُغْيَةً فضل ورغبة في إخاء، فيُحلّها منه محلّ القبول ويدرأ عنها وصمة الفضول. إن لسيدي آثاراً شاهداها، فاستفدناها، وما أثر سمعناها، فرَويناها أو تناقلناها، ولا مِرْيَةَ^٤ في أن ما غاب عنا منها، أكثر مما وعينا، وأوفى مما سمعنا، ونحن - والله يعلم - طلابُ كمالٍ، ومنتهجوا أفضال^٥، ورواد^٦ ما خصب من فيحاء العلوم. وقد توّسمنا^٧ في السيد - أطال الله بقاءه - طَلَبْتَنَا، ووجدنا لديه ضالّتنا، فحثّنا إلى رحابه مطيّة المكاتبة، ولنا أملٌ كبيرٌ في نوال المأمول لعلّه يمنح^٨ إلى مُقابلة المثل بالمثل فيكتب

(١) أضوائه . (٢) أزهاره . (٣) الزاكي . (٤) يدفع .

(٥) العار . (٦) بضم الميم وكسرهما الشك . (٧) طالبو معروف

(٨) طالبون له . (٩) تفرسنا . (١٠) بتثنية النون : يميل .

لأخيه بعضَ كُليّـماتٍ ، يعرف منها أنه قَبِيلَ الإخاء ، ومال إلى مقتضى
طبعه من الوفاء ، ولا أظن ذلك إلا وقد كان أقرب ما يكون من الزمان ، فإنَّ
الأرواح ما تعارف منها اتلف ، كما برهنه الأصحاب في معاشراتهم خلفاً عن خلف .

وكتب مؤلف هذا الكتاب :

لقد سمِعنا بأوصافٍ لكم كُملتْ كَسَرْنَا ما سَمِعنا وأحيانا
من قمل رؤيتكم نِلْنا محبَّتكم والآذنُ تعشَق قبل العين أحيانا

سيدي ومولاي :

لقد بلغني عنك في وفائك وفضلك ، ما يدعوني لخطب ودك ؛ ویرَغَّبني
في إخالك ، ويحببني في التوسل إلى معرفة جنابك ، وإن لم تجمعنا جامعة
شخصية ، ولم تضمَّنَّا حفلة تعارف ذاتية ، إلا أن أحاديث فضائلك الصحاح ،
أوفدت عليك الأرواح قبل الأشباح ، والولاء والإخلاص ، قبل الأجسام
والأشخاص ، ولا غرابة في ذلك ، فإن من سنة الله في خلقه : أن يؤلِّف بين
الأرواح وأمثالها ، وإنَّ لله ملائكة ، يسوقون الأشكال إلى أشكالها ، وشبه
الشيء ، منجذبٌ إليه ، وأخو الفضائل هو المعول عليه .

إنَّ القلوب لأجنادٌ مجتَمعةٌ لله في الأرض بالآهواءِ تعترفُ
فما تعارفَ منها فهو 'مؤتلف' وما تناكرَ منها فهو 'مختلَف'

فلذا اصطفتك لنفسي ، واخترتك لمودتي وأنسي ، نَفَسَاجِي بالضائر
ونتخاطب بالسراير ، وإن بُعدنا في الظاهر قُربٌ غائبٍ بنفسه ، حاضرٌ
بخلوص نفسه .

فإن أبينت ودادي غيرَ مكثرتِ فعنك ما دُمْتَ حيًّا لا أرى بدًّا

وحاشاك عن مثل هذا الإباء ، والهجر والجفاء .

لكلّ امرئٍ شكلٌ من الناسِ وكلّ امرئٍ يَهْوَى إلى من يشاكله
 ناشدتك الله أن تقبلَ مِنِّي الإخاءَ ، وتضمنَ لي الوفاءَ ، وأنا أرضى بك
 من الدنيا نصيباً ، وأختارك من العالمين حبيباً .

الفصل الثالث في رسائل الهدايا

وكتب سعيد بن حميد المتوفى سنة ١٠٥ هـ يوم النيروز إلى بعض أهل
 السلطان :

أيها الشريف :
 عِشْتَ أطولَ الأعمار بزيادةٍ من العمر ، مَوْصُولَةً بفرائضها من الشكر ،
 لا ينقضي حقُّ نِعْمَةٍ حتى يجددَ لك أخرى ، ولا يمر بك يوم إلا كان مُقَصِّراً
 عما بعده ، موفياً عما قبله .

إني تصفحت أحوال الأتباع الذين يجب عليهم الهدايا إلى السادة ، والتمست
 التأمّي بهم في الإهداء وإن قَصُرَتْ بي الحال عن الواجب - فوجدت
 أني إن أهديت نفسي فهي ملكٌ لك ، لا حظٌ فيها لغيرك ، ورميت
 بطرفي إلى كرائم مالي ، فوجدتها منك ، فإن كنتُ أهديتُ منها شيئاً ،
 فإني لَمُهْدٍ مالك إليك ، ونزعتُ إلى مَوَدَّتِي ، فوجدتها خالصةً لك قديمةً
 غير مُستحدثةٍ ، فرأيت إن جعلتها هديتي ، أني لم أجدد لهذا اليوم الجديد
 برّاً ولا لطفاً ، ولم أُمَيِّزْ منزلةً من شكري بمنزلةٍ من نعمتك ، إلا كان الشكر
 مُقَصِّراً عن الحقِّ ، والنعمة زائدة على ما تبدلته الطساقة ، فجعلتُ الاعترافَ
 بالتقصير عن حقِّك ، هديةً إليك ، والإقرار بالتقصير عما يجبُ لك ، برّاً
 أتوسَّلُ به إليك ، وقلْتُ في ذلك :

إن أهد مالا فهو واهيه وهو الحقيق عليه بالشكر
 أو أهد شكري فهو مرتهن يحميل فملك آخر الدهر

والشمس تستغي إذا طلعت أن تستضيء بسنة^١ الدهر
وكتب حفني بك ناصف المتوفى سنة ١٣٣٧ هـ - ١٩١٩ م :
الهدية في نظر الأصفياء جليلة^٢ ، وإن كانت في نفسها قليلة^٣ ، ومكانتها
خطيرة^٤ وإن كانت يسيرة^٥ ، وسنة^٦ حسنة^٧ اجتمعت على فضلها الألسنة
مضت الدهور وأمرها مستحسن^٨ وتعاقبت بمديحها الأيام
اللهم إلا إن لبست جلباب^٩ الرياء ، ورأيت^{١٠} أبواب الارتشاء ،
ولا مراء^{١١} ، إن الأوداء^{١٢} من ذلك براء^{١٣} .
وما زالت الهدية شعار^{١٤} الأصدقاء ، وعنوان تذكاري^{١٥} الولاء ، وكل جدت^{١٦}
بين الأصحاب عهد^{١٧} التشاب
وتعهدت ودأ^{١٨} فعاد شتيته^{١٩} ولشمليه^{٢٠} بعد البداد^{٢١} نظام^{٢٢}
قد وصلتني بدو^{٢٣} العصا فحبذا الإهداء ، وأهلا بتلك اليد البيضاء ، وليست
هذه أول^{٢٤} أياديك علي^{٢٥} ، ولا أكبر عارفة^{٢٦} جاءت من فاديك إلي^{٢٧} ، أمينت^{٢٨} بها
النوب^{٢٩} واعتضدت^{٣٠} بها^{٣١} على تفريق شمل^{٣٢} الكرب^{٣٣} .
فإذا طفا^{٣٤} بحر^{٣٥} الهموم ضربته^{٣٦} بعصاي^{٣٧} فاجتازت^{٣٨} به^{٣٩} الأقدام
تنفلق^{٤٠} بها^{٤١} الأيام صخور^{٤٢} ، فتنبجس^{٤٣} منها^{٤٤} عيون^{٤٥} السرور^{٤٦} ، وتلقف^{٤٧}
ما يصنع^{٤٨} الأعداء^{٤٩} ، فتذهب^{٥٠} بسحر^{٥١} البهائم^{٥٢} ، وإذا اشتد^{٥٣} هجير^{٥٤} الوحشة^{٥٥} ،
نشرت^{٥٦} ظلال^{٥٧} أنسها^{٥٨} ، أو عصي^{٥٩} فرعون^{٦٠} الدهر^{٦١} ، راعته^{٦٢} ببأسها^{٦٣} .

(١) الوجه (٢) القميص (٣) دخلت (٤) جدال (٥) التفريق
(٦) جمع نائبة : مصيبة (٧) استعنت (٨) علا (٩) سلكت
(١٠) تنفجر (١١) حرها (١٢) أزعجته (١٣) بشدتها

فكأنما أوصى الكلم^١ لنا بها حق يرى آياته الأفوام^٢
وقد فكرت ماذا أقابل^٣ به 'طرفتك'، وأتلقى به تحفّتك، إلى أن هداني
الله، أن يد المنعم إنما تقابل^٤ بالأفواه ليُمزّز القبول بالقبّل، ويؤدى الرّسم
باللّثم. فأرسلت لك فم سيجارة، وجعلته لهذا المعنى إشارة، وقلت:
مولاي كم فاضت يمينك بالندى^٥ حق غدوت غريق بحر الأنعم^٦
والشكر أوجب أن أقبل راحها فكنت عن هذا بإهداء الفم^٧
وقد علمت أن المنظر البهيج، يتم بالتدبيج^٨، فاخترت أن يكون مبدؤه
كاللّيل إذا عَسَّعَسَ^٩، ومُنْتَهَاهُ كالصبح إذا تنفّس^{١٠}، إبداناً^{١١} بزوال الشرور
بالسرور، ورمزاً إلى الخروج من الظلمات إلى النور.

وكتب المرحوم محمود بك أبو النصر:

يا أيها المولى الذي عمت أياديهِ الجميلة
إقبل هدية من يرى في حقك الدنيا قليلة
غرّة وجه السعود وقرّة عين الوجود - الأمير الجليل.

يا جليل الفضائل - إليك توجه الآمال، ويا جميل الشرائع بساحتك تحط
الرّحال، تلك هي الساحة الفيحاء^١، والشّيمة^٢ الحسنة، والهمة العليا، واليد
البضاء، والأعمال التي تضرب بها الأمثال، كم من نعم أسديتها^٣، ومكارم
أوليتها وعلوم أحبيتها، فأنت المصدر والمورد، والمقصود والموعود، إليك
أقدم تلك الهدية المرضية، وأرفع ذلك الكتاب المستطاب^٤، مشفّعاً في قبوله
كرم سجاياك، وعظّم مزاياك وإن كنت أعلم أن مقامك العليّ يحيل عن
أن يرفع إليه مثله، فقد عرفناك، متواضعاً في علاك، قريباً مع اعتلاك.

(١) سيدنا موسى عليه السلام (٢) إحسانك (٣) العطاء (٤) التزين
(٥) أقبل بظلامه (٦) أضاء (٧) إعلاماً (٨) الواسعة (٩) الخلق (١٠) أعطيتها.

دَنُوتَ تَوَاضَعًا وَعُلُوتَ مَجْدًا فَشَأْنُكَ انْخِفَاضٌ وَارْتِفَاعٌ
كَذَلِكَ لِلشَّمْسِ يَبْغُدُ أَنْ تُسَامِيَ ^١ وَيَدْنُو الضُّوْءُ مِنْهَا وَالشَّمْعُ
وَحَاشَاكَ أَنْ أُهْدِيَ لِلْقَمَرِ نَوْرًا ، أَوْ لِلشَّمْسِ ضِيَاءً ، أَوْ أُبْعَثَ بِبُيُوتِ
الْقَطْرِ ^٢ إِلَى ذَلِكَ الْبَحْرِ ، وَلَكِنِّي أَحْبَبْتُ أَنْ يَحْطَى بِلِثْمِ بَنَانِكَ ^٣ ، وَيَنَالَ مِنْ
كَرْمِكَ وَإِحْسَانِكَ ، وَقَدْ عَهَدْنَاكَ تَهْتِزُّ لِلْمَكَارِمِ اهْتَزَّازَ الصَّارِمِ ^٤ وَتَرْتَاحَ لِإِسْدَاءِ
الْجَمِيلِ ، كَمَا يَرْتَاحُ لِلْكَرْمِ النَّزِيلُ ^٥ ، وَلِلشَّفَاءِ الْعَمِيلُ ، وَمَا هُوَ إِلَّا مِنْ نَوْرِ فِكْرِكَ
مُقْتَبَسٌ ^٥ فَعَسَاهُ يَحْطَى بِالْقَبُولِ ، فَأَبْلُغُ غَايَةَ الْمَأْمُولِ وَالسَّلَامِ .
وَكُتِبَ الْأَسْتَاذُ عَبْدُ اللَّهِ بَكُ الْأَنْصَارِيِّ الْمُتَوَفَى سَنَةَ ١٩٣٢ م :

المولى - أدام الله وجوده ممتعاً بهدايا الأيام ، وتحف الأعوام - طالما أوفدت
من الرِّفْدِ ^٦ إِلَيَّ ، وَوَجَّهَ مِنْ الْخَيْرَاتِ مَا أَفْعَمَ ^٨ يَدَيَّ ، حَتَّى أَصْبَحْتُ - وَلَهُ
الْفَضْلُ وَالْمِنَّةُ - أَجْرُ ذِيُولِ النِّعَمَاءِ ^٩ عَلَى غِبْرَاءِ ^{١٠} الْبِأْسَاءِ ^{١١} وَأُجْتَلِي ^٢
مَعَارِفَ السَّمَرَاءِ بِعَوَارِفِ الْبَيْضَاءِ ، الَّتِي لَا يَوَازِيهَا ثَنَاءٌ وَحَمْدٌ ، وَلَا يَوَازِيهَا
عَطَاءٌ وَرِفْدٌ ، وَلَا يَطَاوِلُهَا سَمَاءٌ وَبَحْرٌ ، وَلَا يَغَالِبُهَا بَوْسٌ وَفَقْرٌ ، وَإِنْ لِي مِنْ
آلَاءِ ^{١٣} السَّيِّدِ - حَفِظَهُ اللَّهُ وَأَدَامَ عِلَاهُ - مَا أَيْنَعُ وَأَزْهَرُ ، وَأَوْرَقَ وَأَثْمَرُ ،
حَدَائِقَ قَامَتْ لِشُكْرِهِ عِيدَانُهَا ، وَسَجَدَتْ لِفَضْلِهِ أَغْصَانُهَا ، وَتَرَنَّمَتْ طَرِبُهَا ،
وَتَمَايَلَتْ عَجَبًا بِنَفْحَاتِ هِيَ عَرْفُهُ ^{١٤} ، وَبَرَكَاتِ هِيَ عَرْفُهُ ، وَلِي أَمَلٌ فِي جَنَابِهِ
- وَأَنَا سَلِيلُ ^{١٥} نِعْمَتِهِ - وَعَهْدِي بِأَخْلَاقِهِ - وَأَنَا ابْنُ مَوَدَّتِهِ أَنْ يَمُنَّ بِقَبُولِ
مَا أُهْدِيتهُ ، وَهُوَ مِنْ مَالِ نَفْسِهِ ، وَثَمَرَةُ غَرْسِهِ ، (بَاكُورَةُ تَفَاتُحٍ) يَرْفَعُهَا
إِجْلَالٌ وَإِعْظَامٌ ، وَتَصْحَبُهَا تَحِيَّةٌ وَسَلَامٌ .

- (١) تَفَاخُرُ (٢) الْمَطَرُ (٣) الْأَصَابِعُ (٤) السَّيْفُ الْقَاطِعُ
(٥) مَأْخُودٌ (٦) أُرْسِلُ (٧) الْعَطَاءُ وَالصَّلَاةُ (٨) مَلَأَهَا
(٩) بِالْفَتْحِ النِّعْمَةُ (١٠) الْأَرْضُ (١١) الدَّاهِيَةُ (١٢) أَنْظَرَ إِلَيْهَا مَجْلُوءَةً
(١٣) نَعَمْ (١٤) بِالْفَتْحِ الرِّيحُ الطَّيِّبَةُ (١٥) ابْنُ نِعْمَتِهِ .

وكتب الشيخ أحمد مفتاح المتوفى سنة ١٣٢٩ هـ :

الهدية - غمرك الله بالمعروف - تبسط يد المودة ، وتدرُّ بها أخلاف القرب
وتفرس بين المتحابين من الائتلاف ، بقدر ما تقطع بينهما من شجر الخلاف ، وما
أنا فيما أهديه إليك إلا كمستبضع^٢ تقرأ الى أرض خيبر^٣ ، أو كالواهب الماء
للبحر ، والضوء للبدر ، والملئك لسليمان^٤ ، والمال لقارون^٥ ، والحلم
لأخنف^٦ ، والذكاء لإياس^٧ ، والتفسير لابن عباس^٨ ، وما ذاك إلا كتاب^٩
كما تراه ضرب في الأحكام بسهم^{١٠} ، ووعى من الأحكام ، ما خلت منه
مفعمات^٩ الأسفار^{١٠} ، وموجزات الرسائل ، فهو كما قيل : « كل الصيد في
جوف الفرا »^{١١}

تزين معانيه ألفاظه ، وألفاظه زائنات المعاني

على أني وإن تطفلت عليك ، وسقت لك هذا الكتاب مژدلفاً^{١٢} إلى
جناحك الرّحّب ، ومقامك الأسنى ، فقد أصبت كبد الصّواب ، ووضعت
حيث يعرفه اهلوه ، ويتقبله من باذله عالموه ، علماً بأنك عماد العلوم ، وأساس
الفضائل ، لا تغادر^{١٣} شاردة إلا وعيتها ، ولا نادرة إلا رويتها ، ولا .

-
- (١) جمع خلف بالكسر الضرع (٢) جاعله بضاعة (٣) موضع بالحجاز
(٤) ابن داود النبي عليهما الصلاة والسلام (٥) من قوم موسى عليه السلام أعطاه
الله من الكنوز ما لم يعطه لغيره (٦) هو ابو بحر صخر بن قيس تابعي كبير
يضرب به المثل في الحلم توفي سنة ٦٧ هـ (٧) هو ابو وائلة بن معاوية بن مرة المزني
يضرب به المثل في الذكاء توفي سنة ١٢٢ هـ (٨) هو ابو العباس عبد الله بن عباس
ابن عبد المطلب بن هاشم القرشي الهاشمي ابن عم رسول الله ﷺ صحابي جليل
يلقب ترجمان القرآن توفي سنة ٩٨ هـ (٩) مملوآت (١٠) الكتب (١١) حمار
الوحش ، ومعناه - كل ما عدها دونه . قاله النبي عليه الصلاة والسلام تطميناً
لرجل خرج يصطاد مع اصحابه فلم يصب غير الحمار الوحشي (١٢) متقرباً
(١٣) لا تترك .

لو كان يُهدى على قدري وقدركم لَكُنْتُ أَهْدِي لَكَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا
وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى أستاذه الحكيم الشيخ محمد عبده :
سيدي ومولاي - أطل الله بقاءك ، ورفع في الدارين علالك - الهدية
مفتاح باب المودة ، وعنوان تذكّار المحبة ، يتسابق إليها كرام السجّايا ،
ويتسارع إلى إحياء شعائرها عشاق المزايا حرصاً على حفظ عهد الوِداد
والتآلف ، وإذهاباً لوحشة التقاطع والتّخالف :

هدايا الناس بعضهم لبعض 'قولّد' في 'قلوبهم' الوصال
وتزرع في القلوب هوّ وودّاً وتكسوك المهابة والجلالا

ولقد وجدتك إماماً حكيماً ، وفيلسوفاً عليماً ، تقدّر الأعمال حق
قدرها ، وتضع الأشياء في مواضعها ، سباقاً إلى نشر العلوم والمعارف ، في
المشارك والمغارب :

يبقى الثّناء وتنفد الأموال * لكلّ دهرٍ دولة ورجال
مانال محمّدة الرّجال وشكرهم إلا الصّبور عليهم الفضال

فلذا أهديك كتابي (جواهر الأدب ، في أدبيات لغة العرب) جمع فأوعى
من الآداب والحكم . ما خلت منه الأسفار^١ ، فهو بلا شك ولا مِرّاً ، كلّ
الصيد في جوف القرأ :

تزين معانيه ألفاظه وألفاظه زائنت المعاني

(١) الأخلاق .

(٢) الكتب الكبيرة . * والأصح من « لكل دهر .. » ، ولكلّ دهر ..

على أي - وإن تطفلت عليك ، ووضعت كتابي هذا بين يديك - فقد
ولجت الأمور من الأبواب وأصبت كبدة الصواب ، حيث يعرف الفضل من
الناس ذووه ، ويتقبله بقبول حسن عالموه :

شكراً وحمداً إن قبلت هديتي وجعلت لي فضلاً على أقراني

فتنازلك بقبوله يكون الإقبال عليه جليلاً ، ويمعجز لساني على أن اشكرك
شكراً جزيلاً ، والسلام .

وكتب مؤلف هذا الكتاب إلى المرحوم (سعد باشا زغلول) يهديه كتابه
« جواهر الأدب » ، في أذبيات وإنشاء لغة العرب :

مولاي ، أطال الله بقاءك في أهنأ عيشة وأرغدها ، وأتم نعمه وأسعدها ،
وأعم عافية وأزيد لها ، وأولاك من الآلاء بأمدّها مزيداً ، ومن السلامة
بأسبلها سترأ ، ومن السرور بأوفره حظاً ، ومن العزّ بأشده ركناً ،
والعمر بأبعده مدى ، وتولاك المولى بحفظه وحياطته ، وسرّك تحت جناح
السلامة بكلّائته ورعايته .

إن الله تعالى قد خصك بالعزّ المنيع ، والشرف الرفيع ، والخلق السنيّ ،
والفخر البهيّ ، والرأي الحزم ، والبلاغة والفهم ، والبراعة والكمال ،
والبذل والنسّوال ، والجود والإفضال ، والحمد والثناء ، والكرم والوفاء ،
والمذهب الجميل ، والقدر الجليل .

فأنت - أدام الله كرامتك ، وأكرم حياطتك - معدن الفضائل وزين
المخاض غياث اللاجئ إليك ، وسند المعول عليك ، لا ينجح فضلك ولا
يُنسى ذكرك ، عرفتك شائع ، وجودك واسع ، ومعروفك ذائع ، وفضلك
شامل ، ولبّك كامل ، سلّم لأوليائك ، وحرب لأعدائك ، سحائب كفيّتك

تُضْطَرِّ دَيْمَ الْإِنْعَامِ ، وَشَاطِبِيبُ يَدِيكَ تَفُوقُ أَعْمَالِ الْكِرَامِ ، زَادَكَ اللَّهُ إِثْمًا
الرَّئِيسُ عَقْلًا إِلَى عَقْلِكَ ، وَفَخْرًا إِلَى فَخْرِكَ ، وَفَضْلًا إِلَى فَضْلِكَ ، وَطَوْلًا إِلَى
طَوْلِكَ ، وَسُوءَ دَدًا إِلَى سُوءِ دَدِكَ ، إِنَّهُ لَطِيفٌ كَرِيمٌ .

لَمَّا رَأَيْتُكَ - أَدَامَ اللَّهُ عُلُوكَ ، وَأَجْزَلَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ حَظَّكَ وَقِسْمَكَ -
تَغْنِي عَنِ التَّوَسَّلِ إِلَيْكَ بِكَرِيمِ أَخْلَاقِكَ ، وَشَرِيفِ أَغْرَاقِكَ ، جَعَلْتُ كَرَمَكَ
فَرِيْعِي إِلَيْكَ ، لِمَا دَلَّنِي مِنْ فَضْلِكَ عَلَيْكَ ، وَكَفَى بِي مِنَ اللَّيْبِ شَاهِدًا ،
وَالِى الْكَرِيمِ قَائِدًا ، فَأَطْمَعَنِي فِيكَ مَا رَأَيْتُ مِنْ جُودِكَ وَسِمَاحَتِكَ ، وَحُسْنِ
بِشْرِكَ وَطَلَاقَتِكَ ، وَلِئِنْ أُمِّلْتُكَ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، وَدَفَعْتُ بِكَ صَوْلَةَ النُّوَائِبِ
وَرَجَوْتُكَ لِكَشْفِ الْمَلَمَّاتِ ، وَالْحَوَادِثِ الطَّارِقَاتِ ، وَاسْتَعْتَنْتُ بِسَيِّبِكَ
وَجَدَوَاكَ عَلَى غَيْرِ شَافِعٍ ، أَطْمَعُ فِي شِفَاعَتِهِ إِلَيْكَ ، أَوْ مُتَوَسِّلٍ فِي مَا لَدَيْكَ ،
فِيَا نِي أَقُولُ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ :

من غير ما سبب يُدْنِي كفى سبباً للحرّ أن يجتدي حرّاً بلا سببٍ

وَلَمَّا كَانَتْ الْوَسِيلَةُ إِلَى السَّادَاتِ ، وَأَهْلِ الْأَخْطَارِ وَالْمُرُوءَاتِ ، إِنَّمَا هِيَ
وَكَيْدُ حُرْمَةٍ أَوْ قَدِيمُ خِدْمَةٍ : وَكُنْتُ صَفْرَاءَ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ ، غَيْرَ دَاخِلٍ فِي
جَمَلَةِ أَهْلِهِ تَوَسَّلْتُ بِكِتَابِي « جَوَاهِرِ الْأَدَبِ » فِي أَدَبِيَّاتِ وَإِنْشَاءِ لُغَةِ الْعَرَبِ ،
إِذْ كَانَ الْمَتَوَسَّلُ بِهَا عَلَى ثِقَةٍ مِمَّنْ عَرَفَ قَدْرَهَا ، لِأَنَّ الْأَدَابَ عِنْدَ ذَوِي الْكَرَمِ ،
أَعْطَفُ مِنْ صِلَةِ الرَّحِمِ ، وَهُوَ سَبَبٌ بَيْنَ الْكِرَامِ مُوَصِّلٌ يَنْزِعُونَ إِلَيْهِ ، وَحَقُّ
يَتِمَّاطِفُونَ عَلَيْهِ ، وَفِيهِ قَالَ الشَّاعِرُ :

أدبٌ بَيْنُنَا تَوَلَّدَ مِنْهُ نَسَبُ وَالْأَدِيبُ صِنُوُ الْأَدِيبِ

وقال الآخر :

حقُّ الْأَدِيبِ وَإِنْ لَمْ يُدْنِهِ نَسَبٌ فَرَضَ عَلَى كُلِّ مَنْ أَمْسَى لَهُ أَدَبٌ .

وَقَدْ ضَمَنْتُ كِتَابِي هَذَا مِنَ الْأَدَابِ أَظْرَفَهَا ، وَمِنْ الْأَشْعَارِ أَفْضَلَهَا وَأَجْمَلَهَا

وجعلته سبباً أمّته به إليك ، وهدية أضعتها بين يديك . فتنازل دولتك بشرف القبول ، يكون غاية مطلوبي ، ونهاية المأمول .

الفصل الرابع في رسائل الاستعطاف والاعتذار

كتب أبو منصور الشعالبي النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :

الكريم إذا قَدَّرَ غفرَ ، وإذا أوثقَ أطلقَ ، وإذا أسرَ أعتقَ ، قد هربت منك إليك ، واستعنتُ بعفوكَ عليك ، فأذقني حلاوة رضاك عني ، كما أذقتني مرارة انتقامك مني ، الحرُّ كزيم الظُّفر ، إذا نالَ أقال ، واللَّيْمُ إذا نال استطال ^٢ قد هابك من استتر ، ولم يُذنب من اعتذر ، تكلفُ الاعتذار بلا زَلَّة ^٣ ، كتكلف الدواء بلا علة ، مولاي يوجبُ الصِّفحَ عند الزَلَّة ^٤ ، كما يلتزم البذل عند الحلة ^٥ مولاي يوليني صفيحةً صفحةً ، ويؤتيني العفوَ من عموه ، زَلَّتْ وقد يزلُّ العالمُ الذي لا أساويه ، وعثرتُ وقصد يعثر الجوادُ الذي لا أجاريه ، لا تضيقن عني سعة خلقك ، ولا تكدرن عليَّ صفو دك ، مالي ذنبٌ يضيقُ عنه عفوك ، ولا جُرْمٌ يتجافى تجاوزك وصفحك . والسلام .

وكتب عبدالله بن معاوية المتوفى سنة ١٣٤ هـ إلى أبي مسلم :

من الأسير في يديه ، بلا ذنب إليه ولا خلاف عليه . (أما بعد) فقد آتاك الله حفظ الوصية ، ومنحك نصيحة الرعية ، وألهمك عدل القضية فإنك مستودع الودائع ، ومولى الصنائع ، فاحفظ ودائعك ، بحسن صنائعك ، فالودائع عارية ، والصنائع مرعية ، وما النعم عليك وعلينا فيك بمنزور نداها ، ولا بمبلوغ مداها . فنبه للتفكير قلبك ، واتسق الله ربك وأعط من

(١) ترك (٢) تملك وتمسك (٣) بالفتح السقطة (٤) بالفتح الغلظة

(٥) بفتح الحاء الحاجة والفقر (٦) صفيحة - عريضة . أي عظيم صفحه .

نفسك من هو تحتك ، ما تحب أن يعطيك من فوقك - من العدل والرأفة ، والأمن من المخافة ، فقد أنعم الله عليك ، بأن فوّض أمرنا إليك . فاعرف لنا لين شكر المودّة ، واغتفار مسّ الشدة ، والرّضا بما رضيت والقناعة بما هويت ، فإن علينا من سملك الحديد وثقله أذى شديداً ، مع معالجة الأغلال ، وقلة رحمة العمال ، الذين تسليهم الغلظة ، وتسيرهم الفظاظة ، وإبرادهم علينا الغموم ، وتوجيههم إلينا الهموم ، زيارتهم الحراسة ، وبشارتهم الإياسة ! فأليك - بعد الله - نرفع كربة الشكوى ، ونشكو شدة البلوى ، فحقّ قلّ إلينا طرفاً ، وتولّنا منك عطفاً تجد عندنا نصحاً صريحاً وودّاً صحيحاً ، لا يضيّع مثلك مثله ، ولا ينفي مثلك أهله ، فارح حرمة من أدركت بحرمته ، واعرف حجة من فليجت بحجته ^١ فإن الناس من حوضك رواء ^٢ ، ونحن منه ظيما ، يشون في الأبراد ، ونحن نحجل في الأقياد ، بعد الخير والسعة ، والحفض والدعة ؛ والله المستعان ، وعليه التكلان .

وكتب بدر محمد بن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٩٩ هـ :

رفقا بمن ملك الوجد قيادة ، وعطفاً على من أذاب الشوق فؤاده ، متّيم ^٣ أقلقه فرط صدودك ، ومفرم ^٤ أغراه بحبك قول حسودك ، وسقيم لا شفاء له دون مزارك ، ومقيم على عهدك ولو طالّت مدة نفارك : إلام هذا التناهي ^٥ والنفور ؟ وإلام يادا القد العادل تجور ؟ ! لقد تضاعف الأسف والألمنى ، وتطاول التعلل بلعل ، وعسى

هبنّي تخطيت ، إلى زلّة ولم أكُنْ أدنبتُ فيما مضى
أليس لي من بعدها حرمة ؟ ^٦ توجب لي منك جميل الرضا
ولست ألوذ إلا بباب نعمك ، ولا أعتمد في محو الإساءة إلا على حلمك
وكرمك ، وما جل ^٧ ذنب يضاف إلى صفحك ولا عظم جرم ^٨ يسند إلى

(١) فلج بحجته - أثبتّها

(٢) مستعبد ذليل

(٣) التباعد (٤) ما عظم (٥) ذنب .

عفوك . ومثلك من يقليل العثرات ، ويتجاوز عن الهفوات :

وكننت أظن أن جبال رضوى^١ تزول وأن ودك لا يزول
ولكن القلوب لها انقلاب^٢ وحالات^٣ ابن آدم تستحيل
طالما آتستني بقربك ، ودنوت مني مفارقاً ظباء سيربك ، وأنجزت
وعودي وأطلعت نجوم سعودي :

وكننت إذا ما جئت أدنيت مجلسي ووجهك من ماء البشاشة يقطر
فسن لي بالعين التي كنت مرة^٤ الي بها في سالف الدهر تنظر
قيدت أمني عن سواك ، وبهرت ناظري بنظرة سنالك^٥ ، وكسرت جيش
قراري ، وتركتني لا أفرق بين ليلي ونهاري ، أحوم حول الديار ، وأعوم في
بحر الأفكار ، وأتمسك بمعطف عطفك ، وأتملق بأذيال مكارمك ولطفك ،
أما علمت أن الكريم إذا قدر غفر ؟ وإذا صدرت من عبده زلة أسبل عليها
رداء العفو وستر ؟ وأن شفيع المذنب إقراره ؟ ورفض خطيئته عند مولاه
استغفاره ؟

ومن كان ذا عذر لديك وحجة فعذري إقراره بأن ليس لي عذر
لهفي على عيش بسلاف^٦ حديثك سلف ! وأوقات حلت ، ثم خلت
وأورثت التلّف ! وآها لأيام بطيب أنسك مضت ! وبروق ليالٍ لولا قربك
ما أومضت^٧ :

قد كنت أعرف في الهوى مقدارها رحلت وبالأسف المبرح عوَضت
كيف السبيل إلى إعادة مثلها وهي التي بالبعد قلبي أمرضت
فجدد بالتداني ، واسمح بنيل الأمان ، وألن قلبك القاسي ، وعد عن التناهي

(١) جبل بالمدينة (٢) ضوئك (٣) الخمر (٤) ما لمعت .

والتناسي ، وارعَ الود القديم ، وأبدلْ شقاءَ 'حُبِّكَ' بالنَّعيمِ ولا تعدِّلْ عن منهاجِ المَعْدَلَةِ ، وسلِّمْ فقد أخذتْ حقها المسألة ، وأغمدْ سيفَ 'حيف' صيرته مسلولا وأوفِ بالعَهْدِ إن العَهْدَ كانَ مَسْئُولاً .

وكتب أبو عثمان عمرو بن الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

ليسَ عندي - أعزَّكَ اللهُ - سببٌ ولا أقدرُ على شَفِيعٍ ، إلا ما طبعكَ اللهُ عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نَسَاجِ حُسْنِ الظَّنِّ ، وإثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، فتكونَ خيرَ مُعْتَبٍ^٢ ، وأكونَ أفضلَ شاكِرٍ ، ولعلَّ اللهُ يجعلُ هذا الأمرَ سبباً لهذا الإِنعامِ ، وهذا الإِنعامُ سبباً للانقطاع إليكم ، والكونَ تحتَ أجنحتكم^٣ ، فيكونَ لا أعظمَ بركةً ولا أنمى بقيةً من ذنبٍ أصبحت فيه ، وبمثلِكَ (جُعِلْتُ فِدَاكَ) عاد الذَّنْبُ وسيلةً والسَّيِّئَةُ حسنةً^٤ ، ومثلِكَ من انقلبَ به الشرُّ خيراً ، والغُرمُ غنماً^٥ .

من عاقب فقد أخذَ حظَّه وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذِّكْرُ في الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرَّع المرائر . وأرجو أن لا أضيع (وأهلك) فيما بين كرمك وعقلك ، وما أكثر من يعفو عن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، وإن كان العفو العظيم مستطرفاً من غيركم فهو تلاد^٦ فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكثون^٧ ، ولا على سالف إحسانكم تندمون^٨ ، ولا مثلكم الا كمثل عيسى بن مريم ؛ حين كان لا يمر ببلأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شرّاً ، وأسمعهم خيراً ؛ فقال له (شمعون الصفا)^٩ : ما رأيت كالיום !

(١) الجور (٢) مسربعد إساءة (٣) حمايتكم (٤) ما يلزم أداؤه

(٥) الغنيمة (٦) مستحدثا (٧) المال القديم (٨) ترجعوا

(٩) شمعون الصفا : هو أحد حواربي عيسى عليه السلام .

كلما أسمعوك شراً ، أسمعتمهم خيراً ؟ فقال : « كلُّ امرئٍ يُنفق بما عنده ، وليس عندكم إلا الخير » ، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناءٍ بالذي فيه ينضح .

وكتب ابن مكرم إلى بعض الرؤساء :

نَبَّهْتُ^١ بي غرّةُ الحداثة ، فردتني إليك التجربة ، وأفادتني الضرورة ، وثقةُ بإسراعك إليّ ، وإنْ أبطأت عنك ، وقبولك لعذري وإن قصّرت عن واجبك . وإن كانت ذنوبي سدّت عليّ مسالك الصّبح عني ، فراجع في مجدك وسؤدّدك^٢ ، وإني لا أعرفُ موقفاً أذل من موقفي ، لو لا أن المخاطبة فيه لك ، ولا خطة أدنا من خطتي ، لو لا أنها في طلب رضاك - والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٥٧٠ هـ :

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالفصّان بالماء اعنصاري

كيف يقدر (يقي الله السيد) على الدوام ، من لا يهتدي إلى أوجه الداء ، وكيف يداري أعداءه ؟ من لا يعرف الأصدقاء من الأعداء ! وكيف يعالج علة القرحة العمياء ؟ أم كيف يسري بلا دليل في الظلماء ؟ أم كيف يخرج الهارب من الأرض والسباء ؟ الكريم إذا قدر غفر ، وإذا أوثق أطلق ، وإذا أسرَ أعتق ، ولقد هربت من السيد إليه ، وتسلمت^٣ بعفوه عليه ، وألقيت رِبْقَةً^٤ حياتي ومماتي بيديه ، فليدقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولتُنلّسح^٥ على حالي غرةُ عفوه ؛ كما لاحت عليها مواسم^٦ غضبه وسطوره ؛ ولنسيلم أن الحر كريم الظفر ، إذا نال أقال ؛ وأن اللثيم^٧ الظفر إذا نال استطال ، وليغم التجاور عن

(١) أبعدتني (٢) السيادة (٣) استغنت

(٤) العروة التي يربط بها والمراد بها الزمام (٥) تظهر (٦) العلامات

عثرات الأحرار ، ولينتهز^١ فرص الاقتدار ، وليحمد الله الذي أقامه مقام من يرتجى ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدوها في^٢ ، وأخلق العالم وذكرها طري^٣ ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر^٤ ، وأن من رُدَّ عليه عذره ، فقد أخرج إلى الشجاعة بعد الجبن وأخرج ذنبه إلى صحن اليقين من ستر الظن . وفق الله السيد لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه مما يزيد في عدد جاحم أعدائه .

وكتب بعضهم إلى رئيسه :

وجدتُ استصغارك لعظيم ذنبي أعظم بقدر تجاوزك عني ، ولعمري ! ما جل ذنبي يُقاس إلى فضلك ، ولا عظم جرمي يضاف إلى صفحك ، ويعوّل فيه على كرم عفوك ، وإن كان قد وسعه حملك فأصبح جليله عندك محتقراً ، وعظيمه لديك مستصغراً ، إنه عندي لفي أقبح سور الذنوب ، وأعلى رتب العيوب . غير أنه لو لا بواد^٥ السفهاء ، لم تعرف فضائل الحليم ، ولو لا ظهور نقص بعض الأتباع ، لم يبن جمال الرؤساء ، ولو لا إمام المئين بالذنب ، لبطل تطوّل المتطولين بالصّبح . وإني لأرجو أن ينحك الله السلامة بطلبك لها ، ويقلبك العثرات بإقالتك أهلها ، وما علمت أني وقفت منك على نعمة أتدبرها ، إلا وجدتها تشتمل على فائدة فضل ، تتبعها عائدة عقل .

وكتب فقيد اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٣٠٦ هـ :

هم يعتذر إليك من لا يرى لنفسه عذراً ؟ وكيف يستتر من عتبك من لا يستطيع لذنبه سترأ ؟ بل كفاني من العتب : تعنيف نفسي على ما ألقيت عليها من تبعّة تقصيري ، وما حلت به من التفريط بينها وبين معاذيري ، والله

(١) ليغتنم (٢) جمع بادرة : وهي الحدة عند الغضب .

(٣) تطوّل المتطولين : فضلهم .

(٤) (٦ - جواهر الأدب ١)

يعلم ما كان تقصيري شيئاً أردته وكان تفريطي أماً قصدته ، ولكنتها الأيام !
إن صاحبتها لم تصعب ، وإن عاتبتها لم تعتب فلقد عبرت بي هذه البرهة كلها ،
وأنا بين شواغل لا يشغلها عني شاغل ، وبلايل^١ قد اختلط حابلها بالنابل ،
فتنازعتها هذه الشهرة^٢ اليسيرة ، أجدد فيها التذكرة ، إلى أن ين الله بصلة
الحبل واجتماع الشمل ، وأستزل أحرفاً من خطك يكتحل بها الناظر ،
ويأنس إليها الخاطر ، متوقفاً بعد ذلك أن أبقى بين يدي مودتك مذكوراً ،
وإلا يكون عجزي لديك شيئاً منظوراً ، وأن تجري بي على عادة حليك ، إلى
أن يجمع الله الشيتين ويغني العين^٣ عن الأثر بالعين^٤ ، إن شاء الله تعالى - والسلام .
وكتب أيضاً :

وإفاني كتابك العزيز ، والنفس نازعة^٥ إلى ما يزيل نيفارها ، والقريحة^٦
ثائقة^٧ إلى ما يشهد^٨ غرارها^٩ ، فكان روضة^{١٠} باسمه^{١١} الكائن^{١٢} فاتحة
النسائم ، وقد ردت على النفس انبساطها وأحييت البادرة فاستأنفت نشاطها
فأنا منه ما بين وشي^{١٣} ينجل طراز العبقرية^{١٤} وزخرف^{١٥} دونه نضرة^{١٦}
السابرية^{١٧} تناجيني منه رشاقة^{١٨} ألفاظ تفضح قدود^{١٩} الحسان ،
وغضاضة^{٢٠} أنفاس يغار منها ورؤ الجنان ، ورقة خطاب يشف^{٢١}

(١) هموم ، والحابل : قيل ناصب الحبال للصيد ، وقيل : سدى الثوب
والنابل : صاحب النبال ، وقيل : لحم الثوب ولفظ المثل : اختلط الحابل بالنابل ،
وهو مثل يضرب في ارتباك الأمر (٢) بضم النون الفرصة (٣) الباصرة (٤) الذات
(٥) مشتاقة (٦) الملكة التي يقتدر بها على استنباط العلم بمجدة الطبع (٧) مشتاقة
(٨) يحذ ، وأصله السكين (٩) بكسر الغين والمراد أن الملكة مشتاقة إلى ما
يجعلها قوية مصيبة (١٠) ضاحكة (١١) الزهر (١٢) نقش الثوب (١٣) ثياب
تبلغ الغاية في الحسن (١٤) كمال الحسن (١٥) الحسن (١٦) ثياب رقيقة جيدة
وأصلها للدروع السابرية نسبة إلى سابور كورة بفارس بينها وبين شيراز ستة
عشر فرسخاً (١٧) لطافة (١٨) جمع قد وهو القامة الرشيق (١٩) الحسن
(٢٠) يحكى .

عن ودّ صفيّ ، ولطف خفيّ^١ ، وكرمٍ وفيّ ، وعتبٍ أعتبَ من الماء القراح^٢ وأرقّ من نسبات الصبا في الصُّباح ، حتى لقد حبَّب إليّ تقصيري ، وشفعَ عند نفسي في قبول معاذيري ؛ على أن ما عندي من الوَلَامِ لا يعتريه - معاذ الله - وهنّ^٣ ، ولا يُخلِّقه^٤ ، تمادي زَمَنٌ ، أو ترامي وطن. ولكنَّ صُرُوفَ الأحداثِ قد قصَّرت الجهد^٥ ، وصرفت جِوَادَ العزيمة عن القصد ، والله يعلم أني لو نزلت على حكم نوازل الدَّهر ، ولم أدافع طلائعها بما بقي من ساقية^٦ الصبر ، لما كان في هِمَّتِي إلا كسر اليراع^٧ ، وهجرُ الحابرِ والرقاع^٨ ، وحسبي من العذر ما أعرفه من حلك المألوف ، وما ألفتُهُ من كَرَمِكَ المعروف .

والله أسأل أن يبقيك لي من الدَّهر نصيباً ، ويمتعي بلفائك قريباً ، بمنه وكرمه .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

أما بعدُ : فنعم البديلُ من الزلة والاعتذار ، وبئسَ العِوضُ من التوبة الإصرارُ ، فإنه لا عِوَضَ من إخائك ولا خلفَ من حُسْنِ رأيك ، وقد انتقمت مني في زلَّتِي بحفائك ، فأطلق أسيرَ تشوُّفِي إلى لقائك ، فلأنني بمعرفتي بمبلغ حلك وغاية عفوك ، ضمنتُ لنفسي العفوَ من زلَّتِي عندك ، وقسَدَ مسني من الألم ما لم يشفيه غير مواسلتك .

وكتبت زبيدة زوجة الرشيد المتوفاة سنة ٢١٦ هـ إلى المأمون :

كلُّ ذنبٍ - يا أمير المؤمنين - وإن عظمَ صغير في جنب عفوك ، وكلُّ إساءة

(١) ظاهر فهو من الأضداد (٢) بفتح القاف الخالص (٣) ضعف (٤) لا يبليه

(٥) كلاهما مصائب الدهر (٦) بفتح الجيم وضمها أي الطاقة (٧) آخره

(٨) الأفلام (٩) الرقاع بكسر الراء مفردة رقعة وبضمها القطعة من الورق

التي تكتب .

وإن جلت يسيرة لدى حلمك ، وذلك الذي عودك الله أطلال مدتك ، وتم نعمتك وأدام بك الخير ، ودفع عنك الشر والضر .

وبعد : فهذه رُقعة الولهي - التي ترجوك في الحياة لنوائيب الدهر ، وفي المات لجمل الذكر - فإن رأيت أن ترحم ضعفي واستكانتي وقلة حيلتي ، وأن تصل رحي ، وتحسب فيما جعلك الله له طالباً ، وفيه راعياً - فافعل وتذكر من لو كان حياً لكان شفيعي إليك .

وكتب إليها المأمون جواب المواساة الآتي :

وصلت رقعتك يا أماء - أحاطك الله وتولاك بالرعاية ^١ - ووقمت عليها وساءني - شهد الله ^٢ جميع ما أوضحت فيها ، لكن الأقدار نافذة ^٣ والأحكام جارية ، والأمور متصرفة ^٤ ، والخلقون في قبضتها ، لا يقدر على دفاعها ^٥ ، والدنيا كلها إلى شتات ^٥ وكل حي إلى ممات ، والغدر والبغي حتف الإنسان ^٦ والمكر راجع إلى صاحبه .

وقد أمرت برّد جميع ما أخذ لك ، ولم تفقدي ممن مضى إلى رحمة الله إلا وجهه ، وأنا بعد ذلك على أكثر مما تختارين ^٧ والسلام .

وكتب بعضهم :

إني وإن جنيت على نفسي ، وخرجت عن حد الأدب ، فيما يجب على العبد لسيّده - فلاني عبد نعمتك وصنيع إحسانك ، وذنبني وإن عظم ، وضاق باب التوبة عن قبول الممذرة ، فالعفو عنه بعض حسناتك ، التي فطرت عليها والإغضاء عني سر من أسرارك التي تميل إليها ، فاجعل العفو عني قرينة إلى

(١) يعني حفظك الله وصانك برعايته (٢) جملة معترضة يقصد بها تأكيد ما يقول (٣) يعني ما قدره الله لا بد أن يكون (٤) يعني أن الخلقونات مستسما لأحكام الله وأقداره (٥) مآلها التفرق (٦) يعني أن البغي فيه هلاك الباغي (٧) يعني أقوم لك بجميع ما تحبين وزيادة .

مولى الموالي ، و اترك العبدَ عتيق مكارم الأخلاق ، وإلا فَتَضَعُ سيفَ نَقْمَتِكَ ،
في نحر عبدِ نَعْمَتِكَ ، وَأَنْتَ حِلٌّ مِنْ دَمِ أَرَاقِهِ أَهْلُهُ ، أَوْ آلُ أَمْرِهِ إِلَى وَارِثِ
لَا يَسَعُهُ إِلَّا النُّزُولُ عَنْ الْمَطَالِبَةِ بِهِ ، أَلَا وَهُوَ مَقَامُ جَلَالَتِكُمُ السَّامِيِّ .
و حاشاك أَنْ تُعَدِمَ الصَّادِقَ فِي خِدْمَتِكَ بِهَفْوَةٍ لَمْ يَقْصِدْهَا ، وَذَنْبَ أَقْلَعِ
عَنْهُ . وَعَلَى كُلِّ فَالْعَبْدُ بَيْنَ يَدَيْكَ ، وَأَمْرُهُ مِنْكَ وَإِلَيْكَ ، فَقَدْ أَلْقَى إِلَيْكَ مَقَالِيدَ
الْأَجَلِ ، فَافْعَلْ مَا تَشَاءُ ، وَاتَّقِ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ .

استعطاف أم جعفر^١ بن يحيى الرشيد لأجل يحيى زوجها

قال سهل بن هارون :

كانت أم جعفر بن يحيى أرضعت الرشيد مع جعفر^٢ وربته في حجرها وغذته
برسولها^٣ وكان الرشيد يشاورها مظهرًا لإكرامها ، والتبرك برأيها . وكان آلى
وهو في كفالتها ألا ينجبها ولا استشفعته لأحد إلا شفعتها وألت أم جعفر أن
لا دخلت عليه إلا مأذونًا لها ، ولا شفعت لأحد مقترف ذنبًا ؛ فكم أسير
فكنت^٤ ، ومُبْهَمٌ عنده فتحت ، ومُسْتَفْلِقٌ^٥ منه فرجت فلما قتل ابنها جعفرًا
وحبس يحيى زوجها وسائر أهل بيته طلبت الإذن عليه ، ومَتَتْ^٦ بوسائلها
إليه ، فلم يأذن لها ولا أمر بشيء فيها ؛ فلما طال بها خرجت كاشفة وجهها ،
راضعة لثامها^٧ محتفية في مشيتها ، حتى صارت بباب قصر الرشيد ، فدخل عبد

(١) ذكر صاحب العقد أن اسمها فاطمة بنت محمد بن الحسين بن قحطبة ،
وذكر الطبري أن اسمها زينب بنت منير ، وذكر ابن خلكان أن اسمها عتابة
وكذا صاحب نجباء الأبناء ، وذكر بعضهم أن اسمها عادة والله أعلم (٢)
ذكر صاحب العقد وقال الطبري إنها أرضعته مع الفضل ويؤيده قول سليمان
الأعمى يرثي جعفرًا ويستعطف الرشيد للفضل :

أمين الله في الفضل بن يحيى رضيعك ، والرضيع له ذمام
(٣) الرسل : اللبن (٤) المستفلق (٥) مت إليه : توسل بقربة أو نحوها

الملك بن الفضل الحاجب فقال: ظنر^١ أمير المؤمنين بالباب، في حالة تقلب شماعة الحاسد، إلى شفقة أم الواحد. فقال الرشيد. ويحك يا عبد الملك. أو ساعية؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، حافية. قال: أدخلها يا عبد الملك فرب كسب غزتها، وكربة فرجتها، وعورة سترتها. فدخلت، فلما نظر الرشيد إليها داخله محتفية قام محتفياً حتى تلقاها بين عمدة المجلس وأكسب على تقبيل رأسها ومواضع ثديها ثم أجلسها معه فقالت: يا أمير المؤمنين أتعبدو علينا الزمان؟ ويخفونا خوفاً لك الأعوان؟ ويخبروك^٢ علينا البهتان، وقد ربيتك في حجري، وأخذت برضاعك الأمان من عدوي ودهري؟ فقال لها: وما ذلك يا أم الرشيد؟ فقالت: ظنرك يحى وأبوك بعد أبيك، ولا أصفه بأكثر مما عرفه به أمير المؤمنين من نصيحته وإشفاقه عليه وتعرضه للحتف في شأن موسى أخيه^٣، فقال لها: يا أم الرشيد أمر سبى وقضاء حم^٤، وغضب من الله نفذ، قالت: يا أمير المؤمنين «يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»^٥. قال: صدقت، فهذا مما لم يحه الله. فقالت: الغيب محجوب عن النبي فكيف عنك يا أمير المؤمنين؟ فأطرق الرشيد ملياً ثم قال:

وإذا المنية أنشبت أظفارها ألفت كل تميم لا تنفع
فقلت بغير روية: ما أنا ليحيى بتميمة يا أمير المؤمنين وقد قال الأول:
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد ذخراً يكون كصالح الأعمال
هذا بعد قول الله عز وجل «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» والله
يحب المحسنين، فأطرق ملياً ثم قال: يا أم الرشيد أقول:

- (١) الظنر: المرضعة (٢) أحرده: أغضبه (٣) تشير إلى ما كان أرادته الهادي وموسى بن المهدي من حرمان أخيه الرشيد الخلافة من بعده ونقلها إلى ولده واحتيال يحيى بن خالد في رد الهادي عن عزمه بإذلا في ذلك جهده (٤) حم الأمر: قضى ونفذ (٥) أم الكتاب أصله أو اللوح المحفوظ. (٦) التميمية: ما يعلق للأولاد من كتابة أو غيرها دفعا للعين أو للرض.

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكذب إليه بوجه آخر 'تقبيل'

فقلت : يا أمير المؤمنين وأقول

سَتَقْطَعُ في الدنيا إذا ما قطعني يمينك فاطر أي كف تبديل^١

قال هارون: رَضِيتُ ، قالت : فبه لي يا أمير المؤمنين فلقد قال رسول الله ﷺ : « من ترك شيئاً لله لم يُوجده^٢ الله لفقده » فأكب هارون مكيّاً ثم رفع رأسه يقول : « لله الأمر من قبل ومن بعد » . قالت : يا أمير المؤمنين « ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم » واذكر يا أمير المؤمنين أليتك^٣ : ما استشفعتك إلا شَفَعْتَنِي . قال : واذكري يا أم الرشيد أليتك أن لا شفعت لمقتريف ذنباً فلما رآته صرح بمنعها ، ولاذ^٤ عن مطنلبها أخرجت حقاً من زمرودة خضراء فوضعت بين يديه . فقال الرشيد: ما هذا ؟ ففتحت عنه قتيلاً من ذهب ، فأخرجت منه خفّضه وذوائبه وثناياه قد غسّت جميع ذلك في المسك . فقلت : يا أمير المؤمنين أستشفع إليك ، وأستعين بالله عليك وبما صار معي من كريم جسدك ، وطيب جوارحك ليحيى عبدك . فأخذ هارون ذلك فليّسه ثم استعبر^٥ وبكى بكاءً شديداً وبكى أهل المجلس . فلما أفاق رمى جميع ذلك في الحق وقال لها : لحسن ما حفظت الوديعه ، فقلت : وأهل للمكافأة أنت يا أمير المؤمنين . فسكت وأقفل الحق ودفعه إليها وقال : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها » قالت : والله يقول : « وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل » . ويقول : « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم » قال : وما ذلك يا أم الرشيد ؟ قالت : أو ما أقسمت لي

(١) البيتان من قصيدة معن بن أوس الآتية في باب العتاب .

(٢) أوجده : أحزنه . (٣) الألية : الحلف .

(٤) لاذ، يلوذ: راغ وانحرف . (٥) الزمرد : من الأحجار النفيسة .

(٦) استعبر: جرت عبرته وهي الدفعة قبل أن تفيض . (٧) ما مصدرية .

أن لا تحجبني ولا تمتسهنني^١ ؟ قال : أحب يا أم الرشيد أن تشتريه 'مَحْكَمَةً'^٢ فيه . قالت : أنصفت يا أمير المؤمنين وقد فعلت غير 'مُسْتَقْبَلَةٍ' لك ولا راجعة عنك . قال : بكم ؟ قالت : برضاك عن لم يُسْخِطْكَ . قال : يا أم الرشيد أمالي عليك من الحق مثل الذي لهم ؟ قالت : بلى يا أمير المؤمنين أنت أعز عليّ ، وهم أحب إليّ . قال : فَتَحْكَمِي في تَمَنِّيَةٍ^٣ بغيرهم قالت : كلا . قد وهبتك وجعلتك في حِلٍّ منه وقامت عنه وبقي مَبْهُوتاً ما 'يُحِيرُ' : لفظه .
قال سهل بن هارون : وَخَرَجَتْ فلم تعد ، ولا والله ما رأيت لها عَبرَةً ، ولا سمعت لها أُنَّةً .

استعطاف إبراهيم بن المهدي^٤ للمأمون

أمر المأمون بإبراهيم بن المهدي فأدخل عليه فلما وقف بين يديه قال : هيه يا إبراهيم ! فقال : يا أمير المؤمنين وليّ الثأر 'تَحْكَم' في القصاص والعفو أقرب للتقوى ، ومن تناوله الاغترار بما مُدَّ له من أسباب الشفاء أمكن عادية الدهر من نفسه وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب ، كما جعل كل ذي ذنب دونك فإن أخذتَ فَبِحَقِّكَ ، وإن عفوتَ فَبِفَضْلِكَ . ثم قال :

ذنبِي إِلَيْكَ عَظِيمٌ وَأَنْتَ أَعْظَمُ مِنْهُ
فَخُذْ بِحَقِّكَ أَوْ لَا فَاصْفَحْ بِفَضْلِكَ عَنْهُ
إِنْ لَمْ أَكُنْ فِي فَعَالِي مِنَ الْكِرَامِ فَكُنْهُ

- (١) امتننه : ابتذله وأهانته (٢) يقول أحب أن تطلي ما تشائين إزاء هذا القسم (٣) التمنية والمنية : بمعنى واحد (٤) يقال : هو لا يحير جواباً أي لا يرد .
(٥) كان إبراهيم بن المهدي أخو الرشيد لأبيه قد ادعى الخلافة بعد قتل الأمين وقبل عودة المأمون من خراسان إلى بغداد وأعانه على ذلك كثير من أهل بغداد ثم خلع وغلب على أمره فاختلف حتى ظفر به المأمون . وكانت إبراهيم بارعاً في الأدب حسن الغناء جيد الشعر توفي سنة ٢٤٢ هـ في خلافة أخيه المعتصم .
(٦) هيه مثل إليه للاستزادة أو للاستنطاق فهي اسم فعل .

فقال المأمون : شاورت أبا إسحاق^(١) والعباس في قتلِكَ فأشارا به ، فقال :
نما قُلتَ لهما يا أمير المؤمنين ؟ قال المأمون : قلتُ لهما تَبْدُوهُ بإحسان ،
وَنَسْتَأْمُرُهُ^(٢) فيه ، فإن غيّر ، فالله يُغيّر ما ربه . قال : أمّا أن يكونا قد
نصحا في عظيم بما جرت عليه السّياسة ، فقد فعلا وبلغا ما يلزمُهما وهو الرأي
السّديد ، ولكنك أبيت أن تستجلب النصر إلا من حيث عوّدكَ الله ، ثم
استعبرَ باكياً . فقال له المأمون : ما يُنيكُك ؟ قال : جدلاً إذ كان ذنبي إلى
من هذه صفته في الإنعام ، ثم قال : إنه وإن كان قد بلغُ جُرْمي استحلالَ دمي
فحلم أمير المؤمنين وفضله ببلّغاني عفوهُ ، ولي بعدما شفاعته الإقرار بالذنب ،
وحقّ الأبوة بعد الأب . فقال المأمون : يا إبراهيم لقد حُبّبَ إليّ العفو حتى
خفتُ أن لا أوجر عليه . أما لو علم الناس ما لنا في العفو من اللذة لتقربوا إلينا
بالجنّيات . لا تثرِيبٌ^(٣) عليك ، يغفر الله لك ، ولو لم يكن حقّ نسبِكَ ما يُبَلِّغُ
الصفح عن جرمك لبَلِّغَكَ ما أملت حسن تنصّلِكَ ، ولطف توصّلِكَ . ثم
أمر برّد ضياعه وأمواله . فقال إبراهيم :

رددت مالي ولم تبخل عليّ به وقبل ردّك مالي قد حقّنت دمي
وقام علمك بي فاحتج عندك لي مقام شاهد عدل غير متهم
فلو بذلت دمي أبغي رضاك به والمال حتى أسأل النعل من قدمي
ما كان ذاك سوى عارية سلفت لو لم تهبّها لكنت اليوم لم تلم

(١) أبو إسحاق هو المعتصم بن الرشيد ، والعباس هو ابن المأمون ولقد أحسن
إبراهيم في تصويب رأيها لأن ذلك أنجح في طلب الرضا وأبلغ في دفع المكروه
من الازدراء عليهما في رأيها . (٢) أصل الاستئثار : المشاورة . والمراد هنا التجربة
(٣) التثرِيب : اللوم والتعير بالذنب . (٤) حقن الدم : صانه

استعطاف إسحاق بن العباس للمأمون

قال المأمون لإسحاق بن العباس: *تَحْسِبَنِي أَغْفَلْتُ أَمْرَ ابْنِ الْمَهْدِيِّ وَتَأْيِيدَكَ لَهُ وَإِقْبَادَكَ لِنَارِهِ؟* فقال: *وَاللَّهِ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ لِأَجْرَامِ قَرِيشٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْظَمَ مِنْ جُرْمِي إِلَيْكَ ، وَلِرَحْمِي بِكَ أَمْتَنَ مِنْ أَرْحَامِهِمْ ، وَقَدْ قَالَ لَهُمْ كَمَا قَالَ يُوسُفُ - عَلَى نَبِينَا وَعَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - لِإِخْوَتِهِ: « لَا تَثْرِيْبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ » وَأَنْتَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَحَقُّ وَارِثَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ فِي الطَّوْلِ ، وَمُمْتَنِّيلٌ^١ لِحُلَالِ الْعَفْوِ وَالْفَضْلِ .*

قال : *هيهات ! تلك أجرام جاهلية عفا عنها الإسلام وجُرمك جُرم في أسلافك وفي دار خلافتك .*

قال : *يا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاللَّهِ لِلْمُسْلِمِ أَحَقُّ بِإِقَالَةِ الْعَثَرَةِ وَغُفْرَانِ الذَّنْبِ مِنَ الْكَافِرِ وَهَذَا كِتَابُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِذْ يَقُولُ : « سَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ » وَالنَّاسُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ نَسَبَةٌ دَخَلَ فِيهَا الْمُسْلِمُ وَالْكَافِرُ وَالشَّرِيفُ وَالْمَشْرُوفُ .*

قال ، *صدقْتَ ، وَرَرْتُ^٢ بِكَ زِنَادِي ، وَلَا بَرَحْتُ أَرَى مِنْ أَهْلِكَ أَمْثَالِكَ .*

(١) امثّل طريقته : تبعها فلم يعدّها .

(٢) ورت بك زنادي ووقدت بك زنادي مثلاً يقالان لمن أنجدك أو أرشدك والمراد بهما الدعاء .

استعطاف الفضل^١ بن الربيع للمأمون

قال المأمون للفضل بن الربيع لما ظفر به : يا فضل ، أكان من حقي عليك
وحق آبائي ونعمهم عند أبيك وعندك أن تتلبنى^٢ وتسبني وتحرض^٣ على
دمي ؟ ! أحب أن أفعل بك ما فعلته بي ؟
فقال : يا أمير المؤمنين ، إن عذري يحدك إذا كان واضحاً جليلاً ، فكيف
إذا أخفته العيوب ! وقبّحته الذنوب ! فلا يضيق عني من عفوك ما وسع
غيري منك ، فأنت كما قال الشاعر^٤ فيك :

صَفُوحٌ عَنْ الْأَجْرَامِ حَتَّى كَانَتْهُ مِنْ الْعُفُوفِ لَا يَعْرِفُ مِنَ النَّاسِ بِجُرْمَا
وَلَيْسَ يَبَالِي أَنْ يَكُونَ بِهِ الْأَذَى إِذَا مَا الْأَذَى لَمْ يَفْشَ بِالْكَرْهِ مَسْلَمَا

استعطاف تميم بن جميل للمعتصم

كان تميم بن جميل السدوسي قد خرج بشاطئ الفرات ، واجتمع إليه
كثير من الأعراب ، فعظم أمره ، وبعُدَ ذكره ، ثم ظفّر به ، وحمل موثقاً
إلى باب المعتصم ، فقال أحمد بن أبي دؤاد : ما رأيت رجلاً عاين الموت ، فما
هاله^٥ ولا شغله عما كان يجب عليه أن يفعله إلا تميم بن جميل ، فإنه لما مثّل^٦

(١) هو الفضل بن الربيع بن يونس حاجب الرشيد ثم وزيره بعد نكبة
البرامكة ثم وزير الأمين في خلافته . ويقال : إنه هو الذي أوغر صدر الرشيد
على البرامكة حسداً لهم على منزلتهم وفيه يقول أبو نواس :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

توفي الفضل سنة ٢٠٨ هـ . (٢) ثلّبه ، تنقصه وصرح بعيبه . قال الشاعر :

* لا يحسن التعريض إلا ثلّبا *

(٣) القائل هو الحسن بن رجاء (٤) سدوس : بطن من بني شيبان ثم من بني

بكر . (٥) هاله : أفرعه .

بين يدي المعتصم ، فأحضِرَ السيف والنَّطْع^١ ، وأوقف بينهما ، تأمله المعتصم - وكان جميلاً وسيماً - فأحَبَّ أن يَعْلَمَ أين لسانه وجَنَانُه من منظِّره ، فقال : تكلم يا تميم . فقال : أمّا إذا أذِنْتَ يا أمير المؤمنين فأنا أقول : الحمد لله الذي أحسن كل شيء خلقه ، وبدأ خلق الإنسان من طين ، ثم جَعَلَ نَسْلُه من سُلَالَةٍ من ماءٍ مَّهِين ، جَبَرَ بك صدع^٢ الدين ، وكَلَّمَ بك شَعَثَ^٣ المسلمين ، وأوضح بك سبيل الحق ، وأَخَذَ بك شهاب الباطل . إن الذُّنُوبَ تُخْرِسُ الألسنة الفصيحة وتُعْيِي الأفتدة الصحيحة ، ولقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة ، وساء الظن ، ولم يبق إلا عفوك أو انتقامك ، وأرجو أن يكون أقربها منك وأسرعها إليّ أشبههما بك وأولاهما بكرمك ، ثم قال - على البديهة - :

أرى الموت بين السيف والنطع كامناً يُلاحظني من حيثاً أتلفتُ
وأكبرُ ظني أنك اليوم قاتلي وأي امرئ بما قضى الله يُفْلِتُ؟^٤
وأَيُّ امرئ يأتي بعذر وحُجَّةٍ وسيف المنايا بين عينيه مُصَلَّتٌ^٥
وما جزعي من أن أموت وإنني لأعلم أن الموت شيء مُوقَّتُ
ولكن خلفي صِيبَةٌ قد تركتهم وأكبادهم من حَسْرَةٍ تَتَفَتَّتُ
كأنني أراهم حين أنعى إليهم وقد حَسَّوْا^٦ تلك الوجوه وصوتوا
فإن عِشْتَ عاشوا خافضين بغبطة أذود الردى عنهم وإن مت مُوتوا^٧
وكم قاتلٍ لا يُبْعِدُ اللهُ رُوحَه وآخر جَذَلانٍ يُسْرُه وَيَشْمَتُ

فتبسّمَ المعتصم وقال : كاد والله يا تميم أن يسبق السيف العدّال ، قد وهبتك

(١) النطع : بساط من الجلد يفرش تحت من يراد قتله حتى لا يسقط دمه على الأرض

(٢) الصدع الشق في الحائط ونحوه (٣) الشعث : انتشار الأمر والأشياء المتطرفة

(٤) أفلت : تخلص ونجا . (٥) أصلت السيف : استله من غمده .

(٦) خمس وجهه : لطمه وهو من باب ضرب ونصر . (٧) موتوا : كثر فيهم الموت

للصبية ، وغفرت لك الصبوة . ثم أمر بفك قيوده وخلع^٢ عليه .
وكتب الجاحظ إلى ابن الزيات يستعطفه وكان قد تنكر^٣ له وتلون عليه :
أعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمك من سرق^٤ الهوى ، وصرف^٥
ما أعادك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورَجَّحَ في قلبك إشار الأناة^٥ فقد
خفت - أيدك الله ! - أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق^٦ السفهاء ،
ومجانبة سبل الحكماء ، وبعد فقد قال عبد الرحمن^٧ بن حسان بن ثابت :
وإن أمرء أ أمسى وأصبح سألما من الناس إلا ما جنى لسعيد
وقال الآخر^٨ :

ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
فإن كنت اجتأت - أصلحك الله ! - فلم أجترى ، إلا لأن دوام تغافلك
عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ولذلك
قال عيينة^٩ بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله عمر كان خيراً لي منك ؛ أُرهبني
فأتقاني^{١٠} ، وأعطاني فأغنياني ، فإن كنت لا تهيب عقابي - أيدك الله ! - لخدمة
فهبه لأياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النعمة ، وإلا تفعل ذلك فعد إلى حسن
العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة^{١١} ، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو
دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد

(١) الصبوة : الزلة وجهلة الشباب (٢) خلع عليه خلعة : منحه بعض ثيابه
وقد يراد به مطلق العطاء (٣) تنكر له : تغير (٤) السرف : مجاوزة الحد (٥) الأناة :
الحلم والوقار (٦) النزق : الخفة والطيش (٧) هكذا يقول الجاحظ وغيره بنسب
البيت لحسان نفسه ؛ راجع الأغاني (٨) من الناس من يروي هذا البيت في جملة
أبيات لكعب بن زهير ، ومنهم من يروي له محمد بن حازم الباهلي ؛ راجع الأغاني .
(٩) هو سيد بني ذبيان في صدر الإسلام وهي سلالة حذيفة بن بدر الفزاري الذي
كان السبب في حرب داحس والغبراء (١٠) أتقاه : صيره تقياً . (١١) الأحدوثة :
الحديث والسيرة ، جمعها أحاديث .

وتتجافى^١ عن عقاب المصير^٢ حتى إذا صرت إلى من هفوت ذكره^٣ ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك والإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة . وأعلم - أيدك الله ! - أن شين غضبك على^٤ كزيتن صفحك عني ، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببي منك كحياة ذكرى مع اتصال سببي بك^٥ ، وأعلم أن لك فطنة عليم وغفلة كريم والسلام .

استعطاف رجل من أهل الشام للمنصور

يا أمير المؤمنين ، من انتقم فقد شفى غيظه وانتصف ، ومن عفا تفضل ، ومن أخذ حقه لم يجب شكره ، ولم يذكر فضله ، وكظم الغيظ حلم والتشفي طرفة من الجزع ، ولم يمدح أهل التقوى والنهي من كان حليماً بشدة العقاب ولكن بحسن الصفح والاعتقار وشدة التغافل . وبعد : فالمعاقب مستودع لعداوة أولياء المذنب^١ والعافي مستدع لشكرهم آمن من مكافأتهم ، ولئن يثنى عليك باتساع الصدر خير من أن توصف بضيقه ، على أن إقالتك عثرات عباد الله موجبة لإقالة عثرتك من ربه موصولة بعفوه ، وعقابك إياهم موصول بعقابه . قال الله عز وجل : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین » .

روح بن زنباع يستعطف معاوية

أراد معاوية معاقبة روح بن زنباع ، فقال : يا أمير المؤمنين أنشدك الله تعالى

- (١) تتجافى : تتباعد (٢) أصر على الذنب استمر (٣) يقول : هفوته هي تذكر الهفوة أو جريها على لسانه (٤) التشبيه في هاتين الفقرتين من قبيل قولهم في التفضيل : العسل أحلى من الخل . يقول : إن مقدار قبح الغضب كمقدار حسن الصفح وإن مقدار موت الذكر عند الانقطاع مثل مقدار حياته عند الاتصال .
(٥) الأولياء : الأهل والأقارب .

أَلَا تَضَعُ مِنِّي خَسِيسَةً أَنْتَ رَفَعْتَهَا أَوْ تَنْقُصُ مِنِّي مَرِيرَةً^١ أَنْتَ أَبْرَمْتَهَا^٢
تَشْمِيتُ بِي عَدُوًّا أَنْتَ كَبَبْتَهُ^٣، وَحَاسِدًا بَكَ وَقَعْتَهُ^٤، وَأَسْأَلُكَ بِاللَّهِ إِلَّا أَرْبَى
حِلْمِكَ عَلَى خَطِيئِي وَصَفْحِكَ عَلَى جَهْلِي. فَقَالَ مَعَاوِيَةُ: إِذَا اللَّهُ سَنَى^٥ عَقْدَ شَيْءٍ
تَيْسَرًا؛ وَعَفَا عَنْهُ.

وقد أَلَمْ المتنبي بقول رَوْحٍ إِذْ يَقُولُ :
أَزَلَّ حَسَدَ الْحُسَّادِ عَنِّي بِكَتَبَتِهِمْ فَأَنْتَ الَّذِي صَيَّرْتَهُمْ لِي حُسْتَدًا
إِذَا شَدَّ زَنْدِي حُسْنُ رَأْيِكَ فِي يَدِي ضَرَبْتُ بِسَيْفٍ يَقْطَعُ الْهَامَ مَغْمَدًا

ابن الرومي يستعطف القاسم^٥ بن عبيد الله

كتب ابن الرومي يستعطف القاسم بن عبيد الله :
تَرَفَعَ عَنِّي ظُلْمِي إِنْ كُنْتُ بَرِيئًا، وَتَفَضَّلَ بِالْعَفْوِ إِنْ كُنْتُ مُسِيئًا، فَوَاللَّهِ إِنِّي
لَأُطْلَبُ عَفْوَ ذَنْبٍ لَمْ أَجْنِهِ، وَأَلْتَمَسُ الْإِقَالََةَ مِمَّا لَا أَعْرِفُهُ، لِيَتَزَدَادَ تَطَوُّلُ^٦
وَأَزْدَادُ تَذَلُّلِي. وَأَنَا أَعِيدُ حَالِي عِنْدَكَ بِكَرَمِكَ مِنْ وَاشٍ يَكِيدُهَا، وَأَحْرُسُهَا
بِوَفَائِكَ مِنْ بَاغٍ يُحَاوِلُ إِفْسَادَهَا، وَأَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَجْعَلَ حَظِّي مِنْكَ بِقَدْرِ وَدَّيْ
لِكَ، وَتَحْسِلِي مِنْ رَجَائِكَ بِحَيْثُ أَسْتَحِقُّ مِنْكَ. وَالسَّلَامُ.

(١) المريرة: الحبل الشديد الفتل (٢) أبرم الحبل: أجاد فتله، والأمر: أحكمه

(٣) كبته: أذله وغازله وصرعه لوجهه. (٤) وقعه: قهره

(٥) سنّى الشيء: فتحه وسهله، وهذا شطر بيت وهو :

وأعلم علماً ليس بالظن أنه إذا الله سنّى عقد شيء تيسرا

(٦) هو القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب وبيته بيت وزارة وكتابة
وأدب فقد كان وزيراً ابن وزير أما الكتابة فهو فيها معرق لأنه يرثها عن ثمانية
آباء متعاقبين منذ خلافة يزيد بن معاوية وكان عظيم الهيبة شديد الإقدام سفاكاً
للدماء وهو الذي دس لابن الرومي السم في الطعام خوفاً من لسانه، توفي سنة
٢٩١ هـ وعمره نيف وثلاثون. (٧) التطول: الإلحاح.

وكتب إليه :

لو كان في الصمت موضع يسع حالي لخفتفت^١ عن سماع الوزير ونظره ، ولم أشغل وجهاً من فكره ، وما زالت الشكوى تعرب^٢ عن لسان البلوى . ومن اختلت حالته كان في الصمت هلكته^٣ ، وقد كان الصبر ينصُرني على ستر أمري حتى خذَلني .

استعطاف للخوارزمي

لو بغير الماء حلَّقني شرق كنت^٤ كالغصان ، بالماء اعتَصاري^٥ كيف يقدر - أبقى الله السيد - على الدَّواء ، من لا يهتدي إلى أوْجِه الدَّاء ؟ وكيف يدَّاري أعداءه من لا يعرف الأعداء من الأصدقاء ؟ أم كيف يسْري بلا دليل في الظلماء ؟ أم كيف يخرج^٦ الهارب من بين الأرض والسماء ؟ الكريم - أبتدأ الله مولاي ! - إذا قدر غفر ، وإذا أوثق أطلق^٧ ، وإذا أسر أعتق . ولقد هرَّبت من الشيخ إليه ، وتسَلَّحت بعفوه عليه ، وألقيت رِبْقَةً^٨ حيَّاتي ومماتي بيديه ، فليذِقني حلاوة رضاه عني كما أذاقني مرارة انتقامه مني ، ولنلح^٩ على حالي غرة^{١٠} عفوه كما لاحت عليها مواسم^{١١} غضبه وسطوه ، وليعلم أن الحر كريم الظفر ، إذا نال أقال ، وأن اللئيم لثيم الظفر إذا نال استطال^{١٢} ، وليغتمم التجاوز عن عثرات الأحرار ، ولينتهز فرص الاقتدار ، وليحمد الذي أقامه مقام من يرتجى ويخشى ، وركب نصابه في رتبة شاب الزمان ومجدها فتي ،

(١) الهلكة الهلاك (٢) الشرق بالماء كالغصة بالطعام والاعتصار معالجة الغصص بشرب الماء قليلاً قليلاً ، والبيت لعدي بن زيد العبادي الشاعر الجاهلي من قصيدة يستعطف بها النعمان بن المنذر يقول إن الإنسان إذا غص بالطعام عاجله بالماء فماذا يصنع إذا كانت غصته بالماء نفسه ! (٣) الرِبْقَةُ العروة التي يربط بها ويراد بها الزمام (٤) لاح ظهر (٥) الغرة بياض في وجه الحيوان والمراد هنا الأثر (٦) المواسم : العلامات . (٧) استطال : تطاول واعتدى .

وأخلق العالمُ وذكرها طرياً ، وليعتقد أنه قد هابه من استتر ، ولم يذنب إليه من اعتذر . وفق الله تعالى الشيخ لما يحفظ عليه قلوب أوليائه ، وعصمه مما يزيد به في جاحم أعدائه .

اعتذار لسعيد بن حميد

كتب سعيد^١ بن حميد يعتذر :

أنا من لا يحاجُّك عن نفسه ، ولا يُغالطك عن جبرمه ، ولا يلتبس رضاك إلا من جهته ، ولا يستدعي برِّك إلا من طريقته ، ولا يستعطفك إلا بالإقرار بالذنب ، ولا يستميلك إلا بالاعتراف بالجرم . نَبَتَ بي عنك غيرةُ الحداثة ، وردتني إليك الحُنْكة^٢ ، وباعدتني منك الثقة بالأيام ، وقادتني إليك الضرورة ، فإن رأيت أن تستقبل الصَّنيعةَ بقبول العذر ، وتجدد النعمةَ باطرِّاح الحقد ، فإن قديم الحرمة وحديث التوبة يحقان ما بينهما من الإساءة ، وإن أيام الحياة وإن طالت قصيرة ، والمُنْعة بها وإن كثرت قليلة .

اعتذار لأبي علي البصير

كتب أبو علي البصير يعتذر :

أنا أحد مَنْ أَسْكَنْتَهُ ظِلَّكَ ، وأَعْلَقْتَهُ حَبْلَكَ^٣ ، وحبوته بلطفِ برِّكَ وخاصِ عنايتك ، وانتصف بك [من] الزمان ، واستغنى بإخائك عن الإخوان ، فهو لا يرغب إلا إليك ، ولا يعتمد إلا عليك ، ولا يستنجح^٤ طلبه إلا بك ، وقد كانت فَرَطَ مِئْثِي قول إن نَأْوَلْتُه^٥ لي أراك وجه عذري وقام عندك

(١) هو من أولاد الدهاقين ، كاتب شاعر مترسل حسن الكلام فصيح ، أخذ عن الإمام الأعرابي ويؤخذ عليه أنه كثير الأخذ بالكلام غيره .

(٢) الحنكة : خبرة التجارب . (٣) وصلته وقيدته بزمان مودتك .

(٤) استنجح حاجته وتنجحها تنجزها وطلب نجحها (٥) أول الكلام

وتأوله : فسرّه .

بمحبتي فأغنايني عن توكيد الأيمان على حُسْنِ نيتي ، وإن تأولته عليّ أحاق^١ بي
لائمتك^٢ وحبسني على أسوأ حال عندك . وقد أتيتك معترفاً بالزلة ، مُستكيناً^٣
للمَوْجِدة^٤ ، عائداً بالصفح والإقامة ، فإن رأيت [أن] تُقِرَّ عَيْنًا قررت
بنعمتك عندي ، ولا تسلبني ما ألبستني ، وأن تقتصر من عقوبي على المكروه
الذي نالني بسبب عتبك عليّ ، وتأمرَ بتعريفي رأيك بما يُطامن^٥ هلمي
وتَسْكُنْ إليه نفسي ويأمنُ به رَوْعي^٦ « فعلت » إن شاء الله .

كتب البديع إلى القاسم الكرخي يعتذر :

يعزّ عليّ — أطال الله بقاء الرئيس ! — أن ينوب في خدمتك قلبي ، عن
قدمي ، ويسعد برؤيته رسولي ، دون وصولي — ويرد شِرعاً^٧ الأنس به
كتابي قبل رِكاكي ، ولكن ما الحيلة والعوائق جَمَّة :

وَعَلِيَّ أَنْ أَسْمَى وليس عليّ إدراك النَّجَاح

وقد حضرت داره ، وقبّلت جِداره ، وما بي حب الجدران ، ولكن شَفَفاً
بالقُطّان ، ولا عشق الحيطان ، ولكن شوقاً إلى السكان^٨ ، وحين عَدَدَت^٩
العوادي عنك أُمليتُ ضمير الشوق على لسان القلم معتذراً إلى مولاي عن تقصير
وقع ، وفُتور في الخدمة عَرَض ، ولكنني أقول :

إن يكن تركي لقصدك ذنباً فكفى أنت لا أراك عقاباً

(١) أحاق : أنزل (٢) اللائمة : اللوم (٣) استكان : خضع ، وهو من
الكون فوزنه افتعال بزيادة الألف للإشباع كما قالوا في انظر (انظور) ويرى
بعض الناس أنه من الكون وليس بوجيه لأن المعنى لا يعنيه . (٤) الموجدة :
الغضب . (٥) يطامن : يخفض ويخفف (٦) الروح القلب وهو أيضاً الفزع
والخوف (٧) الشريعة والشرعة والمشرعة مورد الشاربة من الماء (٨) ألم البديع
هنا يقول الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلى أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حب من سكن الديارا
(٩) منعت الموانع .

الباب الثاني

الفصل الثاني ' في رسائل حسن التقاضي والطلب

كتب عبدالله بن سليمان أبو العيْناء المتوفى سنة ٢٨٢ هـ :
أنا - أعزك الله ! - وعيالي ررعُ من زَرْعِكَ ، إن أسقيتهُ راعٌ ٢ وزكا ،
وإن جفوتَه ذبُلٌ وذوى ٣ ، وقد مَسَّني منك جفاءٌ بعد بر ، وإغفالٌ بعد
تعاهد ، حتى تكلم عدوٌ ٤ ، وشميت حاسدٌ ٥ ، ولعبت بي ظنونُ رجال كنتُ بهم
لاعِباً ، ولهمُ مُخْرِسٌ ٦

لا تهني بَعْدَ أن أكرمتني وشديدٌ عادةٌ مُنْتَزَعَةٌ

وكتب المرحوم عبد الخالق ناشا ثروت :

إليك (يا من قد استأسرَ النفوسَ بكرمه ، واسترقَّ الأحرارَ بحميل
صُنْعِهِ ، وأولى النعم والخيرات ، وأسدي المعروف والمبرات) أرفعُ كتاباً ،
تبعته إلى ناديك العالي عواملُ الحاجة ، وتزجيهِ : إلى ساحتك دواعي الشدة ،
آملُ أن يكون تذكرةٌ بأمرِي (والذي كثرى تنفعُ المؤمنين) وتذكرةٌ بحالي
(والله لا يصيغُ أجرَ المحسنين) فقد كان سيدي رفع الله قدره ، وأعلى
مرتبته ، وعدني (ومثله من يتمسك من الوفاء بالعروة الوثقى ، ويقطع حبل
الإخلاف بسيف الوفاء ، ويُطرز خلعة الوعدِ بوشني العطاء) أن يُرْسِلَ إليَّ
مِنْ خَيْرَاتِهِ وَيُولِيَنِي مِنْ آلَائِهِ وحسناته ، وبضاعف لي مِنْ مَسْنِيهِ ، ويزيدني
من عطائه ما أشدُّ به أزرِي ٦ على الزَّمان ، وأطاولُ به دوائِبُ الحدَثان ٧ ،

-
- (١) والفصل الأول في الرسائل التجارية التي أغفلناها في كتابنا هذا لأن لها
مؤلفات خاصة بها فارجع إليها إذا شئت . (٢) نما وزاد . (٣) ذبل .
(٤) تدفبه . (٥) من الحبل الوثيق المحكم . (٦) ظهري .
(٧) بفتح الحاء والذال أو بكسر الحاء وسكون الذال حوادث الدهر .

فقد بارزني الدهر بسيوفه ، ورماني بسهامه ، وأناخ^١ عليّ بكلا كِلِه^٢ ، وقد طال الأمد^٣ عليّ حاجتي عند سيدي - أطال الله بقاءه ! - حتى شاب غراب شبابه ، وصاح بجانب ليلى ، فخفت^٤ أن تكون هبّت عليها ريح النسيان ، وعصفت^٥ بها عاصفة النجدة^٦ ، فكتبت^٧ إلى سيدي ومولاي تلك الرقعة ، أستعجل^٨ بها برّة^٩ ، وأستدير^{١٠} بها ضرع عطائه ، علماً بأن التعجيل يكسّر العطية ، وإن كانت صغيرة ، ويكثرها ، وإن كانت يسيرة ، فعسى أن يكون قد لاح نجم النجاح ، وهب نسيم الفلاح ، فيُرسل^{١١} إليّ سيدي سحاب كرمه ، ويمطرني من غياث فضله فتعرف^{١٢} غصون آمالي بعد دُلوها ، وتضحك وجوه مطالبي بعد عبوسها ، وأملّي في ذلك فسيح^{١٣} ، فإن سيدي من أكرم الناس نسباً وأشرفهم حسباً ، ومثله جدير^{١٤} بحفظ العهد ، وإنجاز الوعد . فإن رأى سيدي أن يخفف ثقل الحاجة عنّي ، ويردّ ما سلبه الدهر منّي بقطرة من بحر عطائه ، ومنّة^{١٥} من بعض آلائه^{١٦} ، ويجبرّ ما كسره الفقر من جناحي ، ويردّ^{١٧} عني النوائب التي لا تفتأ^{١٨} تتولاني ، عقدت لساي على مدحه ، ووقفت نفسي على شكره ، فَيُخَرِّزَ من الله أجراً جزيلاً ، ومني شكراً جزيلاً ، إن شاء الله بمنّته وكرمه .

وكتب المرحوم أحمد بك رَأَفَت :

السيد الكامل - أدام الله علاءه^١ ، وأطال بقاءه^٢ ، وجعله مَوْئِل^٣ الكرم ، ومُسْنَد^٤ النعم - قد غمرني بِنَمَائِهِ ، وطوقني بآلائه^٥ ، حتى قصرت^٦ خندي عليه ، وأمسكت لساني عن الشكر إلا إليه ، وكان من مَنَنِهِ عَلَيَّ وأياديه

(١) مال . (٢) مصائبه . (٣) الغاية . (٤) اشتدت .
(٥) الريح . (٦) حوادث الدهر . (٧) تتلأأ . (٨) حقيق .
(٩) نعمة . (١٠) آلائه : أفضاله . (١١) تستمر . (١٢) ملجأ .

البيضاء لديّ أن وعدني يُقلِّدني في أول العام وظيفَةً عاليةً، ومرتبة سامية ،
فاخضل^١ رَوْضُ الأمل بعد ذبوله ، وبزغ^٢ كوكبه بعد أفوله^٣ واتسع
نطاقه^٤ ، واستبشر القلبُ بنيل أمنيته ، والحصول على طلبته . واشتدَّ
أُرْزِي^٥ على مقارعة كتائب^٦ الزمان ، وقَتَوِي جنائي على صد جيوش الحِذَّانِ
وما زالت بي الأيام حتى حان أولُ العام ، وما تحقَّق الوعدُ ، أوْ أوفي المهدُ .
ومثلُ السيد من إذا وعد وفى ، أو تعهد أوفى :

أوفى دين ذي المعروف يحملُ أنثي تنوءُ بي البؤسى ويثقلُني العُسرُ
وأنتَ الذي أعطى المكارم حقها ولم يحكْ جَدَّ والكَالسَّحابُ ولا البَحْرُ
فمَجَّلَ فخيرُ البرِّ يُحمد عاجلاً وأوف فوعد الحرِّ دين به الحر

هذا ؛ ولكنني رجعت وحكمت العقل ، فعذرتُ السيد ، وحملت ذلك على
أنه إنما لم يعجَّل بإنجاز وعده ، وإيفاء عهده ، إلا لتقليد عبده وظيفَةً أسمى
 ومرتبة أعلى ، علَّه يستدرِّك ما فات ، ويُحسنُ إلى عبده فيما هو آت .

وكتب الفاضل عبد العزيز بك محمد :

عهدي بالسيد الجليل — أدامه الله مصدراً للمكارم تُشْتَقُّ منه صفاتها ،
ومظهراً للفضائل تتجلى فيه آياتها — سباقاً إلى غايات المجد دراكاً لمطالب الحمد ،
أريحيّاً^٧ لا يصبو^٨ إلا إلى إسداء المِنَّنِ^٩ ، جواداً لا يطعم طرفه في بث
عوارفه إلى ثمن . ما أمه^{١٠} أسيرُ فاقة^{١١} إلا والنفي^{١٢} لديه كهفاً منيعاً ؛
وجاهاً ربيعاً ، وما قصده ذو حاجةٍ إلا وصدر^{١٣} عن مورد^{١٤} فضله

(١) صار ندياً . (٢) طلع . (٣) غيبته . (٤) ثوبه . (٥) ظهري .

(٦) الجيوش . (٧) يرتاح للعطاء . (٨) لا يميل . (٩) إحسان .

(١٠) قصد . (١١) فقر . (١٢) وجد . (١٣) رجع . (١٤) مكان الورود .

شادياً^١ بثنائه ، معلناً بولائه وإن لي إلى السيد حاجة^٢ إن لم يُسمعف بقضائها
فيا حسرة نفسي وطول شقامها . وليست هذه بأول مرة استمعت^٣ فيها عالي
مرؤته ، واستمطرت صيب^٤ همته ، فإنه طالما طوقني قلائد نعمه ، وأرسل
عليّ مدارء كرمه ، فليجر في هذه أيضاً عادته ويقابلني بما عودني من
كرامته . ومعاذ الله أن أسأله ما ليس في وسعه ، أو أن أستقضيه شيئاً يحرص
على منعه . ولكنني :

أريدُ بسطةَ كفّ أستعين بها
على قضاءِ حقوقِ للمُلى قبّلي

والذي يكفل لي البسطة : أن يقلدني سيدي وظيفة مناسبة لحالي ، حتى
تكون لي درعاً أتقي بها مهانة الفقر ، وسيفاً أكفّ به عوادي الدهر ، ومالي
والإقسام عليه في إنالتي هذه البغية ، بنفيس وقت قضيته في خدمة العلم ، واقتناء
أبكاره ، وطويل عناء تحملته في مزاولة^٥ الأدب واكتشاف أسرارهِ ، ونفس
ارتاضت^٦ بالفضل ، وآثرت^٧ غصة الفقر على منّة البذل ، وله من سنيات^٨
الفضائل^٩ وعليات الفواضل^{١٠} وجليلات المآثر ، وجليلات المفاخر ، ما لو أقسم
به عليه في إنالة أعز المطالب ، لألزمه كرم سجاياه برّ ذلك القسم ، وإجابة
دواعي الهمم ، وإنك لفاعل إن شاء الله تعالى .

وكتب فقيده الأدب حسن أفندي توفيق العدل المتوفى بلندن سنة ١٣٢٢هـ :

كتابي إلى ربّ النعماء ، واليدِ البيضاء ، وقد أصبحت كما قال : الحريري :

- | | | | |
|------------------------------|---------------------------------------|------------|-------------------|
| (١) مترغاً | (٢) سأله العطاء | (٣) السحاب | (٤) ما يدر بالمطر |
| (٥) معاناته | (٦) تمرنت | (٧) اخترت | (٨) عاليات |
| (٩) جمع فضيلة ، وهي الدرجة . | (١٠) جمع فاضلة ، وهي النعمة الجليلة . | | |

« خاوي^١ الوفاض^٢ بادي^٣ الإنفاض^٤ ، لا أملك بلذغة^٥ ، ولا أجد في جرابي مضغة^٦ - قد التوى عليّ أمري ، وثقل من حاجتي ظهري ومدّ الاحتياج^٧ إليّ أطنا به^٨ ، وسرّ بلي^٩ الافتقار إهابه^{١٠} والدنيا مكدّرة بأحداثها^{١١} وقصورها منغصة بأحداثها^{١٢} نعيمها يصفو^{١٣} ولكن لا يصفو . وأنت - كما أعلم - مفرّج كُرْبتي ، ومُنْقِذِي من شدي ، بطرفة^{١٤} من طرف رِفْدك^{١٥} ولحمة من لحات برّك^{١٦} فإن استدررت^{١٧} حلوبة^{١٨} مالك ، فقد لاذ غيري بجاهك . ما يمت^{١٩} غيرك . وكيف يقصد النهر ، من جاور البحر ، ويحتاج إلى النجم من يسري في ضوء البدر؟ فاستهز عطف^{٢٠} جودك وأستمطر^{٢١} سحاب كرمك . كيف لا وأنت قبلة المعروف ! وملأذ الملهوف ! إليك تشد الرحال ، وبك تُناط الآمال ، أولياؤك منك في ظل ممدرد ، وهناء وسعود . أفأنت الشمس عمّت بالإشراق ؟! أو الغيث والى الاندفاق ؟! - لكن :

مَنْ قاسَ جدواك يوماً بالسحب أخطأ مدحك
فالسحب تعطي وتبكي وأنت تعطي وتضحك

نسب الكرم بك عريق ، وروض المجد أنيق ، أصل راسخ ، وفرع شامخ ، تهتز للكارم اهتزاز الحسام ، وثبت أمام الشدائد بشعر بسام :

تراه إذا ما جثته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

حكمت الآمال في أموالك ، واستعبدت الأحرار بفعالك ، يبابيع الجود من أملك تتفجر ، وربيع السباح بك ضاحك لا يضجر ، فلا زلت

(١) خالي (٢) بكسر الواو جراب الزاد (٣) ظاهر (٤) فناء الزاد والمال (٥) بضم الباء المؤنثة القليلة (٦) انتهى كلام الحريري (٧) حبال الخيمة (٨) ألبسنيه قميصاً (٩) جلده (١٠) مصائبها (١١) يكسر (١٢) بنعمة (١٣) عطائك (١٤) إحسانك (١٥) استحلّبت (١٦) ما تحلت (١٧) ما قصدت (١٨) بجانب .

مولاي ممتعاً بشرف سجايك وشيمك ، مستمدّاً الشكر غراس نعمك ، ولا
زالت الأنام تذفن بتلك الشيم وتجنّي ثمار ذلك الكرم ، ودمت للمكارم بدراً يتم
لا يناله خسوف ، وشمس فضل لا يلحقها كسوف ، اطل الله لك البقاء ،
كتطول يديك بالعطاء ، آمين .

استمناح رجل لعبد الملك بن مروان

وفدّ رجلٌ من بني ضبّة على عبد الملك بن مروان فقال :
والله ما ندري إذا ما فاتنا طلبُ إليك من الذي تتطلّب؟
فلقد ضربنا في البلاد فلم نجد أحداً سواك إلى المكارم ينسبُ
فاصبر لعاداتنا التي عودتنا أو لا ، فأرشدنا إلى من نذهب ؟
فقال عبد الملك : إلى ! إلى ! وأمر له بألف دينار ، ثم اتاه في العام المقبل
فقال :

يرُبُّ^١ الذي يأتي من الخير أنه إذا فعلَ المعروف زاد وتمّما
وليس كان حينَ تمّ بناؤه تتبّعه بالنقض حتى تهدّما
فأعطاه ألفي دينار . ثم اتاه في العام الثالث فقال :
إذا استمطروا كانوا مغازير^٢ في الندى يحدّون بالمعروفِ عوداً على بدو
فأعطاه ثلاثة آلاف دينار .

(١) ضرب في الأرض سافر (٢) رب : زاد وأصلح
(٣) أغزر المعروف جعله غزيراً . والمغازير لا يكون إلا جمعاً لمغزار أو
مغزير من صيغ المبالغة ولم أجدهما في اللسان والقاموس ، وفي المخصوص سحابة
مغزار : غزيرة فيكون جمعاً لمغزار .

استمناح العتابي لأحد أصدقائه

كتب كلثوم^١ بن عمرو العتابي إلى صديق له :
 أمّا بعدُ - أطل الله بقاءك ، وجعله يمتد بك إلى رضوانه والجنة - فإنك
 كنت عندنا روضةً من رياض الكرم ، تبتهج النفوس بها ، وتستريح القلوب
 إليها ، وكُنّا نعيمها من الشجعة^٢ استتماماً لزهرتها ، وشفقة على خضرتها ،
 وادخاراً لثمرتها ، حتى أصابتنا سنةٌ كانت عندي قطعةً من سني يوسف ،
 واشتد علينا كلبها^٣ ، وغابت قِطْطُها وكذبتنا غيُومُها ، وأخلفتنا
 بُرُوقها ، وفقدنا صالح الإخوان فيها ، فانتجعتك ، وأنا بانتجاعي إليك
 شديد الشفقة عليك ، مع علمي بأنك موضع الرائد^٤ ، وأنتك تُغطني
 عين الحاسد ، والله يعلم أني ما أعدُّك إلا في حومة^٥ الأهل ، واعلم أن الكريم
 إذا استجيا من إعطاء القليل ولم يمكنه الكثير لم يُعرف جوده ولم تظهر همته .
 وأنا أقول في ذلك^٦

إذا تكبرمت عن بذل القليل ولم تقدر على سعة لم يظهر الجود
 بُثَّ النّوال ولا تمنعك قِلته فكل ما سد فقرأ فهو محمود
 قيل : فشاطره جميع ماله .

(١) من سلاله عمرو بن كلثوم صاحب المعلقة ، وكان شاعراً مترسلاً بليغاً
 مطبوعاً متصرفاً في فنون الشعر من شعراء الدولة العباسية ومن شعره في الشكر :
 فلو كان للشكر شخص يبين إذا ما تأمله الناظر
 لمثلته لك حق تراه لتعلم أني أمرؤ شاكر
 وله مع الرشيد والمأمون والبرامكة أخبار ونوادر .
 (٢) النجمة طلب الكلأ في موضعه (٣) الكلب القحط وبلاء الشتاء ومرض
 يصيب الكلاب (٤) الرائد الطالب (٥) الحومة هنا الجماعة والطائفة (٦) كذا
 ذكر القالي في أماليه وقد حذفنا من روايته ثلاثة أبيات قليلة الاتصال بالغرض .
 هذا والمعروف أن هذه الأبيات لشاعر يسمى حماد عجرد أو لبشار بن برد لا
 للعتابي وتبعه هذا على القالي .

استمناح اعرابية لعبدالله بن ابي بكرة

دخلت أعرابية على عبدالله^١ بن أبي بكرة بالبصرة ، فوقفت بين السّماطين^٢ ، فقالت : أصلح الله الأمير وأمنّع به - حدّرتنا إليك سنّة^٣ اشتدّ بلاؤها ، وانكشف غطاؤها ، أقود صبية صغاراً ، وآخرين كباراً ، في بلدة شاسعة ، تخفّضنا خافضة ، وترفعنا رافعة ، للمئات من الدهر أذهبن لمحي وبرين عظيمي وتركنني والهة^٤ أدور بالحضيض ، وقد ضاق بي البلد العريض فسألت في أحياء العرب ، من الكاملة فضائله ، المعطي سائله ، السّافي فائله ؟ فدلت على - أصلحك الله تعالى - أو أفا امرأة من هوازن ، قد مات الوالد ، وغاب الرافد وأنست بعد الله غيائي ومنتهى أمني ، فاصنع بي إحدى ثلاث خصال : إمّا أن تردني إلى بلدي ، أو تحسّن صفدي^٥ ، أو تقيم أوّدي^٦ . فقال : بل أجمعهنّ لك ، ولم يزل يُخبرني عليها كما يُخبرني على عماله حتى ماتت !

استمناح حكيم فارسي للمهلب

قال الهيثم بن عدي^١ : قدم حكيم من حكماء أهل فارس على المهلب فقال : - أصلح الله الأمير ! - ما أشخصتني الحاجة ، وما قنعت بالمقام ، ولا أرضى منك بالنّصف إذ قمت هذا المقام . قال : ولم ذلك ؟ قال : لأنّ الناس ثلاثة : غني وفقر ومستزيد ؛ فالغني من أعطي ما يستحقّه ، والفقر من منعه حقّه ، والمستزيد الذي يطلب الفضل بعد الغني ، وإني نظرت

(١) هو ابن أخيه زياد ابن أبيه (٢) السّماط الصف (٣) والهة والوهى الشديد الحزن (٤) هوازن قسم من فليس وعبدالله بن أبي بكرة نسبة في ثقيف وهم من هوازن فهي تريد أن تملكه بماطفة القرابة (٥) الصفد : العطاء (٦) الأود : الاعوجاج

في أمرك فرأيتُ أنك قد أدّيت إليّ حقي ، فتاقت نفسي إلى استزادتك ، فإن منعتني فقد أنصفتني وإن زدّنتني زادت نعمتك عليّ . فأعجب المهلب كلامه وقضى حوائجه .

تلطف رجل من اهل الشام في استمناح المنصور

قدم رجل من أهل الشام على أبي جعفر المنصور فتكلم معه كلاماً حسناً ، فقال له أبو جعفر : حاجتك ؟ فقال : 'يُمْلِكُكَ اللهُ يا أمير المؤمنين . قال : حاجتك ، فإنه ليس كلّ ساعة يمكنك هذا ولا تؤمر به . فقال : والله ما أستهقر عمرى ، ولا أخافُ بخلك ، ولا أغتَم مالك ، وإن سؤالك لشرفٌ ، وإن عطائك لزَيْنٌ ، وما بامرئ بذل وجهه إليك نقصٌ ولا شينٌ . فأمر له المنصور بمنحة سنّية .

وقد أُلِّمَ الرجل في أكثر معانيه بقول أمية بن أبي الصلت يستمنح عبدالله ابن 'جدعان' القرشي :

عطاؤك زَيْن لامرئ وإن حبوتهُ ببذل وما كلّ العطاء يَزِينُ
وليسَ بشين لامرئ بذل وجهه إليك كما بعض السُّؤال يشين



ومن أُلِّف الاستمناح قول أمية يخاطب ابن 'جدعان' أيضاً :

أذكر حاجتي أم قد كفاني حَبَاؤُكَ إن شيمتك الحباء
وعلمك بالأمور وأنت قَرم لك الحسب المهذب والسَّنَاءُ^٢
كريم لا يُفَيِّرُهُ صباح عن الخلق الجميل ولا مَسَاءُ

(١) عبد الله بن جدعان من تيم رهمط سيدنا أبي بكر الصديق وهو جواد مشهور . وكان أمية مداحاً له منقطعاً إليه توفي أمية بين يدي الإسلام .

(٢) القرم : الفحل والسيد ، والسناء : الشرف ، والسناء : الضوء .

'تَبَارِي الرِّيحَ مَكْرُومَةً وَبَجْدًا إِذَا مَا السَّكْبُ أَجْجَرَهُ الشَّتَاءُ' ١
إِذَا أَتْنِي عَلَيْكَ الْمَرْءُ يَوْمًا كَفَاهُ مِنْ تَعَرُّضِهِ الشَّاءُ ٢

استمناح عبد العزيز بن زرارة لمعاوية

قال العتبي : وفد عبد العزيز بن زرارة على معاوية ، فلما أذن له وقف بين يديه وقال : يا أمير المؤمنين ! لم أزل أُرزّ ذوائب^٣ الرجال إليك ، إذ لم أجد مَعْوَلًا إلا عليك ، أمتطي الليل بعد النهار ، وأسم^٤ الجاهل بالآثار يقودني إليك أمل وتسوقي بَلَوَى ، والمجتهد يعتذر ، وإذ قد بلغتك فقطني^٥ . فقال معاوية : أخطط عن راحلتك .

★

ولما ولي الخليفة المهدي سليمان^٦ بن وهب وزارته قام إليه رجل من ذوي حرمة فقال : أعزّ الله الوزير ! - أنا خادمك المؤمل لدولتك ، السعيد بأيامك ، المنطوي القلب على ودك ، المنشور اللسان بمدحك ، المرتهن بشكر نعمتك ، وقد قال الشاعر :

وَقِيتُ كُلَّ صَدِيقٍ وَدَدَنِي ثَمًا إِلَّا مُؤَمِّلَ دَوْلَاتِي وَأَيَّامِي
فَإِنِّي ضَامِنٌ أَنْ لَا أَكْفَتَهُ إِلَّا بِتَسْوِيفِهِ فَضْلِي وَإِنْعَامِي^٧
وَإِنِّي لَكَمَا قَالَ الْقَيْسِيُّ^٨ : مَا زِلْتُ أَمْتَطِي النَّهَارَ إِلَيْكَ وَاسْتَدِلُّ بِفَضْلِكَ

(١) أججره : ألجأه (٢) يقول : انك لا تجشم المحتاج مثونة السؤال لأنك تستغني بثناؤه عن استجدائه (٣) الذوائب : ذوائبه وهي الجلدة المعلقة على آخرة الرجل . (٤) واسم الأرض كوعد ترك فيها أثراً (٥) قطني اسم الفعل بمعنى يكفيني ومثلها قدني (٦) سليمان بن وهب من كبار وزراء الدولة العباسية ، وقد تقدم ذكر ابنه عبيد الله وحفيد القاسم . توفي سليمان سنة ٢٧٢ هـ (٧) سوغه : أناله . (٨) يريد بالقيسي سوغه عبد العزيز بن زرارة المتقدم لأنه من بني عامر ثم من قيس . وقد ذكر عبارته بمعناها لا بلفظها .

عليك ، حتى إذا اجتن الليل ففض البصر ، ومحا الأثر ، قام الرجاء يديني سائر
أملي والنفس راغبة والاجتهاد عاذر وإذ قد بلغتك فقدني . فقال سليمان : لا
عليك فإني عارف بوسيلتك محتاج إلى اصطناعك وكفايتك ، ولست أؤخر عن
يومي هذا توليتك ما يحسن عليك أثره ، ويطيب لك خبره .

وكتب رجل من أهل البصرة إلى أخ له :

أما بعد فإنه يسهّل عليّ طلب الحاجة أمران فيك ، وأمران لي ، وأمر من
قبل الله وبه تمامها ، فأما اللذان فيك فاجتهادك في النجح ، ومبالغتكم في
الاعتذار ، وأما اللذان لي فإني أضيق عليك بعذري ، ولا أصون عنك شكري ،
وأما الذي من قبل الله عز وجل فأيماني بأن كل مقدر كائن والسلام .

وكتب المرحوم السيد مصطفى لطفی المنفلوطي :

أنا إن سألتك حاجتي - أعزك الله! - وبسطت إليك يد رجائي فقد طرقت
باب المكارم ، واستمطرت غيث المراحم ، ورجوت واحد الدهر همة وحزماً ، ونادرة
الوجود كرمًا وفضلاً . فإن أنجزتها فليست أولى الهمم ، ولا واحدة النعم ،
فلكم سبقت إليّ منك أياد تخرس دونها ألسنة الشكر ، وتضيق بها جرائد
الحصر ولقد مثلت - أيدك الله ! - بين [أن] استشفع إليك بدوي الجاه
عندك ، والزلفى^٢ لديك ، وبين^٣ أن أكمل ذلك إلى كرمك وفضلك وما طبع
عليه نفسك الشريفة من خلال الخير وسجايا البر ، فرأيت أن الثانية بك أخرى
وبفضلك أجدر والسلام .

(١) الجرائد : جمع جريدة وهي السعفة وكان يكتب فيها ، فالمراد الصحائف .

(٢) الزلفى : القرية والمنزلة . (٣) كرر الكاتب بين توكيدا ، وهو

جائز مسموع وأنا أستحسنه إذا طال ما قبل المعطوف كما هنا .

استمناح الصابي لبعض الرؤساء

وكتب أبو إسحاق الصابي إلى بعض الرؤساء :

قد جرت العادة - أطال الله بقاء الأمير ! - بالتمهيد للحاجة قبل موردها وإسلاف^٢ الظنون الداعية إلى نجاحها. وسالك هذه السبيل يسيء الظن بالمستول، فهو لا يلتبس فضله إلا جزاء، ولا يستدعي طوُّله إلا قضاء. والأمير بكرمه الغريب ومذهبه البديع، يؤثر أن يكون السلف له، والابتداء منه، ويوجب على المهاجم برغبته إليه حق الثقة به. فالحمد لله الذي أفرد بالطرائق الشريفة، ووحده بالخلال المنيفة، وجعله عين زمانه البصيرة، ولمعته^٣ الباقية المنيرة.



وكتب محمد بن عبيد الله إلى جعفر بن محمد وزير المعز وكان يتقرَّب إليه :
ما زلت - أيدك الله تعالى ! - أذم الدهر بدمك إياه، وانتظر لنفسك ولك عقباه، واتمنى زوال من لا دنب له، إلى عاقبة محمودة تكون بزوال حاله، وأترك الإعذار^٤ في الطلب على الاختلال^٥ الشديد ضناً بالمعروف عندي إلا عن أهله، وحباً لرجائي إلا عن مستحقه.



ومن أرق الاستمحة^٦ ما كتبه عبيد الله بن طاهر إلى سليمان بن وهب :
أبى دهرنا إسعافنا في نفوسنا وأستعففنا فيمن نحب ونكفر

-
- (١) الصابي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن هلال كاتب ديوان الإنشاء عن الخليفة وعن عز الدولة بن بويه وهو معدود من رجالات الكتابة توفي سنة ٥٣٨٤ هـ.
(٢) الإسلاف: التقديم. (٣) المعة: البقعة والقطعة من الجسد تهرق.
(٤) أعذر: بالغ (٥) الاختلال: الاحتياج (٦) الاستمحة: الاستمناح

فقلت له : 'نعماك فيها أتمها ودع أمرنا إن المهيم المقدّم'
 فأعجب سليمان بلطف طلبه في تهنئته وقضى حوائجه .
 وقال أعرابي لرجل : ما اتهمت حسن ظني بك ، منذ توجه رجائي نحوك ،
 ولا قعدت يجذ قائل ' باعتماد عليك ، ولا استدعتني رغبة عنك إلى من سواك
 ولا أراني الاختيار غيرك عوضاً منك .
 وكتب المديع الهمداني في بابه إلى بعض أصحابه :
 لك - أعزك الله ! - عادة فضل ، في كل فضل ، ولنا شبه مقمت ، في كل وقت ،
 ولعمري أن دا الحاجة مقيد^٢ الطلبة ، ثقل الوطأة ، ولكن ليسوا سواء .

الفصل الثالث في رسائل الشكر

كتب أبو منصور الشعالي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
 الشكر ترحمان النية ، ولسان الطوية ، وشاهد الإخلاص ، وعنوان الاختصاص ،
 عندي من إنعامه ، وخاض بره وعامته ، ما يستغرق منه الشكر ، ويستنفد قوة
 النشر ، شكر الأسير لمن أطلقه والمملوك لمن أعنته ؛ شكر كأنفاس الأحبار ، أو
 أنفاس الرياض غيب^٣ الأمطار .

وكتب الحسن بن وهب المتوفى سنة ٤٨٢ هـ :
 من شكرك على درجة رفعتك إليها ، أو ثروة أقدرته عليها فإن شكركي لك على
 مهجة أحيتها ، وحشاشة أبقيتها ؛ ورمق أمسكت به ؛ ووقت بين التلف وبينه .
 فلكل نعمة من نعم الدنيا حد تنتهي إليه ؛ ومدى تقف عنده ، وغاية من
 الشكر لا يسمو إليها الطرف ؛ خلا هذه النعمة التي فاقت الوصف ، وأطالت
 الشكر وتجاوزت قدره . وأنت من وراء كل غاية : رددت عناكيد العدو وأرغمت

(١) الجذ : الجذ . والقاتل المخطئ . (٢) المقيت والمقوت : البغيض والمكروه

أنف الحسود ، فنحن نلجأ منك إلى ظل ظليل ، وكنف^١ كريم ، فكيف يشكر
يشكر الشاكر ؟ وأين يبلغ المجتهد ؟!

وكتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ١٣٦ هـ :

فأما الشكر الذي أعارني رداءه ، وقلدني طوقه وسناءه^٢ فهيئات أن ينتسب إلا
إلى عادات فضله وإفضاله ! أو يسير إلا تحت رايات عرفه^٣ وبواله^٤ أو هو ثوب لا
يحلى إلا بذكر طرازه ، واسم حقيقته ، ولسواه مجازة ، ولو أنه (حين ملك رقي^٥
بأياديه ، وأعجز رسمي عن حقوق مكارمه ومساغيه) خلّس لي مذهب الشكر
وميدانه ولم يجاذبني زمامه وعنانه — لتعلقت في بلوغ بعض الواجب بعرو طمع ،
ونهدت فيه ولوعلى وهن وظلم^٦ ولكنه يابى إلا أن يستولي على أمد الفضائل ،
ويتسّم^٧ ذرى^٨ الغوارب^٩ منها والكواهل^{١٠} ، فلا يدع في المجد غاية إلا سبق إليها
فارطاً^{١١} وتخلف سواه عنها حسيراً^{١٢} ساقطاً ، لتكون المعالي بأسرها مجموعة في
ملكه ، منظومة في سلكه ، خالصة له من دعوى القسم وشركه^{١٣} .

وكتب أستاذي الشيخ محمد عبده^{١٤} يشكر للمرحوم حافظ إبراهيم تعريبه
كتاب البؤساء :

لو كان لي أن أشكرك لظن بالفت في تحسيه ، أو أحمذك لرأي لك فينسا

(١) جانب (٢) رفعت (٣) معرفة (٤) عطائه (٥) ريق
(٦) كلاهما الضعف (٧) يعلو (٨) أعالي (٩) جمع غارب ما بين الظهر والعنق
(١٠) جمع كاهل ما بين الكتفين (١١) سابقاً (١٢) كليل (١٣) مشاركته
(١٤) هو الأستاذ الإمام مفتي الديار المصرية سابقاً ولد سنة ١٢٥٨ هـ وتوفي
سنة ١٣٢٣ هـ وكتب هذا المکتوب شكراً لمرّجم كتاب البؤساء وقد نظم
قصيدة أثناء مرضه ومنها :

ولست أبالي أن يقال محمد أبل أو اكتظت عليه العمايم
ولكن دينا قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضي عليه العمايم

أبدعتَ في تزيينه - لكان لقلبي مطمعٌ أن يدنو من الوفاء بما 'يوجبهُ' حقُّك ،
ويجري في الشكر إلى الغاية كما يطلبهُ 'فضلُك'. لكنك لم تتقف بعُرفك^١ عندنا ،
بل عثمت به من حولنا ، وبسطته على القريب والبعيد من أبناء 'لفتنا'. زففت
إلى أهل اللغة العربية عذراء من بنات الحكمة الغربية ، سحرت قومها وملكت
فيهم يومها ، ولا تزال 'تنبّه' منهم خامداً وتهزُّ فيهم جامداً ، بل لا تتفك 'تحية'
من قلوبهم ما أمانته القسوة ، وتقوّم من نفوسهم ما أعوزت فيه الأسوة^٢ حكمة
أفاضها الله على رجلٍ منهم ، فهدى إلى التقاطها رجلاً مماً . فجردها من ثوبها
الغريب ، وكساها حلة من نسج الأديب ، وجلاها للناظر ، وحلاها للطالب ،
بعدما أصلح من خلقها وزان من معارفها . حتى ظهرت 'محبّبة' إلى القُلول ،
رشيقة^٣ إلى مؤانسة البصائر ، تهشُّ^٤ للفهم وتبشُّ^٥ للطف والذوق - وتسابق
الفكر إلى موطن العلم ، فلا يكاد يلحظها الوهم ، إلا وهي من النفس في مكان
الإلهام .

حاول قومٌ من قبلك أن يبلغُوا من ترجمة الأعجم مبلغك فوقَفَ المعجز
بأغلبهم عند مبتدأ الطريق ، ووصل منهم فريق إلى ما يحبُّ من مقصده ،
ولكنه لم يُعَن بأن يعيد إلى اللغة العربية ما فقدت من أساليبها ، ويردَّ إليها ما
سلبهُ المعتدون عليها من متانة التأليف ، وحسن الصياغة ، وارتفاع البيان فيها
إلى أعلى مراتبه .

أما أنت ، فقد وفيت من ذلك ما لا غاية لمزيد بعده ، ولا مَطْمَعٍ لطالب
أن يبلغ حدّه. ولو كنتُ بمن يقول بالتّناسخ، لذهبتُ إلى أن روح «ابن المقفع»
كانت من طيّبات الأرواح ، فظهرت لك اليوم في صورةٍ أبدع ، ومعنى أنفع .
ولعلك قد سذنت بطريقتك في التشعير سنة يعمل عليها من يحاوله بعد ظهور

(١) المعروف (٢) بالكسر والضم : القدوة (٣) لطيفة

(٤) بفتح التاء : تصل إليه بسهولة (٥) بفتح الباء : من البشاشة .

(٨ - جواهر الأدب ١)

كتابك ويحملها الزمان إلى أبناء ما يُستقبلُ منه . فتكون قد أحسنت إلى الأبناء كما أجملت في الصنيع إلى الآباء ، وحكمت للغة العربية أن لا يدخلها بعدُ من العُجْمة سِوَى ما هو في أسماء (أسماء الأماكن والأشخاص ، لا أسماء المعاني والأجناس) ومثلى من يعرف قدرَ الإحسان إذا عمَّ ، ويُعلي مكانَ المعروف إذا شمل ، ويتمثل في رأيه الحكيم العربي أبي العلاء المعري :

ولو أني حُبِيتُ الخلد فرداً لما أحببتُ بالخلد انفراداً
فلا هَطَلَتْ عليّ ولا بأرضي سحائبُ ليس تنتظم البلاداً

فما أعجز قلبي عن الشكر لك ! وما أحقك بأن ترضى من الوفاء باللقاء !

وكتب أيضاً في الشكر مع توثيق المودة إلى أصحابه :

لك في قلوبنا من المودة ما يزيكه سناؤك ، وفي مناطقنا من الحمد ما يوجبه
كالُك ، وفي صدورنا من الإجلال ما يرفعه بهاؤك !

وما بيننا من المودة لا تحده مدة ، ولا تخلق له جِدة ، نعيذه من حاجة
للتجديد واستدعاء للمزيد ، فلا المواصلة 'تربيهِ ، ولا المجاهلة 'توهيه - نعم إن
ما يحفظُ لك في الأنفس هو تجلي فضلك ، ومثالُ علائِكَ ونبلِكَ ، وذلك الخالد
بخلود الأرواح والباقي في تفاني الأشباح .

وبعدُ - فقد تلقيت منك كتاباً يَبُوح بسرّ الحبّة ، وينشرُ طيَّ الصداقة ،
فيه تبيان وُجدانِكَ بما وجدنا ، وتأثرك على ما فقدنا ، فكان نبأ عمّا نعلمُ ،
وقضاء بما نحكمُ ، ولكن شكّرنا لك فضلَ المراسلة ، وأريحيّة المجاملة ، والله
يتولى إيفاءك ، مثوبةً تكافئُ وفاءك .

وكتب أيضاً في الشكر لآخر :

لو كان في الثناء ، وملازمة الدُعاء ، وحفظِ الجميل ، والقيام بالخدمة جهـد

المستطيع ما يفي بشكر من يفتح باب المحبة ، ويبدأ بصنائع المعروف ، لكنت والحمد لله من أقدر الناس عليه ولكن أنى يكون في ذلك وفاء ؟ والمحبة سر نظام الأكوان ! والإحسان قوام عالم الإمكان ! والقائم على كنه جميعه قيوم السموات والأرض ! والمفتتحون لأبواب العرف على هذه النسبة الجليسة منه فليس لي إلا أن أُلجأ إلى الله في مكافأة فضيلتكم ، على ما كان منكم أيام الإقامة بينكم ، ثم أسلي نفسي عن عجزى بما أتخيل أن أكرمكم سيروي :

سيكفي الكريم إخوانه الكريم ويقنع بالود منه نوالا
وبعد هذا أرجو عفوكم عن التقصير في المبادرة إلى المكاتبة ، لأني شغلت بما شغلني عن نفسي . ولكن زالت العوارض (والحمد لله) وفاتني لهذا العذر تهنئتم بالعيد . وإنما للمؤمن في كل يوم بربه عيد ، فنهنتكم برضاء الله عنكم وتقبله صالح الأعمال منكم . وسلامي على نجلكم ومن ينتمي إليكم .

الفصل الرابع في رسائل النصع والمشورة

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والنمقة^١
إياك واحذر أن تكون ن من الثقات على ثقته

صدق الشاعر وأجاد ، وللثقات خيانة في بعض الأوقات : هذه العين تريك الشراب^٢ شراباً ، وهذه الأذن تسمعك الخطأ صواباً . فلست بمحذور إن وثقت بمحذور ، وهذه حالة الوائق بعينه ، السامع بأذنه .

وأرى فلاناً يكثر غشيانك^٣ وهو الديني دخلته^٤ ، الرديي جعلته^٥ ، السيي وصلته^٦ ، الخبيث كلمته ، وقد قاسمته في زرك^٧ ، وجعلته موضع سر^٨ك ،

(١) المحبة . (٢) ما تراه نصف النهار عند اشتداد الحر كالماء يلصق بالأرض وهو مثل في الخادع الكاذب (٣) إتيانك (٤) بتثليث الدال : نيته (٥) قوام القلب .

فأرني موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضع تلافيه ^١ : أظاهره غرك ؟ أم باطنه سرّك ؟؟

يا مولاي : 'يوردك' ^٢ ثم لا يُصدرُك ^٣ ويُوقعُك ثم لا يعذرُك . فاجتنبه ولا تقربه ، وإن حضر بابك ، فاكنس جنابك ^٤ . وإن مَسَّ ثوبُك فاغسل ثيابك ، وإن لصقَ يجلدك ، فاسلخ إهابك . ثم افتتح الصلاة بلعنِه ، وإذا استعذت بالله من الشيطان فاعنِه ^٥ .

وكتب الإسكندر المقدوني إلى أستاذه الحكيم أرسطو يستشيره فيما يفعله بأبناء ملوك فارس بعد أن قتل آباءهم وتغلب على بلادهم :

عليك أيها الحكيم منا السلام . أما بعدُ فإن الأملاك الدائرة والعلل السماوية وإن كانت أسعدتنا بالأمور التي أصبحَ الناس لنا بها دائنين — فلما مضطرون إلى حكمتك ، غيرُ جاحدين لفضلك والاجتناء ^٦ لرأيك ، لما بلونا من إجداء ^٧ ذلك علينا ، وذقنا من جنى ^٨ منفعتِه ، حتى صار ذلك بنجوعه ^٩ فينا ، وترسخه في أذهانتنا ، كالغذاء ^{١٠} لنا . فما ننفك نعوّل عليه ، ونستمد منه استمداد الجداول من البحار ، وقد كان مما سبق إلينا النّصر ، وبلغنا من النكاية في العدو ما يعجزُ القولُ عن وصفه ، والشكرُ على الإنعام به ، وكان من ذلك أنا جاوزنا أرض سورية والجزيرة ، إلى أرض بابل وفارس ، فلما نزلنا بأهلها ، لم يكن إلّا ريثما ^{١١} تلقانا نفرٌ منهم برأس ملكهم هدية ، وطلباً للحظوة عندنا ،

(١) تداركه (٢) يوصلك إلى مكان ورد الماء (٣) لا يرجعك
(٤) الفناء والناحية (٥) اقصدّه (٦) الاختيار (٧) إعطاء
(٨) ما يجنى ويؤخذ من الثمر (٩) بتأثيره (١٠) بكسر الفين ما يتغذى به . (١١) مقدار ما .

فأمرنا بصلب من جاء به وشهرته ، لسوء بلانه ، وقلة ارعوائه ووفائه ، ثم أمرنا بجمع من كان هنالك من أولاد ملوكهم وأحرارهم ، وذوي الشرف منهم ، فرأينا رجالاً عظيمي أجسامهم وأحلامهم^١ ، حاضرة الباهم وأذهانهم ، رائقة^٢ مناظرهم ومناطيقهم^٣ ، دليلاً على أن وراء ذلك ما لم يكن معه سبيل^٤ إلى غلبتهم ، لولا أن القضاء أداننا^٥ منهم ، وأظهرنا عليهم ، ولم نر بعيداً من الرأي في أمرهم أن نستأصل^٦ شأفتهم^٧ ، ونجثت^٨ أصلهم ، ونلحقهم^٩ بمن مضى من أسلافهم لتسكن القلوب بذلك إلى الأمن من جرائمهم^{١٠} وبوائقهم^{١١} ، فرأينا أن لا نعجل ببادرة^{١٢} الرأي في قتلهم ، دون الاستظهار بمشورتك فيهم . فإرفع إلينا رأيك في ما استشرناك فيه بعد صحتته عندك^{١٣} ، وتقليبك إياه^{١٤} يحكي نظرك .

والسلام على أهل السلام ، فليكن علينا وعليك .

فكتب أرسطو المتوفى قبل الميلاد إلى الإسكندر المقدوني :

إن لكل 'تربة' (ولا محالة) قسماً من كل فضيلة ، وإن لفارس قسماً من النجدة والقوة ، وإنك إن تقتل أشرافهم ، تخلف الوضعاء منهم على أعقابهم وتورث سفلتهم^١ ، منازل عليتهم ، وتغلب أدنياءهم ، على مراتب ذوي أخطارهم ، ولم تبطل الملوك قط ببلاء هو أعظم عليهم من غلبة السفلة وذل الوجوه ، واحذر الحذر كله أن تمكث تلك الطبقة من الغلبة^٢ ، فإنهم إن نجم

(١) جمع حلم بكسر الحاء المعقل وبضمها المنام ليلاً (الرؤيا) (٢) زائدة

(٣) جعل لنا الكرة عليهم (٤) نقطع (٥) عداوتهم (٦) نقتلع

(٧) كناية عن شرورهم (٨) الدواهي (٩) ما يظهر عند الغضب

(١٠) بفتح السين وكسر الفاء السقاط من الناس ، وبعض العرب يخفف فينقل

كسرة الفاء إلى السين .

منهم ناجيمٌ على جُئندك وأهل بلادك ، دهمهم ما لا رَوية فيه ، ولا منفعة معه -
فانصرف عن هذا الرأي إلى غيره ، واعمد إلى من قبلك من العظماء والأحرار ،
فوزع بينهم مملكتهم ، وألزم اسم الملك كل من وَلَّيْتَهُ منهم ناحية ، واعقد
التساج على رؤسهِ ، وإن صغر ملكه ، فإن التمسَّمتي بالملك لازمٌ لاسمه ،
والمعقود له التاج لا يخضع لغيره ، ولا يلبث ذلك أن يوقع بين كل ملك منهم
وصاحبه ، تدابراً وتغالبا على الملك وتفاخراً بالمال والجند ، حتى ينسوا بذلك
أضغانهم عليك ، وتعود بذلك حربهم لك حرباً بينهم ، ثم لا يزدادون بذلك
بصيرة إلا أحدثوا هنالك استقامة لك فإن دنوت منهم كانوا لك ، وإن نأيت
عنهم تعزَّزُوا بك ، حتى يثب كل منهم على جاره باسمك ، وفي ذلك شاغلٌ
لهم عنك ، وأمانٌ لأحداثهم بعدك ، (وإن كان لأمان للدَّهرِ) وقد أدَّيت
للك ما رأيته حَظّاً ، وعليَّ حقّاً ، والملك أبعدُ روية ، وأعلى عيناً في ما
استعان بي عليه .

والسلام الذي لا انقضاء له ولا انتهاء ولا غاية ولا فناء ، فليكن على الملك .

ومن رسالة للإمام عليّ المتوفى سنة ٤٠ هـ كرم الله وجهه :

دَعِ الإسْرَافَ مقتصدًا ، واذكر في اليَوْمِ غداً ، وأمسك من المال بقدر
ضرورتك ، وقسِّدْ الفضل^١ ليَوْمِ حاجتك ، أترجو أن يُعْطِيكَ الله أجر
المتواضعين وأنت عنده من المتكبرين ؟ أو تطمع وأنت مُتَمَرِّغٌ في نعم
تمنعه الضَّعِيفُ والأرملة ، أن يوجب^٢ لك ثواب المتصدقين ؟ وإنما المرءُ
مجزى بما أسلف^٣ وقادمٌ على ما قدَّم ، والسلام .

(١) ما فضل عندك من مال وأعمال فقدمه .

(٢) أن ومدخولها مجرور بحرف جر محذوف متعلق بتطمع .

(٣) قدمه في سالف أيامه .

وكتب أيضاً كرم الله وجهه إلى عبدالله بن عباس رضي الله عنهما :

أما بعد - فإن المرء قد يسره درك ما لم يكن ليفوته ، ويسوءه فوت ما لم يكن ليذكره . فليكن سرورك بما نلت من آخرتك ، وليكن أسفك على ما فات منها . وما نلت من دنياك فلا تكثير فيه فرحاً ، وما فاتك منها فلا تأسف عليه جزعاً ، وليكن همك فيما بعد الموت .

وكتب بطل الوطنية السيد عبدالله النديم المتوفى ١٣١٤ هـ :

لا حول ولا قوة إلا بالله) اشتبه المراقب باللاه^١، واستبدل التحلوا بالمرء^٢، وقدم الرقيق على النحر^٣، وبسع الدر بالخرز^٤، والخرز بالخشف^٥، وأظهر كل لثم كبره^٦، إن في ذلك لسبرة^٧! سمعاً سمعاً^٨، فالوشاة إن سعوا لا يعقلون^٩، ويحبون أن يمدوا بما لم يفعلوا^{١٠}، فكيف تشترون منهم القار^{١١} في صفة العنبر؟ وقد بدت^{١٢} البغضاء من أفواههم^{١٣}، وما تخفي صدورهم أكبر^{١٤}! وكيف تسمع الأحزاب^{١٥} لمن نهى منهم وزجر؟ ولقد جاءهم من الأنبياء^{١٦} ما فيه مژدجر^{١٧}! عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها معرضون^{١٨}! فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون^{١٩}! فقابلوهم بنبال الطرد في الأعناق^{٢٠}، حتى إذا أنشختهم^{٢١} فشدوا الوثاق^{٢٢}، أيدخلون بنا لا ينفع^{٢٣}، في بيوت أذن الله أن ترفع^{٢٤}! سيعلمون مقام الهبوط والعر^{٢٥}، يوم يسمعون الصيحة بالحق^{٢٦}؛ ذلك يوم الخروج^{٢٧} ويقولون إذا لم يحدوا ملاذاً يا ويلنا قد كننا في غفلة من هذا^{٢٨}! فإنهم عزموا على الإقامة مدة^{٢٩}، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة^{٣٠}، وأنت عزيز العليا^{٣١}، ووحيد الدنيا قد

- (١) باللاهي الذي يكون ملهياً - وغالباً الشيطان (٢) بفتح الخاء أو بضمها الرديء من الصوف (٣) الزفت (٤) ظهرت (٥) الأخبار (٦) النهي بشدة (٧) أكثرتم القتل فيهم (٨) ما يربط به (٩) الطلوع (١٠) ما أعده الإنسان لحوادث الدهر من المال والسلاح .

بينت لك فعلهم ، فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولكنهم تطمعو في عمي طولك^٢ ، ولو كنت فظاً^٣ عظيم القلب ، لانقضوا^٤ من حولك . أترأهم يعقلون كلامك أم يفهمون ، لتعمرك^٥ إنهم لفي سكرتهم يعمهون^٦ لهم قلوب لا يدرؤن بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ، وإني قد شئت^٧ لك بقلبي حصناً^٨ صعباً^٩ ما استطاعوا أن يظهروه^{١٠} وما استطاعوا له نقباً^{١١} نسيت بالعاذل^{١٢} جميل الصوت^{١٣} ، وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره^{١٤} رُميت أيها العاذل بسيف الغدر في نحرِكَ ! أجنبتنا لتُخْرِجَنَا من أرضنا بسِحْرِكَ ، فإن لم ترجع عن السحر وفعله ، قلنا تدينك بسِحْرٍ مثله ، كيف يسمى العاذل بين النديم وإلفه ، وقد خللت النذر من بين يديه ومن خلفه ! فبما سادتي دعوتي من المعجب والمطرب ! ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . واجعلوا سيف ثباتكم للعدال مسلولا ، وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا . فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بطير ، سيعلمون غداً من الكذاب الأثير^{١٥} . وها قد صار أمر الحزبين عندك جلياً ، فأبي^{١٦} القرقيش خير مقاماً وأحسن ندياً^{١٧} ! أتظن عهد العاذل عند غضبك لا ينكت^{١٨} مثله كمثل الكلب إن تحمل

- (١) فبرحمة وما للتوكيد والدلالة على أن لينة ما كان إلا برحمة من الله
(٢) إحسانك (٣) سيء الخلق (٤) قاسيه (٥) لتفرقوا
(٦) لحياتك واللام لتوكيد الابتداء والخبر محذوف تقديره قسي
(٧) يتحيرون (٨) زينت (٩) موضعاً حصيناً (١٠) لا يقدر أحد
أن يدخله والمراد المبالغة في تحصين المحبة (١١) لا يقدر أن يعلوا ظهره
لارتفاعه ونعومته (١٢) خرقاً لصلابته وسمكه (١٣) اللاتم
(١٤) الذكر الجميل ولا يستعمل الصوت بهذا المعنى إلا في الجميل
(١٥) أنساني ذكره (١٦) المتكبر (١٧) مجلس القوم (١٨) لا ينقض .

عليه يلهث ؛ إنه لكمُ عدوٌّ كبيرٌ ، ففرُّوا إلى الله إني لكم منه نذيرٌ ، فإنه جمع لقتالِك الأولاد ، والأحفاد^١ وآخرين مُقرَّنين^٢ في الأصْفاد^٣ ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ، فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وظنُّني إن وصل إليك كتابي ، أنهم يُطردون ويُردَّعون ، وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أَيُعْجِبُكَ إِذَا مَشَى هَذَا اللَّاتِرُ ، ثاني عطفه^٤ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ^٥ الله .

وإنك وإن فرحت بعلم ما يجهلون ، قد تعلم أنه لينحزُنكَ الذي يقولون . فإن قلتَ إن اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القبيل ، إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين^٦ عليها والمؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ^٧ ، وفي الرِّقَابِ^٨ ، والغارمين^٩ ، وفي سبيل الله^{١٠} وابن السبيل^{١١} ؛ على أنه لا تحلُّ الصدقة لذميم^{١٢} همار^{١٣} مشاء بنميم^{١٤} ، وطباعهم كما تعلم منكِّرةٌ مُستَقْدَرَةٌ ؛ كأنهم حمر^{١٥} مستنفِرة^{١٦} فرَّتْ من قَسْوَرَةٍ^{١٧} .

وقد قال وفائي : خاطب عزيزك هذه المرة ، وإن لم يعمل فيك فكراً ، وما يُدْرِيكَ لعلَّه يَزْكِي^{١٨} ، أو يَذْكُرَ فتنفَعُهُ الذِّكْرَى .

فقال لساني : إنَّ الوُدَّ هوَ الرِّسُولُ المأمون ، فأرسلهُ معي رِداءً^{١٩} يصدِّقني إني أخاف أن يكذبون . فقلت : سيرُوا مع الحبَّة ذات

-
- (١) أولاد الأبناء (٢) مشدودين (٣) القيود (٤) لاوي عنقه تكبرا
(٥) عن دين الله (٦) السعاة الذين يقبضون الصدقات بأمر الحاكم (٧) أشراف من العرب كان النبي ﷺ يستألفهم للإسلام (٨) المكاتبون من العبيد (٩) من تحملوا الدين (١٠) الفقراء في الجهاد (١١) المسافر والمنقطع عن ماله (١٢) القبيح والمراد قبيح الفعل ذميم الخصال (١٣) عياب يعيب الناس (١٤) ساع بالنميمة والفساد (١٥) جمع حمار (١٦) نافرة (١٧) الأسد (١٨) يتطهر من الذنوب (١٩) معينا .

الْفُتُوَّةُ^١ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة^٢ ، وقولوا له عند الغاية قد جئناك بآية . ولا تهابوا الجيش وإن كبر^٣ ، سبهزم^٤ الجمع^٥ ويولون الدُّبُرَ^٦ ولا تظنُّوا من ظاهر الأمر حلول البلوى^٧ ، إذ أنتم بالعدوَّةِ^٨ الدنيا^٩ ، وهم بالعدوَّةِ القصوى^{١٠} ، بل قاتلوهم قتالَ المستشهدين^{١١} ، وليجيدوا فيكم غلظة^{١٢} ، واعلموا أن الله مع المتقين .

وإذا اشتبك القتال فليذب كل منكم عن مولاه^{١٣} ، وإن جنحوا^{١٤} للسلم^{١٥} فاجنح لها وتوكل^{١٦} على الله ، فسيروا ودعوا الأولاد^{١٧} والنِّجْنَةَ^{١٨} ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنَّة ، ولا تسألوا عن الميرة^{١٩} من أصله ، وإن خفتم عَيْلَةً^{٢٠} فسوف يغنيكم الله من فضله^{٢١} ، فإن الله قد أثاركم^{٢٢} لقتال العدال العائنين ، ليقطع طرفاً من الذين كفروا أو يكبتهم^{٢٣} ، فينقلبوا خائبين .

واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا في جنوبهم رَضُوا أن يكونوا مع الخوالف^{٢٤} وطبع^{٢٥} الله على قلوبهم ؛ ولا تدبروا إذا رأيتهم^{٢٦} قدامكم^{٢٧} ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت^{٢٨} أقدامكم .

وإن أخذتم أسرى فقاتلوا أنصارها ، فإمّا منّا^{٢٩} بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب^{٣٠} أوزارها^{٣١} ، فإن أطعتم رفعتهم وأصلح^{٣٢} الله بالكم^{٣٣} ، وإن تتوَلَّوْا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم .

(١) الكرم والتسامح (٢) الظهر (٣) بضم العين وكسرها جانب الوادي (٤) القرية (٥) البعيدة (٦) صاحبه (٧) مالوا (٨) الصلح (٩) المراد بها هنا النساء وأصلها لما تغطي بها المرأة وجهها (١٠) جلب الطعام (١١) فقراً (١٢) لشركهم (١٣) يصرفهم ويذلهم (١٤) النساء (١٥) كناية عن إعفاء بصائرهم (١٦) سابقكم (١٧) تمنون عليهم بإطلاقهم من غير شيء (١٨) أهل الحرب (١٩) أنقلها من سلاح وغيره .

وسأتلو في خطبتكم عند قدومكم سالمين : فـقُطع دابر^١ القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .



وكتب أستاذنا الإمام الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٣٣هـ :
عرض لي ما منعي من قراءة الجرائد نحو أسبوع ، وكنت أسمع فيه بمجاذبة (ميت غمر) من بعض الأفواه ، أظنها من الحوادث المعتاد وقوعها ، حتى تمكنت من مراجعة الجرائد ليلة الخميس الماضي ، فإذا لهب ذلك الحريق يأكل قلبي أكله الجُسوم أولئك المساكين : سكان (ميت غمر) . ويصهر^٢ ! من فؤادي ما يصهره من لحومهم ، حتى أرق^٣ تلك الليلة ، ولم تغمض عينايا إلا قليلا . وكيف ينام من يبيت يتقلب في نعم الله ، وله هذا العدد الجم من إخوة وأخوات يتقلبون في شدة البأساء ؟^٤ فأردت أن أبادر بما أستطيع من المعونة (وما أستطيعه قليل لا يغني عن الحاجة ولا يكشف البلاء) ثم رأيت أن أدعو جمعا من أعيان العاصمة ليشاركوني في أفضل أعمال البر في أقرب وقت ، وكان ذلك يوم السبت فحضر منهم سابقون ، وتأخر آخرون ، وكتب بعضهم يعتذرون ، فشكر الله سعي من حضر ، وجزى خيرا من اعتذر ، وغفر لمن تأخر ، على أنه ليس الحادث بندي الخطب اليسير ، فالمصابون خمسة آلاف وبضع^٥ مئتين منهم الأطفال الذين فقدوا عائلتهم^٦ والتجار والصناع الذين هلكت آلاتهم ورؤوس أموالهم ، ويعتذر عليهم أن يتبدؤوا الحياة مرة أخرى إلا بمعونة من إخوانهم ، وإلا أصبحوا متلصطين أو سائلين ، والذين

(١) أهلكوا عن آخرهم (٢) يذيب (٣) سهرت (٤) الضرر والفقر

(٥) بكسر التاء أو بفتحها ما بين الثلاث إلى التسع — وبالضم الفرج .

(٦) من ينفقون .

فقدوا بيوتهم ولا يجدون ما يأوون إليه ، ولا مال لهم يقيمون ما يؤويهم من مثل بيوتهم المتخربة - لهذا رأيت ورأى كل من تفكر في الأمر ، أن يجمع مبلغاً وافرٌ يتمكن به من تخفيف المصاب عن جميع أولئك المصابين .
وكتب أيضاً في الغرض المذكور :

قد بلغكم (ولا ريب) من أخبار الجرائد ، ما عليه أهل (ميت غمر) بعد الحريق الذي أصاب مدينتهم ، فهم بلا قوت ولا ساتر ولا مأوى ، فليتصور أحدكم أن الأمر نزل بساحته ، أفما كان يتمنى أن يكون جميع الناس في معونته ؟ فليطالب الآن كل منا نفسه بما كان يطالب به الناس ، لو نزل به ما نزل بهم ، وليتفق مثاله ما يدفع الله به عنه مكروه الدهر ... فأرجو من همتكم أن تدفعوا شيئاً من مالكم في مساعدة إخوانكم ، وأن تذللوا ما في وسعكم لحث من عندهم على مشاركتكم في هذا العمل المبرور والسلام .

الفصل الخامس في رسائل الملامة والعتاب

كتب بديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٧ هـ :
لئن ساء لي أن نيلني بمساءة لقد سرني أني خطرْتُ بِبَالِكَ^١
الأمير أطال الله بقاءه ، في حالتي برّه وجفائه متفضل ، وفي يومي إدنائه وإبعاده متطول ، وهنيئاً له من حمانا من يحلّه^٢ ، ومن عرانا ما يحله^٣
ومن أعراضنا ما يستحلّه .
بلغني أنه - أدام الله عزّه ! - استزاد صنيعه ، فكنت ظنني

(١) هذا البيت لعبد الله بن عبيد الله أحد بني عامر المشهور بابن الدمينية من قصيدة والخطاب المؤنث (٢) ينزل فيه (٣) يفكه (٤) زاد (٥) معروفه وإحسانه .

مجنياً^١ عليه مساء إليه ، فإذا أنا في قرارة الذنب ، ومثارة^٢ العتب ، ولست شعري^٣ أي محظوري^٤ في العشرة حضرته ، أو مفروض من الخدمة رفضته^٥ ، أو واحب في الزيارة أهملته ، وهل كنت إلا ضيفاً أهدها منزع^٦ شاسع^٧ وأداة أمل واسع ، وحدها^٨ فضل وإن قل ، وهدها رأي^٩ وإن ضل ، ثم لم يلق إلا في آل ميكال رحله^{١٠} ولم يصل إلا بهم حبله ، ولم ينظم إلا فيهم شعره ، ولم يقف إلا عليهم شكره .

ثم ما بعدت صحبة^{١١} إلا دنت مهانة ، ولا زادت حرمة^{١٢} إلا نقصت صيانة ، ولا تضاغت منة^{١٣} إلا تراجمت منزلة ، ولم تزل الصفة بناحق صار وآبل^{١٤} الإعظام قطره ، وعاد قميص القيام صدوره^{١٥} ، ودخلت مجلسه وحوله من الأعداء كتيبة^{١٦} ، فصار ذلك التقريب ازوراراً^{١٧} ، وذلك السلام اختصاراً ، والاهتزاز إيماءً ، والعبارة إشارة ، وحين عاتبته أمل أعتابه^{١٨} ، وكاتبته أنتظر جوابه ، وسألته أرجو إيجابه ، أجب بالسكوت فما ازدادت له إلا ولاء ، وعليه ثناء ، ولا جرم^{١٩} أنى اليوم أبيض وجه العهد ، واضح حجة^{٢٠} الود ، طويل لسان القول ، رفيع حكم العذر . وقد حلت فلاناً من الرسالة ما تجافى القلم عنه .

والأمير الرئيس — أطل الله بقاءه ! يُنعم بالإصغاء لما يورده مؤلفاً إن شاء الله تعالى .

(١) المؤاخذه بيجنايته (٢) مكان الثوران (٣) ليتني أشعر وأخبر بالحقيقة والواقع (٤) ممنوع (٥) أبطلته (٦) مصدر ميمي بمعنى البعد (٧) بعيد (٨) ساقه ودفعه (٩) ما يأخذه المسافر من الأثاث وحوادث السفر (١٠) المراد به الكثير من الأنعام وأصله المطر (١١) ثوب يلبس فيغطي الصدر (١٢) جماعة (١٣) انحرافاً (١٤) إزالة عتبه وملامته (١٥) كلمة كانت في الأصل بمنزلة لا بد ولا محالة فجرت على ذلك وكثرت حتى تحولت إلى معنى القسم وصارت بمنزلة حقاً

وكتب أيضاً إلى القاسم الكرجي المتوفى سنة ٤٠٠ هـ :
 أنا - وإن لم ألقَ تطاول الإخوان إلا بالتطوُّل ، وتحاملَ الأحرار إلا
 بالتحمُّل - أحاسبُ مولاي - أيُّدَه الله ! - على أخلاقه ، ضنّاً^١ بما
 عقدتُ يدي عليه من الظن به ، والتقدير في مذهبه ، ولو لا ذلك ، لقلتُ في
 الأرض مجالاً^٢ ، إن ضاقت ظلالُك^٣ ، وفي الناس واصل^٤ ، إن رثت^٥
 حبالك ، وآخذهُ بأفعاله .

فإن أعارني أذننا وأعية ، ونفساً مراعية ، وقلباً متعظاً ، ورجوعاً عن
 ذهابه ونزوعاً^٦ عن هذا الباب الذي يقرّعه^٧ ، ونزولاً عن الصعود الذي
 يفرّعه^٨ . فرشتُ لودّته خوآن^٩ صدري ، وعقدتُ عليه جوامعَ خصري ،
 ومجامعَ عمري^{١٠} وإن ركب من التّعالّي غير مركبه^{١١} وذهب من التّغالي في غير
 مذهبه^{١٢} ، أقطعته خُطّة^{١٣} أخلاقه ، وكسّيته جانب إعراضه

لا أذود^{١٤} الطّير عن شجر قد بلوت المرّ من ثمره

فلبي وإن كنتُ في مقبَل السنّ والعمر ، قد حلبتُ شطريّ الدهر^{١٥}
 وركبتُ ظهريّ البرّ والبحر^{١٦} ، ولقيتُ وقْدَي^{١٧} الخير والشرّ ،
 وصافحتُ يدي النّفع والضرّ^{١٨} ، وضربتُ إبْطِي العُسر واليُسْر^{١٩} ، وبلوتُ

(١) بكسر الضاد وفتحها حرصاً (٣) أما كن الظل (٣) بليت وذابت
 (٤) انتهاء وتركاً (٥) يدقه بيده ليفتح له (٦) يصعده ويعلوه (٧) بضم الخاء أو
 بكسرها ما يؤكل عليه الطعام ومراده تمكين مودته من صدره (٨) مراده
 التمسك بمودته مدة حياته (٩) مراده وإن تكبر (١٠) طريقه (١١) بضم الخاء
 الطريقة ، مراده أنه يتركه وإن أخذ في غير طريق طباعه (١٢) لا أطرده
 (١٣) مراده مر به من خيره وشره وجرب نفعه وضره (١٤) مراده أنه جرب
 الأمور في البر والبحر (١٥) الوفد الجماعة التي ترد على الأمير أو غيره ، ومراده
 أنه عرف الخير والشر .

طعمي الحلو والمر ، ورَضَعْتُ ضرعي العُرْف والنكر^١ ، فما تكاد الأيام تريني من أفعالها غريباً وتسمِعني من أحوالها عجيباً ، ولقيتُ الأفراد ، وطَرَحْتُ الآحاد^٢ ، فما رأيت أحداً إلا ملأت حافتي^٣ سمعه وبصره ، وشغلتُ حيزي^٤ ، فكبره ونظره وأثقلتُ كتفه في الحزن ، وكفته في الوزن . وودُّ لو بادر القرن^٥ صحيفتي^٦ أو لقي صفحتي^٧ فمالى صغرت هذا الصغر في عينه ، وما الذي أزرى^٨ بي عنده حتى احتجب وقد قصدته ، ولزم أرضه وقد حضرته . وأنا أحاشيه^٩ أن يجهل قدر الفضل ، أو يحدد فضل العلم ، أو يمتطي^{١٠} ظهر التيه^{١١} على أهليه ، وأسأله أن يختصني من بينهم بفضْل إعظام ، إن زلت بي مرة قدم في قصده . وكأني به وقد غضب لهذه المخاطبة المجحفة^{١٢} والرتبة المتحيفة^{١٣} وهو في جنب جفائه يسير ، فإن أقلع^{١٤} عن عادته وترع عن شيمته^{١٥} في الجفاء ، فأطال الله بقاء الأستاذ الفاضل ، وأدام عزه وتأييده .

وكتب أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هـ :

والله يا قليب : لولا أن كبدي في هواك مقروحة^{١٦} ، وروحي مجروحة لساجلتك^{١٧} هذه القطيعة وماددتك حبل المصارمة^{١٨} وأرجو أن الله تعالى يديل^{١٩} لصبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنف القلى^{٢٠} راغم .

-
- (١) المعروف والمنكر ضده (٢) هذا والذي قبله كله بمعنى أنه جرب الأيام واختبرها من أول نشأته (٣) جانبي (٤) ناحيتي (٥) المقارن الكف ، عند ملاقة الأبطال (٦) كتابي (٧) وجهي معناه تمنى لقائي (٨) حط من قدري وشأني (٩) أنزعه (١٠) يركب (١١) الكبر والعجب (١٢) من الإجحاف وهو الذهاب بالشيء (١٣) من التحيف وهو الظلم والجور (١٤) رجع (١٥) خلقه (١٦) مجروحة (١٧) معناه لقابلتك (١٨) المقاطعة (١٩) الغلبة والنصر (٢٠) أنف صاحب البغض .

فقد طال العهد بالاجتماع حتى كِدنا نتناكر عند اللقاء والسلام .

وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ إلى تلميذه :

كتابي ، وقد خرجت من البلاء خروج السيف من الجلاء^١ ، وبرز البدر من الظلماء ، وقد فارقتني المحنة ، وهي مُفارقٌ لا يشقاق اليه ، وودعتني وهي مودع لا يبكي عليه . والحمد لله تعالى على مِحْنَةٍ يَحْلِيهَا ، ونعمة ينيلها ويوليها ، كنت أتوقع أمس كتاب مولاي بالتسلية ، واليوم بالتهنية ، فلم يكاتبني في أيام البرحاء^٢ بأنها غمته ، ولا في أيام الرخاء بأنها سرته ! وقد اعتذرت عنه إلى نفسي وجادلت عنه قلبي . فقلت : أما إخلاله بالأولى ، فلأنه شغله الاهتمام بها عن الكلام فيها . وأما تغافله عن الأخرى فلأنه أحب أن يوفّر عليّ مرتبة السابق إلى الابتداء ، ويقتصر بنفسه على محل الاقتداء ، لتكون نعم الله سبحانه عليّ موفورة من كل جهة ومحفوظة بي من كل رتبة ، فإن كنت أحسنت الاعتذار عن سيدي ، فليعرف لي حق الإحسان ، وليكتب إليّ بالاستحسان ، وإن كنت أسأت . فليخبرني بعذره ، فإنه أعرف مني بسرده وليفرض مني بأني حاربت عنه قلبي ، واعتذرت عن ذنبي ، حتى كأنه ذنبي ، وقلت يا نفس اعذري أخاك ، وكفاك منه ما أعطاك ، فمع اليوم غد — والعود أحمد .

وكتبت عبدالله بن معاوية بن عبدالله بن جعفر المتوفى سنة ٨٠ هـ :

أما بعد : فقد عاقني الشك في أمرك ، عن عزيمة الرأي فيك ، وذلك أنك ابتدأتني بلطفك عن غير خبرة ، ثم أعقبته جفاء من غير ذنب فأطمعني أولئك

(١) صقله بإزالة ما عليه حتى يرى له لمعان .

(٢) البلية .

(٣) شدة الأذى .

في إخائك ، وأبأسني آخرك من وفائك . فسبحان من لو شاء لكشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف وافترقنا على اختلاف والسلام .

وكتب صديقي زعيم الوطنية المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش :
سيدي - مالي أراك كمن نسي الخليط^١ وتجرد في الصحبة على المحيط والمحيط
فإذا ما صادفتك^٢ صدفت^٣ أو أنصفتك ما نصفت^٤ أتظن أني قعيدة بيتك^٥ ،
أو رهين كيتك وذيتك^٦ فوحقتك إذا آنتست^٧ من يدي مللا ، أو من قدمي
كللا^٨ ؛ لنجيزتها^٩ البتات^{١٠} وكلت بنقضها الذات . ولو أني آنتست من الزاد
فترة^{١١} أو من الشراب عُسرة ، لطعمت الطوى^{١٢} واستقيت الجوى^{١٣} فكيف
أداعب^{١٤} ؟ وتصاعب ؟ وأحالف وتحالف ؟ وأواصل وتفاصل ؟ وأجالب
وتجانب ؟ لبثت مطيتك التي اقتدعت^{١٥} وشيرعتك^{١٦} التي شرعت^{١٧} فوالله
لولا أن الحب حادث لا يتقى بالتروس ، ومعنى لا يدب إلا في النفوس ، وسهام لا
ترمى إلا من قسي الحواجب ونحو أوله المعية^{١٨} وآخره الجوارم ، لما افترست الطباء
الصيد^{١٩} الأسود ولا ملكت الأحرار العبيد . ولولا أني كترعت^{٢٠} من
صَابِيهِ^{٢١} والتخفت ببردة أوصابه^{٢٢} لتعوذت منك بسورة الفلق ونبتك^{٢٣}
نبت الرداء الخلق^{٢٤} ولهان مهلي أن أدعك أو أسمعك .

- (١) الصاحب (٢) وجدتك (٣) أعرضت (٤) كلاهما بمعنى ساعدتك
(٥) المرأة التي في البيت (٦) كلاهما بمعنى كذا وكذا والمراد أني لست رهين
قولك أفعل كذا وكذا (٧) علمت (٨) إعياء وضعفا (٩) قضيتها (١٠) القطع
المستأصل (١١) ضعفا وقلة (١٢) الجوع (١٣) الحرقه (١٤) أمازح
(١٥) دفعت (١٦) مكان الماء (١٧) دخلت (١٨) المترفة (١٩) بكسر
الراء وفتحها شربت بضمي (٢٠) مائه المر وأصله عصارة شجر مر (٢١) أمراضه
(٢٢) رميتك (٢٣) القديم البالي . (٢٤) هان : صار من الهوان .
(٩ - جواهر الأدب ١)

تمرُّون على الديار ولن تَمُوجوا^١ كلامكم عليّ إذا حرامٌ
غير أن لي نفساً شُبَّت على الحب فلم أفطمها وتقادعت^٢ على ناره فلم أعصمها .
حق بلغ السيل الزبى^٣ وتبددت النفس أيدي سباً إلا حُشاشة غفل عنها
الوجد ، وبقية رمق ألفيتها^٤ من بعد . وكلما رأيت منك الشطط^٥ واعتساف
الخطط^٦ عمدت إلى أن اثني^٧ من رسنها^٨ وأذود^٩ عن عطنها^{١٠} وشخصت^{١١}
إلى المكافحة والمكافأة ، وأن لا أكيلك إلا مثلاً ، ولا أسقيك إلا وشلاً^{١٢} ولا
أزيدك إلا فشلاً .

ولست أجزيك الجزاء الذي على وفاء الصنع لا بخسه
وليس يبكي صاحباً من إذا أهين لا يبكي على نفسه

على أني بالرغم أصبح في نهار أحلك^{١٣} من ليل ، وأمسي في ليل أشق على
النفس من وَّيل .

وليل كموج البحر أرخى سُدُوله^{١٤} عليّ بأنواع الهموم ليبتلي^{١٥}

فإن تخلصت من لقائك ، فإلى الشقاء ، وإذا لجأت من عسفك ، فإلى العناء ،
وإذا استجرت بفراقك ، فقد استجرت من الرمضاء^{١٦} ، وكأنك لم تدر أن دولة
الحسن سريعة التقويض^{١٧} وأنه لا بد من هبوط القمر إلى الحضيض ولسوف تبلى

(١) لن تقيموا (٢) تسابقت (٣) مثل يضرب لما جاوز الحد (٤) ذهبت
(٥) هو مثل يقال ، وتبددوا أيدي سباً معناه ذهبوا متفرقين ، وأصله في الذين
ذهبت جناتهم وغرق مكانهم وقد ذكرهم الله في القرآن قال «لقد كان لسباً» إلى
آخر الآيات (٦) وجدتهم (٧) تجاوز الحد (٨) الميل عن الطريق المألوف
(٩) الأمور (١٠) أرد (١١) زمامها (١٢) أمني (١٣) مكانها (١٤) المساء
القليل في هذا الموضع والماء الكثير في غيره (١٥) أشد سواداً (١٦) أستاره
(١٧) لتختبرني (١٨) الأرض الحارة (١٩) التفرق .

بعارض^١ بيد^٢ أنه غير مطر، وبساعة مقبلتك فيها مدبر، وستصبح عما قريب قد عفت^٣ رسومك^٤، ولم تجد في سوق الصحة من يسومك. والعاقِل من لا يختال بنفسه، ولا يبنى على غير أسه^٥ فإنك ما نضت^٦ لؤلؤه مبسميك، ولا نصّرت^٧ صورة معصمك^٨، ولا شئت فخلقت كما تشاء ولا اتخذت عند الله عهداً وهذا الوفاء. ولكن مثلك من أفرغه الله في القالب الذي اختار، وجعله مرتع النفوس ومسرح الأبصار، وإني أيها العزيز قد تقدمت إليك:

ولي أمل قطعت به الليالي أراني قد فنيت به وداما

فلا تحرمني من سائع العفو وسابقه، ولا تجعلني كباسط كفيه إلى الماء ليلغ فاه وما هو ببالغه:

فأشد ما لقيت من ألم الجوى^٩ قرب الحبيب وما إليه وُصُولُ
كالعيس^{١٠} في البيداء يقتلها الظم^{١١} والماء فوق ظهورها محمول

فاعمل في يومك لغدك، واستعجز غيرك ببسط يدك، ولا تأخذني يحرم الجاني المتلبس، ولا تبغ مني صحيفة المتأس^{١٢} بيد أني أنشدك الذي بلى العاشق بالمعشوق، وكلفه في الحب بيض الأنوق^{١٣} وسهّد^{١٤} طرفه بنواعس العيون، وخوّل^{١٥} للحسن إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، كما قرن الهوى بالنوى^{١٦}، والقلب بالجوى^{١٧} وقضى على المحب، وبشر العشق فلم يحتجب، ما الذي أغرى بك إلى الاعتساف، وعدم الإنصاف؟

-
- (١) السحاب الذي يعترض في الأفق (٢) غير أنه (٣) درست وذهبت
(٤) آثارك (٥) أساسه (٦) ما ظهرت (٧) ولا حسنت (٨) موضع السوار
من اليد (٩) الحزن (١٠) الإبل البيض يخالط بياضها شقرة أو ظلمة خفية
(١١) العطش (١٢) الطالب مرة بعد أخرى (١٣) الأنوق العقاب، ولفظ
المثل: هو أعز من بيض الأنوق، وهو مثل يضرب للمحال أو لما لا سبيل إليه
(١٤) أسهره (١٥) ملكه (١٦) البعد (١٧) الحرقه.

أَلَيْنُ الْأَعْطَافُ ! أَمْ 'فَتُورُ' ١ الْأَجْفَانُ ؟ أَمْ تَكْثُرُ الْكَلَامُ ؟ أَمْ هَيْفُ الْقَوَامِ !؟ لَقَدْ شَدَدَتْ أَزْرَكَ ٢ (وَاللَّهِ) بَضْعَافٍ ! وَاسْتَسَمَنْتِ تِلْكَ الْعِجَافُ ، وَهَلْ حَدَا ٣ إِلَى قَطِيعَتِي بِكَ ! أُنِي خَشِنُ الْمَمَسِ ؟ رِثْتُ الْمَلْبَسِ ؟ وَلَمْ أَمْنَحْ ٤ ، كَمَا مُنِحَتْ فَضْرَةٌ ، وَلَمْ أَلْبَسْ 'بَرْقَعِ الْبَيَاضِ وَالْحُمْرَةِ' ، فَاعْلَمْ أَنَّكَ إِنْ نَظَرْتَنِي بِعَيْنِ الرِّضَا ٥ ، وَرَحِمْتَ فَوَادًا يَتَقَلَّبُ مِنْكَ عَلَى جِمرِ الْغَضَا ٦ فَسَتَجِدُنِي صَدِيقَكَ الَّذِي لَا يَبْطُرُهُ الْوَفَاءُ ، وَلَا يَثْنِيهِ الْجَفَاءُ ، أَمَلِكُ لَكَ مِنْ لِسَانٍ ، وَأَطْوَعُ لِأَمْرِكَ مِنْ بَنَانٍ :

أَكْتُبْ ، فَأَيْنَ لِعَبْدِ الْحَمِيدِ الْكَاتِبِ قَلَمِي ؟ وَأَشْعُرُ ، فَأَيْنَ الشُّعْرَاءِ إِلَّا تَحْتَ عِلْمِي ؟ وَأَبْذُلْ ، فَأَيْنَ حَاتِمُ ٧ مِنْ كَرَمِي ؟ وَأَحْلُمُ ، فَأَيْنَ أَحْنَفُ ٨ مِنْ حِلْمِي ؟

وَحَسْبُكَ فَخْرًا أَنْ يَجُودَ بِنَفْسِهِ عَلَى رَغَبٍ مِنْ لَيْسَ بِأَمَلٍ فِي الشُّكْرِ وَمَنْ يَحْتَمِلُ فِي الْحُبِّ مَا فَوْقَ كَاهِلِي ٩ فَحَسْبُكَ حِلْمًا أَنْ يَقِيمَ عَلَى الْهَجْرِ فَإِنْ أَصْخَنَتْ ١٠ إِلَى الدَّاعِيَةِ ١١ وَوَعَيْتِ كَلِمَاتٍ لَا تَسْمَعُ فِيهَا لِأَغْيَةِ ١٢ ، فَلَيْلِكَ الْجَزَاءُ وَعَلَى الْوَفَاءِ ، وَإِلَّا فَالْفِرَارُ إِلَى الْمَوْتِ أَمْرٌ يُسِيرُ ، وَالْقَبْرِ لِلْعِشَاقِ قَلِيلٌ مِنْ كَثِيرٍ .

وَكُتِبَ مُعَاوِيَةَ إِلَى ابْنِهِ يَزِيدَ يُوْنُبُهُ وَيَعَاتِبُهُ :
أَمَّا بَعْدَ فَقَدْ أَدَّتِ أَلْسِنَةُ التَّصْرِيحِ إِلَى أُذُنِ الْعَنَاءِ بِكَ ، مَا فَجَّعَ الْأَمَلَ فِيكَ وَبَاعَدَ الرَّجَاءَ مِنْكَ ، إِذْ مَلَأْتَ الْعَيُونَ بِهَجَّةٍ ، وَالْقُلُوبَ هَيْبَةً ، وَتَرَامْتَ إِلَيْكَ آمَالَ

(١) ذَبُولُهَا (٢) ظَهَرَكَ (٣) سَاقٍ إِلَى (٤) أَعْطَى (٥) حَسَنًا (٦) شَجَرٍ خَشَبُهُ فِيهِ صَلَابَةٌ (٧) أَبُو عَدِي حَاتِمُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعْدِ الطَّائِي وَبِهِ يَضْرِبُ الْمَثَلُ فِي الْكَرَمِ مِنْ شُعْرَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ (٨) الْأَحْنَفُ بْنُ قَيْسٍ يَضْرِبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْحِلْمِ (٩) مَا بَيْنَ الْكَتِفَيْنِ (١٠) اسْتَمَعْتُ (١١) مُرَادُهُ بِهِ الْوَاشِي الْعَاذِلُ (١٢) اللَّفْوُ مِنَ الْكَلَامِ .

الراغبين، وهم المنافسين . فسخت بك فتیان قريش، و كحول أهلك ، فما يسوغ لهم ذكرك إلا على الجيرة المَهْوُوعَة ١ ، والكظ الحش ٢ . اقتحمت البوائق ٣ وانقدت إلى المعابر ، واعتضتها من سمو الفصل ، ورفيع القدر . فليتك -يزيد- إذا كنت لم تكن ، سررت يافعا ناشئا وأثقلت كهلا ضائعا ٤ ، فواحرزا عليك يزيد ! وياحر صدر المثلكل بك . ما أشمت فتیان بني هاشم ! وأذل فتیان بني عبد شمس عند تفاوض المفاخر ودراسة المناقب ! فمن لصالح ما أفسدت ورتق ما فتقت ؟ هيهات . خمشت ٥ الدربة ٦ وجه التصبر بك ، وأبت الجناية إلا تحدرأ على الألسن ، وحلاوة على المناطق ، ما أربح فائدة نالوها ، وفرصة انتهزوها ! انتبه يزيد للعظة ، وشاور الفكرة ولا تكن إلى سمك أسرع منها إلى عقلك ، واعلم أن الذي وطأك وسوسة الشيطان ، وزخرفة السلطان مما حسن قبجه واحلولى عندك مره ، أمرٌ شَرَكْكَ فيه السواد ٧ ونافسكه الأعباد ، فأضمت به من قدرك ، وأمكنك به من نفسك - فمن لهذا كله ؟

واعلم يا يزيد أنك طريد الموت ، وأسير الحياة ، بلغني أنك اتخذت المصانع والمجالس للملاهي والمزامير كما قال تعالى : (أتبنون بكل ريع آية تعبثون وتتخذون مصاصع لعلكم تَخْلُدُونَ ٨) ، وأجهرت الفاحشة حتى اتخذت سريرتها عندك جهراً .

اعلم يا يزيد أن أول ما سلبَكَه السكر معرفة مواطن الشكر لله

(١) الجرة : ما يفيض به البعير فيأكله ثانية ، وكذا غيره من النعم .
 والمهوعة : من هوعه أي قياه وهذا تمثيل ، أي أنهم يستقلون ذكرك (٢) الكظ : الامتلاء من الطعام ، والحش : الكثير وهذا تمثيل أيضاً (٣) البوائق : جمع بائقة وهي الداهية (٤) الضائع والضليع : القوي (٥) خمش : لطم (٦) الدربة : التجربة (٧) السواد : العامة (٨) تقدم شرح غريب الآية في خطبة قطري .

تعالى على نعمه المتظاهرة وآلائه المتواترة ، وهي الجرححة العظمى ، والفجعة الكبرى ترك الصلوات المفروضات في أوقاتها ، وهي من أعظم ما يحدث من آفاتهما ، ثم استحسان العيوب ، وركوب الذنوب ، وإظهار العورة وإباحة السر ، فلا تأمن نفسك على شرك ، ولا تعقد^١ على فعلك ، فما خير لذة تعقب الندم ، وتعفي^٢ الكرم ؟ وقد توقف أمير المؤمنين بين شطرين من أمرك لما يتروقه من غلبة الآفة واستهلاك الشهوة ، فكن الحاكم على نفسك ، واجعل المحكوم عليه ذهنك ترشد إن شاء الله تعالى ، وليبلغ أمير المؤمنين ما يرُد شارداً من نومه ، فقد أصبح نصب^٣ الاعتزال من كل مؤانس ودريئة^٤ الألسن الشامتة ، وفقك الله فأحسن .

وكتب أعرابي لابنه وسمعه يكذب :

يا بني عجبت من الكذاب المشيد بكذبه ، وإنما يدل على عيبه ، ويتعرض للعقاب من ربه : فالأثم له عادة ، والأخبار عنه متضادة ، إن قال حقاً لم يصدق ، وإن أراد خيراً لم يوفّق ، فهو الجاني على نفسه بفعله ، والدال على فضيخته بقاله ، فما صح من صدقه نسب إلى غيره ، وما صح من كذب غيره نسب إليه . فهو كما قال الشاعر :

حَسْبُ الكذوب من المها نة بعض ما يُحْكَى عليه
فلماذا سمعت بكذبته من غيره نُسِبَتْ إليه

وكتب المرحوم حفي بك ناصف إلى سماحة السيد توفيق البكري :^١
كِتَابِي إِلَى السيد السند ؛ ولا أَجَسِّمُهُ^٥ الجواب عنه ! فذلك ما لا أنتظره منه ، وإنما أسأله أن ينشط إلى قراءته ، ويتنزل إلى مطالعته ،

(١) يقول : تفقد بالشراب الإرادة والعزيمة (٢) تعفي : تذهب

(٣) النصب هنا : الغرض والهدف

(٤) الدريئة : التي يتعلم الرامي الطعن والرمي عليها . (٥) لا أكلفه .

وله الرأيُ بعد ذلك أن يحاسب نفسه أو يزيكها ، ويحكم عليها أو لَهَا :

فقد تنفع الذكرى إذا كان هجرهم دلالاً فامّا إن مَللاً فلا نفعا

زُرْتُ (السيد) ويعلم الله أن شوقي إلى لقائه كحُرصي على بقاءه ، وكلّفي بشهُوده ، كشغفي بوجوده ، فقد بَعُدَ (والله) عهدُ هذا التّلاقى ، وطالَ أمدُ الفراق وتصرّم الزّمان ، وأنا من رؤيته في حرمان . فسألتُ عنه ، فقيل لي : إنّه خَرَجَ لتشييع زائر ، وهو عما قليل حاضر ، فانتظرت رجوعه ، وترقبت طُلوعه ولم أزل أَعُدُّ اللحظات وأستطيل الأوقات ، حتى بزَغَتِ الأنوار ، وارتجّ صحنُ الدّار ، وظهر الاستبشار على وجوه الزّوّار ، وجاء السّيدُ في موكبه ، وجلالةَ تحنّده ^٢ ومنصّبيه ، فقُئنا لاستقباله ، وهينمنا ^٣ بكَماله . فمرّ يتعرّف وجُوه القوم حتى حازاني وكبُرَ على عينه أن يراني ، فتَغَادَرَنِي ^٤ ومَن على يساري ، وأخذ في السلام على جاري وجرت السلام الكلام ، وتكرر القعود والقيام ، وأنا في هذه الحال أوم جاري أني في داري ، وأظهر للنّاس أن شدة الألفة ، تسقط الكلفة ، ومرّ السّيد بعد ذلك من أمامي ثلاث مرات ، ومن الغريب أنّه لم يستدرك ما فات :

تمرّون على الدّيار ولَسَنُ تعُوجُوا كلامكمُ عليّ إذَنْ حرامُ

وكنّتُ أظنُّ أن مكاني عند السّيد لا تنكّر ، وأن عهدي لديه لا يخفّر ، فإذا أنا لستُ في العير ^٦ ، ولا في النّفير ^٧ ، وغيري عند السّيد كثيرٌ ، وذهاب صاحب أو أكثر عليه يسير

ومَن مدت العلنيا إليه يمينها فأكبرُ إنسان لديه صغير

(١) لتوديع (٢) أصله من جهة النسب (٣) تكلمنا بصوت خفي (٤) تركني (٥) لا ينقض (٦) الجماعة (٧) الجماعة أيضاً .

ولا أدعي أنني أوازي السيد (صانه الله) في علو حُسه ، أو أدانيه في علمه وأدبه ، أو أقاربه في مناصبه ورُتبته ، أو أكثره في فضته وذميه ، وإنما أقول : ينبغي للسيد أن يُميّز بين من يزوره لسماع الأغاني والأذكار ، وشهود الأواني على مائدة الإفطار ، وبين من يزوره للسلام ، وتأييد جامعة الإسلام ، وأن يُفرّق بين من يتردّد عليه استخلاصاً للخلاص ، ومن يتردد إجابةً لدعوة الإخلاص . وأن لا يشتبه عليه طُلّاب الفوائد بطلاب العوائد ، وقناص^١ الشوارد^٢ . بنُقباء الموالد ، ورؤاد الطُرف^٣ ، بأرباب الحرف :

فما كلُّ من لقيتَ صاحبَ حاجةٍ ولا كلُّ من قابلتَ سائلك العُرفاءُ فإن حَسَنَ عند السيّد أن يُغضي عن بعض الأجناس ، فلا يحسن أن يغضيَ عن جميع الناس وإلا فلماذا يطوف على الضُّيوف ، ويحييهم بصُنوف من المعروف ويتخطى^٤ الرّقاب^٥ لصرُوف^٦ ! ويخترق لأجله الصُّفوف ؟ فإن زعم السيد أنه أعلم بتصريف الأقلام ، فليس بأقدم هجرة في الإسلام وإن رأى أنه أقدر مني على إطرائه^٧ ، فليس بممكن أن يتخذَهُ من أوليائه !

ولا أرومُ بحمد الله منزلةً غيري أحقُّ بها منّي إذا راماً وإنما أصونُ نفسي عن المهانة والضعفة ، وأن أعرضها للضيّق وفي الدنيا سعة : وأكرمُ نفسي إنني إن أهنتُها وحقّك لم تكرم على أحد بعدي

فلا يُصعّر^٨ السيد من خدّه ، فقد رَضيتُ بما ألزمني من بعده ، ولا يَغضُ^٩ عني عيبه ، فهذا فراق بيني وبينه ، وليتخذني صاحباً من بعيد ، ولا يكلّمني إلى يوم الوعيد .

- (١) جمع قانص بفتح القاف : الصائد (٢) المتفرقات والمراد طالبو متفرقات العلوم (٣) جمع طرفة : وهي ما ترى مليحة ، والمراد أهل المراتب العالية (٤) المعروف (٥) يتجاوز (٦) هو الدكتور يعقوب صروف المتوفى في آخر بوليه سنة ١٩٢٧ م وهو أحد أصحاب مجلة المقتطف وجريدة المقطم اليومية (٧) الثناء عليه . (٨) لا يبيل خدّه كبراً وخيلاً (٩) لا يغمض .

كِلاَنَا غَنِيٌّ عَنْ أَخِيهِ حَيَاتِهِ وَنَحْنُ إِذَا مَتْنَا أَشَدُّ تَفَانِيَا

ومني على السيد السَّلام على الدَّوَام، ومُباركٌ إذا لبسَ جديداً، وكلُّ عامٍ وهو بخيرٍ إذا استقبلَ عيداً، ومَرَحِيٌّ إذا أصاب، وشَبَّعْتَهُ^٢ السَّلامَةُ إذا غاب، وقُدُوماً مباركاً إذا آتَى^٣، وبالرفاءِ والبنينِ^٤ إذا أُعْرِسَ^٥، وبالطالعِ المسعودِ إذا أنجب^٦، ورَحِمَهُ اللهُ إذا عطسَ، ونومَ العافية إذا نَعَسَ، وصَحَّ نومه إذا استيقظَ وهنيئاً إذا شربَ، وما شاء اللهُ إذا رَكَبَ، ونَعِيمَ صباحه إذا انفَجَرَ الفجرُ، وسعدَ مَسَاوَاهُ إذا أَذِنَ العَصْرُ، وبخَ بَخْرٍ^٧ إذا نثرَ، ولا فُضَّ^٨ فَوْهٌ إذا شَعَرَ^٩ وأجساد وأفاد إذا خطبَ، وأطربَ وأغربَ^{١٠} إذا كتبَ، وإذا حجَّ البيتَ فحجَّ مبروراً، وإذا شيعَ جنازتي فسعيًا مشكوراً والسَّلام

وكتب القاضي الفاضل إلى أخيه عبد الكريم يؤنبه على إيدائه علم الدين ابن النحاس :

سبب إصدار هذه المكاتبة إلى الأخ - أصلحه الله ! - إعلامه ما صح عندي من الأحوال التي اخفاها ، والله مبدئها ، في حق علم الدين

وبالله أقسم لئن لم تداور ما جرحت وتستدرك ما فعلت ، وتمحُّ ما أثبت ، وتستأنف ضدَّ القبيح الذي كتبتَ به وشافهت ، وتعتذرُ بالجميل فيما قاطعت الله به وبارزت ، ليكونَ الحديثُ مني بغير الكتاب ، ولأزيلنَّ السبب الذي قدرت به على مضرة الأصحاب ، وما أشد معرفتي بأن الطباع لا تتغير ، وبأنك ستُجوجني بعد هذا الكتاب إلى ما لا يتأخر ، وبالجملة فاستدرك بفعلك لا بإيمانك لي وتنصلك إلي

-
- (١) كلمة تقال عند الإصابة في الرمي مَدْحاً للصيب (٢) ودعته (٣) رجع .
(٤) كلمة تقال لمن تزوج ومعناه بالالتئام وجمع الشمل (٥) تزوج (٦) ولد له
(٧) كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء أو عند الفخر والمدح وكررها
للبالغة (٨) لا كسرت أسنانه (٩) قال الشعر .

* فالدم في النصل شاهد عجب *

رويل لمن كانت غنيمة من الأيام عقد القلوب على البغضاء، وإطلاق الألسنة بالذام، ولولا أنني شريكك في كل ما تستوجه من الناس، لألقيت جيلك على غاربك وتركك، وما اخترت لنفسك، ولكن كيف بمن يرمي وليس برام؟

ولكن سكوت الناس عن قبيحك مقابلة لجميل كثير مني، فإذا انت لا تنفق إلا من كيسي. فأشفق على نفسك، إن كنت تنظر في غد، وعلى بيتك، إن كنت تنظر في أمس، وعلى مكانك مني، إن كنت لا تنظر إلا في اليوم، ولا تجاوبني إلا بلسان الرجل شاكرًا لك، فإنه وإن كان (والله) ما ذمك فقد ذمته به عنه وما أظن أنك تذكر أنني كتبت إليك كتاباً، ولا كنت أوثره، ولولا حافظ غليظ ما كتبت، ولولا علمي أن الكثير مما قيل عنك في أمر الرجل هو القليل مما فعلته لأضربت عن هذا كما أضربت عن غيره وستعرفك الأيام ما كنت تجهل. والله يأخذ بناصيتك إلى رضاه ويغمد سيف جليلتك عن مقلتك، والسلام.

الفصل السادس في رسائل الشكوى

كتب الأمير أبو الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ :

إنما أشكو إليك زماناً سلب ضعف ما وهب، وفجع بأكثر مما متع، وأوحش فوق ما آنس، وعنف في نزاع ما ألبس، فإنه لم يذقنا حلاوة الاجتماع حتى جرّعنا مرارة الفراق، ولم يمتعنا بأنس الالتقاء، حتى غادرنا رهن التلف، والاشتياق.

(والحمد لله تعالى على كل حال) يَسْؤُوه وَيَسْرُوه، ويحلو ويمرّ، ولا أياس من رَوْح^٢

الله في إباحة صنع^١ يجعل رّبعه^٢ 'مناخي'^٣ ، ويقصر مدة البعاد والتراخي ،
فألاحظ الزمان بعين راض ، ويقبل إليّ حظي بعد إعراض ، وأستأنف^٤ بعزته
عيشاً عذب الموارد^٥ والمناهل^٦ ، مأمون الآفات والفوائل^٧ .

وكتب عبد الحميد بن يحيى المقتول سنة ١٣٢ هـ إلى أهله وهو منهزم مع
مروان^٨ :

أما بعد : فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكُرهِ والسرور ، فمن ساعده
الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته^٩ بنائها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاها
مستزيداً لها .

وقد كانت أذاقتنا أفابيق^{١٠} استعليناها ، ثم جمعت^{١١} بنا نافرة ورمحتنا^{١٢}
مولية ، فملح عذبتها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا من الأوطان وفرقتنا عن الإخوان ،
فالدار نازحة^{١٣} ، والطير بارحة^{١٤} ، وقد كتبت^{١٥} الأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم
وجداً ، فإن تتمّ البليّة إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظفر^{١٦}
جارج من أظفار من يليكم ، نرجع إليكم بسدل الإِسار^{١٧} ، والذلُّ شرٌّ جار .

(١) المعروف (٢) دار (٣) مكان النوم ومراده أنه لا ييأس من معروف يحظى
به مدة حياته (٤) أجدد (٥) أمكنة إتيان الماء (٦) المواضع التي فيها والمراد أنه
يجدد عيشاً هنيئاً لا حزن معه (٧) الدواهي (٨) هو مروان بن محمد بن الحكم بن
أبي العاص الأموي آخر ملوك بني أمية المعروف بالجعدي قتل سنة ١٣٣ هـ (٩) كناية
عن تسلطها عليه بنوائبها ومصائبها (١٠) ألبانها والمراد نعيمها وخيراتها
(١١) أسرع غالبة إيانا (١٢) طعننا برمحها والمراد مصائبها (١٣) بعيدة .
(١٤) البارح من الطير ما يمر من اليمين إلى الشمال والعرب تتشاءم به وذلك أنه
كان من عاداتهم إذا أرادوا أمراً عمدوا إلى الطير فأطاروها فإن طارت شمالاً
يتشاءمون ويرجعون وتسمى بارحات وإن طارت يميناً تفاءلوا باليمين ومضوا في
أمرهم وتسمى سانحات (١٥) الأسر هو القبض على الرجل وأخذه أسيراً .

نسأل الله الذي 'يعز من يشاء ويذل من يشاء أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان ، والأديان ، فإنه رب العالمين ، وأرحم الراحمين .

وكتب أستاذنا الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده ، وهو مسجون بسبب الحوادث العربية :

تقلدني الليالي وهي مُدْبِرَةٌ
كأنني صَارِمٌ في كفٍ مُنْهَزِمٍ

عزيري (هذه حالي) اشتد ظلام الفتن حتى تجسّم بل تحجّر ، فأخذت صخوره من مركز ^١ الأرض إلى المحيط ^٢ الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب وامتدت إلى القطبين ^٣ فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها وامتدت على المواد الحيوانية أو الإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالخجارة أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين ، انتشرت نجوم الهدى وتدهورت ^٤ الشموس والأقمار ، وتغيّبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا ، فولى معه آلهة الخير أجمعين وتمحضت السلطة لآلهة الشر فقلبوا الطباع ، وبدّلوا الخلق ، وغيروا خلق الله ، وكانوا على ذلك قادرين .

رأيت نفسي اليوم في مهمّة ^٥ لا يأتي البصر على أطرافه ، في ليلة

(١) وسط دائرتها (٢) الدائرة المحيطة بالكرة الأرضية (٣) الشمالي والجنوبي وهما طرفا محور الأرض والمحور هو القطر الوهمي الذي تدور عليه الأرض من المغرب إلى المشرق أثناء حركتها (٤) الإنس والجن (٥) أدبرت (٦) مفازة واسعة .

داجية^١ غطّيَ فيها وجه السماء بغمام سوء فتكاثف^٢ رُكاماً ركاماً^٣ لا أرى
لإنساناً! ولا أسمع ناطقاً! ولا أتوهم مجيباً! أسمع ذئاباً تعوي! وسباعاً تزأراً!^٤
وكلاباً تنبح!^٥ كلها يطلب فريسة واحدة، هي ذات الكاتب، والتفّ على
رجلي تينينان^٦ عظيمان، وقد خوّرت^٧ بطون الكلّ، وتحكم فيها سلطان
الجوع، ومن كانت هذه حاله، فهو لا ريب من الهالكين.

تقطع الأمل، وانفصمت^٨ عروة الرّجاء، وانحلت الثقة بالأولياء،
وضل الاعتقاد بالأصفياء، وبطل القول بإجابة الدعاء، وانفطر^٩ من صدمة
الباطل كبيد السماء، وحقّت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء
وجميع العالمين.

سقطت الهمم، وخربت الذمم، وغاض^{١٠} ماء الوفاء، وطمست معالم
الحق، وحرقت الشرائع، وبدلت القوانين، ولم يبق إلا هوى يتحكم، وشهوات
تقضى، وغيظ يحتم^{١١} وخشونة تنفّذ (تلك سنة القدر) والله لا يهدي كيد
الخائنين.

ذهب ذوو السلطة في 'بحور الحوادث الماضية، يفوصون لطلب أصداف من
الشبّه، ومقدوفات من التهم، وسواقط من اللّم^{١٢} ليُمَوّوها^{١٣} بمياه السفسطة
ويغشوها بأغشية من معادن القوة، ليبرزوها في معرض السطوة ويغشوا بها أعين
الناظرين، لا يطلبون ذلك لغامض يبينونه، أو لمستور يكشفونه، أو لحق خفيّ

(١) مظلمة (٢) كثر وتراكم (٣) السحاب المتراكم (٤) بفتح عينه أو بكسرهما
تصوت (٥) بفتح عينه أو بكسرهما تصوت (٦) تشبّه تينين وهو الحية العظيمة .
(٧) خلت (٨) انقطعت (٩) انشق (١٠) ذهب (١١) يتحرك ويشد (١٢) المتقارب
من الذنوب، واللم أيضاً طرف من الجنون (١٣) من التمويه وهو التلبيس .

فيظهرُونه، أو سخرتُ بدا فيرقعونه، أو نظام فاسد فيُصلحونه ! كلاً، بل ليثبتوا أنهم في حبس من حبسوا غيرُ مخطئين، وقد وجدوا لذلك أعواناً من حلفاء الدناءة وأعداء المروءة، وفاسدي الأخلاق، وخبثاء الأعراق^١، رضوا لأنفسهم قول الزور، وافترء البهتان، واختلاق الإفك^٢، وقد تقدموا إلى مجلس التحقيق بتقارير محشوة من الأباطيل ليكونوا بها علينا من الشاهدين .

كل ذلك لم تأخذني فيه دهشة، ولم تحل قلبي وحشة، بل أنا على أتم أوصافي التي تعلمها، غير مبال بما يصدر به الحكم أو يبرمه القضاء، عالماً بأن كل ما يسوقه القدر، وما ساقه من البلاء فهو نتيجة ظلم لا شبهة للحق فيه، لأن الله تعالى يعلم كما أنت تعلم أنني بريء من كل ما رموني به ولو اطلعت عليه لوليت منه رعباً، وكنت من الضاحكين .

نعم خنفتني الغم، وأحمى فؤادي الهم، وفارقني النوم ليلة كاملة عندما رأيتُ اسمك الكريم، واسمَ بقية الأبناء والإخوان، تنسب إليهم أعمال لم تكن، وأقوال لم تصدر عنهم، لقصد زجهم في المسجونين .

لكن اطمأن قلبي، وسكن جأشي^٣ عندما رأيت تواريخ التقارير متقدمة ومع ذلك لم يصلكم شرر الشر فرجوت أن الحكومة لم تُرد أن تفتح باباً لا يذرُ الأحياء ولا الميتين .

قدّم فلان وفلان تقريرين، جعلاً فيهما تبعات الحوادث الماضية على عنقي ولم يتركاً شيئاً من التخريف إلا قالاه، وذكرنا أسماءكم في أمور أنتم جميعاً أبعد الناس عنها، لكن لا حرج عليهما؛ فإني أراهما من المجانين؛ ولم أتعجب من

(١) الأخلاق (٢) الكذب (٣) اضطراب القلب عند الفزع (٤) لا يدع ولا يترك .

هذين الشيخين إذ يعملان مثل ذلك الذنب القبيح ، ويرتكبان هذا الجرم الشنيع ! ولكن أخذني العجب (كل العجب غاية العجب بالغ ما شئت في عجيبي) إذ أخبرني المدافع عني بتقرير قدمه فلان ، الذي أرسلت إليه السلام ، وأبلغته سروري عند ما سمعت باستخدامه ، وأنا في هذا الحبس رهين .

إلى هذا الوقت لم يصلني التقرير ، ولكن سيصل إلي ، إنما فيما بلغني أنه شهادة بأقبح شيء ، لا يشهد به إلا عدو مبین .

هذا اللثم الذي كنت أظن أنه يألم لألمي ، وبأخذه الأسف لجالي ، ويبذل وُسعه إن أمكنه في المدافعة عني ! فكم قدمت له نفعاً ، ورفعت له ذكراً ، وجعلت له منزلة في قلوب الحاكمين ! كم سمعني أقاوم هجاء الجرائد ؟ ! وأوسع محرريها لوماً وتقريعاً ؟ ! وأهزأ بتلك الحركات الجنونية ، وكان هو عليّ في بعض أفكاره هذه من اللاتمين ! كان ينسب فلاناً لسوء القصد اتباعاً لرأي فلان ، وأعارضه أشد المعارضة . ثم لم أنقض له عهداً ولم أنجس له وُدّاً ، وحقيقة كنت مسروراً لوجوده موظفاً فما باله أصبح من الناكثين ؟ !

آه ما أطيب هذا القلب الذي يُملي هذه الأحرف ! ما أشدّ حفظه للولاء ، ما أغیره على حقوق الأولياء ! ما أثبتته على الوفاء ! ما أرقته على الضعفاء ! ما أشدّ اهتمامه بشئون الأصدقاء ! ما أعظم أسفه لمصائب مَنْ بينهم وبينه أدنى مودة وإن كانوا فيها غير صادقين ! ما أبعد هذا القلب من الإيذاء ولو للأعداء ! ما أشدّ محافظة على العهد ! ما أعظم حذرهِ مِنْ كل ما تُوبّخ عليه الذمم الطاهرة ! ما أقواه على العمل الحق ، والقول الحق لا يطلب عليه جزاء ! وكم اهتم بمصالح قوم وكانوا عنها غافلين ؟ ! هذا القلب الذي يؤلمونه بأكاذيبهم ، هو الذي سرّ قلوبهم بالترقية ، وملأها فرحاً بالتقدم

ولطُفَ خواطرهم بحُسنِ المُعاملة وشرَّحَ صدورهم بلطيفِ المُعاملة ودافع عنهم
أزماناً خصوصاً هذا اللثم !

أفلشرحُ الصدور وهم يُخْرِجُونَ ؟ ونشفي القلوب وهم يُؤْلِمُونَ ؟ ونفرحها
وهم يحزنون ؟ . تالله قد أضلوا وما كانوا مُهتدين . هذا القلب ذَابَ مُعْظَمُهُ من
الأسف على ما يُلْمُ بالهيئة العمومية من مصائب هذه التقلبات ، وما ينشأ عنها من
فساد الطباع الذي يجعل العموم في قلق مستديم وما بَقِيَ من هذا القلب فهو في
خوف على من يعرفهم على عهد مودته فإن تسللوا جميعاً بمثل هذه الاعمال أصبحوا
من مودته خالين . واتخذوه وقاية لهم من المضرة ، وجعلوه ترساً يُعَرِّضُونَهُ
لتلقي سهام النوائب التي يتوهمون تَقْوِيَقَهَا إليهم ، كما اتخذوه قبل ذلك سهماً
يصيبون به أغراضهم فينالون منها حظوظهم - فقد أراحوا تلك البقية من
الفكر فيهم ، والله يتولى حسابهم وهو أسرع الحاسبين .

آه - ما أظن أن تلك البقية تستريح من شاغل الفكر في شؤون الأحبة وإن
جاروا في تصرفهم .

إن طبيعة هذا القلب لطبيعة ناعم الخنز^١ إذا اتصل بذئ الود^٢ (وإن كلف
خشناً) فَصَعَبَ أَنْ ينفصل ولو مزقته خشونته ، وإن هذا القلب في علاقة مع
الأوداء كالضياء مع الحرارة ، أيما حادث يحدث ، وأيما كيهاري يدقق ، لا يجد
للتحليل بينها سبيلاً . وأظنك في العلم بثبوت تلك الطبيعة فيه كنت من المتحققين .

وكتب المرحوم محمد حافظ بك إبراهيم^١ إلى الاستاذ الإمام الحكيم الشيخ
محمد عبده :

كتابي إلى سيدي : وأنا من وعده بين الجنة والسلسبيل^٢ ، ومن

(١) يشكو إليه حاله وهو ضابط بالسودان .

(٢) عين في الجنة وهو الشراب السهل في الخلق .

تبيي^١ به فوق النشيرة^٢ والإكيليل^٣ وقد تعجلت السرور^٤ ، وتسلفت^٥ السحبور^٦ وقطعت^٧ بيني وبين النوائب

وبشّرت^٨ أهلي بالذي قد سمعته^٩ فما محنتي^{١٠} إلا ليالي قلائل
وقلت لهم للشيخ فينا مشيئة^{١١} فليس لنا من دهرنا ما ننازل^{١٢}
وجمعت فيه بين ثقة الزبيدي^{١٣} بالصنصامة^{١٤} ، والحارث بالنعامة^{١٥} ، فلم
أقل فيه ما قال الهذلي^{١٦} لصاحبه ، حين نسي وعده^{١٧} وحجب رِفده^{١٨} :
« يا دار عاتكة التي اتّغزل^{١٩} » بل أناديه نداء الأخيذة^{٢٠} في عموريئة^{٢١}
شجاع الدولة العباسية ، وأمدُّ صوتي بذكر إحسانه ، مدُّ المؤذن صوته^{٢٢} في
أذانه وأعتمد^{٢٣} عليه في البُعد والقُرب ، اعتماد الملاح^{٢٤} على نجمة القطب^{٢٥} .
وقال أضحاجي هالني النوى^{٢٦} وهالهم أمري متى أنت قافل^{٢٧}
فقلت^{٢٨} إذا شاء الإمام فأوبتي^{٢٩} قريب^{٣٠} ورَبعي^{٣١} بالسعادة أهل

(١) عجي (٢) كوكبان متقاربان بينهما قدر شبر وفيها لطح بياض كأنه قطعة
سحاب (٣) من منازل القمر أربعة أنجم مصطفة (٤) الفرح ومعنى تسلق تسور أي
أتى الفرح من غير باب و يروى تسلفت بالقاء (٥) محنتي : بليتي (٦) نضارب لأن
الشيخ كفانا صدمات الدهر (٧) أبو ربيعة عمرو بن معدى كرب ينتهي نسبه إلى
قحطان صحابي من شجعان الجاهلية والإسلام وزبيدي نسبة إلى زبيد بضم الزاي قوم
من اليمن (٨) اسم سيف عمرو (٩) اسم فرس للحارث بن عباد البكري شيخ من
العرب (١٠) نديم الخليفة أبي جعفر المنصور العباسي كان لا يكلم الخليفة إلا جواباً
(١١) وعده ولم يوف ولما مرا على دار عاتكة بنت عوف قال الهذلي هذه دار
عاتكة التي قال فيها الشاعر - يا دار عاتكة الخ فعجب الخليفة كيف بدأه بالكلام على
غير عادة ثم نظر الملك في قصيدة الشاعر فوجد فيها « وأراك تفعل ما تقول » فتذكر
الخليفة الوعد (١٢) عطاء (١٣) الأسيرة ويريد بها امرأة من بني هاشم أسرها الروم
فنادت وامتصماد تعني المعتصم من خلفاء بني العباس فوصل الخبر إلى المعتصم فقال : لبيك !
لبيك ! وهم فحاربهم وخلصها (١٤) بلدة من بلاد الروم (١٥) صاحب السفينة
(١٦) كوكب في السماء تدور عليه الكواكب وهو ثابت مكانه ينظر إليه صاحب السفينة
فيمعرف الجهة التي هو قاصدها (١٧) العبد (١٨) راجع (١٩) رجعتي (٢٠) داربي .
(١٠ - جواهر الأدب ١)

وها أنا متماسكٌ حتى تنحسر^١ هذه الغمرة^٢ وينطوي^٣ أجلُ تلك الفترة^٤
وينظر إليّ سيّدي نظرةً ترفعي من ذات^٥ الصدع^٦ إلى ذات^٧ الرّجس^٨
وتودني إلى وكري^٩ الذي فيه درّجت^{١٠} ، ردّ الشمس قطرة المزن^{١١} إلى
أصلها ، ورد الوفي الأمانة إلى أهلها

فإن شاء فالقرب^{١٢} الذي قد رجوته وإن شاء فالعز الذي أنا آميل
وإلا فإني قاف^{١٣} رؤوبة^{١٤} لم أزل بقميد النوى حتّى تغول الغوائل^{١٥}
فقد حللت^{١٦} السّودان حلول^{١٧} السّكيم^{١٨} في التابوت^{١٩} ، والمغاضب^{٢٠} في
جوّف السّحوت^{٢١} ، بين الضّيق والشدة^{٢٢} ، والوحشة^{٢٣} والوحدة^{٢٤} ، لابل حلول الوزير^{٢٥}
في تنور العذاب ، والكافر في موقف الحساب ، بين نارين : نار القيظ^{٢٦} ونار الغيظ
فناديت^{٢٧} باسم الشيخ والقيظ^{٢٨} ججرة^{٢٩} تذيب دماغ الضب والعقل^{٣٠} ذاهل
فصيرت^{٣١} كآني بين روض^{٣٢} ومنهل^{٣٣} تهب^{٣٤} الصبا فيه وتشدو البلابل^{٣٥}
واليوم أكتب إليه وقد قعدت^{٣٦} همة النجمين ، وقصرت^{٣٧} بدا الجديدين^{٣٨} عن
إزالة ما في نفس ذلك الجبار العنيد ، فلقد نمت^{٣٩} ضب^{٤٠} ضغنه^{٤١} عليّ ، وبدرت^{٤٢}
بواد^{٤٣} السوء منه^{٤٤} إليّ ، فأصبحت^{٤٥} كما سر العدو وساء الحميم^{٤٦} وآلامي كأنها
جلود أهل الجحيم ، كلما نضج^{٤٧} منها أديم^{٤٨} تجدد أديم^{٤٩} وأمسيت^{٥٠} ومثلك آماي^{٥١} إلى
الزوال ، أسرع من أفر الشّهاب في السماء ، ودولة صبري إلى الاضمحلال ،

- (١) تنكشف (٢) الشدة (٣) يريد المدة بينهما (٤) الأرض (٥) الشق
- (٦) السماء (٧) صوت الرعد (٨) يريد وطنه وأصله عش الطائر (٩) مشيت
- (١٠) المطر (١١) رجل من العرب كان أكثر روي أراجيزه على القاف الساكنة
- (١٢) سيدنا موسى عليه السلام (١٣) الذي وضعته أمه فيه وألقته في البحر
- (١٤) سيدنا يونس بن متى عليه السلام (١٥) محمد الزيات وزير الخليفة مروان
- الحمار أدخله تنور العذاب الذي اصطنعه لتعذيب من يأمر بتعذيبه (١٦) شدة الحر
- (١٧) الليل والنهار (١٨) بكسر الضاد الغيظ (١٩) حقه (٢٠) أسرع
- (٢١) جمع بادرة الحدة عند الغضب (٢٢) القريب الذي يهتم لأمره (٢٣) الجلد.

أحث^١ من حجاب^٢ الماء ، فنظرت^٣ في وجوه تلك العباد ، وإني لفارس^٤ العين والفؤاد ، فلم تقف^٥ فيرآستي على غير بابك .
 وإني أهديك^٦ سلاماً لو امتزج بالسحاب ، واختلط^٧ منه^٨ باللعب ، لأصبحت تنهادي^٩ بقطرد الأكاسرة^{١٠} ، وأمست^{١١} تدخر معه الرهبان في الأديرة^{١٢} ، ولأغنى ذات الحجاب ، عن الغالية^{١٣} والملاب^{١٤} .
 ولا بدع^{١٥} إذا جاد السيد بالرد^{١٦} ، فقد يرى وجه المليك في المرأة^{١٧} ، وخيال القمر في الإضاءة ، وإن حال حائل^{١٨} ، دون أمنية هذا السائل ، فهو لا يذم يومك^{١٩} ، ولا يياس^{٢٠} من غدك ، فأنت خير^{٢١} ما تكون حين لا تظن^{٢٢} نفس^{٢٣} بنفس خيراً ، والسلام .

الفصل السابع في رسائل العيادة

كتب ابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى بعضهم :
 أذن الله في شفائك ، وتلقى داءك بدوائك ، ومسح^١ بيد العافية عليك ، ووجه وفد السلامة إليك ، وجعل^٢ علقتك^٣ ماحية^٤ لذنوبك مضاعفة^٥ لثوابك .
 وكتب أبو بكر الخوارزمي المتوفى سنة ٣٨٣ هـ :
 وصل كتابك يا سيدي ، فسرني نظري إليه ثم غني اطلاعي عليه ، لما تضمنته^١ من ذكر علقتك ، جعل^٢ الله أولها كفارة^٣ ، وآخرها عافية^٤ ، ولا أعدمك على الأولى أجراً ، وعلى الأخرى شكرياً .
 وبودي لو قرُب^١ عليّ متناول^٢ عيادتك ، فاحتملت^٣ عنك بالتعهد والمساعدة بعض^٤ أعباء^٥ علقتك ، فلقد خصني من هذه العلة قسم^٦ كقسمك ، ومرض قلبي فيك لمرض جسمك ، وأظن^٧ أني لو لقيتك عليلاً ، لانصرفت^٨ عنك ، وأنا أعل^٩ منك فإني بحمد الله جلد^{١٠} على أوجاع أعضائي ، غير جلد على أوجاع أصدقائي — شفاك الله وعافاك .

(١) أسرع (٢) ما يرى على وجه الماء من الفقاقيع (٣) تجعله هدية
 (٤) الملوك (٥) الطبيب (٦) الزعفران (٧) جمع عبء (٨) شديد

الفصل الثامن في رسائل التهاني

كتب في التهنئة بميلاد الأولاد أبو منصور الشعالبي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
 أهلاً وسهلاً بمقيلة^(١) النساء ، وأم الأبناء ، وجالبة الأصهار ، والأولاد الأطهار
 ولو كانت النساء كمثل هذي لفضلت النساء على الرجال
 فما التأنيت لاسم الشمس عيب^(٢) ولا التذكير فخر^(٣) للهِلال
 والله يُعرفك^(٤) البركة في مطلعها ، والسعادة بموقعها ، فالدنيا مؤنثة ، والناس
 يحدّمونها ، والذكور يعبدونها ، والأرض مؤنثة ، ومنها خلقت البرية ، وفيها
 كثرت الذرية ، والسماء مؤنثة ، وقد زينت بالكواكب ، وحلّيت بالنجوم
 لثواب^(٥) والنفس مؤنثة ، وهي قوام الأبدان ، وملاك الحيوان ، والحياة مؤنثة
 ولولاها لم تتصرف الأجسام ولا تحرك الأنام ، والجنة مؤنثة ، وبها وعد المتقون
 وفيها تنعم المرسلون فهنيئاً هنيئاً ما أوليت وأوزعك^(٦) الله شكر ما أعطيت ،
 وأطال بقاءك ما عُرِف النسل وبقي الأبد .

وكتب بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى الداوردي يهنئه بمولود:
 حقاً لقد أنجز الإقبال وعده ، ووافق الطالع سعده ، وإن الشأن لفيما بعده .
 وحبذا الأصل وفرعه^(٧) ، وبورك الغيث وصبوه^(٨) ، وأينع الروض ونوره^(٩) ،
 وحبذا سماء أطلعت فرقدأ^(١٠) ، وغابة^(١١) أبرزت أسدأ^(١٢) ، وظهر^(١٣) وأفق سندأ^(١٤) ،
 وذكريبقى أبداً ، ومجد يُسمى ولداً ، وشرف^(١٥) لحمة^(١٦) وسدى^(١٧) .
 أنجب^(١٨) كل^(١٩) من والديه به إذا نجلاه فنعم ما نجّلا
 فالفياه^(٢٠) شهاب ذكاء ، وبندر علاء .

(١) كريمتمن (٢) المضيئات (٣) أقدرك (٤) مطرد وهنا كناية عن
 الولد (٥) زهرة الشجر وهو كناية عن الولد أيضاً (٦) موضع الأسد الذي
 يألّفه والمراد أصوله (٧) كلاهما من لجة الثوب وسداه وهو كناية عن الصرف
 وظاهراً وباطناً (٨) ولداه كريماً (٩) وجداه .

وَوَجَدَاهُ ابْنِ جَلَا ١ أَبْيَضَ ٢ يُدْعَى الْجَفَلَى ٣
لَمْثَلَهُ أُولَى فَلَا إِذَا النَّدَى ٤ احْتَفَلَا

وكتب في التهنية بالقدوم أبو منصور الشعالي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
أهنيء سيدي ، ونفسي تطيب بما يسر الله من قدومه سالماً ، وأشكر
الله على ذلك شكراً دائماً . جعل الله قدومك مقروناً بالخيرة التامة العامة ،
والكفاية الشاملة الكاملة .

غيبة المكارم مقرونة بغيبتك ، وأوبة النعم موصولة بأوبتك ، فوصل الله
قدومك من الكرامة ، بأضعاف ما قرن به مسيرك من السلامة ، وهنالك بإيابك ،
وبلغك غاية محابك ، ما زلت بالنية معك مسافراً ، وباتصال الذكر والفكر
ملاقياً إلى أن شمل سروري بأوبتك وسكن نافر قلبي بعودتك .

وكتب أيضاً في التهنية برمضان :

ساق الله إليك سعادة إلهاله ، وعرفك بركة كاله ، لقائك فيه ما تترجوه
ورفاك إلى ما تحب في ما تتلوه ، جعل الله ما يطول من هذا الصوم مقروناً بأفضل
القبول ، مؤذناً بدرك البغية ونجح المأمول . ولا أخلاك من بر مرفوع ، ودعاء
مسموع ، قابل الله بالقبول صيامك ، وبعظيم المثوبة تهجدك وقيامك ، أعاد الله
إلى مولاي أمثاله ، وتقبل فيه أعماله ، وأصح في الدين والدنيا أحواله وبلغه منها
آماله . أسعد الله مولاي بهذا الشهر ، ووفاه فيه أجزل المثوبة والأجر .

وكتب أبو الفرج البغواء المتوفى سنة ٣٩٨ هـ تهنية :

سيدي - أيده الله ! - أرفع قدراً ، وأنبه ذكراً ، وأعظم نبلاً ، وأشهر

(١) واضح الأمر (٢) نقي المرض شريفاً (٣) دعاهم بجماعتهم وعامتهم
(٤) مكان اجتماع الناس والاحتفال هو التجمع : أي ، لمثله نصوغ التهاني أولى
فلا يحسن أن تصاغ لغيره :

بشرى فقد أنجز الإقبال ما وعدا وكوكب المجد في أفق العلاصدا

فضلاً - من أن نهنشه بولاية ، وإن جلّ خطرها ، وعظم قدرها ، لأت الواجب تهنئة الأعمال بفائض عدله ، والرعية بمحمود فعله ، والأقاليم بآثار سياسته ، والولايات بسماح سياسته ، فعرّفه الله يُننّ ما تولاه ورعاه في سائر ما استرعاه ، ولا أخلاه من التوفيق فيما يعاينيه ، والتسديد فيما يبرمه ويمضيه .

وكتب أستاذنا المرحوم الشيخ حمزة فتح الله المتوفى سنة ١٣٣٥ هـ :

أي جهابذة^١ الكنانة^٢ نبّال الجنّانة^٣ مياه الإجانة^٤ أبناء تلك اللغى ، صناديد هذه الوغى ، إليكم يساق الحديث ، في القديم والحديث ، عن هذا النبأ العظيم ، والمجد الصميم ، مالي أرى في لغتنا الشريفة ، ويعلم أولو النهى أية من اللغات أحقّ بهذا النبر^٥ أن يُصرّف إليها عند الإطلاق ، هُبوباً غبّ خمُول ، وتَرّة^٦ بعد نحول ، ونوراً عقيب أفول ، ونوراً إثر ذبول ، وصباً ورآء قبُول ، وعدلاً ولا حيف^٧ وقوة ولا ضعف ، وما يشاء المطري^٨ في هذا القبيل من العطف آمنت بالقدر المقدور ، والبعث والنشور ، كذلك يحبي الله الموتى . أليس رجل^٩ واحد أسفرت^٩ عنه عناية التوفيق ، فألقت إليه المقاليد^{١٠} بلى^{١١} ولكنه الواحد الذي يقول في مثله صاحب بني ميكال :

والناس ألف منهم كواحد وَوَاحِد كالألف إن أمر^{١٢}

إي^{١٣} وَرَبِّ تِلْكَ الْبَنِيَّةِ^{١٤} ، باري^{١٥} نسم البرية ، إنه لرجل البلاد رجل الحزم والسداد : ألم نرّ اجنانه^{١٦} ، وحنانه^{١٧} ، وبيانه^{١٨} ، عوامل هذه اللغة : لغة الفرقان^{١٨} ، لغة الأوطان ! لا - بل أمضى من العوامل حتى

- (١) الخذاق ذرو النقد (٢) ما يوضع فيها السهام والمراد أنهم نقادون للمسائل
(٣) بضم الجيم الترس التي يتقى بها (٤) الإجانة بالكسر إناء تغلي فيه الشياح
وما حول الغراس شبه الأحواض والجمع أجاجين (٥) اللقب الرفيع (٦) امتلاء
الجسم من (٧) الظلم والجور (٨) المدح (٩) ظهرت (١٠) المفاتيح
(١١) حرف جواب تثبت المنفى (١٢) أهم الناس وأقلهم (١٣) حرف جواب
مثل نعم (١٤) بفتح الباء وزن غنية الكعبة (١٥) خالق (١٦) قلبه
(١٧) أنامل أصابعه (١٨) لغة القرآن الكريم .

ظلت (آدابها) فرائض ، وقد كانت وما بالعمد من قديم (نوافل) وما حُلِيَّتْهَا
أجساد^١ اللهبجاتِ عوَاطِل . اللهم إلا بقيةُ ثمد ، قد منيت^٢ صُحُفُهَا الأود^٣ ،
ففقدت الجلد والجلد^٤ وبعد أن رَاجَ سوقُ الرطانة^٥ ونَضِبَ^٦ ماءُ الإبانة ،
وخبت^٧ أنوارُ البلاغة ، وَذَوَّتْ^٨ أنوارُ^٩ النباغة ، وكسد البيان ،
وقوَضَ^{١٠} منه البنيان ، وأصبحت العربية لُفْيَ^{١١} ملقاةً ، وبضاعة^{١٢} مزجاة^{١٣} ،
فأي هذا اليراع^{١٤} لا أقل من نفثات في صوغ كُليّات تقدر هذه النعمة قدرها ،
وتمنحها^{١٥} شكرها .

وَيَنَحِّكَ^{١٦} ! هُبْ^{١٧} من سِنَتَيْكَ^{١٨} ، في حلية مقتك^{١٩} ، وانض^{٢٠}
حسامك^{٢١} ، واشخذ كهامك^{٢٢} ، وانثل^{٢٣} كنانتك^{٢٤} ، واعمل بنانتك^{٢٥}
وصنع إن استطعت تهاني غُرّاً ، بل عقوداً دُرّاً ، بل أنجُماً زهراً ، مشتاراً^{٢٦}
من خلایا ذلك الأري^{٢٧} الشَّهِي^{٢٨} الندي^{٢٩} الذكي ، ما جَرَسَتْ^{٣٠} نَحْلُ الشَّيْخِ^{٣١}
والخُزَامِي^{٣٢} وأطايب الثَّار ، وأزاهي الأزهار تهدين أولئك المصاقع^{٣٣}
شكراناً لتلك النعم ، تجميعاً لشواردها وتقييداً لأوابدها^{٣٤}

(١) الأعناق (٢) اختبرت (٣) الأود الكد والتعب ومراده اعتنى الناس بها
لا عن بذل جهد (٤) القوة (٥) كل لسان يخالف العربية (٦) غار وذهب
(٧) خفيت (٨) ذبلت (٩) جمع نور بالفتح الزهر (١٠) نقض (١١) بالقصر
مطروحة (١٢) قليلة (١٣) القلم (١٤) تعطيها (١٥) كلمة رحمة (١٦) استيقظ
(١٧) نومك (١٨) محبتك (١٩) سله من غمده (٢٠) السيف القاطع
(٢١) شحذه حده ، والكهام بفتح الكاف السيف الكليل (٢٢) استخراج
ما فيها من النبال (٢٣) الجراب الذي توضع فيه النبال والسهام (٢٤) أصبعك
(٢٥) كثير الشرى (٢٦) العسل (٢٧) ما يشتهي (٢٨) أكلت وأصله جرس
الشيء جرساً لحسه بلسانه (٢٩) نبت طيب الرائحة (٣٠) بضم الخاء نبت
زهرة أطيب الأزهار (٣١) جمع مصقع البليغ (٣٢) لغرائبها .

كما شبهها رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق^١ ، وإشفاقاً عليها من الجراح^٢ ، بعد ذلك من الارتياح .

فإليك بني هذه اللغة « كتابي هذا » تهنئة بتلك النهضة العربية في إبان (كما تعلمون) وجهه مكفهر^٣ وبدنه مقشعر^٤ ، وثناء على العناية (التوفيقية) والعزلة (الرياضية) .

على أن لهذا المولى الوزير سوى ذلك ، أيادي^٥ مبرورة ، ومساعي مشكورة أكسبت الوطن وأهليه نهضات ، وأقالته كثيراً من العثرات - لكنني آثرت^٦ تلك النهضة العربية بتهنئتك بها . أي بني جلدتي^٧ . وأخوان حرفتي لكونها فيما إخال ، لا ، بل فيما أتيقن^٨ ويتيقن^٩ أولو الحِجَا^{١٠} أعظم النهضات وأمين^{١١} ما اجتازه^{١٢} الوطن من العقبات ، ولو كان في نطاق الإمكان زيادة البيان ، في هذا الشأن ، لأسهبت^{١٣} وأوسعت^{١٤} ، وأطريت^{١٥} وأطنبت^{١٦} ، ولو لم يكن في تلك النهضة إلا أن حياه الأمة حياة لفتها فحسب لكفاك^{١٧} ، وشفاك^{١٨} ، وأغناك^{١٩} ، وكان ذلك قصارك^{٢٠} وحماذك^{٢١} .

وكتب المرحوم الأستاذ محمود بك أبو النصر :

إنسان عين الفضائل ، عزيزي فلان المحترم :

نور على نور ، وشفاء^{٢٢} لما في الصدور شفاؤك^{٢٣} أيها العزيز من ذلك الرمد . قد أنجز الإقبال ما وعد ، وابتهججت النفوس وتزينت الطروس واهتزت الأقلام وأعلنت بالسلام .

ولاح فجر^{٢٤} التهاني بالبشائر إذ حيث فأحييت ربوع الفضل والآداب

وكيف لا ! وأنت واحد الكتائب وإنسان عين الآداب ! رمدت فرمدت^{٢٥}

-
- (١) الذهاب بسرعة (٢) متعبس (٣) نعماً من ذلك الوزير الخطير مصطفى باشا رياض المتوفى سنة ١٣٣١ هـ (٤) اخترت (٥) بني عشيرتي (٦) العقل (٧) أكثر بركة (٨) سلكه (٩) لأكثر الكلام (١٠) مدحت (١١) مبلغ جهديك وغايتك (١٢) غاية ما تحمد عليه .

وشفيت فاهتزت وربت . وقد كان طرفها قليلاً ، وفؤادها قليلاً واليوم زال
العناء ، وحق الهناء ووَافَى الشفاء ، فكان برداً وسلاماً على القلوب وقميص
يوسف في أجفان يعقوب :

فلك الهناء بصحة ميمونة أبداً على مرّ الدهور تدومُ
وإن الله ما قضى بما قد مضى ، إلا ليُعَرِّفَ سيدي مكانته من القلوب ومنزلته
من الفضل . وهذه حلال العافية قد خلعت عليك ، وثياب السلامة سبقت إليك
فوافى السرور ، وعم الحُبور . والله يُبَلِّغُكَ بالصحة والأعمال ، منتهى الآمال والسلام .
وكتب الوزير المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٨ هـ في تهنئة العيد :
هذا يوم نشر البشر فيه أعلامه ، واضاءت الدنيا وازدانت الآفاق ، بهجة هذا
العيد السعيد ، وأخذ الأحبة يتهادون رسائل البشائر فيما بينهم ، وكل حزب
فرحون بما لديهم ، بما أودع فيهم من روابط المحبة وعوامل الاتحاد السارية في
النفوس ؛ أما أنا فعيدي ، وبهجة نفسي ، وسرور فؤادي درام إقبال الزمان
عليك بوجه النصر وعودُ أعياد السرور على جنابك الرفيع . فثلك تشرق
الدنيا بطلعته ، وتفرح الأعياد برؤيته :

وأرى الحياة لذيدة بحياته وأرى الوجود مشرقاً بوجوده
لو أنني خيرت من دهرى المنى لاخترت طول بقائه وخلوده
أعاد الله عليك أيها الأخ أمثاله وأمثال أمثاله في صفاء وهناء .

الفصل التاسع في رسائل التعازي والتأبين

كتب أبو منصور الشعالي المتوفى سنة ٤٢٩ هـ :
خبر عز عليّ مستمعه ، وأثر في قلبي موقعه . خبر تستاء^١ له المسامع وترتج
منه الأضالع ، خبر يهدئ الرواسي^٢ ويقلق الحجر القاسي . كادت له القلوب تطير ،
والعقول تطيش ، والنفوس تطيح^٣ . خبر يشيب الوليد ، ويذيب الحديد ، قد كاد .

(١) تتألم وتتأثر من أجله (٢) الجبال (٣) تهلك

من الحزن أن تنقبض الألسن عن هذا النعي الفادح^١ وتخرس ، وتقصر الأيدي عن التعزية بهذا الرُزء الفادح^٢ وتيبس .

وكتب أبو الفضل بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ :

إذا ما الدهر جرَّ على أناس مصائبه أناخ بآخرينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا سيلقى الشامتون كما لقينا

أحسن ما في الدهر عمومته بالنوائب ، وخصوصه بالرغائب ، فهو يدعو الجفلى^٣ إذا ساء ، ويخص بالنعمة إذا شاء . فليفكر الشامت : فإن كان أفلت^٤ ، فله أن يشمت . ولينظر الإنسان في الدهر وصروفه ، والموت وصنوفه ، من فاتحة أمره إلى خاتمة عمره ، هل يجد لنفسه أثراً في نفسه ؟ أو لتدبيره عوناً على تصويره ؟ أم لعمله تقدماً لأمله ؟ أم لحيله تأخيراً لأجله ؟ كلا . بل هو العبد لم يكن شيئاً مذكوراً ، 'خلق مقهوراً' ، فهو يحيا جبراً ، ويهلك صبراً ، وليتأمل المرء كيف كان قبلاً ؟ ! فإن كان العدم أصلاً ، والوجود فضلاً ، فليعلم الموت عدلاً .

والموت (أطال الله بقاء مولاي) خطب قد عظم حق هان ، وأمر قد خشن حق لان ، ولعل هذا السهم قد صار آخر ما في كينانتها^٥ وأزكى^٦ مسا في خزانتها ، ونحن معاشر التبغ نتعلم الأدب من أقواله ، والجميل من أفعاله ، فلا نحته على الجميل وهو الصبر ، ولا نرغبه في الجزيل وهو الأجر ، فليَرَ فيهما رأيه .

وكتب أيضاً :

يا سيدي - المصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ، ولكنك بالصبر أجدر . والعزاء على الأعزة رشد كأنه الغي ، وقد مات الميت ، فليحيَ الحي .

(١) الذي يشغل الناس ويهمهم (٢) المصيبة (٣) يدعو الناس بعامتهم وجماعاتهم (٤) أطلق وخلص وسلم من نوائب الدهر (٥) الجراب الذي توضع فيه السهام (٦) أظهر وأنفس لأنه لا يحرز إلا ما كان نفيساً .

وكتب فقيده اللغة الشيخ إبراهيم اليازجي المتوفى سنة ١٩٠٦ م :

أشباح تروح وتجيء ، وآجال تسمى وتغتدي ، وأنفاس تتقطع من دونها حزناً
وأسفاً ، وعبرات تتفطر وجداً ولهفاً ، وما عمدت الأقدار إلى استنزاف مدمع ،
ولا أرادت الأيام إيلام 'موجع' . إنما هي سنة الخلق : كون يليه زوال وعقديسبقة
الخلال ، وإن لكل شيء أجلاً موقوتاً ، وإن لكل أجل سبباً مقدوراً ، وإن
الإنسان لفي كل ذلك شاهد ، يسمع لاهياً ويبصر ساهياً ، وليس في يده أن
يسترد ماضياً ، ولا أن يرد آتياً . ولقد وددت أن أعزيك ، لولا ما يغالبني على
العزاء من كبد حرى ، ومقلة شكرى ، وزفرة تترى . ثم وددت أن أستبكيك ،
لولا أني بكيت حتى لم أدع في البكاء من واد وأحييت ليالي بالنوح حتى ألمّ بي ما
بالنجم من سهاد ، ثم لم يزدني البكاء على سقم جسدي ، ولم يزدني النوح على صفر
يدي إلا من كبدي ، وإن الأقدار سهام إذا انطلقت لم ترد ، وإن المتطلع إلى
الفائت لطويل شقة الكمد ، وإن الخطوب لهيّ هيّ وإنما تتفاوت عند الجلود :

وإن الحصى عند الجزرُوع ثقيلة وضخم الصفا عند الصبور خفيف

والله المسئول في إطالة بقائك قرّة للعيون ، وجبراً لخاطر المحزون بمنه وكرمه

تأبين الأحنف^١ بن قيس :

مات الأحنف^١ بن قيس بالكوفة فمشى مصعب بن الزبير في جنازته بغير
رداء^٢ وقال قوم : مات سيد العرب . فلما دفن قامت امرأة على قبره فقالت :

(١) اسمه الضحّاك وكان سيد تميم في عهده معروفاً بالعقل والدهاء والعلم
والحلم إلى ثبات جنان وحسن بيان . وحياته مملوءة بملائيل الأعمال وكزيم الفعّال
توفي سنة ٦٧ هـ . (٢) كانت عاداتهم في جنازات العظماء .

لله درك^١ من مجن^٢ في جن ومدرج في كفن ، فنسأل الذي فجّعنا بموتك
وابتلانا بفقدك أن يجعل سبيل الخير سبيلك ، ودليل الرشد دليلك ، وأن يُوسّع
لك في قبرك ، ويففر لك يوم حشرك ، فوالله لقد كنت في المحافل شريفاً ، وعلى
الأراميل عطوفاً ، ولقد كنت في الحيّ مستوداً ، وإلى الخليفة موفداً . ولقد كانوا
لقولك مستمعين ، ولرايك متبعين .

ثم أقبلت على الناس فقالت : ألا إن أولياء الله في بلاده ، شهود عباده ، وإني
لقائلة حقاً ، ومثنية صدقاً ، وهو أهل الحُسن الثناء ، وطيب البقاء ، أما والذي
كنت من أجله في عِدّة ومن الحياة إلى مُدّة ، ومن المقدار إلى غاية ، ومن الآثار
إلى نهاية ، الذي رفع عملك ، لما قضى أجلك ، لقد عشت حميداً مودوداً ، ومت
سعيداً مفقوداً^٣ ، ثم انصرفت وهي تقول :

لله درك يا أبا بحر ماذا تغيب منك في القبر
لله درك أيّ حشو ثرى أصبحت من عُرف ومن نكر
إن كان دهر فيك جَدّاً لنا حدّاثه ووهت قوى الصبر
فلكم يد أسديتها ويد كانت تُردّ جرائر الدهر
ثم انصرفت فسئل عنها فإذا هي امرأته وابنة عمه^٤ فقال الناس : ما سمعنا
كلام امرأة قط أصدق ولا أبلغ منه .
تأبين الإسكندر :

لما جعل الإسكندر في قابوت من ذهب تقدم إليه أحد الحكماء فقال :

(١) الدر : اللبّ والعمل ، والله درك : كلمة تعجب ، (٢) أجنه : ستره والجنن :
القبر ومن بدائع العربية أن مادة (جنن) تدل على الستر كالجن والجنون والجنة
والجن والجنان والجنين . (٣) يقولون مات فلان غير حميد ولا فقيد أي غير مكترث
لفقدانه فقوها : مفقوداً تريد يحزن الناس فقذك . (٤) حدّاثان الدهر : نوابه .
(٥) ذكر صاحب بليغات النساء أن اسمها صفية بنت هشام المنقروية .

كان الملك يخبىء الذهب وقد صار الآن الذهب يخبؤه .
وتقدم إليه آخر والناس يبكون ويجزعون فقال : حرّ كُنّا بسكونه .
وتقدم إليه آخر فقال : كان الملك يعظنا في حياته وهو اليوم أوعظ منه أمس .
وتقدم إليه آخر فقال ، قد طاف الأرضين وتلكها ثم جُمِلَ منها في أربعة أذرع .
ووقف عليه آخر فقال : انظر إلى حُلْمِ النَّائِمِ كيف انقضى ، وإلى ظل الغمام وقد
انجلى . ووقف عليه آخر فقال : مالك لا 'تَقِلُّ' عضواً من أعضائك وقد كنت
تستقلُّ 'ملك العباد' ؟

وقال آخر : مالك لا ترغب بنفسك عن ضيق المكان وقد كنت ترغب بها
عن رخب البلاد ؟

الفصل العاشر في رسائل الأجوبة

كتب المرحوم عبدالله باشا فكري المتوفى سنة ١٣٠٧ هـ :
سيدي سلمك الله وحيّاك وأسعدني برؤية 'حيّاك' ، وزاد عزّك و'عليك'
وحرس دينك ودنياك ، وجمعني على بساط المسرة وإياك ، ولا حرمني دوام
لقياك ، ولا برّح الدهر مبتسّم الثغر بحاسن معاليك ، مباهياً أعصار الأوائل بأيامك
ولباليك ، محلياً أجياد المفاخر بزواهر لآليتك - ورد عليّ كتابك الكريم مورد
إعزاز وتكريم ، قبل 'بعض ما في الجوانح من الصدى' ، وأنعمشي ولا انتعاش
الزهر بمباكرة الندى ، وجلا عليّ من البلاغة روضاً غصّاً ، وأدار لدي صفو آمن
سُلاف المحبة محضاً ؛ وهزني هزة الشوان شوقاً وطرباً ، واستفزني بمعجز آياته
الحسان 'عجباً وعجباً' ونثر عليّ من محاسن لفظك الحرّ وكماتك الغرّ ، ما
'يُنجِلُ' الدراري ويفضح الدُّرّ .

(١) أخذ أبو العتاهية هذا المعنى فقال :

وكانت في حياتك لي عظات وأنت اليوم أوعظ منك حيا

كلامُ كسنتهُ بهجة الحُسْن رَوْنَقاً هو السَّحَر، لابل جَلَّ قَدْرُ عَنِ السَّحَر
وكتب أيضاً وهو بالاستانة العليّة في يوم برد كثير الأمطار :

كتبتُ إليك والأمطارُ ساجدةٌ بطلتها^١ ووبلها^٢، وعساكرُ البردِ والبردِ
هاجمةٌ تخيلها ورَجَلُها، والسماءُ مُتَلَفِّعةٌ بأذيال السَّحَابِ، وكان الشمس خافت
من الطلِّ فتوارت بالحِجاب، والجوُّ مِسْكِيٌّ الرِّداء، غزيري الأرجاء، كأنه وعليه
ثوب الغيم مزرورٌ، قد وجَلَّ^٣ من صَوْلَةِ البردِ فلبس فروة السَّيُور، والغمام قد
أناخ على الأفق بَكَلَاكِيهِ^٤، وهزَّ من البرق بيض مناصله^٥، ونَشَرَ في الجو
طَرَائِقَ مطارفه^٦، وجاد على الأرض بتليده^٧ وطارفه^٨، وثقل على كادل
الهواء كالطير بلَّ جناحه بالماء، وقرب حتى كادَ يُنْسَكُ باليدين ويُعْتَصَرُ بالراحتين
أو كأنه مرآةٌ مَذْهَبَةٌ تَبْدُو وتُخْفَى، أو جُنْدُوةٌ^٩ مُلْتَمِيةٌ^{١٠} تُوقَدُ وتطفئ والرتعد
يَهْدَدُ بزواجير زماجره السَّحَابِ فيُبْكِيها، والطير يتلوسُ طور الندى في طرُوس
الثرى^{١١} فيُملِيها، ويُطربُ بأفنان^{١٢} الألحان أفنان^{١٣} البان فيُعْلِيها ويثنيها،
ويقرأ على رؤوس الأغصان أو رآده الحسان فيقرِّبها ويرقيها، وقوسُ السماء
يَرْمِي بسهام وبله^{١٤} جنوب الشقائق^{١٥} فيُضْمِيها^{١٦} ويُدْمِيها، والرياح تَسْحُ
أخلاف^{١٧} الغمام فتُمرِّبها^{١٨}، وتُرْضَعُ بدراً بنات النَّبَاتِ في جُحُورِ أراضِها
فتربِّيها وتربِّيها، وتُرْضَعُ بدراً تيجان القُضبان، وتارة تجعله عقوداً في
تراقبها^{١٩}، أو دُمُوعاً في أُمَاقِها، وكان الحرَّ خافَ من بنادقِ البردِ،

- (١) سائلة (٢) الندى (٣) المطر الكثير (٤) المشاة على أرجلهم (٥) خلف (٦) يجماعاته
(٧) سيفوفه (٨) ثياب من خز مربعة والمراد أنه كثر حتى غطى السماء (٩) المال القديم
والطارف ضده والمراد كثر عطره (١٠) بتثليث الجيم الجمرة (١١) الأرض (١٢) جمع فَنَن
الفصن (١٣) الأغصان الناعمة (١٤) المطر الكثير (١٥) شقائق النعمان ببت أحمر
(١٦) ليرمِيها ومراده أنه يرميها بالمطر حتى تزهر فتحمر (١٧) جمع خلف بالكسر
الضرع (١٨) مرى الناقة يرميها إذا مسح ضرعها لتدر اللبن (١٩) أعناقها

ومدافع الرعد، ففر إلى مصر ونواحيها، وأصبح نزيل من فيها لكرم أهلها، وكان غيرها بخلت عليه فلم تقبله عندها ضيفاً، أو غلط الناس في حساب الفُصُول فظنوا شتاها صيفاً .

وكتب المرحوم حفي بك ناصف إلى المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٤هـ:

وصل يا مولاي إلى هذا الطرف، ما خصصت به العبد من الطرف «قص» من عنب كاللؤلؤ في الصدف، تتألق عناقيده كأنها من صناعة «التجف» ولعمري الحق إنها تحفة من أحلى التجف لا يُعثر على مثلها إلا بطريق الصدف فقابلناه لثماً بالأفواه ورشفاً بالشفاه، واحتفينا بقدمه كل الاحتفاء، ولم نفرط في حبة عند اللقاء، بل حللنا له الحُبى^٢، وقلنا له أهلاً وسهلاً ومرحباً أو سَعْنَاهُ عُضاً ولثماً، وتداولناه تجميشاً^٣ وضمماً، وحفظنا في صدورنا سره المكنون وطويناه في غُضُونِ البطون، فطربت من تعاطيه الأرواح ولاغر وهو أصل الراح^٤، وانتشينا^٥ ولم نحمل وزراً، وثملنا^٦ ولم نذق طعماً مرّاً، فهو كبيان مهديه سحر ولكنه حلال، ولعب^٧ إلا أنه كمال، فإن أكسبت الشمول شاربها قوة في الجنان، ونفحت^٨ ذائقها طلاقة في اللسان، فقد سرت في أجسامنا من حرارته شجاعة^٩ «ليثية» ودبت في كلامنا من مذاقته فصاحة^{١٠} «علوية» وخلصت إلينا منه فوائده لا يحيط بها العلم، ونجمت^{١١} عنه منافع ليس يصحبها إثم^{١٢}— فإن زعم الأولون أن في الخمر معنى ليس في العنب، فقد تغير الحال في هذه الهدية وانقلب، وانكشف للمتأخرين حقيقة الأمر، أن في العنب معنى ليس في الخمر. وكان الأحرى بهذا العنب أن يناط^{١٣} بالشجور أو تزين به الصدور، فما هو إلا اللؤلؤ، لكنه سلم من سجن البحار، وما هو إلا الدُّر، لكن ليس فيه صغار^{١٤}.

(١) بالغنا في إكرامه وأظهرنا الفرح والسرور (٢) الحبال (٣) المغازلة والملاعبة

(٤) طيات البطون (٥) الخمرة (٦) سكرنا (٧) سكرنا أيضاً

(٨) أعطت (٩) أظهرت (١٠) يعلق (١١) بضم الصاد: الصغيرة.

ومن كنت بحراً له يا عليّ لا يَلْقَطُ الدُّرَّ إلا كبارا
وما ضرّه أن ضمّه القفص حصّةً من الحصص ، فإنّ كريم الطير يودّع في
الانقاص ، والقلب ليس له من حنايا الضلوع خلاص ، فلا بدع أن تستقلّ في
حبّاته حبّات القلوب ، ويُسْتَمْلَحَ في جنب حلاوته رُضَابُ^١ المحبوب ، وكان
الثريا لما أخذت شكله فقرّر^٢ الهلال فاه لمُنْقُودها يريد أكله ، فهو يطاردها في
السماء يأخذ عليها الطريق من وراء ، وهي تجري من الامام مخافة الاتهام ، هذا
لمجرد تشابه في الشكل ، فكيف بالثريا ، لو أشبهته حلاوة وريّا^٣ فله تلك العناقيد
ما أشدّ تألقها ! وأصفى ماءها وأحسن رَوْْنَقها ! من كل عنقود ، نخاله عمود
الصباح أحاطت به الدّراري ، أو غصنّ البان تعلقت به القماري .

فسقى الغيث أرضاً أنبتته ، ولا تُلّ^٤ ، الدهر عروشا حملته ، وأرضاً عرفتنا
بأثمارها حلاوة الجنّة ، وأبرزت لنا لمحة من محاسنها المستكنة ، وأنسانا عنيبتنا
ذكري دمشق وإزمير ، وأنبأنا غارسها أن مصر خير مُستقر ، ولا يُنبئك مثل
خبير ، وعروسا كالعروس ، تنيه^٥ في الحلي والملبّوس ، تحسدها المجرّة^٦ في السماء
وتودّ لو تكون لها هذه البهجة والراء^٧ ، لا زال مولاي يُهدّي ويهدي
وصنائه تعبد في ثنائه وتُبدي .

وأجابه المرحوم الشيخ علي الليثي المتوفى سنة ١٣١٣ هـ :
وبعد ، فقد وصل كتاب القاضي الفاضل ، وأرجّ الارجاء بلطيف فواضله ،
وشريف الفضائل ، وما كنت أظنّ أن يحصل من زبينة خماره ، حتى رأيت
القاضي الفاضل سبكه في قوالب شتى وصاغه وأتى بما أدهش اللب من أساليب
البلاغة فتارة عِقْدُ على النشجور ، وتارة في ميادين الطلب تطارده البُذور

(١) ريقه (٢) فتح (٣) منظرأ حسناً (٤) لا هدم (٥) عاصمة الشام سميت باسم
بانيها دمشق بن دمشق بن كنعان (٦) تتبختر (٧) نجوم كثيرة لا تدرك بمجرد
البصر وإنما ينتشر ضوءها فيرى كأنه بقعة بيضاء (٨) بضم الراء حسن المنظر .

وأوتنة درآ مكبراً، ومرة خمرأ معنبراً، وساعة ذوالى « نجفة » وساعة غصناً
تعلق به الهزار^١ وألفه :

تكاثرت الطبباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد
عجباً لك أيها الفاضل ! هذا مع اشتغال بالك ، وإقبالك على مسا لديق من
مراعاة عدلك واعتدالك ! فكيف لو تفرغت لهذا الأمر ؟ وإراحة النفس ،
اعتصرت من العنقود قدحاً من خمر ، وامتنطيت^٢ طرف اليراع منتجعاً منهاج
الطيرس^٣ ، ودبتجت^٤ بياض صفحاته بحاسن حلى النفس^٥ ، فله أنت من بليغ
بلغ ما يريد ، وقلست^٦ فرائد آدابه كل جيد ! وأفاد السحر منشوراً في فواصله ،
وأقام بعوامل أقلامه تثقيف عوامله ! وأوجب علينا الشهادة له بالسبق ، فأذعننا
مسلمين والحق أحق - هذا ، ولولا أن يقال فلان جفأ ، وما احتفل بكتاب
أخيه ولا احتفى^٧ ، وإن كان شبي يئز مئى ذلك ، كما أن شباب (البيلك) يسلك به
أقوم المسالك ، لسترت عيى وما أشرت ، ورأيت طيى خير ألى بما نشرت ، وجعلت
كتاب سيدي في عنقي تيممة^٨ ورؤحت^٩ النفس تيمناً^{١٠} بمس آياته الكريمة ،
وقلت : كفاني ما أحاط بالعنق من قلانده ، حيث العبد لا يبلغ في الفخامة كال سيده :
وهبني 'قلنت' هذا الصبح ليل^{١١} أيعمى العالمون عن الضياء ؟
لا زالت 'برد الترسل' بيننا مستمرة ، ومدد التوصل على جناح التقرب
مستقرة ، ولا برح الجناح في كل بداية ، يترقى كما يحب من غاية إلى غاية والسلام .

الفصل الحادي عشر في رسائل الوصايا والشفاعات

من كلام النبي عليه الصلاة والسلام لعمر بن الخطاب في غزوة الفرس :
إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلانه بكثرة ولا قلة ، وهو دين الله

(١) بفتح الهاء طائر يقال له العندليب (٢) علوت (٣) نقشت (٤) بكسر
النون الجبر (٥) ولا سأل (٦) ما تكتب وتعلق في عنق الصبيان للحرز (٧) تبركا .

الذي أظهره وجنّده الذي أعدّه وأمدّه ، حتى بلغ ما بلغ ، وطلع حيثما طلع ، ونحن على موعد من الله ، والله مُنْجِزٌ وَعْدُهُ ، وناصرٌ جُنْدَهُ - ومكان القِيَم بالأمْر مكان النِّظام من الخرز يجمعه ويضمّه ، فإذا انقطع النِّظام تفرّق الخرز وذهب ، ثمّ لم يجتمع بخذافيه أبداً .

والعَرَبُ اليَوْمَ ، وإن كانوا قليلاً فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكان قطباً ، واستدير الرُّحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض انقضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدعُ ورأاك من العَوْرَات أهم إليك مما بين يديك .

إن الأعاجم إن ينظروا إليك غدأ يقولوا هذا أصل العَرَب ، فإذا قَطَعْتُمُوهُ اسْتَرْحْتُمْ ؛ فيكون ذلك أشدّ لكَلْبِهِمْ عليك وطعمهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القَوْم إلى قتال المسلمين ؛ فإن الله سبحانه هو أَكْرَهُ لِمَسِيرِهِمْ مِنْكَ ، وهو أقدر على تغيير ما يكثره . وأما ما ذكرت من عددهم فإننا لم نَكُنْ نقاتل فيما مضى بالكثرة ، وإنما كُنْشَا نقاتل بالنصر والمعونة .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام :

أما بَعْدُ ؛ فقل جعل الله لي عليكم حَقّاً بولاية أمركم ، ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم ، فالحقُّ أَوْسَعُ الأشياء في التواصّف ، وأضيقُها في التناصّف لا يجري لأحدٍ إلّا جرى عليه ، ولا يجري عليه إلّا جرى له ، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه ، لقد رته على عباده ، ولعدله في كل ما جرّت عليه صُرُوف قضائه ، ولكه جعل حَقّه على العباد أن يُطيعوه ، وجعل جزاءهم عليه مُضَاعَفَةُ الشَّوَابِ تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله ، ثم جعل الله سبحانه من حقوقه حقاً افترضها لبعض الناس على بعض ؛ فجعلها تنكافاً في وجوهها ، ويوجب بعضها بعضاً ، ولا

يُسْتَوْجِب بعضها إلا ببعض ، وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق ، حق الوالي على الرعية ، وحق الرعية على الوالي ، فريضة فرضها سبحانه لكل على كل ، فجعلها جمعاً لألفتهم وعزاً لدينهم ، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاية ، ولا تصلح الولاية إلا باستقامة الرعية ، فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه ، وأدى الوالي إليها حقها ، عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين ، واعتدلت معالم العدل وجرت على أذلالها السنن ، فصلح بذلك الزمان ، وطُمِع في بقاء الدولة ، ويُسْتَمَطَّعُ الأعداء ، وإذا غلبت الرعية وآلبها ، وأجحف الوالي برعيته ، اختلقت هنالك الكلمة وظهرت معالم الجور ، وكثُر الإدغال في الدين ، وتُرِكَتْ حاج السنن ، فعمل بالهوى وعطشت الأحكام وكثرت علل النفوس فلا يستوحش لعظيم حق عطل ولا لعظيم باطل . فعل ؛ فهناك تذلل الأبرار ، وتعز الأشرار ، وتعظم تبعات الله عند العباد فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه ، فليس أحد وإن اشتد على رضا الله حِرْصه ، وطال على العمل اجتهاده ، ببالح حقيقة ما الله أهله من الطاعة ، ولكن من واجب حقوق الله على عباده ، النصيحة ببلج جهدهم ، والتعاون على إقامة الحق بينهم وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته ، وتقدمت في الدين فضيلته ، بفوق أن يُعَانِ على ما حملة الله من حقه ، ولا امرؤ وإن صغرت به النفوس ، واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك ، أو يُعَانِ عليه .

فأجابه عليه الصلاة والسلام رَجُلٌ من أصحابه بكلام طويل يُكثِرُ فيه من الثناء عليه ويذكر سمعه وطاعته ، فقال عليه الصلاة والسلام : إن من حق من عظم جلال الله في نفسه ، وجل موضعه من قلبه ، أن يصغر عنده لعظم ذلك كل ما سواه ، وإن أحق من كان كذلك لَمَنْ عَظُمَتْ نِعْمَةُ الله عليه ولطف إحسانه إليه ، فإنه لم تَعُظَمْ نِعْمَةُ الله على أحد إلا ارْدَادَ حق الله عليه عِظَمًا ، وإن من أسخف حالات الولاية عند صالح الناس ، أن يظن بهم

حبُّ الفخر ويُوَضَّعُ أمرُهُم على الكِبَرِ ، وقد كَرِهْتُ أن يكون جالاً في ظَنِّكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء ، ولستُ بحمد الله كذلك ، ولو كنتُ أُحِبُّ أن يقال ذلك لتركته المخطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحقُّ به من العظمة والكبرياء ، وربُّنا استنحى الناسُ الثناء بعد البلاء ، فلا تثنُّوا عليَّ بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التَّقِيَّةِ في حقوقٍ لم أفرُغ من أدائها ، وفترائضٍ لا بُدَّ من إمضاها ، فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابرة ، ولا تتحفظوا مني بما يُتَحَفَّظ به عند أهل البادية ، ولا تخالطوني بالمصانعة ، ولا تظنُّوا بي استثقلاً في حقِّ قبلي ، ولا التماس إعظام لنفسي فإنه من استثنى قِلَّ الحق أن يقال له ، أو العدل أن يُعَرَّض عليه ، كان العمل بها أثقلَ عليه ، فلا تكفوا عن مقالة بحقٍّ ، أو مشورة بعدلٍ ، فإنِّي لستُ في نفسي بفوق أن أُخطيء ولا آمنُ ذلك من فعلي ، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني فإنما أنا وأنتم عبيدٌ مملوكون لربِّ لا ربَّ غيره ، يملك منَّا ما لا نملك من أنفسنا ، وأخرجنا مما كنَّا فيه إلى ما صلحنا عليه ، فأبدلنا بعد الضلالة بالهدى ، وأعطانا البصيرة بعد العمى .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام وصى بها جيشاً بعثه إلى العدو :

فإذا نزلتم بعدوً ، أو نزل بكم ، فليكن معسكرُكم في قبيل الأشراف ، وسفاح الجبال ، أو أنشاء الأنهار . كما يكون لكم رِداءٌ ، ودونكم مرَدَّاءٌ ، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين ، واجعلوا لكم رقباء في صياصي الجبال ، ومناكب الهضاب ، لئلا يأتبكم العدو من مكان بخافة أو أمن . واعلموا أن مقدِّمة القوم عيونهم وعيون المقدِّمة طلائعهم - وإياكم والتفرق ، فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً ، وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً ، وإذا غَشِيكم الليلُ فاجعلوا الرِّماح كفتةً ، ولا تَذوقوا النومَ إلا غِراراً أو مضضاً .

ومن وصية له عليه الصلاة والسلام كانت يكتبها لمن يستعمله على الصدقات :

إنطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا تروّ عن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارها ، ولا تأخذن منه أكثر من حق الله في ماله . فإذا قدِمْتَ على الحي فانزل بمائهم من غير أن تخالط أربابهم ، ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج بالتسحية لهم . ثم تقول : عباد الله ، أرسلني إليكم وليُّ الله وخليفته ، لآخذ منكم حق الله في أموالكم ، فهل لله في أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليّه ؟ فإن قال قائلٌ منهم : لا ، فلا تراجع . وإن أنعم لك منهم . فانطلق معه من غير أن تخيفه أو توعده ، أو تعسفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل ، فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له . فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفّرَن بهيمة ، ولا تفزع عشيها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المسال صدعين ثم خيّرهُ ، فإذا اختار فلا تتعرّضن لما اختاره ، ثم اصدع الباقي صدعين ثم خيّرهُ ، فإذا اختار فلا تتعرّضن لما اختاره ، فلا تزال بذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله في ماله فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقلده ، ثم اخلطها ثم اصنع مثل الذي صنعت أولاً حتى تأخذ حق الله في ماله ، ولا تأخذن عوداً ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة ولا ذات عوار ، ولا تأمنن عليها إلا من تثق بدينه رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم ، ولا تؤكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً غير معنف ولا يحجف ولا مغلب ولا متعب ، ثم اهدر إلينا ما اجتمع عندك نصيرته حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك ، فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقتي وبين فصيلها ، ولا يضر لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهد نثها ركوباً . ولشعبدل بين صواحباتها في ذلك وبينها ، وليرقة على اللاعب ، وليستان بالنقيب والظالم وليوردها ما ترض به من الغدر ، ولا

يعدل بها عن نبت الأرض إلى جواد الطرُق ولشير وحنها في الساعات، وليمهلها عند النطاف والأعشاب حتى تأتيننا بإذن الله بُدُنًا مُنْقِيَات ، غير مُتَعَبَات ولا مجمودات لنعسمها على كتاب الله وسنة نبيه (صلى الله عليه وعلى آله) فإن ذلك أعظم لأجرِك ، وأقَرّ لرُشدك إن شاء الله .

وقال عليه الصلاة والسلام وقد سمع رجلاً يلذم الدنيا :

أيُّها الذَّامُّ للدنيا المغترُّ بفرورها ، المخدُّوعُ بأباطيلها ، أتفتَرُّ بالدنيا ثم تَذُمُّها ؟ ! أنت المتَجَرِّمُ عليها أم هي المتجرِّمة عليك ؟ ! متى استَهَوَّتْكَ ؟ ! أم حقَّ غرَّتْكَ ؟ ! أم بصارع آباءك من البلى ؟ أم بمضاجع أمهاتك تحت الثرى ؟ ! كم علَّلتَ بكفِّيك ؟ ! كم مرَّضتَ بيديك ؟ ! نبغي لهم الشفاء ، وتستوصف لهم الأطباء ، لم ينفع أحدهم إشفائك ، ولم تسعفه بطلبتك ، ولم تدفع عنه بقوتك وقد مثلت لك به الدنيا نفسك وبصره مصرعك .

إن الدنيا دارٌ صدق لمن صدَّقها ، ودارٌ عافية لمن فهمَ عنها ، ودارٌ غنى لمن تزوَّدَ منها ، ودارٌ موعظة لمن اتَّعظَ بها ، مسجدٌ أحبَّاء الله ، ومُصلًى ملائكة الله ، ومُهَيِّطٌ وحي الله ، ومتَّجِرٌ أولياء الله ، اكتسبوا فيها الرِّحمةَ وربَّحوا فيها الجنةَ فَمَنْ ذَا يذُمُّها وقد آذَنَتْ ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعتُ نفسها وأهلها فمثلت لهم ببلائها البلاء ، وشوَّفتهم بسرورها إلى الشرور ، رآحت بعافية ، وابتكرت بفجعية ، ترغيباً وترهيباً ، وتخويفاً وتحذيراً ، فذَمُّها رجالٌ غَدَاةُ الندامة ، وحمدُها آخرون يوم القيامة ذكَّرتهم الدنيا فتذكَّروا ، وحدَّثتهم فصَدَّقوا ، وعَظَّمَتُهُمْ فاتَّعَظُوا .

عهد الإمام علي المتوفى سنة ٤٠ هـ لما لك بن الحارث الأشتر النسخمي ، حين ولاء مصر وجباية خراجها وجهاد عدوها وإصلاح أهلها وعمارة بلادها :

اعلم يا مالكُ أني قد وجَّهْتُكَ إلى بلاد قد جَرَّتْ عليها دُولٌ قبلك من عدلٍ وجور ، وأنَّ النَّاسَ ينظرون من أمورك في مثل ما كنتَ تنظر فيه من أمور

الولادة قبلك ، ويقولون فيك كما كنت تقول فيهم ، وإنما يستدل على الصالحين بما يجري الله لهم على السنة عباده - فليكن أحب الذخائر إليك ذخيرة العمل الصالح ، فاملك هالك ، وشح بنفسك عما لا يحل لك ، فإن الشح بالنفس الإنصاف منها فيما أحببت أو كرهت - وأشعر قلبك الرحمة للرعية ، والمحبة لهم واللطف بهم . ولا تكونن عليهم سبعا ضاريا تغتم أكلهم ، فإنهم صنفان : إما أخ لك في الدين ، وإما نظير لك في الخلق . يفترط منهم الزلل ، وتعرض لهم العلل ويؤتى على أيديهم في العمد والخطأ ، فأعطهم من عفوك وصفحك ، مثل الذي تحب وترضى أن يعطيك الله من عفوه وصفحه ، فإنك فوقهم ، وآلي الأمر عليك فوقك ، والله فوق من ولاك ، وقد استكفأك أمرهم وابتلاك بهم ، ولا تنصبن نفسك لحرب الله ، فإنه لا قسلك بنقمة ، ولا غنى بك عن عفوه ورحمته ، ولا تندمن على عفوه ، ولا تبجحن بعقوبة ، ولا تسرعن إلى بادرة وجدت عنها مندوحة ، ولا تقولن إني مؤتمر أمر فأطاع ، فإن ذلك إدغال في القلب ، ومنهكة للدين ، وتقرب من الغير ، وإذا أحدث لك ما أنت فيه من سلطانك أبهة أو خييلة ، فانظر إلى عظم ملك الله فوقك ، وقدرته منك على ما لا تقدر عليه من نفسك فإن ذلك يبطان إليك من طمأحك ، ويكف عنك من غريبك ، ويفيء إليك بما عزب عنك من عقلك ، وإيتاك ومساماة الله في عظمته ، والتشبه به في جبروته ، فإن الله يذل كل جبار ، ويهين كل مختال ، أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ، ومن لك فيه هو من رعيته ، فإنك إن لم تفعل تظلم ، ومن ظلم عباد الله كان الله خصمه دون عباده ، ومن خاصمه الله أذحض حجتة ، وكان الله حربا عليه حتى ينزع ويتوب ، وليس شيء أدعى إلى تغيير نعمة الله ، وتعجيل نقمته من إقامة على ظلم فإن الله سميع دعوة المظلومين ، وهو للظالمين بالمرصاد وليكن أحب الأمور إليك أوسطها في الحق ، وأعمها في العدل ، وأجمعها لرضاء الرعية .

فإن سخطَ العامةً يمحُفُ برضاء الخاصة وإن سخطَ الخاصة يُغتفر مع رضاء العامة ، وليس أحدٌ من الرعية أثقلَ على الوالي مؤونة في الرخاء ، وأقلَ معونةً في البلاء ، وأكرهَ للأنصاف ، وأسأل بالإلحاف ، وأقلَّ شكرًا عند الإعطاء وأبطأ عذراً عند المنع ، وأخفَّ صبراً عند مُلتمات الدهر ، من أهل الخاصة : وإنما عماد الدين ، وجماع المسلمين ، والعُدَّة للأعداء ، العامة من الأمة ، فليكنْ صفوك لهم وميلك معهم . وليكن أبعد رعيته منك وأشنأهم عندك ، أطلبهم لمعايب الناس فإن في الناس عُيوباً ، الوالي أحقَّ مَنْ سترها ، فلا تكشف عن غاب عنك منها فإنما عليك تطهير ما ظهر لك ، والله يحكم على ما غاب عنك ، فاستر العورة ما استطعت يستر الله منك ما تحب ستره من رعيته - أطلق عن الناس عقدة كلِّ حقد ، واقطع عنك سبب كلِّ وتسر ، وتغاب عن كلِّ ما لا يصح لك - ولا تعجلنَّ إلى تصديق ساع ، فإن الساعي غاش وإن تشبه بالناسحين - ولا تدخلنَّ في مشورتك بخيلاً يعدل بك عن الفضل ويعيدك الفقر ، ولا جباناً يضعفك عن الأمور ، ولا حريصاً يزيتن لك الشرَّ بالجور ، فإن البخل والعجب والحرص غرائز شتى ، يجمعها سوء الظن بالله : إنَّ شرَّ وزرائك مَنْ كان قبلك للأشرار وزيراً ومَنْ شرَّكهم في الآثام ، فلا يكوننَّ لك بطانة ، فإنهم أعوان الأئمة ، وإخوان الظلمة ، وأنت واجدٌ منهم خيرَ الخلف بمن كره مثل آرائهم ونفادهم ، وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ، من لا يُعاون ظالماً على ظلمه أو آثماً على إثمه ، أولئك أخفَّ عليك مؤونة وأحسن لك معونة ، وأحنى عليك عطفاً ، وأقلَّ لغيرك إلفاً ، فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك ، ثم ليكنْ آتسرتهم عندك أقولهم لك ببرِّ الحق وأقلستهم مُساعداً فيما يكون منك مما كرهه الله لأوليائه ، واقم ذلك من هواك حيث وقع ، والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على أن لا يُطشروك ، ولا يُبجَّحوك بباطل لم تفعله ؛ فإن كثرة الإطراء

'تُخَدِّثُ الزُّهْوُ ، وتُتَدَنِّي مِنَ الْعِزَّةِ . ولا يكونن الحسن والسيء عندك بمنزلة سواه ، فإن في ذلك تزهيداً لأهل الإحسان في الإحسان ، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة وألزم كلامهم ما ألزم نفسه - واعلم أنه ليس شيء بأدعى إلى حُسن ظنِّ والي برعيته من إحسانه إليهم ، وتخفيفه المؤونات عليهم ، وترك استكراهه إياهم على ما ليس له قبيلتهم ؛ فليكن منك في ذلك أمرٌ يجمعُ لك حسن الظن برعيته ؛ فإن حسن الظن يقطعُ عنك نصيباً طويلاً . وإن أحقَّ مَنْ حَسُنَ بِهِ ظَنُّكَ لَمَنْ حَسُنَ بِلَاؤُكَ عنده ، وإن أحقَّ مَنْ ساءَ ظَنُّكَ بِهِ ، لَمَنْ ساءَ بِلَاؤُكَ عنده ، ولا تنقضُ سُنَّةَ صالحةٍ عملَ بها 'صدور هذه الأمة ، واجتمعتُ بها الألفة ، وَصَلَحَتْ عليها الرعية ، ولا تُخَدِّثَنَّ سُنَّةَ تَضُرُّ بشيء مما مضى من تلك السنن ، فيكون الأجر لمن سنها ، والوزرُ عليك بما نقضت منها . وأكثرُ مَدَارَسَةِ العلماء ومناقشة الحكماء في تثبيت ما صَلَحَ عليه أمرُ بلادك ، وإقامة ما استقام به الناس قبلك . واعلم أن الرعية طبقاتٌ لا يصلح بعضها إلا ببعض ، ولا غنى ببعضها عن بعض ، فمنها جنود الله ، ومنها كتّاب العامة والخاصة ، ومنها قضاة العدل ، ومنها عمال الإنصاف والرفق ، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومُسَلِّمَةُ الناس ، ومنها التُّجَّارُ وأهل الصناعات ، ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة وكلا قد سَمَّى الله سهمه ، ووضع على حده فَرِيضَةً في كتابه ، أو سُنَّةَ نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظاً ، فالجنود بإذن الله حُصُونُ الرعية ، وزينُ الولاية ، وعز الدين ، وسُبُلُ الأمان وليس تقوم الرعية إلا بهم ، ثم لا قِيَامَ للجنود إلا بما يُخْرِجُ الله تعالى لهم من الخراج ، الذي يَقْنَوْنَ به في جهاد عدوهم ، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم - ثم لا قِيَامَ لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة ، والعمال ، والكتّاب ، لما يحكون من المعاهد ويجمعون من المنافع ويؤمنون عليه من خواص الأمور وعوامها ، ولا قوامَ لهم جميعاً إلا

بالتجار ، وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ، وقيمونه من أسواقهم ، ويكفونهم من الترفق بأيديهم ، ما لا يبلغ رفق غيرهم . ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدُهم ومعونتهم ، وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه . وليس يخرج الوالى من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك ، إلا بالاهتمام والاستعانة بالله ، وتوطين نفسه على لزومه الحق والصبر عليه ، فيما خفَّ عليه أو ثَقُلَ ، فَوَلَّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله وإمامك ، وأظهرهم جيباً وأفضلهم حالاً ممن يُبْطِئ عن الغضب ، ويستريح إلى العذر ، ويرأف بالضعفاء وينبذ على الأقوياء ، ممن لا يثيره العنف ، ولا يقعد به الضعف ، ثم الصق بذوي المروآت والأحساب ، وأهل البيوتات الصالحة ، والسوابق الحسنة ، ثم أهل النجدة والشجاعة ، والسخاء والسماحة ، فانهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف ، ثم تفقّد من أمورهم ما يتفقّده الوالدان من ولدهما ، ولا يتفاقمّن في نفسك شيء قويتهم به ، ولا تحقّرّن لطفاً تتعاهدُهم به وإن قلّ ، فانه داعية إلى بذل النصيحة لك ، وحُسن الظن بك . ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكلاً على جسيمها ، فإن للسير من لطفك موضعاً ينتفعون به ، وللجسيم موقِعاً لا يستغنون عنه — وليكن أثر رؤوس جنودك عندك من واسام في معونته ، وأفضل عليهم من جِدّته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهلهم حتى يكون همهم ما واحداً في جهاد العدو فإن عطفك عليهم يعطّف قلوبهم عليك ، وإن أفضل قرّة عين الولاة استقامة العدل في البلاد ، وظهور مودة الرعية ، وإنه لا تظهر مودّتهم إلا بسلامة صدورهم ، ولا تصح نصيحتهم إلا بحيطتهم على ولاة أمورهم ، وقلّة استئصال دُولهم ، وترك استبطاء انقطاع مدّتهم ، فأفسح في آمالهم ، وواصل في حُسن الثناء عليهم ، وتعديل ما أبلى ذوو البلاء منهم ، فان كثرة الذّكر لحسن فعلهم تهز الشجاع وتحرض الناكل إن شاء الله تعالى — ثم اعرف لكل امرئ منهم ما أبلى ، ولا تُضيفنّ بلاء امرئ إلى غيره ، ولا تُقصّرّن به دون

غاية بلائه ولا يدعُونكَ شرف امرئ إلى أن تعظم من بلائه ما كان صغيراً ولا ضعة امرئ أن تستصغر من بلائه ما كان عظيماً ، وارُدْ إلى الله ورسوله ما يضلحك من الخطوب ويشته عليك من الأمور ، فقد قال سبحانه لقوم أحب إرشادهم يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم . فان تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول ، فالرّد إلى الله الأخذ بمحكم كتابه ، والرّد إلى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعينك في نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ، ولا يتأدى في الزلة ، ولا يحصر عن الفهم إلى الحق إذا عرفه ، ولا تشرف نفسه على طمع ، ولا يكتفي بأدنى فهم دون اقتضاء ، أوقفهم في الشبهات ، وآخذهم بالحجج ، وأقلهم تبرماً بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشيف الأمور ، وأضرهم عند اتضاح الحكم ، ممن لا يزدنيه إطراء ، ولا يستميله إغراء ، وأولئك قليل - ثم أكثر تعاهد قضائه ، وأفسح في البذل ما يزيح عنه وتقل معه حاجته إلى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ، لتأمن بذلك اغتيال الرّجال له عندك . فانظر في ذلك نظراً بليغاً ، فإن هذا الدين قد كان أسيراً في أيدي الأشرار يعمل فيه بالهوى وتطلب به الدنيا - ثم انظر في أمور عمالك ، فاستعملهم اختباراً ، ولا تولهم محابة وأثرة ، فإن ذلك جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقيد في الإسلام ، فانهم أكرم أخلاقاً وأصح أعراضاً ، وأقل في المطامع إثمافاً ، وأبلغ في عواقب الأمور نظراً : ثم أسبغ عليهم الأرزاق ، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو خانوا أمانتك - ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك في السر لأموالهم حدودهم لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية . وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة في

بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ، ثم نصبته بمقام المذلة ووسمته بالخيانة ، وقلدته عار التهمة - وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله ، فإن في صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سيواهم ، ولا صلاح لمن سيواهم إلا بهم ، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله - وليكن نظرك في عمارة الأرض ، أبلغ من نظرك في استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرج البلاد ، وأهلك العباد ، ولم يستقم أمره إلا قليلاً ، فإن شككوا ثقلاً أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو أحالة أرض اعتمرها غرق ، أو أجحف بها عطش ، خفت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ، ولا يثقلن عليك شيء خفت به المؤونة عنهم ، فإنه ذخري يعودون به عليك في عمارة بلدك وتزيين ولايتك ، مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمداً فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من إجمالك لهم ، والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم ، فربما حدثت من الأمور ما إذا عول فيه عليهم من بعد احتمالوه طيبة أنفسهم به ، فإن العمران يحتمل ما حتمته : وإنما يأتي خراب الأرض من إغواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعير ، ثم انظر في حال كنتابك فول على أمورك خيرهم ، واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائذك وأسرارك بأجمعهم لوجوه صالح الأخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجتري بها عليك في خلاف لك بحضرة ملائكة ، ولا تقتصر به الغفلة عن إيراد مكاتبات عمالك عليك ، وإصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطى منك ، ولا يضيف عقداً اعتقده لك ، ولا يعجز عن إطلاق ما عقد عليك ، ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور ، فإن الجاهل بقدر نفسه ، يكون بقدر غيره أجهل . ثم لا يكن اختيارك إياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك ، فإن الرجال يتعرفون لفراسات الولاة

بتصنيئهم وحبس خدمتهم ، وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ، ولكن اختبرهم بما ولثوا للصالحين قبلك ، فاعتمد لأحسنهم في العامة أثراً ، وأعرفهم بالأمانة وجهاً ، فإن ذلك دليل على نصيحتك لله وللمن وليت أمره . واجعل لرأس كل من أمورك رأساً منهم لا يقهره كبيرها ، ولا يتسلط عليه صغيرها ، ومهما كان في كتابك من عيب تغفأ به عنه ألزمته ، ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيراً المقيم منهم والمضطرب بماله ، والمتفرق ببدنه فانتهم مواد المنافع ، وأسباب المرافق وجلالها من المباع والمطرح ، في برك وبحرك ، وسهلك وجبلك ، وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ، ولا يجترئون عليها فإنهم سلبتم لا تخاف بانقته ، واصلح لا تخشى غائلته . وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك ، واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً ، واحتكاراً للمنافع ، وتحكماً في البياعات ، وذلك باب مضررة للعامة ، وعيب على الولاية . فامنع من الاحتكار ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم منع منه ، وليكن البيع بيعاً سنجاً ، بموازين عدل ، وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع . فمن قارف حكرة بعد نهيك إياه فنكّل به وعاقب في غير إسراف - ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين ، والمحتاجين ، وأهل البؤس والزمنى ، فإن في هذه الطبقة قانماً ومعتراً ، واحفظ الله ما استخفظك من حقه فيهم ، واجعل لهم قسماً من بيت مالك ، وقسماً من غلات صوافي الإسلام في كل بلد ، فإن للأقصى منهم مثل الذي للأدنى ، وكل قد استرعى حقه ، فلا يشغلنك عنهم بطر ، فإنك لا تغذر بتضييعك التافه لإحكامك الكثير المهم ، فلا تشخص همك عنهم ، ولا تصغر خدك لهم ، وتفقد أمور من لا يصل إليك منهم ممن تقتحمه العيون ، وتحتقره الرجال ، ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الحشية والتواضع ، فليرفع إليك أمورهم . ثم اعمل فيها بالإعذار

إلى الله سبحانه يوم تلقاه ، فان هؤلاء من بين الرعية أحوج إلى الإنصاف من غيرهم ، وكل فاعذر إلى الله في تأدية حقه إليه ، وتعهّد أهل اليتم وذوي الرقة في السنّ تمنّ لا حيلة له ، ولا ينصيب للمسألة نفسه ، وذلك على الولاة ثقيل ، والحق كله ثقيل ، وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم وثيقوا بصدق موعود الله لهم - واجعل لذوي الحاجات منك قسماً تفرّغ لهم فيه شخصك ، وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه لله الذي خلقك . وتنفّيد عنهم جندك وأعوانك من أحراسك وشُرطك ، حتى يكلمك متكلمهم غير متّنع ، فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول في غير موطن : « لن تقدّس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القويّ غير متّنع » .

ثم احتمل الخرق منهم والعيّ وسنتح عنهم الضيق والأنف ، يسط الله عليك بذلك أكناف رحمته ، ويوجب لك ثواب طاعته ، وأعط ما أعطيت هنيئاً في إجمال وإعذار .

ثم أمور من أمورك لا بُد لك من مباشرتها ، منها إجابة عمّالك بما يعنيا عنه كتابك ، ومنها إصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرّج به صدور أعوانك ، وامض لكلّ يوم عمله ، فان لكل يوم ما فيه ، واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله تعالى أفضل تلك المواقيت ، وأجزل تلك الأقسام ، وإن كانت كلّها لله إذا صلحت النية وسلمت منها الرعية ، وليكن في خاصة ما تخلّص الله به دينك إقامة فرائضه التي هي له خاصة ، فأعط الله من بدنك ، في ليالك ونهارك ، ووف ما تقربت به إلى الله سبحانه من ذلك كاملاً غير مشلوم ولا منقوص بالغاً من بدنك ما بلغ ، وإذا قمت في صلاتك للناس فلا تكون مُتفَرّراً ولا مضيقاً . فان في الناس من به العلة وله الحاجة : وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين وجّهني إلى اليمن : كيف أصلي بهم ؟ فقال :

« صلّ بهم كصلاة أضعفهم ، وكن بالمؤمنين رَحِيماً .

أما بعدُ - فلا تُطسّوْا لن احتجاجك عن رعيتك ، فإن احتجاج الولاة عن الرعية شُعْبة من الضيق وقلة علم بالأمور ، والاحتجاج منهم يقطع عنهم علم ما احتجّبتوا دونه ، فيصغر عندهم الكبير ، ويعظم الصغير ، وَيَقْبِجُ الحَسَنَ ، ويَحْسِنُ القَبِيحَ ، ويُشَابِ الحق بالباطل ، وإِنَّمَا الوالي بشرٌ لا يعرف ما تَوَارَى عنه الناس به من الأمور ، وليست على الحق سِمَاتٌ تعرف بها ضروب الصدق من الكذب ، وإِنَّمَا أَنْتَ أَحَدُ رَجُلَيْنِ : إما امرؤٌ سَخَّتْ نفسك بالبذل في الحق ، ففيم احتجاجك من واجب حقٍ تُعْطِيهِ ! أو فعل كريم تسديه ١٢ أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك إذا أيسوا منك ، مع أن أكثر حاجات الناس إليك ، مما لا مؤنة فيه عليك ، من شكَاة مَظْلُمة ، أو طلب إنصاف في معاملة .

ثم إن للوالي خاصة وبطانة ، فيهم استئثار وتطاول ، وقلة إنصاف في معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تُقْطِعَنَّ لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة ، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس في شرب أو عمل مشترك ، يحملون مؤونته على غيرهم ، فيكون منها ذلك لهم دونك وعيبه عليك في الدنيا والآخرة . وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد ، وكن في ذلك صابراً محتسباً ، واقعاً ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع ، وابتغ عاقبته بما يشغل عليك منه ، فإن مغبة ذلك مجودة ، وإن ظننت الرعية بك حيفاً فأصحّر لهم بعذرِكَ ، واعدل عنك ظنونهم بإصْحَارِكَ ، فإن في ذلك رياضة منك لنفسك ورفقاً برعيتك ، وإعذاراً تبليغ به حاجتك من تقويم على الحق ، ولا تدفعن صالحاً دعاك إليه عدوك ، والله فيه رضا ، فإن في الصلح دعة للجنودك وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كما الحذر من عدوك بعد صلحه فإن

العدو ربما قارب ليتغفل، فخذ بالحزم، واتسهم في ذلك حسن الظن، وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة، أو ألبسته منك ذمة، فحط عهدك بالوفاء، وأرع ذمتك بالأمانة، واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت، فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس أشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم، وتنشئت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود، وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين، لما استوَبلوا من عواقب الغدر، فلا تغدرن بذمتك، ولا تخيسن بعهدك ولا تحتلن عدوك، فإنه لا يجترىء على الله إلا جاهل شقي، وقد جعل الله عهده وذمته أمناً أفضاه بين العباد برحمته وحسنه يسكنون إلى مَنعته، ويستفيضون إلى جواره فلا إدغال ولا مدالسة ولا خِداع فيه، ولا تعقد عقداً تجوز فيه العلل ولا تمولن على لحن قول بعد التأكيد والثوثة، ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله إلى طلب انفساخه بغير الحق، فإن صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته، خير من غدر تخاف تبعته، وأن تحيط بك فيه من الله طلبية، فلا تستقيم فيها دنياك ولا آخرتك.

إياك والدماء، وسفكها بغير حلها، فإنه ليس شيء أدعى لِنِزْمَةٍ، ولا أعظم لتبعة، ولا أحزى بزوال نعمة، وانقطاع مدة، من سفك الدماء بغير حقها، والله سبحانه وتعالى يتولى الحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة، فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام، فإن ذلك مما يضعفه ويؤهنه، بل يزيله وينقله، ولا عذر لك عند الله ولا عندي في قتل العمد، لأن فيه قود البدن، وإن ابتليت بخطأ وأفراط عليك سوطك، أو سيفك، أو يدك، بعقوبة، فإن في الوكزة فما فوقها مقتلة، فلا تطمحن بك نخوة سلطانك، عن أن تؤدي إلى أولياء المقتول حقهم.

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها، وحُب الاطراء، فإن ذلك من أوثق فُرَص الشيطان في نفسه، ليمحق ما يكون من إحسان المحسنين

وإياك والمنّ على رعيّتك بإحسانك ، أو التزيد فيما كان من فعلك أو أن تعدّهم فتتبع موعداً بخلفك ، فإن المنّ يبطل الإحسان والتزيد يذهب بنور الحق ، والخلف يوجب المقت عند الله والناس ، قال الله سبحانه وتعالى (كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ) .

وإياك والعجالة بالأُمور قبل أوانها ، أو التسقّط فيها عند إمكانها ، أو اللجاجة فيها إذا تنكّرت ، أو الوهن عنها إذا استوضحت ، فضع كلّ أمر موضعه وأوقع كل عمل موقعه . وإياك والاستئثار بما للناس فيه أسوة ، والتغابي عما يُعنى به مما قد وضح للعيون ، فإنه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغذية الأمور ، ويكتشف منك المظلوم ، وأملك حمية أنفك ، وسورة حدك وسطوة يدك ، وغرب لسانك ، واحترس من كل ذلك بكف البادرة ، وتأخير السطوة ، حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ، ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثُر همومك بذكر المعاد إلى ربك والواجب عليك أن تذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة ، أو سنة فاضلة ، أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله وسلم أو فريضة في كتاب الله فتقتدي بما شاهدت مما عملنا به فيها ، وتجتهد لنفسك في اتباع ما عهدت إليك في عهدي هذا واستوثقت به من الحجة لنفسك دليلك لكيلا يكون لك علة عند تسرع نفسك إلى هواها ، وأنا أسأل الله تعالى بسعة رحمته وعظيم قدرته على إعطاء كل رغبة ، أن يوفقني وإياك لما فيه رضاه من الإقامة على العذر الواضح إليه وإلى خلقه من حسن الثناء في العباد ، وجميل الأثر في البلاد ، تمام النعمة ، وتضعيف الكرامة ، وأن يختم لي ولك بالسعادة والشهادة إنا إلى الله راغبون ، والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين .

وكتب أبو بكر الصديق المتوفى في ٧ جمادى الثانية ١٣ هـ إلى بعض قواده :
إذا سِرّت فلا تُعَنِّف أصحابك في السير ولا تفضيهم ، وشاور ذوي الآراء

منهم واستعمل العدل ، وباعد عنك الجور ، فإنه ما أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم (وإذا لقيتم الذين كفروا زحفاً^١ فتلا نزلهم الأدبار^٢ ومن يؤلّسهم يؤمّسّ ذبّره إلا متحزّفاً^٣ ليقْتال^٤ ، أو متحيزاً^٥ إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله) وإذا نصرتم عليهم ، فلا تقتلوا شيخاً ، ولا امرأة ، ولا طفلاً ، ولا تحرقوا زرعاً ، ولا تقطعوا شجراً ، ولا تدبحوا بهيمة^٦ ، إلا ما يلزمكم للأكل ، ولا تغدروا إذا هادنتهم^٧ ، ولا تنقضوا إذا صالحتم ، وسمّوْون على أقوام في الصوامع ، ورهبان ترهبوا الله ، فدعوهم وما انفردوا إليه وارتضّوه لأنفسهم ، فلا تهدموا صوامعهم ولا تقتلوهـ والسلام .

وكتب عمر بن الخطاب المتوفى في ٢٦ ذي الحجة سنة ٢٢ هـ إلى بعض قواده :
أما بعد : فإني أوصيك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة في الحرب ، وأن تكون أنت ومن معك أشد احتراساً من المعاصي منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ، لأن عدونا ليس كعددهم ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ، وإلا نصّر عليهم بطاعتنا ، لم نغلبهم بقوتنا ، واعلموا أن عليكم في سيركم حفظه من الله يعلمون ما تدعون ، فاستحيوا منهم واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم .

وأقم بين معك في كل جمعة يوماً وليلة ، حتى تكون لهم راحة^٨ يحيون فيها أنفسهم ، ويرمّون أسلحتهم وأمتعتهم ، ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق به — وليكن منك عند دنوك من أرض

(١) مجتمعين لكثرتهم يزحفون (٢) الانهزام (٣) منعطفاً

(٤) منضمّاً إلى جماعة يستنجد بهم (٥) صالحتم .

العدو أن تكثر الطلائع ، وقبض السرايا بينك وبينهم ، ثم أذكّر أحراسك على عسكرك ، وتيقظ من البيات جهدك ، والله وليّ أمرك ومن معك ، ووليّ النصر لكم على عدوكم .

وكتب أبو الفضل بدیع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ إلى ابن أخته :

أنت ولدي ما دُمت : والعلم شأنك ، والمدرسة مكانك ، والمحبرة حليفك ، والدفتّر أليفك ، فإن قصرت ولا إخالك ، فغيري خالك ، والسلام .

ومن وصية ابن سعيد المغربي المتوفى سنة ٩٦٧ هـ لابنه ، وقد أراد السفر :

أودعك الرحمن في 'غرْبَتِكَ	مرتقباً رُحْمَاهُ في أوبتِكَ
فلا تُطِيلَ حبلَ النُّوَى إنني	واللهُ أَشْتاقُ إلى طَلْعَتِكَ
واختصر التوديع أخذاً فما	لي ناظِرٌ يَقْوَى على 'فِرْقَتِكَ
واجعل وَصَاتِي نُصْبَ عَيْنٍ ولا	تَبْرَحْ مَدَى الأَيَّامِ من فِكْرَتِكَ
خلاصة العمر التي حَنَّتْ	في ساعة زُفْتٍ إلى فِطْنَتِكَ
فللتجاريب أُمُورٌ إذا	طالعتها تشحذ من غفلتك
فلا تم عن وَعْيِهَا ساعة	فإنها عَوْنٌ إلى يَقْظَتِكَ
وكل ما كابدته في النوى	إياك أن يكسِرَ من همتِكَ
فليس يُدْرَى أصل ذي غربة	وإنما تُعرفُ من شيمتك
وَأَمْشِرِ النُّهْوَينَا مظهراً عفة	وَأَبْنِ رِضا الأَعْيُنِ عن هِشْتِكَ
وانطق بجيث العمي 'مُسْتَقْبَحِ	واصمت بجيث الخير في سكتِكَ
ولجْ على رِزْقِكَ من بابِهِ	واقصد له ما عِشْتَ في بكَرْتِكَ
وَوَفِّ كَلَّأَ حَقِّهِ وَلَسْتَ كُنْ	تَكْسِرُ عند الفخر من حدتك
وحيثما خِيَّمت فاقصد إلى	صحبة من تَرْجُوهُ في نصرتِكَ
وللزايا وثبةٌ ما لها	إلا الذي تذخر من عدَّتِكَ

ولا تَقِيلُ أَسْلَمُ لِي وَحَدَّثِي فَقَدْ تَقَاسَى الذَّلَّ فِي وَحَدَّتِكَ
وَلَتَجْعَلِ الْعَقْلَ حَكْمًا وَخَذْ كَلًّا بَمَا يَظْهَرُ فِي نَقْدَتِكَ
وَاعْتَبِرِ النَّاسَ بِالْفَاضِلِينَ وَاصْحَبِ أَخًا يَرْغَبُ فِي صَحْبَتِكَ
كَمْ مِنْ صَدِيقٍ مُظْهِرٍ نَصِيحَةٍ وَفِكْرُهُ وَقِفْ عَلَى عَثْرَتِكَ
إِيَّاكَ أَنْ تَقْرَبَهُ إِنَّهُ عَوْنٌ مَعَ الدَّهْرِ عَلَى كَرْبَتِكَ
وَأَنْتُمْ نَمُوَ النَّسَبُ قَدْ زَارَهُ غِيبَ النَّسَبِ وَاسْمُ إِلَى قَدْرَتِكَ
وَلَا تَضَيِّعْ زَمَنًا مُمَكَّنًا تَذَكَرُهُ يَذْكِي لَظَى حَسْرَتِكَ
وَالشَّرُّ مَهْمَا اسْطَعْتَ لَا تَأْتِهِ فَإِنَّهُ جَوْرٌ عَلَى مُهْجَتِكَ

يَا بُنَيَّ ، الذي لا ناصح له مثلي ، ولا منصوح لي مثله - قد قدّمت لك في هذا النظم ما إن أخطرت به بخاطرِكَ في كلّ أوّان رَجوت لك حسن العاقبة - إن شاء الله تعالى - وإن أخفّ منه للحفظ ، وأعلق بالفكر ، وأحقّ بالتقدم قولُ الأول :

يَزِينُ الْغَرِيبَ إِذَا مَا اغْتَرَبَ ثَلَاثُ فَنَهْنِ حَسَنُ الْأَدَبِ
وَتَانِيَةِ حُسْنِ أَخْلَاقِهِ وَثَالِثَةُ اجْتِنَابُ الرِّيبِ

واصنع يا بُنَيَّ إلى البيت الذي هو يتيمة الدهر ، وسلّم الكرم والصبر :
ولو أنّ أوطان الدّيار نَبَتَ بِكُمْ لَسَكَنْتُمْ الْأَخْلَاقَ وَالْآدَابَ

إِذْ حُسْنُ الْخُلُقِ أَكْرَمُ نَزِيلٍ ، وَالْأَدَبُ أَرْحَبُ مَنْزِلٍ ، وَلَتَكُنْ كَمَا قَالَ
بَعْضُهُمْ فِي أَدِيبٍ مُتَغَرَّبٍ ، وَكَانَ كَلِمًا طَرَأَ عَلَى مَلِكٍ فَكَأَنَّهُ مَعَهُ وَلَدٌ ، وَإِلَيْهِ
قَصْدٌ ، غَيْرُ مُسْتَرِيبٍ سَهْرِهِ ، وَلَا مُنْكَرٍ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ .

وَإِذَا دَعَاكَ قَلْبُكَ إِلَى صَحْبَةٍ مِنْ أَخِيذٍ بِمَجَامِعِ هَوَاهُ ، فَاجْعَلِ التَّسْكُفَ لَهُ
سُلْمًا ، وَهُبَّ فِي رَوْضِ أَخْلَاقِهِ هُبُوبَ النَّسِيمِ ، وَحُلِّ بِطَرْفِهِ حُلُولَ الْوَسَنِ ،
وَانْزِلْ بِقَلْبِهِ نَزُولَ الْمَسْرَةِ ، حَتَّى يَتِمَّكَ لَكَ وَدَادُهُ ، وَيَخْلَصَ فَيْكَ اعْتِقَادُهُ

وطهر من الوقوع فيه لسانك، وأغلق سمعك، ولا ترخص في جانبه لحسود لك منه ، يريد إبعادك عنه لمنفعة، أو حسود له يَغَار لتجملته بصحبتك، ومع هذا ، فلا تغتر بطول صحبته ، ولا تتمهد بدوام رقدته ، فقد يُنبِّهه الزمان ، ويتغير منه القلب واللسان ، وإنما العاقل من جعل عقله معياراً ، وكان كالمراة يلقي كل وجه بمثاله ؛ وفي الأمثال العامة : « من سبقك بيوم سبقك بعقل » فاحتذ بأمثلة من جرت ، واستمع إلى ما خلد الماضون بعد جهدهم وتعبهم من الأقوال ، فإنها خلاصة عمرهم ، وزبدة تجاربهم ، ولا تتكل على عقلك ، فان النظر فيما تعب فيه الناس طول أعمارهم ، وأبتاعوه غالياً بتجاربهم ، يُرْبحك ، ويقع عليك رخيصةً ، وإن رأيت من له عقل ومروءة وتجربة ، فاستفد منه ، ولا تُضيّع قوله ولا فعله ، فإن فيما تلقاه تلقيحاً لعقلك ، وحشاً لك واهتداء .

وليس كل ما تسمع من أقوال الشعراء يحسن بك أن تتبعه ، حتى تتدبره ، فإن كان موافقاً لعملك ، مصلحاً لحالك ، فراع ذلك عندك ، وإلا فانبذه نبذ النواة فليس لكل أحد يُتَّبَسَّم ، ولا كل شخص يُكَلِّم ، ولا الجود مما يعُمُّ به ، ولا حسن الظن وطيب النفس مما يُعامل به كل أحد ، والله درُّ القائل :

ومالي لا أوفي البرية قسطنها على قدر ما يعطي وعقلي ميزان

وإياك أن تعطي من نفسك إلا بقدر ، فلا تعامل الدُّون بمعاملة الكف ، ولا الكف بمعاملة الأعلى ، ولا تُضيّع عمرك فيمن يعاملك بالمطامع ، ويُثيبك على مصلحة حاضرة عاجلة ، بغائبة آجلة ، ولا تجفُ الناس بالجملة ، ولكن يكون ذلك بحيث لا يلحق منه ملل ، ولا ضجر ، ولا جفاء ، فحقى فارقت أحداً ، فعلى حسنى في القول والفعل ، فإنك لا تدري هل أنت راجعٌ إليه ! فلذلك قال الأوّل :

* ولما مضى سلمٌ بكيت على سلم *

وإياك والبيت السائر :

وكنْتَ إِذَا حَلَلْتَ بدار قومٍ رحلتَ بخزية وتركْتَ عاراً

واحرص على ما جَمَعَ قَوْلَ القائل: «ثلاثة تُبْقِي لك الوُدَّ في صدر أخيك: أن تُبْدَأَهُ بالسَّلام ، وتوسَّعَ له المجلس ، وتَدْعُوهُ بأحبَّ الأسماء إليه ، واحذَر كلَّ ما يَبِيْنُهُ لك القائل : « كل ما تعرضه تجنيه ، إلا ابن آدم ؛ فإذا غَرَسَتْهُ يَقلْعُكَ » . وقول الآخر : « إن ابن آدم ذئب مع الضَّعْف ، أسد مع القوَّة ، وإيَّاكَ أن تثبت على صحبة أحد قبل أن تُطِيلَ اختباره ، ويحكى أن ابن المُقَفَّع خطب من الخليل صُحْبَتَهُ ؛ فجاوبه : « إن الصُّحْبَةَ رِقٌّ ، ولا أضع رِقِّي في يديك حتى أعرف كيف ملكتك » واستعمل من عين مَنْ تعاشره ، وتَفَقَّد في فلتات الألسن ، وصفحات الأوجه ، ولا يحملك الحياءُ على السكوتِ عَمَّا يَضُرُّكَ أن لا تُبَيِّنَهُ ؛ فإنَّ الكلام سلاح السَّلم ، وبالأُنَيْن يُعْرَفُ أَلْمُ الجرح ، واجمل لكل أمرٍ أَخَذْتَ فيه غاية تجعلها نهاية لك :

وخذ من الدَّهْرِ ما أَتَاكَ به من قَرِّ عَيْنٍا بعيشة نفعه

إذ الأفكار تجلب الهموم ، وتُضَاعِفُ الغُموم ، وملازمة القُطوب ، عنوان المصائب والخطوب ، يستريب به الصاحب ، ويشمت العدو والمُجَانِب ، ولا قُصْرَ بالوَسَاوسِ إلا نَفْسُكَ ، لأنَّكَ تنصر بها الدَّهْرَ عليك - وللهِ درُّ القائل :

إذ ما كنت لِالأَحْزَانِ عوناً عليك مع الزمان فمن تلوم ؟

مع أنه لا يردُّ عليك الغائبَ الحُزْنَ ، ولا يَرْعُوِي بطول عَتَبِكَ الزَّمان . ولقد شَاهَدْتُ (بغير ناطة) شخصاً قد ألفتَه الهموم ، وعشقتَه الغُموم ، ومن صَفَرَهُ إلى كِبَرِهِ ولا تراه أبداً خَلِيّاً من فكرة ، حتى لَقَّبَ «بصدر الهم» .

ومن أعجب ما رأيتهُ منه أنه يُقَنِّكُدُ في الشَّدة ، ولا يتعلَّلُ بأن يكون بَعْدَهَا قَرَجٌ ، ويتنكَّدُ في الرَّخاء خوفاً من أن لا يدوم ، وينشد :

* توقَّعْ زوالاً إذا قيلَ نَتمْ *

وينشد : * وعِندَ التَّنَاهِي يَقْصُرُ المتطاوِل *

وله من الحكايات في هذا الشأن عجائب ، ومثل هذا عمرُه محسور يمر ضياعاً

ومنى رفعك الزمان إلى قوم يذمون من العلم ما تحسّنه حسداً لك وقصداً
لتصغير قدرك عندك ، وتزهيداً لك فيه ، فلا يحملك ذلك على أن تزهّد في علمك
وتركن إلى العلم الذي مدحوه ؛ فتكون مثل الغراب الذي أعجبه مشي الحَجَلَة
فراهم أن يتّعلّمه فصعّب عليه ، ثم أراد أن يرجع إلى مشيه فنسّيه فبقي
مُحْتَبَل المشي كما قيل :

إن الغرابَ وكان يمشي مشيةً فيما مضى من سالف الأجيالِ
حَسَدَ القُطا وأراد يمشي مشيها فأصابه ضَرْبٌ من العقّالِ
فأضلَّ مشيته وأخطأ مشيها فلذلك كنّوه (أبا مِرْقَال)

ولا يُفسد خاطرك من جعل يذم الزمان وأهلّه ، ويقول ، ما بقي في الدنيا
كريم ولا فاضل ، ولا مكان يُرتاح فيه ؛ فإن الذين تراهم على هذه الصّفة أكثر
ما يكونون من أصحابهم الحرمان ، واستحققت طلعهم للهوان ، وأبرموا على
الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوها ، فاستراحوا
إلى الوقوع في الناس ، وأقاموا الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، ولا تُزَلْ
هذين البيتين من فكرك :

لِنْ إِذَا مَا نِلْتِ عَزّاً فَأَخُو الْعِزِّ يَلِينُ
فَإِذَا تَابَكَ دَهْرٌ فَكَمَا كُنْتَ تَكُونُ

والأمثال تُضربُ للذي اللبّ الحكيم ، وذو البصر يمشي على الصراط المستقيم ،
والفطن يقنع بالقليل ، ويستدل باليسير . والله سبحانه خليفك عليك لا رب
سواه .

وصية هارون الرشيد لمعلم ولده الأمين :
يا أحمر - إن أمير المؤمنين قد دفع إليك مُهْجَة نفسه ، وثمره قلبه ؛ فصيّر
يدك عليه مبسوطة ، وطاعته لك واجبة ، فكُنْ له بحيث وضعك أمير المؤمنين .
أقرئه القرآن ، وعرفّه الأخبار ، وروّه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصّره

بمواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا في أوقاته ، وخذه بتعظيم بني هاشم إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم^١ فائدة^٢ تفيده إيتاها من غير أن تحزنه فتميت ذهنه ، ولا تمعن في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه^٣ ، وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة .

وصية بعض نساء العرب إلى ابنها وقد أراد السفر :
قال أبان^٤ بن تغلب ، وكان عابداً من عباد أهل البصرة : شهدت أعرابية وهي توصي ولدأ لها يريد سفرأ ، وهي تقول له :

أي بُني^٥ : إجلس أمنيك وصيتي وبالله توفيقك^٦ ، فإن الوصية أجدى^٧
عليك من كثير عقلك . قال أبان : فوقفت مستمعاً لكلامها ، مستحسنأ لوصيتها
فإذا هي تقول : أي بُني إياك والنميمة ، فإنها تزرع الضغينة وتفرق بين المحبين ،
وإياك والتعرض للعيوب فتتخذ غرضأ^٨ وخليقأ^٩ ألا يثبت الغرض على كثرة
السهام وقما اعتورت^{١٠} السهام غرضأ^{١١} إلا كلمته^{١٢} : حتى يهي^{١٣} ما اشتد من قوته .

وإياك والجود بدينك ، والبخل بمالك ، وإذا هزرت فاهرز كريعأ يلن
لهزتك ، ولا تهزز اللئيم فإنه صخرة لا ينفجر مأوها .

ومثل لنفسك مثال ما استحسننت من غيرك ، فاعمل به ، وما استقبحت من
غيرك فاجتنبه فإن المرء لا يرى عيب نفسه .

ومن كانت مودته^{١٤} بشره^{١٥} ، وخالف ذلك منه فعله^{١٦} ، كان صديقه منه على مثل
الريح في تصرفها ، والفدر أقبح ما تعامل به الناس بينهم ، ومن جمع الحلم والسخاء ،
فقد أجاد الحلة ريطتها وسر بالها .

(١) انفع (٢) هدفأ (٣) تداولت (٤) جرحته (٥) يضعف .

نصيحة رجل لهشام بن عبد الملك :
 خرج الزُّهري يوماً من عند هشام بن عبد الملك ، فقال : ما رأيت كالسيوم ،
 ولا سمعت كأربع كلمات تكلم بهن رجل عند هشام ، دخل عليه فقال : يا أمير
 المؤمنين احفظ عني أربع كلمات ، فبهن صلاح ملكك واستقامة رعيته ، قال :
 ما هن ؟ قال : لا تعد عِدَّة ولا تثق من نفسك بإنجازها ، ولا يَغُرُّكَ المرتقى ،
 وإن كان سهلاً إذا كان المنحدر وعراً ، واعلم أن للأعمال جزاء فاتقِ العواقب ،
 وأن للأمور بغتات ^١ ، فكن على حذر ، قال عيسى بن دأب : فحدثت بهذا
 الحديث (المهدي) وفي يده لقمة قد رَفَعَهَا إلى فيه فامسكها وقال : ويحك !
 أعد علي ، فقلت : يا أمير المؤمنين : أسخِّ القمته ، فقال : حديثك أعجب إلي .
 نصيحة أعرابي لسليمان بن عبد الملك :

قال أعرابي لسليمان بن عبد الملك : إني أكلّمك يا أمير المؤمنين بكلام
 فاحتمله ؛ فإن وراءه إن قبلته ما تحبه ، قال : هاته يا أعرابي ، فنحن لنجود بسعة
 الاحتمال على من لا نأمن غَيْبَتَهُ ، ولا نرجو نصيحته ، وأنت المأمون غيباً
 الناصح جيباً ^٢ ، قال : فإني سأطلق لساني بما خرسست عنه الألسن تأدية لحق الله
 تعالى ، إنه قد اكتنفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم ، وابتاعوا ^٣ دينيالك
 بدينهم ، ورضاك بسخط ربهم ، وخافوك في الله ، ولم يخافوا الله فيك فهم
 حرب للآخرة وسلم للدنيا فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله عليه ، فلمنهم لم يألوا ^٤
 الأمانة تضييعاً ، والأمة كسفاً وخسفاً ، وأنت مسئول عما اجترموا ، وليسوا
 مسئولين عما اجترمت ، فلا تصلح دُنياهم بفساد آخرتك ، فإن أعظم الناس عند

(١) البغتات : جمع بغتة وهي الفجأة . (٢) أساخ اللقمة : ابتلعها . (٣) فلان
 ناصح الجيب : يراد به قلبه وصدره أي أمين ، قال الشاعر : * وحصنت صدرأ
 جيبه لك ناصح * . (٤) ابتاع : اشترى . (٥) ألا يألوا ألوا : قصر . يقال إني
 لا آلوك نصحاً لا أقصره . وقال تعالى : لا يألونكم خبالاً ، أي لا يقصرون في
 خبالكم وفسادكم .

الله غُبنًا من باع آخرته بدنياه غيره ، فقال سليمان : أما أنت يا أعرابي فقصد سَلَكْتَ لسانك وهو سيفك ، قال : أجل يا أمير المؤمنين ! لك لا عليك .

نصيحة فتاة لأبيها :

قالت أعرابية - تنصح أباهًا بمجانبة السرف - : حبس المال أنفع للعمال من بذل الوجه في السؤال ، فقد قل النوال ، وكثر النجال^١ ، وقد أتلفت الطارف والتلاد^٢ وبقيت تطلب ما في أيدي العباد ، ومن لم يحفظ ما ينفعه ، أو شك أن يسعى فيما يضره .

نصيحة البديع الهمداني لوارث مال :

كتب البديع إلى بعض إخوانه يعزیه وينصح له :

وصلت رقعتك (يا سيدي) والمصاب لعمر الله كبير ، وأنت بالجزع جدير ولكنك بالصبر أجدر ، والعزاء عن الأحبة رشد كأنه الغي^٣ ، قد مات الميت فليحي الحي ؛ فاشدد على مالك بالتمسك^٤ ؛ فأنت اليوم غيرك بالأمس ، قد كان ذلك الشيخ رحمه الله وكيلك ، تضحك ويبكي لك ، وقد موَّلَكَ^٥ ، مما ألف بين سراه^٦ وسيره ، وخلفك فقيرًا إلى الله غنيًا عن غيره ، وسيعجم^٧ الشيطان عودك ، فإن استلأنك رماك بقوم يقولون : خير المال ما تتلفه بين الشراب والشباب ، وتنفقه بين الحباب^٨ والأحباب ، والعيش بين القِداح والأقداح^٩ ، ولولا الاستعمال لما أريد المال ؛ فإن أطعتهم فالיום في الشراب وغدًا في الخراب ، واليوم واطربًا للكاس ، وغدًا واحربًا^{١٠} من الإفلاس ، يا مولاي : ذلك

(١) النجال : جمع نجل وهو الولد . (٢) الطارف : المستحدث من المال وغيره والتلاد : جمع تليد وهو عكس الطارف . (٣) يريد بالتمسك الأصابع وهي مؤنثة في الأكثر . (٤) موله : اتخذ له مالاً . (٥) السرى : سير الليل (٦) عجم العود : عضه ليعرف مبلغ صلابته . (٧) حباب الماء والشراب : فقاقيعه التي تطفو كأنها القوارير . (٨) القداح : سهام الميسر ، واحدها قِدح كقرد . والأقداح : جمع قدح ، كجبل وهو وعاء الشراب . (٩) الحرب : أن يسلب الرجل ماله ، وقد حرب ماله أي سلب ومن هذا قولهم : واحربا .

الخارج من العود يسميه الجاهل نقرأ ، والعاقل فقراً ، وذلك المسموع من النسي هو في الآذان زمر ، وفي الأبواب سمر ، وإن لم يجد الشيطان مغمزاً في عودك من هذا الوجه ، رماك بآخرين يمثلون الفقر حذاء عينيك ، فتجاهد قلبك ، وتحاسب بطنك ، وتناقش غيرك^٢ ، وتمنع نفسك وتبوء في دنياك بوزرك ، وتراه في الآخرة في ميزان غيرك ، لا - ولكن قصداً بين الطريقين ، وميلاً عن الفريقين لا منع ولا إسراف ، والبخل فقر حاضر ، وضيق عاجل ، وإنما يبخل المرء خيفة ما هو فيه

ومن يفتق الساعات في جمع ماله مخافة فقر فالذي فعل الفقر

فليكن لله في مالك قسم ، وللمروءة قسم ، فصلى الرحم ما استطعت وقدّر^٣ إذا قطعت ، فلأن تكون في جانب التقدير ، خير من أن تكون في جانب التبذير .

وصية الرياحي لقومه

قال الرياحي في خطبته بالمربد^٤ :

يا بني رياح - لا تحقروا صغيراً تأخذون عنه ، فإني أخذت من الليث بسالته ومن الحمار صبره ، ومن الحنيز حرصه ، ومن الغراب بكوره ، ومن الثعلب روغانه^٥ ، ومن السنور ضرعه^٦ ، ومن القرد حكايته ، ومن الكلب نصرتة ، ومن ابن آوى حذره ، ولقد تعلمت من القمر سير الليل ، ومن الشمس ظهور الحين بعد الحين .

-
- (١) الناي : آلة للزمر ، فارسي معرب ، وقد تهمز ياءه ، وقد جمعه على غايات . (٢) العرس : الزوجة . (٣) التقدير : التروية والتفكير في تسوية أمر . (٤) المربد : الجرين ، ثم صار علماً على موضع بالبصرة . (٥) الروغان : الميل عن الشيء لتجنب الضرر . (٦) الضرع : الخضوع :

وصية ذي الأصقع^١ لابنه

لَمَّا احْتَضَرَ ذُو الْأَصْبَعِ الْعُدَوَانِي دَعَا ابْنَهُ (أَسِيداً) فَقَالَ لَهُ :
' يَا بُنَيَّ : إِنَّ أَبَاكَ قَدْ فَنِيَ وَهُوَ حَيٌّ ، وَعَاشَ حَتَّى سَمِعَ الْعِيشَ ، وَإِنِّي مُوصِيكَ
بِمَا إِن حَفِظْتَهُ بَلَغْتَ فِي قَوْمِكَ مَا بَلَغْتَهُ : أَلَنْ جَانِبَكَ لِقَوْمِكَ يَحْبُوكَ وَتَوَاضِعَ
لَهُمْ يَرْفَعُوكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ يَطِيعُوكَ ، وَلَا تَسْتَأْثِرْ عَلَيْهِمْ بِشَيْءٍ يُسَوِّدُوكَ ،
وَأَكْرَمَ صَغَارَهُمْ كَمَا تَكْرَمُ كِبَارَهُمْ يَكْرَمُكَ كِبَارُهُمْ ، وَيَكْبُرُ عَلَى مَوَدَّتِكَ صَغَارُهُمْ .
وَاصْبِرْ بِمَا لَكَ ، وَاعْزِزْ جَارَكَ^٢ ، وَأَعْنِ مِنْ اسْتِعَانِ بِكَ ، وَأَكْرَمَ ضَيْفَكَ وَأَسْرَعَ
النَّهْضَةَ فِي الصَّرِيخِ^٣ ، فَإِنَّ لَكَ أَجْلاً لَا يَعْدُوكَ وَصَنَ وَجْهَكَ عَنْ مَسْأَلَةِ أَحَدٍ
شَيْئاً ، فَبِذَلِكَ يَتِمُّ سُودُ دُوكَ

وصية عبدالله بن شداد^٤ لابنه

قَالَ الْكَلْبِيُّ : لَمَّا حَضَرَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ شَدَادٍ الْوَفَاةَ دَعَا ابْنَهُ لَهُ يَقَالُ لَهُ (مُحَمَّد)
فَقَالَ : يَا بُنَيَّ ، إِنِّي أَرَى دَاعِيَ الْمَوْتِ لَا يُقْلِسُ ، وَأَرَى مِنْ مَضَى لَا يَرْجِعُ ، وَمَنْ
بَقِيَ فَلِإِلَهِ يَنْزَعُ^٥ ، وَإِنِّي مُوصِيكَ بِوَصِيَّةٍ فَاحْفَظْهَا .
عَلَيْكَ بِتَقْوَى اللَّهِ الْعَظِيمِ ، وَلِيَكُنْ أَوَّلُ الْأُمُورِ بِكَ شُكْرُ اللَّهِ ، وَحَسَنُ النَّسِيَةِ
فِي السِّرِّ وَالْعَلَانِيَةِ ، فَإِنَّ الشُّكُورَ يَزِدُّادُ وَالتَّقْوَى خَيْرُ زَادٍ ، وَكَنْ كَمَا قَالَ الْحَطِيبَةُ :
وَلَسْتُ أَرَى السَّعَادَةَ جَمَعَ مَالٍ وَلَكِنْ التَّقْيُ^٦ هُوَ السَّعِيدُ
وَتَقْوَى اللَّهِ خَيْرُ الزَّادِ ذَخْراً وَعِنْدَ اللَّهِ لِلْأَتَقَى مَزِيدٌ
وَمَا لَا بُدَّ أَنْ يَأْتِيَ قَرِيبٌ وَلَكِنْ الَّذِي يَمْضِي بِعَيْدٍ

(١) هو حرثان بن الحارث ، خطيب حكيم ، شاعر فارس ، وهو أحد المعمرين
في الجاهلية (٢) الجار : المجاور والذي أجرته من أن يظلم . (٣) الصريخ : صوت
المستغيث وهو أيضاً المغيث واحداً أو أكثر . (٤) هو عبد الله بن شداد بن الهادي
الليثي كان من رجالات العراق ومن ذوي المكانة عند الحجاج ، ثم خرج عليه مع
ابن الأشعث ، ويقال إنه قتل سنة ٨٣ هـ . (٥) نزح إليه كجلس . اشتاق .

أي بُنيّ : لا تَهْدَنْ في معروف ، فإن الدهر ذو صُروف ، والأيام ذات نوائب ، على الشاهد والغائب ، فكُم من راغب قد كان مرغوباً إليه ، وطالب أصبح مطلوباً ما لديه . واعلم أن الزَّمان ذو ألوان ، ومن يصحب الزمان يَرَ الهوان وكن أي (بُنيّ) كما قال أبو الأسود الدؤلي :

وعدت من الرحمن فضلاً ونعمة عليك إذا ما جاء للعرف^١ طالب
وإن امرأ لا يُرْتَجَى الخير عنده يكن هيناً ثقيلاً على من يصاحب
فلا تمنعن^٢ ذا حاجة جاء طالباً فإنك لا تدري متى أنت راغب
رأيت السُّبُوت^٣ هذا الزمان بأهله وبينهم فيه تكون النوائب

أي بُنيّ : كن جواداً بالمال في موضع الحق ، بخيلاً بالأسرار عن جميع الخلق فإن أحمد جود المرء الإنفاق في وجه البير^٤ ، وإن أحمد بخل الحر الضن بمكثوم السر ، وكن كما قال قيس بن الخطيم^٥ الأنصاري :

أجود بمكنون التلاد وإنني بسرك عمن سالي لضنين^٦
إذا جاوز الاثنين سر فإنه بنث^٧ وتكثير الحديث قين^٨
وعندي له يوماً إذا ما اتتمنتني مكان بسوداء^٩ الفؤاد مكين^{١٠}

أي بُنيّ : وإن غلبت يوماً على المال ، فلا تدع الحيلة على حال ، فإن الكريم يحتال ، والديني عيال ، وكن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، وأقل ما تكون في الباطن مالاً ، فإن الكريم من كرمت طبيعته ، وظهرت عند الإنفاق^{١١} نعمته ، وكن كما قال ابن خذاق^{١٢} العبدي :

(١) العرف : المعروف . (٢) التوا مصدر التوى وقصره للضرورة . والتوى به الزمان . اعوج . وألوى به : أهلكه . (٣) شاعر من أهل يثرب وبينه وبين حسان بن ثابت مناقضة . (٤) سهل الشاعر همزة سأل للوزن . (٥) قطع همزة اثنين للضرورة ونث الحديث : أفشاه . (٦) سوداء الفؤاد أو القلب وسوداؤه وأسوده : حبته ، (٧) الإنفاق : الفقر . (٨) اسمه يزيد وهو شاعر قديم .

وجدتُ أبي قد أوثره أبوه خلا لا قد تعد من المعالي^١
 فأكرم ما تكون علي نفسي إذا ما قلّ في الأزمات مالي
 فتحسّن سيرتي وأصون عرّضي ويحمل عند أهل الرأي حالي
 وإن نلت الغنى لم أغل فيه ولم أخصّص يحفوتي الموالي^٢

أي بُنيّ : وإن سمعت كلمة من حاسد ، فكن كأنك لست بالشاهد ، فإنك
 إن أمضيتها حيالها^٣ رجع العيب على من قالها ، وكان يقال : الأريب العاقل هو
 الفطن المتغافل^٤ ، وكن كما قال حاتم الطائي :

وما من شيمتي شتّم ابن عمي وما أنا بخُلّيف من يرتجسني
 وكلمة حاسد في غير جُرم سمعت فقلت مُرّي فانفذي^٥
 فعابوها عليّ ولم يُتسوّني ولم يعرق لها يوماً جبيني
 وذو اللونين يلقياني طليقاً وليس إذا تغيب يسألتيني^٦
 سمعت بعيبه فصفحت عنه محافظة على حسبي وديني

أي بُنيّ : لا تؤاخ امرءاً حتى تعاشره ، وتتفقد موارده ومصادره ، فإذا
 استطعت العشرة ، ورضيت الخبرة^٧ ، فواجهه على إقالة العثرة ، والمواساة في
 العُسرة وكن كما قال المقنّع الكندي^٨ :

أبئل الرجال إذا أردت إخاءهم وتوسّم فعا لهم وتفقّد

(١) نقلت حركة الهمزة من أورث إلى الواو وحذفت هي للورن ، والحلال :
 جمع خلة وهي الخصلة . (٢) غلا في الأمر غلو : جاوز الحد . والموالي : الأقارب ،
 يقول : إن كثر مالي لم أجف أقاربي . (٣) خيال ظرف في معنى إزاء أي تركتها
 تذهب في طريقها الخ . (٤) في معنى هذا قول الشاعر :

ليس الغني بسيد في قوم لكن سيد قوم المتغابي

(٥) نفذه : جازه . (٦) ائتلى كالأى قصر : يقول إذا غاب عني فلن يقصر
 في نكايتي (٧) الخبرة ، وبغير هاء ، العلم بالشيء كالاختبار (٨) هو محمد بن عمرة
 والمقنّع لقب شاعر رصين المباني حكيم المعاني من شعراء الدولة الأموية

فإذا ظفرت بذي اللبابة والتقى فيه اليدين قرين عين فاشدد^١
وإذا رأيت ولا محالة زلة فعلى أخيك بفضل حلمك فاردد
أي بني : إذا أحببت فلا تفرط ، وإذا أبغضت فلا تشطط^٢ ، فإنه قد كان
يقال أحب حبيبك هوناً مآ^٣ عسى أن يكون بغيضك يوماً مآ ، وأبغض بغيضك
هوناً مآ عسى أن يكون حبيبك يوماً مآ ، وكن كما قال هذبة^٤ بن الحشرم العذري :
وكن معقلاً للحلم واصفح عن الحنا فإنك راء ما حبيت وسامع
وأحبيب إذا أحببت حباً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت نازع^٥
وأبعض إذا أبغضت بغضاً مقارباً فإنك لا تدري متى أنت راجع

الفصل الثاني عشر في رسائل التنصل والتبرؤ

كتب أبو الحسن علي بن الرومي المتوفى سنة ٢٨٤ هـ إلى القاسم بن عبيد الله :
ترفع عن ظلمي إن كنت بريئاً ، وتفضل بالعفو إن كنت مسيئاً ، فوالله
لأطلب عفو ذنب لم أجنه ، وألتمس الإقالة بما لا أعرفه ، لتزداد تطولاً ، وأزداد
تذلاً ، وأنا أعيد حالي عندك بكرمك من واش يكيدها . وأحرسها بوفائك
من يحاول إفسادها .

وأسأل الله أن يجعل حظي منك بقدر ودي لك ، ومحلي من رجائك بحيث
أستحق منك السلام .

- (١) اللبابة مصدر لب أي صار ذا لب وهو العقل ؛ وكل ما قبل « فاشدد »
من الشطر الثاني معمول له وتكررت الفاء للربط - وكذا في البيت التالي
(٢) شط وأشط : جاوز الحد . (٣) الهون : الرقق ، وما : إما زائدة ، وإما
صفة لهونا مثلها في قوله تعالى : « إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما » .
(٤) هو شاعر من شعراء الدولة الأموية جيد البديهة وهو القائل :
ولست بمفسراح إذا الدهر سرنى ولا جازع من صرفه المتقلب
ولا أتمنى الشر والشر تاركى ولكن متى أحمل على الشر أركب
(٥) نزع عن الأمر نزوعاً : انصرف وانتهى عنه .

وكتب أبو الوليد أحمد بن زيدون ، الأندلسي المتوفى بأشبيلية ٤٦٣ هـ :
يا مولاي^١ وسيدي الذي ودادي له ، واعتادي عليه ، واعتدادي^٢ به ،
وامتدادي^٣ منه ، ومن أبقاه الله ماضي^٤ حد العزم^٥ واري^٦ زندي^٧ الأمل^٨ ،
ثابت^٩ عهد^{١٠} النعمة ، إن سلبتني^{١١} أعزك^{١٢} الله لباس^{١٣} نعمائك ، وعطلتني^{١٤}
من حلي^{١٥} أيناسك^{١٦} وأظمتني^{١٧} إلى برود^{١٨} إسعافك^{١٩} ونفصت^{٢٠} بي
كف^{٢١} حياطتك^{٢٢} وغصصت^{٢٣} عنسي^{٢٤} طرف^{٢٥} حمايتك . بعد أن نظر الأعمى
إلى تأميلي^{٢٥} لك ، وسمع الأصم^{٢٦} ثنائي^{٢٧} عليك وأحس الجمد^{٢٨} باستحماذي^{٢٩} إليك .

(١) المولي له معان كثيرة والأليق منها هنا السيد أو المنعم ومنها العبد أيضاً قال أبو تمام :
مولاك يا مولاي صاحب لوعة في يومه وصباية في أمسه
دنف يحود بنفسه حتى لقد أمسى ضعيفاً أن يحود بنفسه

(٢) عدتي ليوم حاجتي (٣) مزيد خيري (٤) قاطع (٥) قوة الإرادة أي لا
يعزم على أمر إلا أمضاه (٦) الوري : خروج النار من الزند وقت الاقتداح .
(٧) مقدحة (٨) الرجا (٩) متمكن ومتوثق (١٠) ميثاق أي أن نعمته ثابتة
ومحفوظة عليه أبداً وأن محبته مقصورة عليه ، وأنه يطلب من الله أن يبقيه ،
وعزمه سيف قاطع وأمله نور لامع وخيره غيث متتابع وأنه لحسن افتتاح وبراعة
استهلال (١١) انتزعت مني (١٢) أعزك الله ، جملة اعتراضية الغرض منها الدعاء
لسيده بالعزة والإشارة إلى ما يستلزمه سلب اللباس من المذلة وتنبيها له على ذلك .
(١٣) ما يوارى الجسم أي جردتني من نعمتك المحيطة بي (١٤) المعطل في الأصل
خلو جيد المرأة من القلائد (١٥) ما يتحلى به (١٦) أنسك ، أي حرمتني من
لذيت أنسك (١٧) أعطشتني (١٨) بارد (١٩) إنجادك (٢٠) طرحت
(٢١) أحاطتك أي طرحتني من كفء حوزك لي (٢٢) خفضت (٢٣) نظر ، أي
خفضت طرف وقايتك عني فتركتني غرضاً لصائبات الحوادث (٢٤) التأميل أمر
معنوي لا يشاهد وإنما ذلك مبالغة في شدة التلبس والاتصاف به (٢٥) مدحي ،
— مبالغة في انتشار مدحه (٢٦) استحماذي مبالغة في تأثير حده يشير إلى تعداد
ما حل به من المصائب وأحرق به من كل جانب ألا وهو تجريده من نعم الأمير المحيطة به
إحاطة الثياب وحرمانه من الأنس بذلك الجنب وإعطاشه إلى سريبع إغاثته وإخراجه

فلا غَرْوَ^١ قد يغص^٢ بالماء شاربهُ ، ويقتلُ الدواءُ المستشفِيَ بِهِ ، ويؤتِي
الحذرُ^٣ من مأمنه^٤ ، وتكونُ مَنِيَّةُ^٥ المستمِنِي في أمنيتهِ^٦ ، والحينُ^٧ قد
يسبقُ جهدُ^٨ الحريص

كلُّ المصائبِ قد تمرُّ على الفقي وتَهون غيرَ شماتةٍ^٩ الحساد
وإني لأتجلدُ^{١٠} وأري للشامتين « أسي لربِّ^{١١} الدهر لا أتضعضع^{١٢} »
فأقول : هل أنا إلا يدُ أدمائها^{١٣} سوارُها^{١٤} ، وجبينُ^{١٥} عضِّ بهِ إكليسه^{١٥}
= من محيط دائرته وصرفه عنه نظر ملاحظته خصوصاً بعد أن صير تأميله فيه
جسماً تخترعاً ولذا رآه الأعمى وجلا مدحه بما جذب إليه الآذان فدخلها بدون
استئذان ولذا سمعه الأصم وبذل قصارى جهده في حمد حتى كان مؤثراً في كل
الكائنات ولذا أدركه الجهاد ، وفيه من المبالغة ما في قول المتنبي :
أنا الذي نظر الأعمى إلى أدبي وأسمعت كلماتي من به صمم
وإنما أكثر من تعداد مصائبه ليكون ذلك أدل على توجبه وتألمه ، وأسرع لتلبية
ندائه وأمكن لجلب الصفاء وإزالة الجفاء .

(١) فلا عجب : الفاء واقعة في جواب أن من قوله إن أسليتني (٢) غصصت
بالماء أغص غصاً إذا شرفت به وأغصصته أنا . (٣) المتيقظ (٤) من حيث لا
يتوقع الضرر (٥) موت (٦) ما يتمناه ٧ . الهلاك (٨) طاقة (٩) الفرح في
مصائب الغير ، يقول : إن انتزعت مني ما أعطيت ، وأحلت بي من المصائب ما
أحلت ، بمد غلوي في الشناء عليك ، والتجائي في كل الأمور إليك ، فليس ذلك
بالأمر العجيب ولا بالنادر بل كثير النظائر والأمثال ، فالماء الذي به زوال
الغصص قد يكون هو المنص وأن الأمنية قد تكون فيها المنية وأنه يشير في
عبارته لقول بعضهم :

قد كنت عدتي التي أسطو بها ويدي ، إذا اشتد الزمان ، وساعدي
فرميت منك بغير ما أملت ، والمرء يشرق بالزلزال البارد
ولقول الآخر :

تجري الأمور على وفق القضاء ، وفي طبي الحوادث محبوب ومكروه !
فربما سرتني ما بت أحذره ، وربما ساءني ما بت أرجوه !
والبيت الذي ذكره لابن عيينة . (١٠) أنكلف الصبر والقوة (١١) ريب الدهر :
نوائبه (١٢) أتزلزل : هذا حل بيت لأبي ذؤيب الهذلي وهو :
وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتضعضع
(١٣) اسال دمها (١٤) نوع من الحلوى يلبس في الساعد (١٥) تاجه .
(١ - جواهر الأدب ١٣)

ومشرفي^١ ألقى صاقله^٢ ، وسميري^٣ عرضه على النار مثقفيه^٤ وعبد^٥ ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فقسا ليزدجروا^٥ ومن يك حازماً فليقس أحياناً على من يرحم
هذا العتب^٦ محمود عواقبه ، وهذه النبتة^٧ غمرة^٨ ثم تنجلي^٩ ، وهذه
النكبة^{١٠} سحابة صيف عن قليل تقشع^{١١} ، ولن يربيني^{١٢} من سيدي إن
أبطأ سيبه^{١٣} أو تأخر ، غير^{١٤} ضنين غناؤه^{١٥} ، فأبطأ الدلاء فيضاً^{١٦} أملؤها ،
وأثقل السحائب مشياً أحفلها^{١٧} ، وأنفع الحيا^{١٨} ما صادف جذباً^{١٩} وألذ
الشراب ما أصاب غليلاً^{٢٠} ، ومع اليوم غد^{٢١} ولكل أجل كتاب^{٢٢} .

(١) سيف (٢) جاليه (٣) رمح (٤) مقومه (٥) يمتنعوا : يخاطب نفسه
ويسلمها ويضرب لها الأمثال ويمنيها ويسهل عليها ما تعانيه ، ويحببها ما تعاديه
مع مزيد استعطاف قلب سيده واستجلاب رحمته حيث لم يستهجن فعله وعمله
معه فقد أنزل نفسه منزلة الحسنة التي أجرى دمه السوار ، والجبين الذي أثر فيه
تاج الافتخار ، والسيف الذي وضعه على القراب صاقله لصقله لا هوانه ، والرمح
الذي وضعه على النار مثقفه لتقويمه لا لإحراقه ، والعبد الذي قسا عليه سيده
رحمة به وإحساناً لا استخفافاً به وهواناً ، والبيت لأبي تمام . (٦) اللوم
(٧) الجفوة (٨) شدة (٩) تنكشف (١٠) المصيبة (١١) تطلع ، يقول : أرجو
أن يكون هذا اللوم ختام الجفاء ، مبدأ الألفة والصفاء وأن هذه الجفوة شدة
وتحول وسحابة لا تلبث أن تزول ، يشير إلى قول المتنبي :

لعل عتبك محمود عواقبه وربما صحت الأجسام بالعلل

وإلى المثلين العربيين « غمرات ثم تنجلي » و « سحابة صيف عن قليل تقشع »
والأول يضرب في حصول اليسر بعد العسر والناهي في سرعة التغير (١٢) يجعلني
شاكاً (١٣) عطاؤه (١٤) غير ضنين : احتراس يريد به حمل سيده على العطف
ودفع ما يتوهم من أن التأخير للإيقاع به (١٥) نفعه (١٦) الفيض : صعود الماء
على الضفة ، والمراد هنا مجرد الصعود ، أي أن أبطأ الدلاء صعوداً أكثرها امتلاء
(١٧) أملؤها (١٨) المطر (١٩) الأرض التي لا نبات بها (٢٠) العطش بحرارة ؛
لما ذكر أن هذا العتب محمود العاقبة وأن ما - ل - به عن قريب يزول ، ورأى أن
تأخير الرحمة به وعدم إنقاذه من ورطته ربما يؤلم الريبة في محدة العاقبة ، دفع
ذلك معتذراً عن سيده في هذا التأخير معللاً بقوله فأبطأ الدلاء فيضاً أملؤها
وأثقل السحاب مشياً أحفلها وغير ذلك مما يدل على أن في التأخير ما ينعم به البال =

له الحمد على اهتباله ^١ ، ولا عتب عليه في اغتفاله ^٢
فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فأفعاله اللائي سررن ألوف
وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسمعه عفوك ، والجهل الذي لم يأت
من ورائه حلمك ، والتطاؤل ^٣ الذي لم يستغرقه تطولك ^٤ ، والتحامل ^٥ الذي لم
يفر به احتمالك ^٦ ؟! ولا أخلو من أن أكون بريثاً فأين عدلك ؟ أو مسيئاً ،
فأين فضلك .

إلا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
فهبني مسيئاً كالذي قلت طالباً قصاصاً ^٧ فأين الأخذيا عز ^٨ بالفضل
حنانيك ^٩ ، قد بلغ السيل الزبى ^{١٠} ، ونالني ما حسني به وكفى .
وما أراني إلا لو أمرت بالسجود لآدم فأبيت ^{١١} واستكبرت !!

= ويقر الأعين ، ثم ختم عبارته بما هو أمثل في التسلية وأدعى للتصبر من حيث
يقول : ومع اليوم غد ولكل أجل كتاب .

(١) اغتنامه (٢) تغافله : وهو تركه على ذكر منه بعد أن اعتذر من سيده
بما اعتذر وأخذ يمدحه على إيقاعه به وتغافله عنه عله أن يرأف به ويعطف عليه
والبيت للمتنبي (٣) الكبر (٤) فضلك (٥) التكليف بما لا يطاق (٦) الاحتمال
كالحمل إلا أنه في الأمور العظيمة ، قال النابغة الذبياني * فحملت برأ واحتملت
فجأراً * (٧) عقاباً (٨) اسم امرأة ، رجع بعد أن عود نفسه في مخاطبة الأمير
الصبر والانتظار التفت منه الى ما في ضميره من بقايا العتاب فقال يستفهم مريداً
بذلك إلزامه بالصفح عنه بتصغير ذنبه وتكبير عفو سيده فكأنه يقول : ما هذه
الحركة التي زلزلت طودك ، وما هذه الجيفة التي عكرت محرك ، ولم لا يشملني
كرمك وجودك مع أن فضلك وعدلك أكبر ، شفيح للعاصي والمطيع ، وذكر
البيتين تأييداً لما قاله في نثره ، والاول للبحثري والثاني مأخوذ من قول الحماسي :
هبيني ظلوماً نلت به بمساءة قصاصاً فأين الأخذيا عز بالفضل

(٩) تثنية حنان ، وهو الرحمة (١٠) جمع زبية ، وهي حفرة تحفر لصيد الأسد
في مكان مرتفع لا يعملوه الماء فإذا وصل إليه السيل كان مجحفاً : يريد بذلك مزيد
استرحام سيده من حيث يقول له : حنانيك ، أي رحمة إثر رحمة أطلبها منك
فإن الذل والهوان قد وصلا الغاية ، والصغار والاحتقار قد بلغا الغاية : وقوله بلغ
السيل الزبى مثل عربي يضرب في بلوغ الشيء غايته (١١) امتنعت : ولقد أحسن =

وقال لي نوح^١ اركب معنا فقلت ساوي^٢ إلى جبل يعصمني^٣ من الماء ، وأمرت ببناء صرح^٤ لعلني أطلع إلى إله موسى ، وعكفت^٥ على العجل ، واعتديت^٦ في السبت ، وتعايطيت^٧ فمقرت^٨ ، وشربت من النهر الذي = كل الإحسان وتلاطف ما شاء في عطف قلب سيده وطلب العفو عما اجترح من جريمته بأبلغ عبارة وأدق إشارة مبدعاً في وصف ما لاقاه من العقاب والنكال ، وأنه لو قسم على ذري الذنوب من الأولين والآخرين لكان كافياً لنكفير تلك الذنوب جزاء وفاقاً ، ملجأ إلى ذوي الذنوب المشهورة ووقائع الآثام المأثورة . فقال : وما أراني ... إلخ . يشير إلى ذنب إبليس وهو امتناعه واستكباره عن السجود لآدم من حيث أمره الله بذلك « فأبى واستكبر وكان من الكافرين » وقال أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .

(١) سأجأ (٢) يحفظني ، يشير إلى ذنب ابن نوح ، وهو مخالفته لأبيه من حيث قال له لما عم الطوفان وصعد السفينة هو ومن آمن معه : « يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين » فخالف أباه وقال : ساوي ... إلخ . (٣) قصر ، يشير إلى ذنب فرعون ، وهو إنكاره الإله وادعاؤه أنه هو الإله الحقيقي ؛ وذلك حينما أتاه موسى عليه السلام بالإيمان بالله ، فقال فرعون « يأبى الملا ما علمت لكم من إله غيري ، فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً » : الآية . (٤) واطببت ، يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو عبادة العجل ، وذلك أنه لما ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه قام رجل صانع من قبيلة يقال لها سامرة كانت تعبد البقر وقال لبني إسرائيل إن الحلي الذي استعرقوه من المصريين وبقي معكم بعد غرقهم لا يحل لكم فادفنوه حتى يأتي موسى ويرى رأيه فيه ، ففعلوا ، فأخذه وصاغه عجلاً ووضع فيه القبضة التي أخذها من أثر حافر فرس الحياة فرس جبريل عليه السلام ، فصار العجل ينشي ويخور ، فقال لبني إسرائيل هذا إلهكم وإله موسى نسيه وذهب لطلبه ؛ فافتن به كثير منهم واتبعوه ٥ جاوزت ، يشير إلى ذنب بني إسرائيل وهو انتهاك حرمة السبت ، وذلك أنهم نهوا عن الاصطياد فيه وكانت الحيتان تأتي فيه بكثرة رافعة خراطيمها حتى تقطعي الماء ولا تأتي في غيره فتجبلوا بعمل حيضان متصلة بالبحر فإذا جاءت عشية الجمعة فتحو الاتصال فتدخل الحيتان في الحيضان فيأخذونها يوم الأحد ، ولما أمهل الله عقوبتهم استحلوا الصيد يوم السبت فحق بهم العذاب . (٦) تعايطي : قام على أطراف أصابع رجله : ثم رفع يديه وضرب (٧) عقر البعير بالسيف فانهقر ، أي ضرب به قوائمه . يشير إلى ذنب قدار وهو قتل ناقة صالح عليه السلام ، وذلك أن امرأة يقال لها عنيزة لها مال وبنات حسان ، وأخرى يقال لها صدوق بنت الحيا صاحب أوثانهم ، كان زوجها أسلم وأنفق ماله على صالح =

ابتلى الله^١ به جيش طالوت ، وقُدت الفيل لأبرهة^٢ ، وعاهدت^٣ قريشاً على ما في الصحيفة ، وتأوّلت^٤ في بيعة العقبة^٥ ، واستنفرت إلى العير^٦

= واتباعه ، وكانتا من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام ، فدعت صدوق مصدقاً لنفسها على قتل الناقة ، ودعت عنبرة قدراً على ذلك أيضاً فذهبا وتبعهما أشقياء ثمود وكن كل منهما في أصل صخرة ، ولما مرت الناقة رماها بسهم فأصاب ساقها ، وشد عليها قدّار بسيفه فأبان عروقها ، ثم نحروها .

(١) اختبر ، وهو يشير إلى ذنب معظم جيش طالوت عليه السلام وهو مخالفتهم له حينما اشتكوا له قلة الماء ، وهم ذاهبون للقتال ، فقال لهم : « إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس مني ، ومن لم يطعمه فإنه مني إلا من اغترف غرفة بيده » فخالفوا وشربوا إلا قليلاً منهم . (٢) كان عامل اليمن من قبل النجاشي ، يشير إلى ذنب أبرهة وهو ذهابه لهدم الكعبة ، وسبب ذلك أنه بنى كنيسة بصنعاء ليصرف الناس عن الكعبة فأتى رجل كناني ولوثها بالعدرة ، وأتى أقوام من تجار قريش واضرموا ناراً يحانها فهبّت الريح فأحرقتها ، فغضب النجاشي لذلك ؛ وقام أبرهة وأخذ القبيلة وفي مقدمتها فيل النجاشي المسمى محموداً ليهدم الكعبة إرضاء له ، ولما وصل إليها وجه الفيل نحوها فأبى ، فوجهه إلى اليمن فقام مهزولاً ، وبعد ذلك أرسل الله عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل ، فأهلكتهم . (٣) أعطيتهم عهداً وميثاقاً ، يشير إلى ذنب قريش ، وهو اتحادهم على عدم نصره الدين ، وذلك أنهم لما رأوا أن الدين أخذ في النمو وأن حمزة وعمر أسلموا تعاهدوا على مهاجرة بني هاشم وبني عبد المطلب ، وعلى قطع العلائق بينهم تماماً وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في جوف الكعبة عهداً لذلك . (٤) خالفت . (٥) طريقت وعرف في الجبل ، يشير إلى ذنب من نقض بيعة العقبة ، وبيعات العقبة ثلاث ، ولم يتأول فيها أحد ، فذكره لها على سبيل الفرض ، أي هب أي خالفت الإجماع وتعديت الحد وفعلت ما لم يفعله أحد .

(٦) العير - بالكسر - الإبل التي تحمل الميرة ، وهو يشير إلى ذنب ضمضم الغفاري وهو استنهاض قريش لأبي سفيان ، وذلك أن أبا سفيان بن حرب كان آتياً من الشام في عير ، فذهب رسول الله لقتاله ، ف شعر بذلك أبو سفيان ، فاستأجر ضمضاً المذكور ليخبر قريشاً ، فذهب وصرخ ببطن الوادي واقفاً =

بيدر ، واخذت ١ بثلث الناس يوم أحد ٢ ، وتخلفت ٣ عن صلاة العصر في بني قريظة ٤ ، وجئت بالإفك ٥ على عائشة الصديقية ، وأنفت ٦

= على جل قد جدعه ، وحول رحله وشق قميصه قائلاً : يا معشر قريش ، اللطيمة اللطيمة . اموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد وأصحابه لأرى ان تدركوها ، الغوث الغوث ، فتجهزوا جميعاً وذهبوا إليه ، وحصلت الواقعة الشهيرة المسماة بغزوة بدر الكبرى ، وفيها انتصر النبي عليه الصلاة والسلام انتصاراً باهراً .

(١) خذله : ترك عونه وذرته (٢) أحد ، جبل بالندية . يشير إلى ذنب أبي ابن سلول رأس المنافقين ، وهو رجوعه من الجيش هو ومن معه من المنافقين ، وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام لما خرج إلى أحد ومعه ألف من أصحابه لقتال أعدائه ، وكان من رأي أبي ان يمكث النبي في المدينة ، فأبى عليه الصلاة والسلام قبول رأيه موافقاً لمعظم الصحابة ؛ فرجع هو ومن معه من المنافقين ، وقال أطاعهم وعصاني (٣) تأخرت (٤) طائفة من اليهود . يشير إلى حادثة بني قريظة ؛ وذلك أنه عليه الصلاة والسلام بعد رجوعه من غزوة الخندق قال : من كان سميعاً مطيعاً ؛ فليصل العصر في بني قريظة ، فبعض الصحابة أخذ بظاهر الحديث وصلى العصر هناك بعد مغيب الشمس ، والبعض الآخر رأى أن المقصود الإسراع فصلى في الطريق ، ولما اختلف الفريقان في تعيين المصيب ، ترافعا إلى الرسول فحكم بإصابتها وإذا تكون عبارته كناية عن فداحة التخلف عن الذهاب (٥) الكذب ؛ يشير إلى ذنب مسطح وحسان ومن معهما في مجاهرتهم بالسوء لوجهه عليه الصلاة والسلام ، وذلك انه لما ذهب عليه الصلاة والسلام إلى غزوة بني المصطلق ؛ كانت معه السيدة عائشة ، حيث كانت قرعتها ففي العردة ذهبت السيدة لقضاء حاجتها ففاتها الركب ولم ينظر في هودجها فمر صفوان وكان قد تأخر لأمر ما ، فأركبها بعيره وقاده فأشاع هؤلاء ما اشاعوا فبرأها الله تعالى بالآيات البينات ٦١ استكرت ، يشير إلى بعض الصحابة ، من حيث استكبروا على أسامة وذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام جهز جيشاً ليذهب به إلى الشام وقال له سر إلى مقتل أبيك فتكلم قوم قالوا : أيؤمر هذا الغلام على المهاجرين الأولين فغضب عليه الصلاة والسلام من ذلك وخرج في مرضه عاصباً وصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال ما معناه : ولئن طعنتم في أسامة فقد طعنتم في أبيه من قبل وأنه لأهل لها فاستوصوا به خيراً .

عن إمارة أسامة ، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتنة ^١ ورويت ربحي من كتيبة ^٢ خالد ، ومزقت ^٣ الأديم الذي باركت يد الله عليه وضحيئت بأشمط ^٤ عنوان السجود به ، وبذلت لقطام ^٥ .

ثلاثة آلاف وعبد وقينة ^٦ وضرب علي بالحسام المسعم

(١) أي من غير إحكام ولا ررية يشير إلى ذنب الشيعة وهو عتقادهم أن علياً هو الأحق بالخلافة ^٧ ومن سواه غاصب ويقولون ما تقدم. وفي حديث عمر ، «إن بيعة أبي بكر كانت فلتنة وقى الله شرها» فقليل: المراد بالفلتة الجلسة أي الإمامة يوم السقيفة مالت الأنفس إلى توليها وكثر فيها التشاجر فانزعجوا واختلسها أبو بكر اختلاسا ومثل هذه البيعة مهيجة للشر والفتنة فعصم الله تعالى من ذلك ووقى (٢) جيش ، يشير إلى ذنب أبو شجرة السلمي وهو فتكه بجيش خالد في حرب الردة ويشير إلى قوله في ذلك .

ورويت ربحي من كتيبة خالد واني لأرجو بعدها أن أعمرها

(٣) قطعت (٤) الجلد ، يشير إلى ذنب أبي لؤلؤة وهو قتل عمر عليه الرضوان وذلك أن أبا لؤلؤة طلب منه أن يخفف عنه جعل سيدة فقال له: إنه ليس بكثير وإنك لصانع مجيد وأريد أن تصنع لي رحي. فقال : سأصنع لك رحي يسمع دويها أهل المشرق والمغرب وكن له حتى طعنه في صلاة الصبح ومات بسبب ذلك ويشير إلى ذلك ما قاله بعضهم في رثائه :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذاك الأديم المعزق

(٥) تحتلط شعر الرأس: يشير إلى ذنب بعضهم وهو قتل عثمان عليه الرضوان وذلك أنه وفد عليه وفود كثيرة من الجهات يشكون عماله فأرضاهم وأرسل محمد بن أبي بكر ليكون والياً على مصر فبينما هو ذاهب إذ رأى عبداً على هجين يستنحه فأحضره وفتشه فوجد معه كتاباً من الخليفة إلى عامل مصريقول: إذا أذاك محمد ومن معه فتحيل في قتلهم، فرجع محمد وأعطى الجواب لعثمان فأقر بأنه خط كاتبه وهذا ختمه وعبدته وهجينه وأنه لم يرسله، فطلب منه أحد أمرين: الاعتزال أو إعطاءه كاتبه الحسك فأبى فحصلت الفتنة وحاصروه إلى أن قتل ، ويشير إلى ما قاله بعض نعاته: ضحوا بأشمط عنوان السجود به يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً

(٦) اسم امرأة ^٧ جارية : يشير بذلك إلى ذنب ابن ملجم وهو قتل علي كرم الله وجهه وذلك أن هذه المرأة أعجبت له لنضارتها فأراد أن يتزوجها فطلبت ما في البيت . فقال لها : لك ما طلبت. وقال البيت وبعده :

=

وكتبت إلى عمر بن سعد : أن جعجع^١ بالحسين ، وتمثلت عندما بلغني من
وقعة الحرة^٢ :

ليت أشياخي ببدر شهدوا كجزع الخزرج من وقع الأسل
ورجمت^٣ الكعبة ، وصلبت العائد على الثنية^٤ ، لكان فيما جرى علي^٥ ما
يحتمل أن يكون ذكالا^٦ ، ويدعى ولو على المجاز عقاباً .
وحسبك من حادّات بأمرى* ترى حاسديه له راحميناً

فلا مهر أغلى من علي وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم
(١) ضيق : يشير إلى ذنب عبيد الله بن زياد وهو تحريضه على قتل الحسين ،
وذلك أنه أبى مبايعة يزيد وأراد الذهاب إلى الكوفة من حيث أنهم طلبوا مبايعته
فأخبر يزيد عامله هناك عبيد الله بن زياد بذلك فأرسل لقتاله عمر بن سعد ولما
أبطأ جهز له «شمرأ» وكتب عبيد الله له ما تقدم فانتشبت الحرب بينهما وانتهت
باستشهاده رضي الله عنه ٢ أرض بظاهر المدينة كانت بها الوقعة بين عقبة بن
مسلم وأهل المدينة . يشير إلى ذنب يزيد وهو تشفيه من أهل المدينة وذلك أنه
أرسل عقبة بن مسلم إلى محاربة أهل المدينة وإباحتها ثلاثة أيام فقتل وأسرف
وأباح . فلما بلغ يزيد ذلك قال بيت ابن الزبير المذكور مظهراً لما في الضمير
المستتر وهو كراهة الأنصار والمهاجرين . (٣) رميت بالحجارة (٤) الملتجئ
(٥) طريق العقبة : يشير إلى ذنب الحجاج وهو رجمه الكعبة وصلبه عبد الله بن
الزبير وذلك أنه لما حاربه التجأ عبد الله وأصحابه إلى الكعبة فنصب الحجاج
المنجنيق عليها ورجمها وبعد ما انتصر عليه صلبه منكساً وآلى أن لا ينزله إلا
إذا شفعت أمه فيه فبعد سنة مرت عليه أمه وقالت أما آن لهذا الفارس أن
يترجل فاعتبر قولها شفاعاً وأنزله . ومن قولها لابنها يوم مقتله : يا بني لا تقبلن
منهم خطئاً تخاف منها على نفسك الذل مخافة القتل فوالله لضربه بالسيف في عز ،
خير من ضربة بالسوط في مذلة . فقال لها : إنما أخاف المثلة . قالت : يا بني إن
الشاة لا يضرها سلعها بعد ذبحها (٦) حصل لي (٧) عذاباً يريد أني لو أتيت
بهذه الذنوب كلها لكان ما حصل لي من التعذيب والإهانة والذل والاستكانة كافياً
لتمحيص هذه الذنوب كيف لا وقد صرت إلى حالة يرثي لها العدو والحبیب
والبعید والقريب ، وذلك أدل على طلب الرحمة وأحكم في الاستعطاف والبيت
الذي ذكره للعتبي .

* والأصح : وحسبك من حادّات بأمرى

فكيف ولا ذنب إلا نميمة^{١٠} أهداها كاشح^{١١} ! ونبا^{١٢} جاء به فاسق
وهم الهمازون^{١٣} المشاؤون^{١٤} بنميم^{١٥} ، والواشون^{١٦} الذين لا يلبثون^{١٧} أن يصدعوا^{١٨}
العصا ، والعواة^{١٩} الذين لا يتركون أديما^{٢٠} صحيحا ، والسعاة الذين ذكرهم
الأحنف بن قيس فقال : « ما ظنك بقوم الصدق محمود^{٢١} إلا منهم^{٢٢} »

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة^{٢٣} وليس وراء الله للمرء مطلب
والله ما غشمتك بعد النصحة ولا انخرقت^{٢٤} عنك بعد الصاغية^{٢٥} إليك ،
ولا نصبت^{٢٦} لك بعد التشيع فيك ، ولا أزمعت^{٢٧} يا سأمناك . مع ضمان تكفلت
به الثقة عنك ، وعهد أخذه حُسنُ الظن عليك ، فقيم عبيث^{٢٨} الجفاه^{٢٩} بأذهتي^{٣٠} ،

(١) نقل الكلام للافساد (٢) مضمهر العداوة «أهداها كاشح» كناية عن حسن سبك
هذه النميمة وأنه معتنى بها كما يعتنى بالهدية للأمير (٣) خير (٤) المفتابون (٥) النمامون
(٦) الذين يزينون الحديث للافساد (٧) لبث بالمكان : أقام به (٨) يشقوا (٩) المضلون
(١٠) الأديم : الجلد ، يريد سمي النمام وخبر الفاسق وتزيين الغواة والذين يشقون
عصا الألفة ويمزقون اعراض الناس ويلمح في عبارته إلى قوله تعالى : «يا أيها الذين
آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا» الآية ، وإلى قول كثير عزة :

ولا يلبث الواشون أن يصدعوا العصا إذا هي لم يصلب على البري عودها
(١١) شبه : يريد حلفت فلم أترك شبهة في نفسك من براءتي وليس بعد الله من يصدق
القسم به حتى أقسم به وأذهب إليه والبيت للنابغة الذبياني من اعتذارياته للنعمان .
(١٢) ملئت (١٣) الإصغاء (١٤) الناصبي في العرف من كان عدواً لعل كرم الله وجهه وهو
ضد الشيعة (١٥) خفت ، يقول أقسم بالله أني مقيم على النصيح لك ثابت على الميل لك
ولم أتخذ مذهب الناصبية مذهباً ولم يستفزني اليأس منك وتلعب بي أيدي الأهواء فإن ثقني
بك وحسن ظني فيك قد ضمننا لي أن اطرد اليأس بالرجاء في عفوك ، وهذا الكلام من
الاستقصاء البديعي بمكان فإنه استوفى جميع عوارض المحبة بحيث لم يبق لقائل قول (لو)
ولا (ليت) استجلاباً للرحمة وطلباً للعفو (١٦) لعب وهزل . (١٧) حرمان .

وعاث^١ المعقوق^٢ في مواتي^٣ ، وتمسكن الضياع^٤ من وسائل^٥ ؟ ولم ضاقت^٦ مذاهبي^٦ ، وأكذبت^٧ مطالبي^٧ ؟ وعلام رزيت من المركب^٨ بالتعليق^٩ ؟ بل من الغنيمة بالإياب^{١٠} ؟ وأني غلبني الغلب^{١١} ، وفجر^{١٢} على العاجز الضعيف ، ولطمنتني^{١٣} غير ذات سوار ؟ ومالك لم تمنع من قبل أن أفترس ؟ وتدركني ولما أمزق^{١٤} ؟ أم كيف لا تضطرم^{١٥} جوانح^{١٦} الأكفاء^{١٧} حسداً لي على الخصوص لك ؟ وتنقطع أنفس^{١٨} النشظراء^{١٩} منافسة^{٢٠} لي على الكرامة فيك ،

(١) أفسد . (٢) ضد البر . (٣) وسائل . (٤) الهلاك . (٥) ما أتقرب به (٦) طريقي . (٧) ردت . (٨) الركوب . (٩) المراد تعليق الأمتعة . (١٠) الإياب : الرجوع . (١١) الغلب : المغلوب مراراً . (١٢) فجر : اجتراً . (١٣) ضربتني على وجهي براحتي (١٤) أقطع : يستفهم عن سبب إفساد الجفاء والعقوق لما قدمه من وسائل للرضا حتى ضاقت عليه المذاهب وامتنعت عليه المطالب وحق رضي من عظيم الأمر بصغيره ومن الغنيمة بالرجوع سالماً واجتراً عليه كل ضعيف وغلبه من كان له غلاباً وظلمه من لم يكن له كفؤاً وقد ضمن عبارته من الأمثال ما هو كالسحر الحلال (أو لها) لارض من المركب بالتعليق يضرب في القناعة بإدراك بعض الحاجة وثانيها رزيت من الغنيمة بالإياب يضرب في القناعة بالسلامة وهو مأخوذ من قول امرئ القيس :

لقد طوفت في الآفاق حتى رزيت من الغنيمة بالإياب
وثالثها ورابعها مأخوذان من قوله :

فإنك لم يفخر عليك كفاخر ضعيف ولم يغلبك مثل مغلب
وقد صحفه ابن زيدون وهو تصحيف حسن وخامسها (لو ذات سوار لطمنتني)
قاله حاتم حينما لطمته جارية وكانت العادة لبس السوار للحرة - والثلاثة تضرب
عند العجز والذلة - ويشير إلى قوله المثقب العبدى :

فإن كنت مأكولاً فكن خير آكل وإلا فأدركني ولما أمزق
وفي هذا الاستفهام تخصيص له على إنجاده وسرعة إنقاذه .

- (١٥) تتقد . (١٦) أضلاع . (١٧) الأمثال .
(١٨) جمع نفس . (١٩) جمع نظير . (٢٠) رغبة شديدة .

وقد زانني اسم خدمتك ، وزهاني ^١ وسُم ^٢ نعتك ، وابليت ^٣ البلاء الجميل في سباطك ^٤ ، وقمت المقام المحمود على بساطك ؟!

ألسنت الموالي ^٥ فيك 'غر' قصائد هي الأنجم اقتادت مع الليل أنجما ثناءً يظلّ الروض منه منوراً ضحى ويخال الوشي فيه منمناً ؟!

وهل لبس الصباح إلا برداً ^٨ طرّزته ^٩ بفصائلك ، وتقلدت ^{١٠} الجوزاء ^{١١} إلا عقداً فصلته ^{١٢} بآثرك ، واستملي ^{١٣} الربيع إلا ثناءً أملتته في محاسنك ، وبثت ^{١٤} المسك إلا حديثاً أذعته ^{١٥} في تحامدك ؟ ما يوم حلّمة بسرّ وإن كنت لم أكسك سلباً ^{١٦} ! ولا حليتك عطلاً ! ولا وسمتك غفلاً ^{١٧} بل وجدت أجيراً ^{١٨} وجصاً ^{١٩} فبنيت . ومكان القول ذا سعة فقلت :

(١) الزهو الكبير (٢) علامة (٣) جربت (٤) السمط . الصف من الناس (٥) المتابع (٦) ضرب من الحرير ذو ألوان (٧) ثوب موشى بألوان فيها البياض - لقد أتى ابن زيدون من كلام السحر وسحر الكلام بما يكبو دونه قلم البليغ - وذلك من الاعتراف لسيده بأنه قد أوقد النار في قلوب الحساد والنظراء بتعمده له بالإنعام بالصلوات حتى أنطق لسانه فيه بالمدائح التي طلعت من الليل أنجما والثناء الذي زهرت به الرياض وشيت به حلل الفضل والبيتان من قصيدة للبحثري يعاتب بها الفتح بن خاقان (٨) رداء (٩) علمته (١٠) لبست (١١) برج (١٢) تفصيل العقد : جمل خرزة بين كل لؤلؤتين (١٣) طلب الإملاء (١٤) نشر (١٥) أشعته : والمعنى أن فضائلك التي نشرتها في مدائحك ظهرت للعين ظهور الصباح حتى أنه لا يضيء إلا بـبها : وأن عقد الجوزاء لم يحسن في مرأى العين إلا لكوني فصلته في محامدك وكذلك الربيع لم تتضوع الأزهار بنشرها فيه إلا لكونه استملى من الثناء المملوء بمحاسنك ثم أثبت أن ماتقدم حقائق ثابتة بقوله ما يوم حلّمة بسر وهو مثل عربي يضرب في فشو الأمر وانتشاره (١٦) مملوءاً (١٧) عادم العلامة (١٨) الطين المحروق (١٩) الجير : أراد دفع ما يتوهم من أنه يتفضل عليه بإذاعة الحسن ونشر المدائح وأنه اخترع له هذه السجايا والخلال حيث يقول له : إني لم أمدحك إلا بما هو فيك من خصائص الخصال وجميل الخلال وإنما أنا صفتها في القالب الذي بلغت الانظار ويجلي صدأ الأفكار .

حاشا^١ لك أن أتعء من العاملة الناصبة^٢ ، وأكون كالذئبالة^٣ المنصوبة ،
تضيء للناس وهي تحترق^٤ . فلك المثل الأعلى^٥ ، وهو بك وببي فيك أولى .
ولعمرك^٥ ما جهلت أن^٦ (صريح الرأي^٦) أن أتحوّل إذا بلغتني الشمس
(نبا بي المنزل^٧) واصفح^٨ عن المطامع التي تقطع أعناق الرجال فلا أستوطني .
العجز^٩ ولا أطمئن^{١٠} إلى الغرور^{١١} ومن الأمثال المضروبة : خامري^{١٢}
أم عامر^{١٣} .

(١) تنزيها لك (٢) من النصب : وهو التعب (٣) الفتيلة (٤) الصفة العليا
— بعد أن عمل جهد المستطيع في الثناء عليه أراد أن يستميله بلطف ليجعل
لعمله فائدة ونتيجة فنزّهه على أن يجعل مثله معه كمثّل الكفار حيث عملوا وتغنوا
في الدنيا فيما لم يعد عليهم منه فائدة في الأخرى ، ويشير إلى قوله تعالى :
(وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة ، تصلى نارا حامية) الآية وإلى قول العباس
ابن الاحنف :

صرت كأني ذبالة نصبت تضيء للناس وهي تحترق
وبالغ في التلطف بقوله : فلك المثل الأعلى والصفة العليا من التجاوز والصفح
وأنت أولى من صفح عن زلة المسيء ، وأنا أولى من ادخرت مودته بالصفح عنه ،
وما أحسن قوله وهو بك الخ ، كأنه يقول هو بك أولى وهو بي كذلك إذا كان
فيك فكلا الحالين مخصوص بك وما ألطف ما ينسب إلى الإمام الشافعي رضي
الله تعالى عنه في الإمام أحمد بن حنبل :

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تفارق منزله
إن زرتة فلفضله أو زارني فلفضله فالفضل في الحالين له

(٥) حياتك ٦ شديدة ٧ نبا بي المنزل : لم يوافقني (٨) أعرض ٩ استوطني .
العجز : أجده لنا سهلاً (١٠) أميل (١١) ما يغتر به من متاع الدنيا (١٢) اشترى
(١٣) كنية الضبيع ، يقسم بحياة سيده أنه جهل أن سديد الرأي وجوب التحول
عن مقام الإهانة متى شعر بلحقاها به كما أنه لم يجمل أن الطمع مورد الهلكة وذريعة
الخذلان ومقطع أعناق الرجال وأنه كان عليه أن يرحل ولا يستسهل العجز ولا
يميل إلى الغرور ولكن خابت آماله وانعكست أحواله فكان الغرور نصيبه
والأمل قائده فاغتر كما اغتر الضبيع بقول القائل خامري أم عامر . يشير إلى
قول أبي تمام :

وإني مع المعرفة أن الجلاء^١ سباء^٢ والنقلة^٣ مثله^٤ :
ومن يغترب^٥ عن قومه لم يزل يرى مصارعَ مظلوم مجرا ومحسبا
وتدفن منه الصالحات^٦ وإن يسيء يكن ما اساء النار في رأس كبكببا^٧
عارف^٨ أن الأدب الوطن^٩ لا يخشى فراقه ، والحليط^{١٠} لا يتوقع زياله^{١١}
والنسيب^{١٢} لا يخفى ، والجمال لا يُجفى^{١٣} .

ثم ما قران^{١٤} السعد بالكواكب أبهى أثراً ، ولا أثنى خطراً^{١٥} من
اقتران غنى النفس به ، وانتظامها نسقاً^{١٦} معه ، فإن الحائز^{١٧} لهما الضارب
بسمهم فيهما ، - وقليل^{١٨} مساهم^{١٩} - أينما توجه ، ورد منهل^{٢٠} بر ، وحط في
جناب^{٢١} قبول ، وضوحك قبل إنزال رحله ، واعطى حكم الصبي على أهله

وإن صريح الرأي والحزم بامرئ إذا بلعته الشمس ان يتحول
وإلى المثل العربي « العجز وطيء » يضرب لمن اسلان فراش العجز وقعد عن
طلب المكاسب ؛ وقوله : خامري الخ مثل يضرب لمن عرف الدنيا وتقلباتها ثم ميل
إليها ويغتر بها .

(١) الخروج عن الوطن (٢) أسر (٣) الانتقال (٤) تنكيل (٥) جبال
(٦) الخالط (٧) مفارقتة (٨) ذو النسب (٩) لا يهجر : بعد ان بين لسيدته انه
لا يجهل ان الصواب التحول اراد ان يبين له انه يعرف ايضاً ان الانتقال فيه
التمثيل والنكال وان العربية كربة والنوى توى وان حسنات الغريب مهجورة
وسيثاته منشورة فقال إني مع معرفتي بأن خروجي من وطني أسري ودفن
لحاسني وانتقالي منه إلى غيره مع عدم معرفة أهل هذه الجهات بما انا متحل به
من العلوم والآداب والكمالات تنكيل بمحاسني وتضييع لبهجة كالاتي فيجهل
قدري وتهضم حقوقي وتدفن مني الصالحات وتشاع على قلتها السيئات غير اني
لا اعد ذلك البناء هو الوطن الحقيقي بل وطني الذي أعول عليه إنما هو ملازم
لي أينما حللت ورتحلت أخشى فراقه وهو سميري الملازم لي فلا اتوقع غيابه وان
النسيب أينما حل فهو معروف والجمال أينما وجد فهو مألوف وحيث هو كذلك فلا
يخشى من الانتقال بأساً ولا من التحول ضيلاً والبيتان للأعشى . والنقلة مثله - مثل
مولد (١٠) مصاحبة (١١) قدرأ (١٢) النسق من الكلام وغيره ما جاء على نظام
واحد (١٣) الجامع (١٤) قليل مام : يريد بذلك التعريض لسيدته بأنه لا نظير لا
في اخلاقه وآدابه (١٥) عين (١٦) ناحية بعد ان بين ان الأدب كبير النفع عظيم الفائدة =

وقيل له اهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيتٌ صالح ومقبل
غير ان الوطن محبوبٌ ، والمنشأ مألوفٌ ، واللييبُ يحثُّ إلى وطنه ، حنين
النجيب ' إلى عطنته ' . والكريم لا يحفو أرضاً بها قوابله ، ولا ينسى بسلاً
فيها مراضعه - قال الأول :

أحبُّ بلاد الله ما بين مَنعَجٍ * إلىّ وسلمى ان يصوبَ سحابها
بلادُها حل الشباب تَمائمي * واول أرض مسّ جلدي تدابها

= حتى جعله وطناً في الغربة وفرجة عند الكربة بين انه يكون اكبر نفعاً
واعظم جدوى إذا صاحبه غني النفس فان المتحلي بعلامها القابض على زمامها اينما
يم فالسعد قرينه والناس اهله يقيمون عليه من كل جانب ويعظمونه كل التعظيم
لأول وهلة او مجرد نظرة ويعطونه حكم الصبي على اهله يفعل ما يريد كالسيد
بالعبيد ويقولون له لقيت اهلاً ونزلت مكاناً سهلاً واسعاً رحباً فأنس ولا تستوحش
وكن كما تحب وتختار فأنت رب الدار . وقوله ما قران السعد الخ اخذه من
قوله البستي :

واتم الأشياء نوراً وحسناً بكر شكر زفت إلى صهر بر
ماقران السعد بالحوت أهبي منظرأ من قران بر وشكر
وقوله اعطى حكم الصبي الخ : عبارة كانت تقولها العرب في مدح من نزلوا عنده
واكرمهم واصل البيت المذكور :

فقلت له اهلاً وسهلاً ومرحباً فهذا مبيت صالح وصديق
(١) النجيب من الإبل الفحل الكريم (٢) مبرك الإبل حول الماء (٣) جمع قابلة
وهي من تتلقى المولود عند خروجه (٤) اسم مكان (٥) قيمة وهو ما يعلق للطفل
حفظاً له ؛ بعد أن بين له أن سديد الرأي الانتقال وأنه لا يخاف عاقبة ذلك لأدبه
وغنى نفسه أراد أن يبين له السبب الحامل على المكث فقال ان الوطن محبوب
والمنشأ مألوف .

ما من غريب وإن أبدى تجلده إلا سيذكر عند الغربة الوطناً
ولا غرو فهو أول أرض وجد بها وأول تربة تضمخ بها جسده وأول بقعة نما فيها
فكره وأول جهة قضى فيها الشباب مآربه مع إخوان واحباب وخلان وارتاب
- فاذا تذكر هذه الجهات تخيل له رغد العيش وحسن الحال ورأى اغصان شبابه
تميد على تلك الاوطان وتمايل مع النسيم تمايل البان فيحن إليها حنين الغريب =

هذا إلى مغالاتي^١ بعقد جوارك ، ومُنَافستي^٢ بلحظة من قربك واعتقادي الطمع في غيرك طمع^٣ والغنى ممن سواك غناء^٤ ، والبدل منك أعور ، والعوض لفاء^٥ ، وكل الصيد في جوف الفراء^٥ .

وإذا نظرت إلى اميري زادني ضنا به نظري إلى الأمراء وفي كل شجر نار ، وأستمجد^٦ (المرخ والعفار)^٦ ، فما هذه البراءة^٦ ممن

= إلى وطنه وأنه ليس من كرم الأصل وشرف المحدث ان يهجر الانسان قوايله ومراضعه لما لهن عليه من الخير العميم والفضل الجسيم أثناء الصغر فالواجب عليه أن يصلهن في إبان الكبر حتى يحني ثمرات اتعاهن ويسرن بحسن معاملته لهن والبيتان لبعض الأعراب (١) مجاوزتي الحد (٢) رغبتني فيك على وجه المباشرة (٣) دنس (٤) خسيس (٥) حمار الوحش ٦ نوعان من الشجر سريعا الوري . وأستمجد : استفضل وقيل أفتدح على الهوينا - بعد ان بين محبة الوطن وألفة المنشأ . وسبب ذلك الطبيعي : أراد ان يبين للأمير أن ذلك ليس هو السبب الوحيد الحامل على المكث بل انضم إليه ما هو أشد منه تأثيراً وأعظم خطراً ألا وهو شدة محبتي لجوارك وحظوتي بقربك ، وأنت اكرم من حفظ للجوار حرمة ، وأوضح محبته . واعتقادي بأن الطمأنينة إلى غيرك غرور والثقة بخلافك خذلان وعدم رضائي بسواك بدلا ولا بغيرك عوضا وكيف استبدل لغت بالسمن والتعب بالراحة أم كيف أنظر إلى غيرك من الأمراء ، وغيرك فيك : وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

- نعم وإن اشتهر كوا معك في اللقب إلا أنهم لم يشتر كوا معك في كمال الأدب وفي كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار وفي ذلك من استمالة القلب ما يدهش اللب وقد جمعت هذه العبارة من الأمثال ما يذري باللال - فأولها « رب طمع يجر إلى طمع » وثانيها « كل الصيد في جوف الفراء » وهو يضرب لمن يفضل نفسه على أقرانه وثالثها « البدل منك أعور » يضرب لكل ما لا يرتضى به ، وأصله أن يزيد بن المهلب لما صرف عن خراسان بقتيبة بن مسلم الباهلي وكان شحيحا أعور قال الناس هذا بدل أعور - ورابعها « رضي من الوفاء باللقاء » يضرب لمن يرضى بالقليل من الكثير - خامسها « وفي كل شجر نار وأستمجد المرخ والعفار » يضرب في تفضيل بعض المشتركين في صفة على بعض

يتولاك^١ والميل^٢ عن لا ميل^٣ عنك^٤ - وهلا^٥ كان هواك^٦ فيمن هواه
فيك^٧ ؟ ورضاك فيمن رضاه لك^٨ ؟

يا من يعز علينا أن نفارقهم وجئناك كل شيء بعدكم عدم^٩
أعبدك ونفسي من أن أشيم^{١٠} ، خلص^{١١} ، وأستمطر جهام^{١٢} ، وأكدم^{١٣}
في غير مكدم^{١٤} ، وأشكو شكوى الجريح إلى الغربان والرخم^{١٥} ، فما أبست^{١٦}
لك إلا لتد^{١٧} ، ولا حركت لك الجوار^{١٨} إلا لتجن^{١٩} ، ولا نهيتك إلا لأنام^{٢٠} ،
ولا سريت إليك إلا لأحمد الشرى^{٢١} لديك .

(١) مضارع تولاه صار وليه (١) كلمة تخصيص (٣) ميل النفس : بعد أن
يبين له أنه لا يرضى سواه وأنه يفضل جواره على ما عداه وهو مع ذلك يعرض
عنه ولا ميل إليه رجع ينكر عليه ذلك بطريق الاستفهام كاهو الأدب من حيث
يقول كيف تتبرأ مني وأنا أواليك رتميل عني وتهجري وأنا لا اميل إلا إليك
وهلا هويت من هواك ورضيت من يرضاك والبيت المعتني (٤) شام البرق : نظر
إلى سحابته أين تمطر (٥) البرق الذي لا يعقبه مطر (٦) السحاب الذي لا ماء
فيه (٧) أعض (٧) طائر ضعيف (٩) الإبسار : الرفق (١٠) ولد الناقة
(١١) السير ليلاً - يطلب منه أن يجعل لأعماله نتيجة يجني ثمرتها وأن يكون
سيده غارس دوحته وأن لا يجعله كالسيح المماء من الصخر ، والمستجير عند
كربته بعمره والمستمطر الجهم والناظر إلى البرق الخلب بل يرسل عليه عطفه
مدراراً ، وأن يصل رحم الجوار بعد القطيعة ويقر عيناً أضرها سهاد الجفوة
وأن يحمد إليه سراه ويحسن عقباه ، ولقد رضع عبارته بجواهر الأمثال وصاغها
في قالب غريب المثل بشير فيها ، إلى قول معد يكرب :

لا تنني بعد إكرامك لي فشد يد عادة منتزعه
لا يكن برقك برقاً خلصاً إن خير البرق ما الغيث معه
والى المثل العربي « كـمت في غير مكدم » يصرب لمن يطلب شيئاً من
غير أهله وإلى قول المتنبي :

ولا تشكو إلى خلق فتشمتهم شكوى الجريح إلى العقبان والرخم
والى الأمثال العربية : « الإبسار قبل الإيناس » وهو يضرب في الرفق « حرك =

وإنك إن سنيت ^١ عقدَ امرئ تيسر ، ومتى أعذرت ^٢ في فك أسرى لم يتعذر ، وعلمك محيط بأن المعروف ثمرة النعمة ، والشفاعة زكاة المروءة .
وفضّل الجاه ^٣ يعوذُ به صدقه .

وإذا امرؤٌ أهدي إليك صنعةً من جاهه فكأنها من ماله
لعلّي ألقى العصا بسذاك ^٤ وتستقرّ بي النوى ^٥ في ظليّك ، واستأنف ^٦
التأدب بأدبك ، والاحتمال على مذهبك ، فلا أوجيدُ للحاسد مجالاً ^٧ لحظه ^٨
ولا أدعُ للقادح ^٩ مساعً ^{١٠} لفظه .

== لها حوارها تحن « وهو يضرب في استنهاض الهمة ، و « لها عمرأ ثم نم ،
يضرب فيمن يعتمد على غيره ، و « عند الصباح يحمد القوم السرى » وهو يضرب
عند حمد العاقبة .

(١) سهلت (٢) بالغت في طلب العذر (٣) المنزلة - يقول لسيده : إني ما
كلفتك أيها السيد بارتكاب متون الأهوال ولا بمعاناة الأحوال ولا بعدد نجوم
السماء ولا رمال الدهناء ، وإنما هو أمر يكبر في عين سائله ويصغر عند باذله وهو
في يدك وقبضتك وأنت قادر عليه وإن سهلت عسيره سهل وإن التمسيت المذرة
انتفتت الصعوبة ، وأنت تعلم - زادك الله علماً - أن النعمة شجرة ثمرها المعروف وأن
المروءة مال زكاتها الشفاعة وشفاعة اللسان أفضل زكاة الإنسان وبذل الجاه رقد
المستعين - وأيد ذلك بالبيت بعده وقوله إن سنيت مأخوذاً من قول بشار :

فبالله ثق إن عز ما تبتغي وقل إذا الله سنى عقد أمر تيسرا

(٤) كل ما استترت به (٥) ما ينويه المسافر من قرب أو بعد (٦) ابتدئ
(٧) جال : طاف (٨) نظره (٩) الطاعن (١٠) ساغ : الشراب سهل مدخله في
الخلق - يقول أرجو من سيدي أن يعفو عن ذنبي وتقصيري ويلبي ندائي ، هذا كي
أسكن في ظلك وكنفك ولا أذهب إلى غيرك وتكون غاية آمالي ومنتهى أسفاري
وأتوب عما كنت مرتكبته و متمسكاً به مما لا يرضيك وأتخلق بأخلاقك وأتمسك
بطريقتك وأحذو حذوك واتبع مذهبك وبذلك لا يجد عدوي في مدار لحظه ولا

الطاعن ما يسوغ من لفظه وقوله لعلّي ألقى الخ حل بيت للمعز بن أوز وهو :
وألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينها بالإياب المسافر

(١ - جواهر الأدب ١٤)

والله مُبْسِرُكَ من إطلابي^١ بهذه الطلبية^٢ وإشكائي من هذه الشكوى ،
بصنيعة تصيب منها مكان المصنع ، وتستودعها أحفظ مُستودع حسبما أنت
خليق^٤ له ، وأنا منك حري^٥ به ، وذلك بيده وهيئ عليه .

مكاتبات متفرقة

كتب رئيس الجمهورية التركية إلى إحدى الدول الأوروبية :
أيها الوزير الأفخم - إن لفظة تقسيم (تركيا) إفك^١ لا يفوه به عاقل ، ولا
يتصوره إنسان ، تكاد تنفطر له السماء دهشة ، وترتج له الأرض وحشة ، بل
تخبر^٢ دونه الجبال ، وتنفك عنده الآمال ، كأن أوربا تستطيعه ، ولكنها لم
تفعله ولن تفعله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ، ف « قل اللهم مالك الملك ،
تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك ممن تشاء ، وتُعزّز من تشاء ، وتذل من
تشاء » بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

تقسيم تركيا : كلمة ليست أكبر من أوربا فقط ، بل هي أكبر من منظومة
هذا العالم الشمسي ، الذي تراه ، أو تسمع به ، إن كنت لا تراه ، فلا يليق أن
يفوه به إلا فم القدرة الإلهية « القائم على كل نفس بما كسبت » ، والله غالب على
أمره ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

تقسيم تركيا : ربما يكون ، ولكن متى يكون ؟ حينما يتحلى وجه البسيطة
بدمائنا الطاهرة الزكية ، يوم ترى الأرض لابسة تلك الحلة الأرجوانية الثمينة ،
حيث تتمشى الدماء على فيروزج الفضاء ، يحاطة كواكب الوجود بكتائب جنود
العدم المطلق : لا أرض لمن تقيل^١ ، ولا سماء لمن تظلل^٢ ، ولا قائم موجود ، ولا دائم

- (١) إسعافي (٢) ما أطلبه (٣) إزاء ما أشكوه (٤) جدير (٥) حقيق : يقول -
لسيده والحمد لله الذي سهل لك مطلبتي وإسعافي وإزالة ما أشكوه من آلام السجن
بمعروف تبذله لأهله وتحفظه عند أمين لوقته حسبما يقتضيه كرم أخلاقك وجميل صفتك
وأنا أحق الناس به لمودتي لك وإخلاصي في ولائك وما ذلك عليك بعزيز :
إن الصنيعة لا تكون صنيعة - حق تصيب بها مكان المصنع

مقصود - هنالك تتحدث شياطين الخيال في أندية المحال بحديث ذلك التقسيم المشنوم ، ولا من سميع ، ولا من مجيب ؛ فالويل 'ثم الويل يوم ذلك التقسيم الموهوم'، والشئور ثم الشئور إذا تنزلت السماء بقضاء ذلك الهول المقسوم : « إن في ذلك لبلاغاً لقوم يتفكرون » .

وكتب ابن العميد المتوفى سنة ٣٦٠ هـ في شكر صديق له على مراسلته إياه : وصل ما وصلتني به ^١ (جعلني الله فداك) ^٢ من كتابك ، بل نعمتك الثامة ، ومنتك العامة ^٣ فقرت عيني بوروده ^٤ ، وشفيت نفسي بوفوده ^٥ ، ونشرتة فحكى نسيم الرياض غيب المطر ^٦ ، وتنفس الأنوار في السحر ^٧ ، وتأملت مفتتحة وما اشتمل عليه من لطائف كلك ، وبدائع حلك ^٨ ؛ فوجدته قد تحمل من فنون البر عنك ^٩ ، وضروب الفضل منك ^{١٠} ؛ جدّاً وهزلاً ^{١١} ما ملأ عيني ، وغمر قلبي ^{١٢} ، وغلب فكري ، وبهر لبّي ، فبقيت لا أدري ! أسموط درّ خصصني بها ^{١٣} ؟ أم عقود جواهر منحتنيها ^{١٤} ؟ ولا أدري : أجدك أبلغ وأطف ؟ أم هزلك أرفع وأظرف ؟ وأنا أوكّل بتبّع ما انطوى عليه نفساً

(١) ورد إلي كتابك الذي ربطتني به معك (٢) فداك : أي وضعني الله مكانك في كل مكروه حتى تخلص منه (٣) أي الذي ورد إلي هو خطابك الذي أعده بمنزلة نعمتك العمومية وجميلك الشامل (٤) فاطمأن قلبي بوفوده (٥) وطابت نفسي بمجيئه إلي (٦) ونشرتة أي فتحتة فحكى نسيم الرياض غيب المطر أي يشبه الريح التي تهب من البساتين بعدما نزل المطر عليها (٧) وأشبه تفتح الأزهار في أواخر الليل (٨) أي وتدبرت في صدره رقي الكلمات اللطيفة التي أودعتها فيه والحكم البديعة التي بثرتها فيه (٩ و ١٠) أي شاهدت منه أنواعاً من الإكرام أثبتتها فيه ، وأصنافاً من الأفضال دونتها فيه (١١) من الأمور الهامة الجديدة والأمور المفرحة المازحة . (١٢) ملأ عيني : يعني صرفها عن النظر إلى غير إحسانك - وغمر قلبي أي : لم يدع له منصرفاً إلى غير أفضالك (١٣) وغلب في فكري أي : استحوذ على عقلي ، وبهرني أي راع عقلي وسباه (١٤) أي عقود در قصرتها علي (١٥) ومنحتنيها أي أعطيتها .

لا ترى الحظ إلا ما اقتنيت منه ^١ ، ولا تعدّ الفضل إلا فيما أخذته عنه ، وأمتنع بتأمله عيناً لا تقرّ إلا بمثله ، مما يصدر عن يدك ، ويرد من عندك ، وأعطيه نظراً لا يملّ ، وطرفاً لا يطرف دونه ^٢ ، وأجعله مثلاً أرسمه وأحتديه ^٣ ، وأمتنع خلقي برونقه ، وأغذي نفسي بهيجته ، وأمزج قريحتي برقته ، وأشرح صدري بقراءته ، ولئن كنت عن تحصيل ما قلته عاجزاً ، وفي تعديد ما ذكرته متخلفاً ، لقد عرفت أنه ما سمعت به من السّحر الحلال .

ومن كتاب للمرحوم السيد توفيق البكري في سفرته إلى الأستانة العلمية :
كتابي إلى السيد الأجل ، وأنا أحمد الله إليه ، وأدعو أن يديم النعمة والسلامة عليه ، وبعد : فلما اعتزمت على الرحلة هذا العام ، إلى قبة السلام ، ودار خلافة الإسلام ، وفارقت مصر ، وساكنها ، وأرباضها ^٤ ، ومواطنها ، ركبت سفينة عدوئية ^٥ إلى الثغور الفرنجية ، فجرت في خضم ^٦ عجاج ، ملتطم الأمواج ، له دوي من جرجرة ^٧ الآذي ^٨ أخضر الجلد ، كأنه إفرندي ^٩ تصخب ^{١٠} فيه النينان ^{١١} ، وتجري في جوفه الدعاميص ^{١٢} والحيتان ^{١٣} ، إذا مازجه الأصيل ^{١٤} بالعشي خلته كسّرت ^{١٥} عليه العنلى ، أو مزج بالرحيق ^{١٦} القُطر بلّسي ^{١٧} ، وإن لاحت به نجوم السماء ، خلته صفائح من فضة بيضاء سمّت بسمامير صفار نضار ^{١٨} ، وأخذت السفينة تشقّ غبابه ^{١٩} ، وتفلق حبابه ^{٢٠} بين ريح رخاء ^{٢١} ، أو زعزع ^{٢٢} هوجاء ^{٢٣} ؛ فهي تارة في طريق مُعبّد ^{٢٤} ،

(١) اكتسبته ، ٢ ، الطرف العين ، يطرف : يطبق جفنًا على الآخر (٣) أرسمه في فكري وأقتدي به (٤) مساكنها . ٥ . نسبة إلى قرية عدوى بالبحرين أو نسبة إلى صانعها ، والمقصود أنها أضخم سفينة (٦) البحر (٧) الصوت (٨) الموج (٩) جوهر السيف (١٠) تختلط أصواتها (١١) جمع نون وهو الحوت (١٢) جمع دموع دودة هارأسان ترى في الماء إذا قل (١٣) الوقت بعد العصر حتى تغرب الشمس (١٤) رددت ووضعت (١٥) الحمر (١٦) بضم القاف وسكون الطاء وضم الراء وتشديد اللام الحمر المنسوب إلى قطر بل قرية بين بغداد وعكبرا مشهورة بالحمر الجيدة (١٧) الذهب (١٨) الموج (١٩) بفتح الحاء ما يعلو ٢٠ ، بضم الراء الريح اللينة (٢١) بفتح الزاء الريح الشديد (٢٢) بفتح الهاء الريح القوية تقلع الأشجار والبيوت (٢٣) مذلل ومسهل .

ورميث^١ مُسَرَّد^٢ ، وطوراً فوق حَزْن^٣ وقرَدَد^٤ ، أو على صرْح^٥ مُمرَّد^٦ ، وكان معنا في الفلّك رَهْط من العرب والنّسرك، فكنا نتوارد معهم في جوائب^٧ الأخبار ، وطرف^٨ الأحاديث والأسمار^٩ ، ما يُزري^{١٠} بالمنهل العَذْب ، واللؤلؤ الرطب ، إلى أن يميل ميزان النهار ، وتغرق ذُكاه^{١١} في البحار ، ويُسي الكون من السواد ، في لبّوس حديد^{١٢} أو لباس حداد ، وتبهرق نجوم السماء في أكناف الظلماء ، كأنها سكاك^{١٣} دلاص^{١٤} ، أو فلق رصاص ، أو عيون جراد ، أو جمر في خلال رماد ، أو در في بحر أو ثقب في قبة الدُّيُور^{١٥} ، يلوح منها النور ، ويبدو الهلال كأنه خنجر من ضياء ، يشق طيالس الظلماء ، أو قلادة أو دملسج^{١٦} غادة^{١٧} ، أو سنان^{١٨} لواه الضراب ، أو الليل فيل وهو ناب ، فنأخذ مجلساً نسّمه^{١٩} الكافور ، وأرضه عنبر مذرور^{٢٠} رقيمت فيه زرايئ مَبثُوثات^{٢١} ، ومنابذ^{٢٢} ، وحُسبانات^{٢٣} ، وأنماط^{٢٤} مفروشة ، وبسط منقوشة :

بسط أجادَ الرسم صانِعُها وزها عليه النقش والشكل
فيكاد يُقطِف من أزهارها ويكاد يسقط فوقها النحل
وحوله شموع تزهو ، وأضواء تبهر^{٢٥} ، وقد دارت عليه سقاة^{٢٦} ،

(١) الأرض السهلة (٢) منتظم لا صعوبة فيه (٣) الأرض الصعبة
(٤) الأرض المرتفعة الغليظة (٥) القصر (٦) مرد البناء : ملسه حق صار ناعماً
(٧) الأخبار الطارئة (٨) المحاسن (٩) الأحاديث وأصله لأحاديث الليل (١٠) يعيبه
ويحقر (١١) بضم الدال ممنوعة من الصرف اسم للشمس (١٢) بفتح اللام الدرّج
(١٣) جمع سك المسار (١٤) بكسر الدال الذي يبرق ويلسع (١٥) الظلام
(١٦) بكسر الدال وزن درهم أو بضمها مع ضم اللام : حلى للنساء يلبسه في
أيديهن (١٧) المرأة الناعمة لينة الاعطاف (١٨) حديدة الرمح (١٩) نسيمه
(٢٠) منشور (٢١) منشورات (٢٢) جمع منبذة وزن مكنسة الوسادة التي يتكأ
أو ينام عليها (٢٣) جمع حسبانة الوسادة الصغيرة التي يتكأ عليها أيضاً (٢٤) جمع
نسط ، ثوب من صوف يطرح على الهودج ذو لون من الألوان (٢٥) تزهو وتبهر
كلاهما بمعنى تضيء وبأبها منع (٢٦) جمع ساق .

كجُمَاع^١ الثريا^٢ ، بأفداح الحَمِيَّاتِ^٣ ، وأكواب^٤ الفانيذ^٥ المروِّق^٥ ،
وقوارير^٦ الجلاب^٧ المصْفَق^٨ ، ثم تجيء قَيْمَنَةٌ^٩ في يدها ناي ، كأنه صور
إسرافيل ، يُحيي الرفات^{١٠} ، وَيَنْشُرُ^{١١} الأموات ، حتى إذا بدأ الضُّيَاءُ ، كابتسام
الشَّبَقَةِ الميَاءِ ، دخلنا المضجَع لنهجع ، وهَلُمَّ جَرًّا ، في أيامنا الأخرى .

وكتبت السيدة وردة اليازجية إلى السيدة عائشة تيمور المتوفاة سنة ١٣٠٠هـ :
سيدتي ومولاتي — أعرض أنني بيننا أنا ألهج بذكر الطافكم السنية ، وأتنسّم
شذا أنفاسكم العبقورية ، وأترقب لقاء أثر من لدنكم يتعلل به الخاطر ، ويكتحل
بإغدير مداده الناظر .

وصلتني مكاتبتكم ، فجلستُ عن العين اقضاءها ، وردت الى النفس صفاءها ،
فتناولتها بالقلب لا بالبنان ، وتصفحنت ما في طيها من سحر البَيَان ؛ فقلت :
هذا الكتاب الذي هامَ الفؤاد به ياليتني قَلَمٌ في كف كاتبه
ولعمري إنه كتاب حَوَى بدائع المنثور والمنظوم ، وتحلّى من درر الفصاحة
فأخجلب لديه دَراري النجوم ، وقد تطفلت على مقامكم العالي بهذا الجواب
ناطقاً بتقصيري ، وضمنتُه من مدح سجاياكم الغراء ، وما يشفع لدى مكارمكم
في قبول معاذيري ، لا زلتُ للفضل معدناً ، وللأدب كنزاً وفخراً .

وكتبت السيدة عائشة تيمور إلى السيدة وردة اليازجية المتوفاة سنة ١٣١٣هـ :
أستهلُّ براءة سلامٍ حَمَل الشوق وسالتَه ، وتقلد الشفق ما نشقتُ ناشقةً
عرَفِ الوداد كفالاته ، ولو رضيت المجال ، في صدق المقال ، لنطق بخالص الوفاء

-
- (١) بالضم ما جمع وانضم بعضه إلى بعض ومراده الفلجان (٢) سبعة كواكب
منظمة بعضها إلى بعض (٣) الخمر والمراد الشراب (٤) جمع كوب الكوز المستدير
الرأس لا غرورة له أو لا خرطوم (٥) نوع من الحلوى فارسي معرب بانيذ .
(٦) جمع قارورة : ما يوضع فيها الشراب من الزجاج (٧) ماء الورد فارسي معرب
(٨) المروق الصافي (٩) المغنية (١٠) الحطام البالي ، والمراد الأموات (١١) يحيمها
(١٢) معناه اتصال الأمر واستدامته .

مَدَّ أَدُ حُرُوفِهِ ، وَأَقَامَ بِأَدَاءِ التَّحِيَّةِ العاطرة قبلَ فَضِّ خَتَامِ مَظْرُوفِهِ ، وَلَعَمْرِي
 قَدْ تَوَجَّهَتْهُ أَزْهَارُ الثَّنَاءِ ، بِلَالِي غُرَّاءَ ، وَكَلَّمَتْهُ زَوَاهِرُ الْوَفَاءِ ، مِنْ خِالِصِ
 الْوَدَادِ إِلَى حَضْرَةِ مَنْ لَا تَزَالُ تَسْتَنْرِجُحُ الْأَسْمَاعُ بِنَسِيمِ أَنْبَاءِهَا صَبَاحَ مَسَاءَ ، وَتَتَشَوَّقُ
 الْأَرْوَاحُ إِلَى اسْتِطْلَاعِ بَدْرِ إِنْسَانِهَا الْكَامِلِ أَطْرَافاً وَأَنَاءً ، وَمَا زَادَنِي شَوْقاً إِلَى
 شَوْقٍ ، حَتَّى لَقَدْ شَبَّ فِيهِ طِفْلُ الشَّفَقِ عَنِ الطُّوقِ ، اجْتِلَانِي حَدِيقَةَ «الْوَرْدِ»
 الْقَدْسِيَّةِ وَنَافِجَةِ الْأَدَبِ الْمُسْكِينَةِ ؛ فَيَا لَهَا مِنْ حَدِيقَةٍ رَمَتْهَا أَحْدَاقُ الْأَذْهَانِ ، فَاقْتَبَسَتْ
 نُورَآ وَنُورَآ وَانْتَشَقَّتْهَا مَسَامُ الْأَذَانِ ، فَتَمَلَّتْ طَرِباً وَسُرُورَآ ، وَمِنْذُ سَرَّحْتُ فِي
 أَرْجَاءِ تِلْكَ الْبَانِعَةِ إِنْسَانَ الْعِيُونِ ، وَشَرَحْتُ بِأَفْكَارِ الْبَصِيرَةِ أَسْرَارَ ذَلِكَ الدُّرِّ
 الْمَصُونِ ، لَمْ أَزَلْ بَيْنَ طَرَبٍ أَتَوْ شَحْبُوشَاحِهِ ، وَأَتَعْجِبُ مِنْ حَسَنِ اخْتِتَامِهِ وَافْتِتَاحِهِ ،
 وَجَعَلْتُ أَغَازِلَ مِنْ نَرَجِسِ تِلْكَ الرُّوضَةِ عِيُوناً مَلَكَتْ مِنْسِي الْحَوَاسِ وَهَصَرَتْ
 مِنْ غَصُونِ أَلْفَاتِهَا كُلِّ مَمْشُوقٍ أَهْيَفَ مَيْتَاسٍ ، وَأَتَأَدَّبُ فِي حَضْرَةِ وَرْدِهَا خَوْفاً مِنْ
 شَوْكَةِ سُلْطَانِهَا ، وَأَنْ حَيَاتِي يَجْمِيلُ الْإِلْتِفَاتُ ضَاحِكَةً عَنْ نَفِيسِ جَمَانَةٍ ، وَإِذَا
 بِالْيَاسَمِينِ الْغَضِّ قَدْ أَلْقَى نَفْسَهُ عَلَى الثَّرَى وَنَادَى بِلِسَانِ الْأَفْصَاحِ : هَلْ لِهَذِهِ النَّضْرَةِ
 نَظِيرَةٌ يَا تُتْرَى ؟ ! فَأَشَارَ الْمُنْشُورُ بِكَفِّهِ الْخَضِيبِ أَنْ لَا نَظِيرَ لِتِلْكَ الْغَادَةِ ، وَنَطَقَ
 الزَّنْبَقُ بِلِسَانِ الْبَيَانِ : لَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ، فَعِنْدَ ذَلِكَ صَفَّقَ الطَّيْرُ بِأَكْفِ الْأَجْنَحَةِ
 وَبَشَّرَ ، وَجَرَى الْمَاءُ لِإِذَاعَةِ نَبَأِ السُّرُورِ فَعَثَرَ بِذَيْلِ النَّسِيمِ وَتَكَسَّرَ ، وَتَمَايَلَتْ
 أَغْصَانُهَا الْمُورِقَةُ لِسَمَاعِ هَذَا الْحَدِيثِ ، وَأَخَذَتْ نِسْمَاتُهَا الْعَاطِرَةَ فِي السَّيْرِ الْحَثِيثِ
 لِإِذَاعَةِ تِلْكَ الْبَشَائِرِ فِي الْعِشَائِرِ ، وَنَشَرَآ لِهَذِهِ الْفَضَائِلِ الَّتِي سَارَتْ مَسِيرَ الْمَثَلِ
 السَّائِرِ ، فَقُلْتُ بِلِسَانِ الصَّادِقِ الْأَمِينِ ، بَعْدَ تَحْقِيقِي هَذَا النَّبَأَ الْيَقِينِ ، هَكَذَا هَكَذَا
 تَكُونُ الْحَدِيقَةُ وَإِلَّا ، وَكَذَلِكَ كَذَلِكَ لِتُكْتَبَ الْفَضَائِلُ وَتَمْلَى :

وَحَدَّثَنِي يَا سَعْدَ عَنْهُمْ فَرَدْتَنِي غَرَاماً فَرَدَّنِي مِنْ حَدِيثِكَ يَا سَعْدَ

فَتَحَمَّلْتُ عَنِّي أَيُّهَا الصَّدِيقُ تَحِيَّةً إِلَى رَبَّةِ هَاتِيكَ الْحَدِيقَةِ ، وَاشْرَحْتُ لَدَيْهَا حَدِيثَ
 شَغْفِي بِفَضْلِهَا الْبَاهِرِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَاعْتَذَرْتُ عَنْ كِتَابِي هَذَا فَقَدْ جَاءَ يَشِي

على استحياء ، وكلما حركه الشوق يُبْطِئُهُ الحياء . وكيف وقد حل في منبع الفضائل والمقام لم يدع مقالاً لقائل ، فكأنني إنما أهدي التمر إلى هجر ، وأمنح البحر الحِصَمَ بالمطر ؛ أدام الله معالي تلك الحضرة ، وزادها في كل بهجة ونضرة ، ما لاح جبين هلال ، وبلغ غاية الكمال .

وكتب المرحوم السيد عبد الله النديم سنة ١٣١٤ هـ :

أستاذي وقديوتي ، وملادي وعمدي - ربيت ، فأحسنيت ، وغذيت ، فأسميت ، مؤدباً ليلاً ، ولنت فسودت ، وجدت فعودت ، مهذباً غيثاً ، علمت فأفهمت ، وأشرت فألهمت أغرض سهمك ، وقد نلت ما أملت ، فيمن عليه عولت بحسن فهمك :

غلامك الشهير بالنديم من صار في البيان كالنسيم

وكيف لا يكون لسانی قوس البديع ، وكلامي السهم السريع ، وأنت باريه وراميه ! أم كيف لا يكون مقامي الحصن المنيع ، وقدري العزيز الرقيق ، وأنت معلية وبانيه ! فوجه جمال العلم أنت غرته ، وإنسان عين العلم أنت قرته ، وحاليه وجاليه . وجبين العقل أنت طرته ، وكتاب الفضل أنت صورته ، وطالبيه وتاليه :

على بابك العالي من الفضل راية على رأس أرباب المعارف تحفق
فعلملك جنات وحلمك الجنة وكذلك خيرات وغيثك مغدق
أرى غصن من يدعو إلى الفضل نفسه من الفضل عرياناً وغصنك مورق
إذار منت إنشاء فعن صدق فكرة تهادى بأبكاره وغيرك يسرق
وكتب أيضاً في التودد :

بينما أثاراكب لجة بحر الفكر ، مجده في طلب فريدة بیکر ، تارة أغوص
ومرة أسبح وآونة أقف وطوراً أصفح ، لا يقر لي قرار ، ولا يمكنني الفرار ،
ولا يقصر عن طرح شبابي ذراع ، ولا تطوي لسفينتي شرع ، كلما أدركني الملل

هاجت عليّ رياحُ الأمل ، حتى دخلتُ في بحر عجاج ، متلاطم الأمواج ،
فاقتحمت هذا المركبَ الصّعب ، وتهتُ بين الجزائر والشّعب ، فتعلّقت
أفكاري بالسّوّاري والحبّال ، وبيتٌ بليّة نجوّمها كواحل ، لا يُرى فيها برٌّ ولا
سواحل ، وقلتُ : اشتدادُ الأمر يستدعي ضده ، ولا يأتي الفرجُ إلّا بعد الشدّة ؛
وعينيك ما سلّ سيفها على مفترقِ مساهي ، حتى سمعتُ باسمِ اللهِ بحريها
ومُرُساها ، فكان من تمام حظّي وسعُودي ، أن تركتُ لُجّة اليَمِّ واستوتُ
على النّجودي ، وانصرفَ خوفاً وارْتباكاً ، وبادرتُ بطرحِ شبّاكي ، فإذا قدّ
ملئتُ بأصداف الجواهر ، وعلقتُ بها شجرة العنبر ، فتفتّح الصّدْف عن دُرٍّ
يستخدمُ الأقمار ، وفاح العنبر بما أذهب شديّ الأزهار

وصرت ما بينها كسرى الزّمان له شمسٌ تناديه في مجلس عطس
ونِلتُ أقصى أمان كنت آملها الأنس في خلسدي والنّور في نظري

ولما جلوت الطّرف ، بما فيها من الظّرف ، ووقعت عندي الموقع الحسن ،
أردت أن أسومها بشمّن ، فإذا هي دُرّة يتيمّة ، لا يقدر لها أحدٌ على قيمة ،
فاستهديتها من ربّها ، لشغفي بحبّها ، وجعلتُ القلب لها كنزاً ، والفؤاد لها
حِرْزاً ، ألا وهي (محبّة العزيز الحافظ) أبدع مرثي وأبلغ لافظ .

وكتب إبراهيم بك المويلحي المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ يعزي محمود باشا
البارودي :

أنت يا فوق أن تعزّي عن الأحبا ب فوق الذي يعزيك عقلا
وبالفاظك اهتدى فإذا عزّا ك قال الذي له قلت قبلا
وقلت الزّمان علماً فما يفر ب قولاً ولا يجدد فعلا

نعم إنك يا محمود ، الخصال وه سامي ، الفِعال ، لأنت الشهم المُجرب
لصُرُوف الحداث ، والعالم الخبير بأحوال الزّمان ، قد أعددت لنوازل المقدور
نزلًا من الصّبر المأجور ، وصرفت ضيف الشّجون والهُوم ، إلى قري الفضائل

والعلوم ، وأخذت بيسنة السلف الصالح ، في مقابلة الخطوب الفواح ، وأنت لا شك عندنا آخذ فيما دهمك اليوم من المصاب العظيم ، بسيرة ذلك الفيلسوف الحكيم بينما هو جالس يوماً في الدرس بين تلاميذه ، إذ جاءه من أخبره بأن ابنه الوحيد مات ، وهو رطب الشباب غض العمر ، فلم يتولته الفزع ، ولم يظهر عليه الاضطراب ، ولم يبدُ على وجهه الكدر ، وما زاد على أن استرجع ، واستمر في قراءة درسه كما كان فلما انتهى منه بادره أحد الحاضرين من أصحابه ممن حيرتهم الدهشة في أمره ، يسأله : كيف لم يسلبه الحزن ثوب الثبات برهة عند مفاجأته بالخبر ؟ فقال له : « لو فاجأتني النازلة على غيرة مني لحزنت وحزنت ولكني ما زلت أقدر لابني منذ يوم ولادته ، حُلُول أجله في كل يوم من أيام حياته ، ولمثل هذا اليوم كنت أعدّه من زمانٍ طويل ، وكان كلما مضى عام من أعوامه اعتبرته خلسة اختلستها من الدهر ، حتى مضى على هذه العارية عشرون عاماً ، فشكري لله اليوم على أن أبقاها في يدي طول هذه المدة ، يوم مقام الحزن عند غيري لدى استردادها ، وعن النبي صلى الله عليه وسلم « إذا مات ولد العبد قال الله تعالى للملائكة : أقبضنهم ولده عبدي ؟ فيقولون : نعم . فيقول : أقبضن ثمرة قلبه ؟ فيقولون : نعم . فيقول الله تعالى : ماذا قال عبدي ؟ فيقولون : حمدك واسترجع . فيقول الله تعالى : ابنوا لعبدي بيتاً في الجنة ، وسموه بيت الحمد ، وأنت يا محمود - صلوات الله عليك ورحمته لقوله تعالى : « ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشئ الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون ، أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة ، وأولئك هم المهتدون » أول من يمتثل لحكم القضاء ، ويسترجع عند نزول البلاء ، ويعمل بأدب الدين في التجلّد والتّصبر ، ويأخذ بسيرة الحكماء في التدبّر والتّصبر :

ومن كان ذا نفس كنفسك حرة ففيه لها من وفها له مُسل

وكتب سهل^١ بن هرون المتوفى سنة ٦٤٩ في البخل :

بسم الله الرحمن الرحيم

أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال
الأحنف بن قيس : معشر بني تميم ؛ لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإن أسرع الناس إلى
القتال ، أقلهم حياء من الفيزار . وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب
سجّة ، فتأمل عياباً . فإنه يعيب الناس بفضل ما فيه من العيب . ومن أعيب
العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مريداً ، وأن تغري بشفق ،
وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقديم فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم ، وما أخطأنا
سبيل حسن النسبة فيما بيننا وبينكم ، وقد تعلمون أننا أوصيناكم إلا بما اخترناه
لكم ، ولأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ، ثم نقول في ذلك ما قال
العبد الصالح لقومه « وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا
الإصلاح ما استطعت وما توفقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، فما كان أحقنا
منكم في حرمتنا بكم ، أن ترغوا حق قصدنا بذلك إليكم على ما رعينا من
واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلفظتم ، ولا بواجب الحرمة قتم ، ولو كان
ذكر العيوب يراد به فخر ، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً .

عبتُموني بقولي الخادمي : أجيدي العجين فهو أطيب لطعمه ، وأزيد في
رَبِّعه^٢ وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « املكوا^٣ العجين ، فإنه
أحد الرِّيعين » .

وعبتُموني حين ختمت على ما فيه شيء ثمين فأكهة رطبة نقيّة ، ومن

(١) هو من أبناء الفرس وكان من رجالات البلاغة والعلم والحكمة في دولتي
الرشيد والمأمون وقد وضع كتاباً حاكياً به كتاب « كليله ودمنة » وسماه « ثلثة
وعفرة » وكان قيم بيت الحكمة « مدير دار الكتب » في عهد المأمون .
(٢) الربيع النماء والزيادة (٣) إهلاك العجين : إنعام عجينه .

رُطبة غريبة، على عبدِ نهم، وصبي جشيع، وأمة لكنعاء^١، وزوجة مُضيعة. وعبثوني بالحثم، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق^٢ وعلى كيس فارغ. وقال: «طينة خير من طينة»^٣ فأمسكتم عن ختم على لا شيء، وعبثتم من ختم على شيء.

وعبثوني أن تقلت للفلام: «إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج، ليجمع مع التأدم باللحم طيب المرق».

وعبثوني بخصف النعل، وبتصدير القميص، وحين زعمت أن المستخسوفة من النعل أبقى وأقوى وأشبه بالشد، وإن الترقيع من الحزم، والتفريط من التضيق، وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ويرقع ثوبه، ويقول: «لو أهدى إلي ذراع لقبلت، ولو دعيت إلى كراع لأجبت». وقالت الحكماء: لا جديد لمن لم يلبس الخلق، وبعث زياد رجلاً يرثاه له 'محدثاً واشترط عليه أن يكون عاقلاً، فأراه به موافقاً، فقال له: أكننت به ذا معرفة؟ قال: لا. ولكنني رأيت في يوم قائط، يلبس خلقاً، ويلبس الناس جديداً. فتفرست فيه العقل والأدب. وقد علمت أن الخلق في موضعه، مثل الجديد في موضعه، وقد جعل الله لكل شيء قدراً، وسما به موضعاً، كما جعل لكل زمان رجالاً، ولكل مقام مقالاً. وقد أحيا الله بالسم، وأمات بالدواء، وأغص بالماء. وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكاسبين، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين. وقد جبر الأحنف بن قيس يد عنز، وأمر مالك بن أنس بفرك النعل. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من أكل بيضة فقد أكل دجاجة؛ ولبس سالم بن عبد الله جلد أضحية. وقال رجل لبعض الحكماء: أريد أن أهدي إليك دجاجة، فقال: إن كان لابد فاجعلها بيوضاً.

(١) اللكماء: المحقاء (٢) المزود: وعاء الزاد والسويق: شراب يتخذ من الحنطة أو الشعير^٣ طينة من طان الشيء أي ختمه بالطين و«طية» من الطوى وهو الجوع (٤) خصف النعل: خرزها (٥) تصدير القماص: أن يجعد لصدرة بطانة.

وعبتموني حين قلت : من لم يعرف مواضع السرف في الموجود الرخيص لم يعرف مواضع الاقتصاد في الممتنع الغالي . ولقد أتيت بماء للوضوء على مبلغ الكفاية وأشد من الكفاية ، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التسوفير عليها من وضعية الماء ، وجدت في الأعضاء فضلاً عن الماء ، فعلمت أن لو كنت سلكت الاقتصاد في أوائله لخسرت آخره على كفاية أوّله ، ولكان نصيب الأوّل كنصيب الآخر . فعبتموني بذلك وشتمتم عليّ ، وقد قال الحسن : وذكر السرف : « أما إنه ليكون في الماء ، والكلأ » فلم يرض بذكر الماء حتى أردفته الكلأ .

وعبتموني أن قلت : لا يفترن أحدكم بطول عمره ، وتقنيس ظهره ، ورقّة عظمه ، ووهن قوته . وأن يرى نحوه أكثر ذرّيته ! فيدعوه ذلك إلى إخراج ماله من يده ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله يكون مُعْتَمِراً وهو لا يدري ، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر . ولعله أن يرزق الولد على اليأس ، ويحدث عليه من آفات الدهر ما لا يخطر على بال ولا يدركه عقل ، فيستردّه من لا يردّه ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أصعب ما كان عليه الطرب ، وأقبح ما كان به أن يطلب ، فعبتموني بذلك . وقد قال الأول :

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً » .

وعبتموني بأن قلت : بأن السرف والتبذير إلى مال المواريث ، وأموال الملوك ، وإلى ما لا يعترض فيه بذهاب الدين . واهتضام العريض ، ونصب البدن واهتضام القلب أسرع ، وأن الحفظ للمال المكتسب ، والغنى المكتسب أقرب ، ومن لم يحسب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل ، فقد أضاع

الأصل ومن لم يعرف للغنى قدره ، فقد أوزن بالفقر ، وطاب نفساً بالذل .
وعبتموني بأن قلت : إن كَسَبَ الحلال ، يضمن الإنفاق في الحلال ، وإن
الخبِيثَ يَنْزِعَ الخبيث ، وإن الطَّيِّبَ ، يدعو إلى الطَّيِّب ، وإن الإنفاق في
الهُوى حجاب دون الهدى ، فعبتم عليّ هذا القول ، وقد قال معاوية : لم أرَ
تبذيراً قط إلا وإلى جنبه تضييع ، وقد قال الحسن : إن أردتم أن تعرفوا من
أين أصابَ الرجل ماله ، فانظروا فيما ذا يُنْفِقُه ، فإن الخبيثَ إنما يُنْفِقُ في
السرف ، وقلت لكم بالشفقة عليكم ، وحسُنَ النظر منسي لكم ، وأنتم في دار
الآفات ، والنحوائح غير مأمونات فإن أحاطت بآل أحدكم آفة لم يرجع إلا
إلى نفسه ، فاحذروا النشقم باختلاف الأمكنة فإن البلية لا تجري في الجميع ،
إلا بموت الجميع .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والامة والشئاد والبعير: فرتوا
بين المنايا . وقد قال ابن سيرين لبعض البسحرين : كيف تصنعون بأموالكم ؟
قالوا ننفقها في السفن : فإن عطِبَ بعض سلم بعض ، ولولا أن السلامة أكثر ما
تحمّلنا أموالنا في البحر ، قال ابن سيرين « تحسبها خرقاء وهي صناع » .
وعبتموني بأن قلت لكم عند إشفاقي عليكم : إن للغنى لسكرا ، وللمال
لنزوة ^٢ ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره ، فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال
بخوف الفقر فقد أهمله .

فعبتموني بذلك ، وقد قال زيد بن جبلة : ليس أحد أقصر عقلاً من غنيٍّ
أمينٍ الفقر ، وسكر الغنى أكثر من سكر الخمر ، وقد قال الشاعر في يحيى بن
خالد ابن برمك :
وهوبٌ قِلاد المال فيما ينوبه ممنوعٌ إذا ما منعه كان أحزما
وعبتموني حين زعمتم أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يفاد العلم ،

(١) هذا مثل يضرب لمن تظن فيه الغفلة وهو فطن يقظ .

(٢) النزوة : الثورة — أو الوثبة .

وبه تقوّم النفس ، قبل أن تعرف فضل العلم . فهو أصل ، والأصل أحقّ بالتفضيل من الفرع . فقلت : كيف هذا ؟ وقد قيل لرئيس الحكماء : الأغنياء أفضل أم العلماء ؟ قال : العلماء . قيل له : فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : ذلك لمعرفة العلماء بفضل المال ، وجهل الأغنياء بحق العلم . فقلت : حالهما هي القاضية بينهما : وكيف يستوي شيء حاجة العامة إليه ، وشيء يغني فيه بعضهم عن بعض ؟؟

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال أبو بكر رضي الله عنه : إني لأبغض أهل بيت يُنفِقون نفقة الأيام في اليوم الواحد . وكان أبو الأسود الدؤلي يقول لولده : إذا بسط الله لك الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض .

وعبتموني حين قلت : فضل الغنى على القوت إنما هو كفضل الآلة تكون في البيت إذا احتيج إليها استعملت ، وإن استغني عنها كانت عبدة . وقد قال الحصين ابن المنذر : وددت أن لي مثل أحد ذهباً لا أذتفع منه بشيء . قيل له : فما كنت تصنع به ؟ قال : لكثرة من كان يخدمني عليه ، لأن المال يخدم . وقد قال بعض الحكماء : عليك بطلب الغنى : فلو لم يكن فيه إلا أنه عزّ في قلبك وذلّ في قلب عدوّك ، لكان الحظّ فيه جسيماً والنفع فيه عظيماً .

ولسنا ندع سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب اللهو ولستم عليّ تردّون ولا رأيي تفنّدون . فقدّموا النظر قبل العزم . وأدرّ كوا مالكم قبل أن تُدرّ كوا مالكم . والسلام عليكم .

الكلام على الرسائل العلمية

الرسائل العلمية ، هي : مقالات في المطالب العلمية أو المسائل الأدبية ، وإنشأ سميّت بالرسائل ، لأن أصحابها يرسلونها إلى من اقترحها عليهم ، ويسلك

فيها صاحبها مناهج الاسترسال ، والمخاطبات البليغة . وقد أفردنا لها كتابنا « أسلوب الحكيم - في منهج الإنشاء القويم » فارجع إليه إن شئت .

الفن الثاني في المناظرات

للمناظرة ثلاثة شروط : (الأول) : أن يجمع بين خصمين متضادين ، أو متباينين في صفاتها ، بحيث تظهر خواصها كالربيع ، والخريف ، والصيف ، والشتاء . (الثاني) : أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه ، وتفنيده مزاعم قيرنه ، بأدلة من شأنها أن ترفس قنذره ، وتحط من مقام الخصم ، بحيث يميل بالسامع عنه إليه . (الثالث) : أن تصاغ المعاني والمراجعات صوغاً حسناً . وترتّب على سياق يحكم ليزيد بذلك نشاط السامع ، وتنمى فيه الرغبة في حلّ المشكل .

ولنذكر لك عليها شذرات من أقوال الكتّاب فنقول :

مناظرة النعمان بن المنذر وكسرى أنوشروان في شأن العرب

روى ابن القطامي عن الكليني قال : قدّم النعمان بن المنذر على كسرى : وعنده وفود الروم ، والهند ، والصين ، فذكروا من ملوكهم وبلادهم - فاقتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الأمم ، لا يستثنى فارس ولا غيرها ، فقال كسرى وأخذ قنّه عزّة الملك : يا نعمان ، لقد فكّرت في أمر العرب وغيرهم من الأمم ، ونظرت في حالة من يقدر عليّ من وفود الأمم - فوجدت للروم حظاً في اجتماع ألفتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة مدائنها وثيق بنيانها . وإنّ لها ديناً يبيّن حلالها وحرامها ، ويردّ سفيتها ويقيم جاهها - ورأيت الهند نحواً من ذلك في حكمتها وطبها ، مع كثرة أنهار بلادها وثمارها ، وعجيب صناعتها ، وطيب أشجارها ، ودقيق حسابها ، وكثرة عددّها ، وكذلك الصّين في اجتماعها ، وكثرة صناعات أيديها وفروسيّتها ، وهمتها في الحرب وصناعة الحديد ، وأن لها ملكاً

يَجْمَعُهَا - وَالتَّارِكُ وَالْخَزَرُ عَلَى مَا بِهِمْ مِنْ سُوءِ الْحَالِ فِي الْمَعَاشِ ، وَقِسْلَةُ الرِّيفِ
وَالثَّارِ وَالْخَصُونِ ، وَمَا هُوَ رَأْسُ عِمَارَةِ الدُّنْيَا مِنَ الْمَسَاكِينِ وَالْمَلَابِسِ ، لَهُمْ مَلُوكٌ
تَضُمُّ قَوَاصِيَهُمْ ، وَتُدَبِّرُ أَمْرَهُمْ ؛ وَلَمْ أَرَ لِلْعَرَبِ شَيْئاً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ فِي أَمْرِ
دِينٍ وَلَا دُنْيَا ، وَلَا حِزْمٍ ، وَلَا قُوَّةٍ ؛ وَمَعَ أَنْ مِمَّا يَدُلُّ عَلَى مَهَانَتِهَا وَذُلِّهَا ، وَصِغَرِ
هِمَّتِهَا ، حِيلَتُهُمُ الَّتِي هُمْ بِهَا مَعَ الْوَحُوشِ النَّسَافَةِ ، وَالطَّيُورِ الْخَائِرَةِ يَقْتُلُونَ أَوْلَادَهُمْ
مِنَ الْفَاقَةِ ، وَيَأْكُلُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً مِنَ الْحَاجَةِ ، قَدْ خَرَجُوا مِنْ مِطَاطِعِ الدُّنْيَا وَمَلَابِسِهَا
وَمَشَارِبِهَا وَلَهْوِهَا وَلَذَائِهَا ، فَأَفْضَلَ طَعَامٍ ظَفَرَ بِهِ نَاعِمُهُمْ لُحُومَ الْإِبِلِ الَّتِي يَعَافُهَا
كَثِيرٌ مِنَ السَّبَاعِ لِثِقَلِهَا ، وَسُوءِ طَعْمِهَا ، وَخَوْفِ دَائِهَا ، وَإِنْ قَرَى أَحَدُهُمْ ضَيْفَاً
عَدُوَّهُ مَكْرُومَةً ، وَإِنْ أَطْعَمَ أَكَلَهُ عَدُوُّهَا غَنِيمَةً ، تَنْطِقُ بِذَلِكَ أَشْعَارُهُمْ ، وَتَفْتَخِرُ
بِذَلِكَ رِجَالُهُمْ ، مَا خِلَا هَذِهِ التَّنَسُّوْخِيَّةِ الَّتِي أَسَّسَ جَدِّي اجْتِمَاعَهَا وَشَدَّ مَمْلَكَتَهَا ،
وَمَنَعَهَا مِنْ عَدُوِّهَا ، فَجَرَى لَهَا ذَلِكَ إِلَى يَوْمِنَا هَذَا ، وَإِنْ لَهَا مَعَ ذَلِكَ آثَارُ
وَلُبُوسَا ، وَقَرَى وَحَصُونَا ، وَأُمُورٌ تُشَبِّهُ بَعْضَ أُمُورِ النَّاسِ (يَعْنِي الْيَمَنِ) .
ثُمَّ لَا أَرَاكُمْ تَسْتَكِينُونَ عَلَى مَا بَكُمْ مِنَ الْمَذَلَّةِ ، وَالْقِلَّةِ ، وَالْفَاقَةِ ، وَالْبُؤْسِ ،
حَتَّى تَفْتَخِرُوا ، وَتَرِيدُوا أَنْ تَنْزِلُوا فَوْقَ مَرَاتِبِ النَّاسِ .

قال النعمان : أصلح الله الملك . حَقُّ لَأَمَةِ الْمَلِكِ مِنْهَا أَنْ يَسْمُوَ فَضْلُهَا ،
وَيَعْظُمَ خُطْبُهَا ، وَتَعْلُو دَرَجَتُهَا ، إِلَّا أَنْ عِنْدِي جَوَاباً فِي كُلِّ مَا نَطَقَ بِهِ الْمَلِكُ
فِي غَيْرِ رَدٍّ عَلَيْهِ ، وَلَا تَكْذِيبٍ لَهُ ، فَإِنْ أَمَّنَنِي مِنْ غَضَبِهِ نَطَقْتُ بِهِ . قَالَ كَسْرَى :
قُلْ فَأَنْتَ آمِنٌ ، قَالَ النعمان : أَمَا أَمْتِكَ أَيُّهَا الْمَلِكُ : فَلَيْسَتْ تَنَازَعُ فِي الْفَضْلِ
لِمَوْضِعِهَا الَّذِي هِيَ بِهِ مِنْ عَقُولِهَا وَأَحْلَامِهَا وَبَسْطَةِ مَحَلِّهَا ، وَبِحَبُوحَةِ عِزِّهَا ، وَمَا
أَكْرَمَهَا اللَّهُ بِهِ مِنْ وَلَايَةِ آبَائِكَ وَوَلَايَتِكَ . وَأَمَّا الْأُمَمُ الَّتِي ذَكَرْتَ فَأَيَّةُ أُمَّةٍ تَقْرُنُهَا
بِالْعَرَبِ إِلَّا فَضْلُهَا . قَالَ كَسْرَى : بِمَاذَا ؟ قَالَ النعمان : بِعِزِّهَا وَمَنْعَتِهَا ، وَحُسْنِ
وُجُوهِهَا وَبِأَسَاسِهَا وَسَخَائِهَا وَحِكْمَةِ أَلْسِنَتِهَا ، وَشِدَّةِ عَقُولِهَا وَأَنْفَتِهَا وَوَفَائِهَا .

فَأَمَّا عِزُّهَا وَمَنْعَتُهَا ، فَانْهَاهَا لَمْ تَزَلْ مُجْتَاورَةً لِآبَائِكَ الَّذِينَ دَوَّخُوا الْبِلَادَ

وَوَطَّدُوا الْمُلُكَ ، وَقَادُوا الْجُنْدَ ، لَمْ يَطْمَعْ فِيهِمْ طَامِعٌ ، وَلَمْ يَنْلُسْهُمْ نَائِلٌ ،
حَصُونُهُمْ ظُهُورُ خَيْلِهِمْ وَمِهَادُهُمُ الْأَرْضُ ، وَسُقُوفُهُمُ السَّمَاءُ ، وَجُنَّتْهُمْ السَّيُوفُ ،
وَعُدَّتْهُمْ الصُّبُرُ — إِذْ تَغَيَّرُهَا مِنَ الْأُمَمِ ، إِنَّمَا عَزَّهَا الْحِجَارَةُ وَالطِّينُ ، وَجَزَائِرُ
الْبُحُورِ .

وَأَمَّا حُسْنُ وُجُوهِهَا وَأَلْوَانِهَا ، فَقَدْ يُعْرَفُ فَضْلُهُمْ فِي ذَلِكَ عَلَى غَيْرِهِمْ مِنْ
الْهِنْدِ الْمُنْخَرَفَةِ ، وَالصِّينِ الْمُنْخَفَةِ ، وَالتَّرْكِ الْمَشُوهَةِ ، وَالرُّومِ الْمَقْشَرَةِ .

وَأَمَّا أَنْسَابُهَا وَأَحْسَابُهَا : فَلَيْسَتْ أُمَّةٌ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا وَقَدْ جَهِلَتْ آبَاءُهَا
وَأَصُولُهَا وَكَثِيرٌ مِنْ أَوْلَئِهَا ، حَتَّى أَنْ أَحَدَهُمْ لَيْسَ لِيُسَالُ عَمَّنْ وَرَاءَ أَبِيهِ دُنْيَا فَلَا
يَذُنُّسُ بِهِ ، وَلَا يَعْرِفُهُ . وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ إِلَّا يُسَمِّي آبَاءَهُ أَبَا فُأَبَا ، حَاطُوا
بِذَلِكَ أَحْسَابَهُمْ ، وَحَفِظُوا بِهِ أَنْسَابَهُمْ ، فَلَا يَدْخُلُ رَجُلٌ فِي غَيْرِ قَوْمِهِ ، وَلَا
يَنْتَسِبُ إِلَى غَيْرِ نَسَبِهِ وَلَا يُدْعَى إِلَى غَيْرِ أَبِيهِ .

وَأَمَّا سَخَاؤُهَا : فَإِنْ أَدْنَاهُمْ رَجُلًا الَّذِي تَكُونُ عِنْدَهُ الْبَكْرَةُ وَالنَّابُ ،
عَلَيْهَا بَلَاغُهُ فِي حَمُولِهِ ، وَشَبَعُهُ وَرِيهِ ، فَيَطْرُقُهُ الطَّارِقُ الَّذِي يَكْتَفِي بِالْفَلَذَةِ ،
وَيَحْتَزِي بِالشَّرْبَةِ فَيَعْقُرُهَا لَهُ ، وَيَرْضَى أَنْ يُخْرِجَ عَنْ دُنْيَاهُ كُلَّهَا فِيمَا يَكْسِبُهُ
حُسْنُ الْأَحْدُوثةِ ، وَطَيِّبُ الذِّكْرِ .

وَأَمَّا حِكْمَةُ أَلْسِنَتِهِمْ : فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَعْطَاهُمْ فِي أَشْعَارِهِمْ ، وَرَوْنَقِ كَلَامِهِمْ
وَحُسْنِهِ وَوَزَنِهِ وَقَوَافِيهِ ، مَعَ مَعْرِفَتِهِمْ بِالْأَشْيَاءِ وَضَرْبِهِمْ لِلْأَمْثَالِ وَإِبْلَاغِهِمْ فِي
الصِّفَاتِ مَا لَيْسَ لشيءٍ مِنَ أَلْسِنَةِ الْأَجْناسِ — ثُمَّ خَيْلُهُمْ أَفْضَلُ الْخَيْلِ ، وَنَسَاؤُهُمْ
أَعَفُّ النِّسَاءِ وَلِبَاسُهُمْ أَفْضَلُ اللَّبَاسِ ، وَمَعَادِنُهُمُ الذَّهَبُ وَالْفِضَّةُ ، وَحِجَارَةُ
جِبَالِهِمْ الْجَزْعُ وَمَطَايَاهُمُ الَّتِي لَا يُبْلَغُ عَلَى مِثْلِهَا سَفَرٌ وَلَا يُقَطَّعُ بِمِثْلِهَا بَلَدٌ قَفَرٌ .
وَأَمَّا دِينُهَا وَشَرِيعَتُهَا : فَإِنَّهُمْ مُتَمَسِكُونَ بِهِ حَتَّى يَبْلُغَ أَحَدُهُمْ مِنْ نَسَكِهِ
بِدِينِهِ أَنْ لَهُمْ أَشْهُرٌ أَحْرَمٌ وَأَبْلَدٌ أَحْرَمٌ ، وَبَيْنَنَا مَحْجُوبٌ ، يَنْسَكُونَ فِيهِ مِنْ نَسَاكِهِمْ ،
وَيَذُبُّونَ فِيهِ ذَبَائِحَهُمْ ، فَسَيَلْقَى الرَّجُلُ قَاتِلَ أَبِيهِ أَوْ أَخِيهِ ، وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى
أَخْذِ ثَأْرِهِ وَإِدْرَاكِ رَغْمِهِ مِنْهُ ، فَيَحْجِزُهُ كَرَمُهُ وَيَمْنَعُهُ دِينُهُ عَنْ تَنَاوُلِهِ بِأَذَى .

وأما وفاؤها : فإنَّ أحدَهم يلاحظ اللحظة ، ويومئ الإيماءة ، فهي ولت (أي عهد) وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه ، وإنَّ أحدَهم يرفعُ عوداً من الأرض فيكون رهنًا بدينه ، فلا يفلق رهنه ، ولا تخفر ذمته . وإنَّ أحدَهم ليبلُغه أن رجلاً استجار به ، وعسى أن يكون نائياً عن داره فيُصاب فلا يرضى حتى يُفني تلك القبيلة التي أصابته ، أو تَفنى قبيلته لما أخفر من جواره . وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة ، فتكون أنفُسهم دون نفسه ، وأموالهم دون ماله .

وأما قولك أيها الملك يَتبدون أولادهم فإنما يفعل من يفعله منهم بالإناث أنفة من العار ، وغيرة من الأزواج .

وأما قولك إن أفضل طعامهم 'لحوم الإبل على ما وصفت منها'، فما تركوا مادونها إلا احتقاراً له ، فعتمدوا إلى أجلِّها وأفضلها ، فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثرُ البهائم سُخوماً ، وأطيبُها لحوماً ، وأرقها ألباناً ، وأقلها غائلةً ، وأحلاها مضغةً ، وأنه لا شيء من اللُّحمان يُعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فَضْلها عليه .

وأما تحاربهم ' وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويحكمهم ' فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفاً ، وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف ، وإنه إنما يكون في المملكة العظيمة أهلٌ بليت واحدٍ يُعرف فَضْلهم على سائر غيرهم ، فيسَلَقون إليهم أمورهم ، وينقادون لهم بأرِمَّتْهم .

وأما العرب فإنَّ ذلك كثيرٌ فيهم ، حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكاً أجمعين مع أنفُسهم من أداء الخراج والوطث (أي الضرب الشديد بالرجل على الأرض) بالعسف .

وأما اليمن التي وصفتها الملك ، فإنما أتى جدَّ الملك إليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على 'ملك' متدسِّق ، وأمر 'بجتماع' ، فأتاه مسلوباً طريداً مستصرخاً ، ولولا

ما وترب به مَنْ يليه من العرب لئال إلى مجال ، وَلَوْ جَدَّ مَنْ يُجِيد الطَّعَان ،
وَيَفْضُصِب للأحرار ، من غلبة العبيد الأشرار .

قال : فعجب كسرى لما أجابه النعمان به ، وقال : إنك لأهل لموضعك من
الرياسة في أهل إقليمك ، ثم كساه من كسوته وسرَّحه إلى موضعه من الحيرة .

فلما قدِم النعمان الحيرة وفي نفسه ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص
العرب وتهجين أمرهم ، بعث إلى أكثم بن صيفي ، وحاجب بن زُرارة التميميين ،
وإلى الحارث بن ظالم ، وقيس بن مسعود البكريتين ، وإلى خالد بن جعفر ،
وعلقمة بن علاثة ، وعامر بن الطفيل العامريين ، وإلى عمرو بن الشريد السلمي ،
وعمر بن معديكرب الزبيدي ، والحارث بن ظالم المرِّي - فلما قدِموا عليه
في الحورنس قال لهم : قد عرفت هذه الأعاجم ، وقرب جوار العرب منها ،
قد سمعت من كسرى مقالات ، تتخوَّف أن يكون لها غورٌ ، أو يكون إنما
أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولاً كبعض طباطمته في تأديتهم الخراج
إليه ، كما يفعل بملوك الأمم الذين حولهُ - فاقتصَّ عليهم مقالات كسرى ، وما
ردَّ به عليه فقالوا : أيُّها الملك وفقك الله ، ما أحسن ما ردَّدت ، وأبلغ ما
حجَّجته ، فمرنا بأمرك ، وادعنا إلى ما شئت .

قال : إنما أنا رجلٌ منكم ، وإنما ملكتُ وعزَّزتُ بكمانيكم وما يتخوَّف
من ناحيتكم ، وليس شيء أحبَّ إليَّ مما سدد الله به أمركم ، وأصلح به شأنكم ،
وأدام به عزَّكم والرأي أن تسيروا بجماعتكم أيُّها الرُّهط ، وتنطلقوا إلى كسرى
فإذا دخلتم : نطق كلُّ رجلٍ منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظنَّ ، أو
حدثته نفسه ، ولا ينطق رجلٌ منكم بما يُفضُّبه ، فإنه ملك عظيم السلطان كثير
الأعوان ، مترَف مُعجَّب بنفسه ، ولا تتخذوا له الخذال الخاضع الذليل ، وليكن
أمرئين ذلك ، تظهر به دماثة حُلومكم ، وفَضْل منزلتكم ، وعظيم أخطاركم ، وليكن

أول من يَبْدَأُ منكم بالكلام (أكتم بن صيفي) ثم تَتَسَابَعُوا على الأمر من منازلكم التي وضعتكم بها فانما دعائي إلى التقدمة إليكم علمي بميل كل رجل منكم إلى التقدم قبل صاحبه ، فلا يكونَنَّ ذلك منكم فيجد في آدابكم مطمئناً ، فانه ملكٌ مُتَرَفٌ ، وقادرٌ مُسَلِّطٌ . ثم دعا لهم بما في خزانته من طرائفٍ حُلُلٍ الملوك وأعطى كل رجل منهم حُلَّةً ، وعممه عمامة ، وختمه بياقوتة ، وأمر لكل رجل منهم بنجبية مَهْرِيَّة ، وفَرَسٍ نَجْبِيَّةٍ ؛ وكتب معهم كتاباً :

أما بعد : فإن الملك ألقى إليّ من أمر العرب ما قد علم ، وأجبتّه بما قد فهم مما أُحْبِبْتِ أَنْ يكون منه على علم ، وَلَا يَتَلَجَّجُ في نفسه أن أمة من الأمم التي احتجزت دونه بمملكتها ، وحمّت ما يليها بفضل قوّتها ، تَبْلُغُهَا من الأمور التي يَتَعَزَّزُ بها ذُوُو الحزم والقوة والتّديب والمكيّدة - وقد أوفدتُ أيّها الملك رهطاً من العرب ، لهم فضل في أحسابهم وأنسابهم ، وعقولهم وآدابهم ، فليسمع الملك وليغمض لا عَن جفاء إن ظهر من منطقهم ، وليكرمني باكرامهم ، وتعيّجّل سراحهم .

وقد نَسَبْتَهُمْ في أسفل كتابي هذا إلى عشائريهم .

فخرج القوم في أهْبَتِهِمْ ، حتى وقفوا بباب كسرى بالمدائن ، فدفعوا إليه كتاب النعمان ، فقَرَأَهُ وأمر بإتزالهم إلى أن يجلس لهم مجلساً يسمع منهم ؛ فلما أن كان بعد ذلك بأيام ، أمر مرارزبته ، ووُجُوهُ أهل مملكته فحَضَرُوا وجلسوا على كراسي عن يمينه وشماله ، ثم دعا بهم على الولاء والراتب التي وصفهم النعمان بها في كتابه وأقام التشرّجان ليؤدّي إليه كلامهم ، ثم أذن لهم في الكلام .

فقام أكتم بن صيفي فقال : إن أفضل الأشياء أعاليها ، وأعلى الرجال ملوكها ، وأفضل الملوك أعمها نفعاً ، وخيرُ الأزمنة أخصبُها ، وأفضل الخطباء أصدقها .

الصدق منجاة ، والكذبُ مَهْوَاةٌ ، والتشرُّجاجة ، والحزم مركب صعب

والمعجز مركب وطيء - آفة الرأي الهوى، والمعجز مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر، حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة، وإصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعي، من فسدت بطائنته كان كالغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير بها، وكثر الملوك من خسافه البريء، المرء يعجز لا محالة، أفضل الأولاد البررة، خير الاعوان من لم يراء بالنصيحة، أحق الجنود بالنصر من حسنت سريره، يكفيك من الزاد ما بلغتك المحل، حسبك من شر سماعه، الصمت حكم، وقليل فاعله، البلاغة الإيجاز، من شدد نفتر، ومن تراخى تألف. فتعجب كسرى من أكرم؛ ثم قال: ويحك يا أكرم ما أحكمك وأوثق كلامك! لولا وضعك كلامك في غير موضعه، قال أكرم: الصديق ينبغي عنك لا الوعيد. قال كسرى: لو لم يكن للعرب غيرك لكفى. قال أكرم: رب قول أنفذ من صول.

ثم قام حاجب بن زرارة التميمي وقال: وري زنديك، وعلت يدك، وهيب سلطانك - إن العرب أمة قد غلظت أكبادها، واستحصدت مرثتها، ومنعت دريتها، وهي لك وامقة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتتها، سامعة ما ساعتها، وهي العلقم مرارة، وهي الصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة.

نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك، ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة، وعشائرنا فينا سامعة مطيعة، إن نوب لك حامدين خير أ، فلك بذلك عموم محمدتنا وإن ندم لم نخص بالذم دونها؛ قال كسرى: يا حاجب، ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها؛ قال حاجب: بل زئير الأسد بصولتها، قال كسرى: كفى ذلك؛ ثم قام الحارث البكري فقال: دامت لك الملكة باستكمال جزيل حظها، وعلو سناها، من طال رشاؤه كثر متجه^١، ومن ذهب ماله قل منحه^٢، تناقل الأقاويل يعرف اللب، وهذا مقام سيوجف^٣ بما تنطبق به الركب، وتعرف به كنه حالنا المعجم والعرب، ونحن جيرانك الأدنون، وأعوانك المعينون، خيولنا

(١) المتح: الاستقاء (٢) أوجفته: أي أجريته

جعة، وجيوشنا فخمة، إن استنجدتنا فغير رُبُض، وإن استطرقتنا فغير جَهْض، وإن طلبتنا فغير غَمْض، لا ننثني لذُعر، ولا نتنكر لدهر؛ رماحنا طوال؛ وأعمارنا قصار، قال كسرى: أنفسٌ عزيزة وأمةٌ ضعيفة، قال الحارث: أيها الملك وأنثى يكون لضعيف عزة أو لضعيف مرّة؟ قال كسرى: لو قصر عمرُك لم تستول على لسانك نفسك، قال الحارث: أيها الملك، إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة مُغرراً بنفسه على الموت؛ فهي منيةٌ استقبلها، وجنان استدبرها؛ والعرب تعلم أني أبعث الحرب 'قدماً'، وأحبسها؛ وهي تصرف بها^٢ حتى إذا جاشت نارها، وسعرت لظاها وكشفت عن ساقها، جعلتُ مقادها رُمحي، وبرقها سيفي، ورعدّها زئيري، ولم أقصر عن خوض خضخاضها، حتى أنفَست في غمرات الجحججها وأكون 'فلذا' لفرساني إلى 'محبوبة' كبشها، فأستعطرها دماً، وأترك حماها جزر السباع وكل سرّ قشعهم. ثم قال كسرى لمن حضره من العرب: أكذاك هو؟ قالوا: فعاله أنطق من لسانه، قال كسرى: ما رأيت كالיום وفداً أحشد ولا شهوداً أوّفد.

ثم قام عمرو بن الشريد السلمي فقال: أيها الملك، نعم بالسك، ودام في السرور حالك، إن عاقبة الكلام متبذرة، وأشكال الأمور معتبرة، وفي كثير ثقلة وفي قليل بلغة، وفي الملوك سورة العزّ، وهذا منطلق له ما بعده: شرف فيه من شرف، وتخل فيه من تخل، لم نأت لضيئكم، ولم نقد لسخطك، ولم نتعرض لرفدك، إن في أموالنا منتقداً، وعلى عزنا معتمداً، إن أوريثنا ناراً أثقبتنا، وإن أودد دهر بنا اعتدلنا، إلا أنتم مع هذا لجوارك حافظون، ولمن رآكم كافحون حتى يُجئمَ الصدر، ويُستطاب الخبر. قال كسرى: ما يقوم قصد منطلقك بإفراطك ولا مدحك بدمك. قال عمرو: كفى بقليل قصدي هادياً، وبأسر إفراطي مخبراً

ولم يَلَمَّ من غَرَبَتْ نفسه عما يعلم، ورضي من القصد بما بلغ . قال كسرى :
ما كلُّ ما يعرف المرءَ يَنْطِقُ به ، إجلِس .

ثم قام خالد بن جعفر الكلبي فقال : أحضر الله الملك إسماعداً ، وأرشده
إرشاداً، إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصّة ، وعيُّ المنطق أشد من عي
السكوت ، وعِثَار القول أنكأ عن عِثَار الوعث ، وما 'فرصة المنطق عندنا إلا بما
نَهَوى ، و'غصّة المنطق بما لا نهوى غير 'مستساغة ، وتركى ما أعلم من نفسي ويُعلم
من سمعي أننى له مطيق ، أحب إليّ من تكلفى ما أُتخوّف ويُتخوّف منى . وقد
أوفدنا إليك مَلِيكنا النُشَمان : وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف
والإحسان ، أنفُسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك
بالوفاء رهينة . قال كسرى : نطقَت بعقل ، وسمرت بفضل ، وعلوت بنُبل .

ثم قام علقمة بن 'علائة العامري فقال : نهجَت لك 'سبل الرشاد، وخضعت لك
رقاب العباد، إن للأقاويل مناهج ، وللآراء موالج ، وللعويص مخارج ، وخير
القول أصدقه ، وأفضلُ الطلب أنجحهُ - إنّا وإن كانت الحبة 'أحضرتنا، والوفادة
قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل ممن عزُب عنك ، بل لو قست كلّ رجل
منهم وعلمت منهم ما علمنا، لوجدت له في آبائه دُنيا أنداداً وأكفاء ، كلهم إلى
الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأي الفاضل ، والأدب النافذ
معروف ، يحمي حماه ، ويروي نداماه ، ويذود أعداه ، لا تخمد ناره ، ولا يَحْتَرزُ
منه جاره ؛ أيها الملك ، من يَبِلُ العرب يعرفه فضلهم ، فاصطنع العرب فإنها الجبال
الرّواسي عزا ، والبحور الزواجر طمياً والنجوم الزواهر شرفاً ، والحصى عدد أفمان
تعرف لهم فضلهم يُعزّوك ، وإن تستصرخهم لا يَخْذُلوك ؛ قال كسرى ، وخشي
أن يأتى منه كلام يحمله على السخط عليه : جسبُك أبلغت وأحسننت .

ثم قام قيس بن مسعود الشيباني فقال : أطابَ الله بك المرشد ، وجنبك

المصائب ، ووقيتك مكروه الشدائد، ما أحقنا إذ أتيناك بإسماعك ما لا يُحنتق صدرك ولا يزرع لنا حقدًا في قلبك ، لم تقدم أيها الملك لمساماة ، ولم تنتسب لمعاداة ولكن لتعلم أنت ورعييتك، ومن حضرك من وفود الأمم ، أنا في المنطق غير محجّمين ، وفي الناس غير مقصرين ، إن جُورينا فغير مسبوقين، وإن سَومينا فغير مغلوبين ؛ قال كسرى : غير أنكم إذا عاهدتم غيرُ وافين ، وهو يعرض به في تركه الوفاء بضمانه السَّواد ؛ قال قيس : أيها الملك ، ما كنت في ذلك إلا كواف عُدرَ به ، أو كخافر أخفِرَ بذمته ؛ قال كسرى : ما يكون لضعيف ضمان، ولا لذلّيل خفارة. قال قيس : أيها الملك ، ما أنا فِيا أخفِر من ذمتي أحقُّ بِالزّامي العارَ منك فِيا قَتيل من رعييتك ، وانتَهك من حرمتك، قال كسرى : ذلك لأن من اتَّعَم الخونة واستنجد الأثمة ، ناله من الخطأ ما نالني ، وليس كل الناس سواء - كيف رأيت حاجبَ بن زُرارة لم يحكم قواه فيبرم، ويعهد فيوفي، ويمدُّ قَيْنَجَزُ ؟؟ قال : وما أحقه بذلك وما رأيتُهُ إلا لي ، قال كسرى : القوم بزل ١ فأفضلُها أشدُّها .

ثم قام عامر بن الطفيل العامري فقال : كثيرُ فنون المنطق، وليس القول أعمى من حنْدِس الظلماء، وإنما الفخري في الفِعال والعجزي في النجدة ، والسَّؤدد مطاوعة القدرة، وما أعلمك بقدرنا، وأبصرك بفضلنا، والحرى ، إن أدالت الأيام وثابت الأحلام، أن تُحدِث لنا أموراً لها أعلام، قال كسرى : وما تلك الأعلام؟ قال : مجتمع الأحياء من ربِعة ومُضر على أمر يُذكر ؛ قال كسرى : وما الأمر الذي يُذكر ؟ قال عامر : مالي علم بأكثر مما خبّرني به مخبّر ؛ قال كسرى : متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ قال : لست بكاهن ، ولكنني بالرُّمُح طاعن ؛ قال كسرى : فإن أذاك آت من جهة عينك الوَوراء، ما أنت صانع ؟ قال : ما هيبتني في قفائي بدون هيبتني في وجهي وما أذهب عيني عَيْثٌ ، ولكن مُطاعة العَبث .

ثم قام عمرو بن معديكرب الزبيدي فقال: إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتداد ، وعفو الرأي خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الخبرة ، فاجتنب طاعتنا بلفظك واكنظم بادرتنا بجملك ، وألن لنا كنفك يسلس لك قيادنا ، فإننا أناس لم يؤقتس صفاتنا قراع مناقير من أراد لنا قضمًا ، ولكن منعنا حمانا من كل من رام لنا هضمًا

ثم قام الحارث بن ظالم المرثي فقال : إن من آفة المنطق الكذب ، ومن لؤم الأخلاق الملتق ، ومن خطئ الرأي خفة الملك المستلط ، فإن أعلمناك أن مواجعتنا لك عن ائتلاف ، وانقيادنا لك عن تصاف ، فما أنت لقبول ذلك منا بخلق ، ولا للاعتداع عليه بحقيق ، ولكن الوفاء بالعهود ، وإحكام ولث العقود ، والأمر بيننا وبينك معتدل ، ما لم يأت من قبلك ميل أو زلل ؛ قال كسرى : من أنت ؟ قال : الحارث بن ظالم ، قال : إن في أسماء آبائك لدليلا على قلة وفائك ، وأن تكون أولى بالغدر ، وأقرب من الوزر ؛ قال الحارث : إن في الحق مغضبة ، والسر في التغافل ، ولن يستوجب أحد الحليم إلا مع القُدرة ، فلتُشبه أفعالك تجلسك ؛ قال كسرى : هذا فتى القوم ، ثم قال : قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وفقتن فيه متكلموكم ، ولولا أنني أعلم أن الأدب لم يُثقف أودكم ، ولم يُحكم أمركم ، وأنه ليس لكم ملك يجمعكم ، فتنتطقون عنده منطق الرعية الخاضعة الباطنة : فنطقتم بما استولى على ألسنتكم وغلب على طباعكم لم أجز لكم كثيرا مما تكلمتم به ، وإني لأكره أن أجبه وفودي ، أو أحنق صدورهم . والذي أحب من إصلاح مدبركم ، وتأسف شواذكم ، والإعذار إلى الله فيما بيني وبينكم وقد قبلت ما كان في سنطكم من صواب وصفحت عما كان فيه من خلل ، فانصرفوا إلى مليكم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته واردعوا سفهاءكم وأقيموا أودهم ، وأحسنوا أدبهم ، فإن في ذلك صلاح العامة

رُوي عن الكلبي أنه قال: كان كسرى يحفل بالعرب، ويستأنس بمشاهدتهم ويرغب في سماع محادثاتهم، ومفاخراتهم ومنافراتهم، ولم يدخر وسعاً إلا بذله للحصول على ذلك (وبما اتفق له) أن النعمان بن المنذر، كان بمجلسه يوماً. فقال له: هل في العرب من قبيلة تشرف على قبيلة؟ قال: نعم. قال: فبأي شيء؟ قال: من كانت له ثلاثة آباء متوالية رؤساء، واتصل ذلك بمزية رابعة، فبيته أشرف بيت، وإليه تدسب القبيلة، وبه تعلق على غيرها. قال: أحضر من هذه صفتهم فطلبهم النعمان فلم يصبهم إلا في آل حذيفة بن بدر، وآل ذي الجدين؛ وآل الأشعث بن قيس بن كندة؛ فأحضرهم في جملة من عشائهم؛ فعقد لهم كسرى مجلساً عاماً حضره الحكام والمدول والأعيان. ثم قال، ليتكلم كل منكم بماثر قومه وليصدق.

فانتصب حذيفة بن بدر قائماً وكان ألسن القوم فقال: قد علمت العرب أن فينا الشرف الأقدم والفخر الأعظم. فقليل له: لم ذاك يا أخافزارة؟ قال: ألسنا الدعائم التي لا ترام؟ والعز الذي لا يضام؟ فقليل له: صدقت ثم قام شاعرهم فقال:

فزاره بيت العز والعز فيهم	فزاره بدر حسب بدر نضالها ^٢
لها العزة القعساء ^٣ والحسب الذي	بناه لبدر في القديم رجالها
فهيها قد أعياء القرون التي مضت	مآثر بدر مجدها وفعالها
وهل أحد إن مد يوماً بكفه	إلى الشمس في مجرى النجوم ينالها؟ ^٤
فإن يصلحوا يصلح لذاك جميعنا	وإن يفسدوا يفسد على الناس حالها

ثم قام الأشعث بن قيس فقال: لقد علمت العرب أنا نقاتل عديدها الأكثر ونقهر جمعها الأكبر وأذننا غياث اللزبات وبؤنة المسكرات. فقليل له: لم يا أخا كندة؟ قال: لأنا ورثنا ملك كندة فاستظللنا بأفياؤه وتقلدنا منكبه الأعظم؛ وتوسطننا بمحبوحه الأكرم. ثم قام شاعرهم فقال:

(١) الأركان	(٢) محاماتها ودفاعها	(٣) الرفيعة
(٤) بتسكين الزاي: الشدائد	(٥) وسطه	

إذا قست أبيات الرجال ببيتنا وسجدت له فضلا على من يفاخر
فمن قال : كلاً أو أنا بخبطة ينافرنا يوماً فنحن نخاطر
تعالوا قفوا كي يعلم الناس أيُّنا له الفضل فيما أورثته الأكابر

ثم قام بسطام بن قيس؛ فقال: قد علمت العرب أننا بناة بيتها الذي لا يزول
ومغرس عزها الذي لا يحول؛ فقليل له: ولم يا أخا شيبان؟ قال: لأنا أدرهم
للشار وأضرهم للملك الجبار، وأقولهم للحق، وألدُّهم للخصم.
ثم قام شاعرهم فقال:

لعمري بسطام أحقُّ بفضلها وأول بيت العز عز القبائل
فسائل أبنت اللعن عن عز قومها إذا جدَّ يوم الفخر كل مناضل^١
فيخبرك الأقوام عنها فإنها وقائع جدِّ لا ملاعب هازل
ألسنا أعز الناس قوماً وأسرة وأضرهم للكبش يوم التخاذل
وقائع عز كلها ربعية^٢ تذللهم فيها رقاب المحافل
إذا ذكرت لم ينكر الناس فضلها وعاذ بها من شرها، كل قاتل
وأنا ملوك الناس في كل بلدة إذا نزلت بالناس إحدى النوازل

ثم قام حاحب بن زرارة التميمي، فقال: قد علمت العرب أننا فرع دعائنا،
وقادة زحوفها؛ فقليل له: لم ذلك يا أخا بني تميم؟ قال: لأننا أكثر الناس
عديداً، وأنجبهم طراً وليداً، وأعطاهم للجزيل، وأحمِلهم للثقل.

ثم قام شاعرهم فقال:

لقد علمت أبناء خندف أننا لنا العز قدماً في الخطوب الأوائل
وأنا كرام أهل مجد وثروة وعزٍ قديم ليس بالمتضائل
فكم فيهم من سيّد وابن سيّد أغرّ نجيب ذي فعال ونائل

(١) المجادل . (٢) نسبة إلى قبيلة ربيعة .

فسائلُ أبيتَ اللعن^١ عنا فإننا دعائم هذا الناس عند الجلائل
ثم قام قيس بن عاصم السعدي فقال: لقد علم هؤلاء أنا أرفعهم في المكرُمات
وأثبتهم في النائبات، فقبل له: لمَ ذاك يا أخا بني سعد؟ قال: لأنا أدرهم للشار،
وأمنهم للجار، لا نتكل إذا حملنا، ولا نُرام إذا حملنا، ثم قام شاعرهم فقال:
لقد علمت قيسٌ وخندفُ أننا وجلُّ تميم والجموعُ التي ترى
بأنا لبوثُ البأس في كل مازق إذا جُزَّ بالبيض الجمجم والطللى
وأنا إذا داعٍ دعانا لنجدة أجبننا سِراعاً في العلائم من دعا
فهيها قد أعيا الجميع فِعَالُهم وقامو بيوم الفخر مَسْتَعَا من سعى
فقال كسرى حينئذ: ليس منهم إلا سيد يصلح لموضعه، ثم أعظم صلاتهم
أجمعين، وردَّهم إلى أقوامهم مُعْظَمِينَ.

مناظرات المهدي ومشاورته لأهل بيته في حرب خراسان

هذا ما تراجع فيه المهدي ووزرائه، وما دار بينهم من تدبير الرأي في حرب
خراسان، أيام تحاملت عليهم العمال وأعنفَت، فحملتهم الدالة وما تقدم لهم من
المكانة على أن نكثوا بيمينهم ونقضوا موثقتهم وطرَدوا العمال، والتَّوَّأ بما
عليهم من الخراج، وحمَّل المهدي ما يُحِب من مصلحتهم ويكره من عنتهم، على
أن أقال عثرتهم واغْتَفَرَ زَلَّتْهم واحتمل دالتهم تطوُّلاً بالفضل واتساعاً بالعفو
وأخذاً بالحُجَّة ورَفَقاً بالسياسة، ولذلك لم يزل مذحَّته الله أعباء الخلافة وقلده
أمور الرعية رفيقاً بمدار سلطانه، بصيراً بأهل زمانه، باسطاً للمعدلة في رعيته
تسكن إلى كنفه وتأنس بعفوه، وتثبَّت بحلمه، فإذا وقعت الأقضية اللازمة
والحقوق الواجبة، فليس عنده هوادة ولا إغضاء ولا مداهنة، أثره للحق،
وقياماً بالعدل، وأخذاً بالحزْم، فدعا أهل خراسان الاعتراض بحلمه والثقة

(١) أبيت اللعن: بغضته ومنعته أي أنك لا تفعل ما يوجب لعنك بل
تفعل ما تحمد وتمدح به.

بعفوه : أن كسروا الخراج وطرّدوا العمال وسألوا ما ليس لهم من الحق ، ثم خلّطوا احتجاجاً باعتذار ، وخصومة بإقرار ، وتصدّلاً باعتلال ؛ فلما انتهى ذلك إلى المهدي خرج إلى مجلس خلّائه ، وبعث إلى نفرٍ من لجنّته ووزرائه ، فأعلمهم الحال واستفهمهم للرّعية ، ثم امر الموالى بالابتداء ؛ وقال للعباس بن محمد : « أي عمّ ، تعقب قولنا وكن حكماً بيننا وأرسلّ ولديه : (موسى وهارون) فأحضرهما الأمر وشاركهما الرأي ، وأمر محمد بن الليث بحفظ مُراجعتهم وإثبات مقالتهن في كتاب .

فقال سلام صاحب المظالم :

أيها المهدي ، إن في كل امر غاية ، ولكل قوم صناعة ، استغرقت رأيهم ، واستغرقت أشغالهم ، واستنفدت أعمارهم ، وذهبوا بها وذهبت بهم ، وعُرفوا بها وعُرفت بهم ، ولهذه الأمور التي جعلتنا فيها غاية ، وطلبت معونتنا عليها اقوام من أبناء الحرب ، وساسة الأمور ، وقادة الجنود ، وفرسان الهزاهز ، وإخوان التجار ، وابطال الوقائع ، الذين رشحتهم سبجالها ، وفأتم ظلالها ، وعضتهم شدائدُها وفرمتهم نواجيدُها ؛ فلو عجمت ما قبيلتهم وكشفت ما عندهم لوجدت نظائر تؤيد امرّك ، وتجارِبَ قوافق نظرك واحاديث تقوِّي قلبك ؛ فأما نحن معاشر عمالك واصحاب دواوينك فحسّن بنا ، وكثير منا ان نقوم بشغل ما حملتنا من عملك واستودعنا من امانتك وشغلنا من إمضاء عدلك وإنفاذ حكمك وإظهار حقك .

فأجابه المهدي : إن في كل قوم حكمة ، ولكل زمان سياسة ، وفي كل حال تدبيراً يُبطل الآخر الأول ، ونحن على علم بزماننا وتدبير سلطاننا .

قال : نعم أيها المهدي انت متبّع الرأي ، وثيق العقيدة ، قوي المنّة ، بليغ الفطنة معصوم النية ، محضور الروية ، مؤيد البدئية ، موثّق العزيمة ، مُعان بالظفر ، مهدي إلى الخير ، إن هممت ففي عزمك مواقع الظن ، وإن اجتمعت صدّع فعلك مُلتبس الشك ، فاعزم يدي الله إلى الصواب قلبك ، وقلّ يُنطق الله بالحق لسانك ، فإن جنودك آجة وخزائنك عامرة ، ونفسك سخية ، وأمرك نافذ .

فأجابه المهدي : إن المشاورة والمناظرة بابا رحمة ومفتاحا بركة ، لا يهلك عليها رأيٌ ولا يتغفل معها حزم فأشيروا برأيكم وقولوا بما يحضركم ، فإني من ورائكم ، وتوفيقُ الله من وراء ذلك .

قال الربيع : أيها المهدي إن تصارييف وُجوه الرأي كثيرة ، وإن الإشارة ببعض معاريف القول يسيرة ، ولكن خراسان أرضٌ بعيدة المسافة ، متراخية الشققة متفاوتة السبيل ، فإذا ارتأيت من مُحكم التدبير ومُبرم التقدير ولُباب الصواب رأياً ، قد أحكمه نظرك ، وقلّبه تدبيرك ؛ فليس وراء مذهب طاعن ، ولا دونه مُعلّق لخصومة عائب ، ثم خبّبت البرد به ، وانطوت الرُّسل عليه كان بالحرى أن لا يصل إليهم مُحكمه ، إلا وقد حَدَثَ منهم ما ينقضه ، فما أيسرَ أن ترجع إليك الرُّسل ، وتردّ عليك الكتب بحقائق أخبارهم وشوارد آثارهم ومصادر أمورهم فتُحدث رأياً غيره وتبتدع تدبيراً سواه ، وقد انفرجت الحلقى ، وتحللت العقد ، واسترخى الحجاب ، وامتد الزمان ثم لِعلمك موقع الآخرة كمصدر الأولى ولكن الرأي أيها المهدي ، وفقك الله أن تصرف إجمالة النظر وتقلب الفكر فيما جمعنا له ، واستشرتنا فيه من التدبير لحربهم والحيل في أمرهم إلى الطلب لرجل ذي دين فاضل وعقل كامل وورع واسع ليس موصوفاً بهوى في سواك ، ولا متهماً في أثره عليك ، ولا ظنيناً على دُخلة مكروهة ولا منسوباً إلى بدعة محدورة ، فيقصد في ملكك ويُريّض الأمور لغيرك ، ثم تُسند إليه أمورهم وتُفوّض إليه حربهم وتأمُرُه في عهدك ، وصيتك إياه بلزوم أمرك ما لزمه الحزم : وخلاف نهيك إذا خالفه الرأي عند استحالة الأمور واشتداد الأحوال التي ينقض^١ أمر الغائب عنها ويثبت رأي الشاهد لها ، فإنه إذا فعل ذلك ؛ فوائب أمرهم من قريب وسقط عنه ما

(١) ينقض : ينهدم .

يأتي من بعيد ، تمت الحيلة ، وقويت المكيدة ، ونفذ العمل وأُحْدِ النظر إن شاء الله .

قال الفضل بن عباس :

أيها المهدي ، إن وليّ الأمور وسائس الحُرُوب رُبما نَحَى جنوده وفرّق أمواله في غير ما ضيق أمر حَزْبِهِ ، ولا ضغطة حالٍ اضطرته فيقعد عند الحاجة إليها وبعد التفرقة لها عديماً منها فاقدأ لها ، لا يثق بقوة ولا يصول بعدّة ، ولا يفرغ إلى ثقة ؛ فالرأي لك أيها المهدي وفَتَقك الله أن تعفي خزائنك من الإنفاق للأموال وجنودك من مكابدة الأسفار ومقارعة الأخطار وتغريز القتال ، ولا تُسرع للقوم في الإجابة إلى ما يطلبون ، والعطاء لما يسألون ، فيفسدُ عليك أدبُهم ونَجْرَتُهم من رعيّتك غيرهم ولكن اغزهم بالحيلة وقاتلهم بالمكيدة وصارعهم باللين وخاتلهم بالرفق وأبرق لهم بالقول وأرعِد نحوهم بالفعل وابعث البعث وجنّد الجنود وكتب الكتائب واعقد الأولوية وانصب الرّايات وأظهر أنك موجّه إليهم الجيوش مع أحقنق قوّادك عليهم وأسوئهم أثراً فيهم ، ثم أدسّ الرسل ، وابثث الكتب ، وضع بعضهم على طمع من وعدك وبعضاً على خوف من وعيدك ، وأوقد بذلك وأشباهه نيران التحاسد فيهم واغرس أشجار التنافس بينهم ، حق تملأ القلوب من الوحشة ، وتنطوي الصدور على البغضة ، ويدخل كلاً من كل الحذر والهيبه ، فإن مرام الظفر بالغيلة والقتال بالحيلة والمناسبة بالكتب ، والمكابدة بالرسل ، والمقارعة بالكلام اللطيف المُدخل في القلوب ، القويّ الموقع من النفوس ، المعقود بالحجج الموصول بالحيل المبني على اللين الذي يستميل القلوب ، ويسترق العقول والآراء ، ويستميل الأهواء ، ويستدعي المواتاة - أنفذ من القتال بظُبات السيوف وأسنة الرماح ، كما أن الواليّ الذي يستنزل طاعة رعيّته بالحيل ، ويفرق كلمة عدوّه بالمكابدة أحكم عملاً وألطفُ منظرأ وأحسن سياسة ، من الذي لا ينال ذلك إلا بالقتال ، والإتلاف للأموال والتغريز ، والأخطار .

وليعلم المهدي ، أنه إن وجّه لقتالهم رجلاً لم يسرْ إلا يجنود كثيفة تخرج عن حال شديدة ، وتُقدِّم على أسفار ضيّقة وأموال مُتفرقة وقوادر غشّة إن ائتمنهم استنفدوا ماله ، وإن استنصَحهم كانوا عليه لاله . قال المهدي : هذا رأيٌ قد أسفر نورُهُ ، وأبرق ضوءُهُ ، وتمثل صوابهُ للعُيون ومجدُّ حقه في القلوب ولكن فوق كل ذي علم عليم . ثم نظر إلى ابنه علي فقال : ما تقول ؟

قال عليّ : أيها المهدي ، إن أهل خراسان لم يخلعوا عن طاعتك ، ولم ينصبوا من دونك أحداً يقدح في تغيير ملكك ويُريّض الأمور لفساد دولتك ، ولو فعلوا لكان الخطب أيسر والشأن أصغر والحال أدلّ ، لأن الله مع حقه الذي لا يخذله وعند مواعده الذي لا يُخلفه ، ولكنهم قوم من رعيتك وطائفة من شيعتك الذين جعلك الله عليهم والياً وجعل العدل بينك وبينهم حاكماً ، طلبوا حقاً وسألوا إنصافاً فإن أجبت إلى دعوتهم ونفست عنهم قبل أن يتلاحم منهم حال ، أو يحدث من عندهم فتق ، أطعت أمر الرب وأطفأت نائرة الحرب ، ووفرت خزائن المال وطرحت تقرير القتال ، وحمل الناس محمل ذلك على طبيعة جودك وسجية حلمك وأسجاع خليقتك ، ومعدلة نظرك ، فأمنت أن تُنسب إلى ضعف ، وأن يكون ذلك فيما بقي دُرْبَةً ، وإن منعتهم ما طلبوا ولم تجبهم إلى ما سألوا اعتدلت بك وبهم الحال ، وساويتهم في ميدان الخطاب . فما أربُ المهدي أن يعمدَ إلى طائفة من رعيتة مُقرّين بملكته مُذعنين بطاعته لا يخرجون أنفسهم عن قدرته ، ولا يبرؤونها من عبوديته فيملكّهم أنفسهم ، ويخلع نفسه عنهم ويقف على الحيل معهم ، ثم يجازيهم السوء في حدّ المنازعة ومضار المخاطرة . أيربد المهدي وفقه الله الأموال ؟ فلمعري لا ينالها ، ولا يظفر بها إلا بإنفاق أكثر منها مما يطلب منهم ، وأضعاف ما يدعي قبلكم ، ولو نالها فحُمِلت إليه أو وُضعت بخرائطها بين يديه ، ثم تجافى لهم عنها واطال عليهم بها ، لكان مما إليه يُنسب وبه يُعرف من الجود

الذي طبعه الله عليه وجعل قرّة عينه ونهمة نفسه فيه ، فإن قال المهدي هذا رأي مستقيم سديد في أهل الخراج الذين شكوا ظلم 'عمالنا' ، وتحامل ولاتنا فأما الجنود الذين نقضوا موثيق العمود وأنطقوا لسان الإرجاف ، وفتحوا باب المعصية وكسروا قيد الفتنة ، فقد ينبغي لهم أن أجعلهم نكالا لغيرهم وعظة لسواهم ، فيعلم المهدي أنه لو أتى بهم مغلولين في الحديد ، مقرّبين في الأصفاد ، ثم اتسع لحقن دماهم عفوه وإقالة عثرتهم صفحه واستبقاهم لما فيه من حبه ، أو لمن بإزائهم من عدوه لما كان بدعا من رأيه ولا مستنكرا من نظره .

لقد علمت العرب أنه أعظم الخلفاء والملوك عفواً وأشدّها وقماً وأصدقها صولةً وأنه لا يتعاضده عفواً ، ولا يتكأده صفحاً ، وإن عظم الذنب وجل الخطب ، فالرأي للمهدي وفقه الله تعالى أن يحلّ عقدة الغيظ بالرجاء لحسن ثواب الله في العفو عنهم وأن يذكر أدلى حالاتهم وضيمّة عيالاتهم برّاً بهم ، وتوسّعاً لهم فإنهم إخوان دولته وأركان دعوته ، وأساس حقه الذين بعزّتهم يصول ، وبحجّتهم يقول ، وإنما مثلهم فيما دخلوا فيه من مساخطه وتعرّضوا له من معاصيه ، وانطورا فيه عن إجابته ، ومثله في قلة ما غيّر من رأيه فيهم أو نُقِلَ من حاله لهم ، أو تغيّر من نعمته بهم كمثّل رجلين أخوين متناصرين متوازيين أصاب أحدهما خبيل عارض وهوّ حادث فنمض إلى أخيه بالأذى وتحامل عليه بالكره ، فلم يزد أخوه إلا رقةً له ولطفاً به واحتيالاً لمداواة مرضه ومرجعة حاله عطفاً عليه وبرّاً به ومرحمة له .

فقال المهدي : أما علي فقد كوى سمّت اللّسان وفض القلوب في أهل خراسان ولكل نبأ مستقر ، ثم قال : ما ترى يا أبا محمد ؟ (يعني موسى ابنه) .

فقال موسى :

أيها المهدي ، لا تسكن إلى حلاوة ما يجري من القول على ألسنتهم وأنت ترى الدماء تسيل من خلل فعلهم ، الحال من القوم يُنادي بمضمة شرّ وخفيّة

حقده ، قد جعلوا المعاذير عليها سترأ واتخذوا العلل من دونها حجاباً ، رجاء أن يدافعوا الأيام بالتأخير ، والأمور بالتطويل ، فيكسروا حيل المهدي فيهم ويغنوا جنوده عنهم ، حتى يتلاحم أمرهم ، وقتلاحق مادتهم ، وتستفحل حربهم وتستمر الأمور بهم ؛ والمهدي من قولهم في حال غيرة ولباس أمانة ، قد فتر لها وأنس بها ، وسكن إليها ، ولولا ما اجتمعت به قلوبهم ، وبردت عليه جلودهم من المناصب بالقتال ، والإضممار للقراع عن داعية ضلال أو شيطان فساد لرهبوا عواقب أخبار الولاة ، وغب سكون الأمور فليشدد المهدي - وفقه الله - أزره لهم ، ويكتسب كتابته نحوهم وليضع الأمر على أشد مسا محضرة فيهم ، وليوقن أنه لا يعطيهم خطية يريد بها صلاحهم إلا كانت دربة إلى فسادهم ، وقوة على معصيتهم ، وداعية إلى عودتهم وسبباً لفساد من بحضرته من الجنود ، ومن ببابه من الوفود ، الذين إن أقرهم وتلك العادة وأجراهم على ذلك الأرب ، ولم يبرح في فتق حادث ، وخلاف حاضر ، لا يصلح عليه دين ، ولا تستقيم به دنيا ، وإن طلب تغييره بعد استحكام العادة ، واستمرار الدربة لم يصل إلى ذلك إلا بالعقوبة المفرطة ، والمؤونة الشديدة ، والرأي للمهدي وفقه الله أن لا يُقبل عثرتهم ، ولا يقبل معذرتهم حتى تطأهم الجيوش ، وتأخذهم السيوف ، ويستحرق بهم القتل ويحرق بهم البلاء ويُطبق عليهم الذل ، فإن فعل المهدي ذلك كان مقطعة لكل عادة سوء فيهم ، وهزيمة لكل بادرة شر منهم ، واحتمال المهدي في مؤونة غزوتهم هذه تضع عنه غزوات كثيرة ، ونفقات عظيمة . فقال المهدي : قد قال القوم ، فاحكم يا أبا الفضل !

فقال العباس بن محمد :

أيها المهدي : أما (الموالي) فأخذوا بفروع الرأي وسلكوا جنبات الصواب وتمدوا أموراً قصراً بنظرهم عنها أنه لم تأت تجار بهم عليها - وأما (الفضل) فأشار بالأموال أن لا تنفق ، والجنود أن لا تفرق ، وبأن لا يعطى القوم ما طلبوا

ولا يُبذل لهم ما سألوا ، وجاء بأمرٍ بين ذلك استصغاراً لأمرهم ، واستهانة
بجبرهم وإغما يهيج جسيات الأمور صغارها ، وأما (علي) فأشار باللين ،
بوافراط الرِّفق وإذا جرّد الوالي لمن غمّط أمره وسفه حقه اللين بحتاً ، والخير
محضاً ، لم يخلطها بشدّة تعطيّف القلوب عن لينه ، ولا بشرّ يحبسهم إلى
خيره ، فقد ملّتهم الخلع لعذرهم ، ووسّع لهم الفرجة لثني أعناقهم ، فإن
أجابوا دعوته وقبلوا لينه من غير خوف اضطرم ولا شدة ، فذروةٌ في
رؤوسهم ، يستدعون بها البلاء إلى أنفسهم ، ويستصرخون بها رأي المهدي فيهم ،
وإن لم يقبلوا دعوته ويسرعوا لإجابته باللين المحض والخير الصُّرّاح ، فذلك ما
عليه الظنّ بهم ، والرأي فيهم ، وما قد يُشبهه أن يكون من مثلهم لأن الله
تعالى خلق الجنة وجعل فيها من النعيم المقيم ، والملك الكبير ما لا يخطر
على قلب بشر ولا تُدركه الفكر ، ولا تعلمه نفس ، ثم دعا الناس إليها
ورغبهم فيها ، فلو لا أنه خلق ناراً جعلها لهم رحمة يسوقهم بها إلى الجنة لما
أجابوا ولا قبلوا .

وأما (موسى) فأشار بأن يُعصّبوا بشدّة لا لين فيها ، وأن يُرمَوْا بشرّ
لا خير معه ؛ وإذا أخبر الوالي لمن فارق طاعته وخالف جماعته الخوف مفرداً :
والشرّ مجرداً ليس معها طمع ولا لين يثنيهم اشتدت الأمور بهم ، وانقطعت
الحال منهم إلى أحد أمرين إما أن تدخلهم الحمية من الشدة ، والأنفة من
الذلة ، والامتناع من القهر ، فيدعوهم ذلك إلى التّادي في الخلاف ، والاستبسال
في القتال والاستسلام للموت ، وإما أن ينقادوا بالكُره ويذعنوا بالقهر
على بغضة لازمة ، وعداوة باقية تورث النفاق وتعقب الشقاق ، فإذا
أمكنتهم فرصة أو ثابت لهم قدرة أو قويت لهم حال عاد أمرهم إلى أصعب
وأغلظ وأشدّ مما كان .

وقال في قول الفضل : أيها المهدي أكفى دليل وأوضح برهان ، وأبين خبر
بأن قد أجمع رأيه وحزْم نظره على الإرشاد ببعثة الجيوش إليهم ، وتوجيه

البُعوث نحوهم مع إعطائهم ما سألوا من الحق، وإجابتهم إلى ما سألوه من العدل.
قال المهدي : ذلك رأيٌ .

قال هارون : ما خلطت الشدة أيها المهدي باللين ، فصارت الشدة أمرًا
فِطامًا لما تكثره ، وعاد اللين أهدى قائد إلى ما تحب ، ولكن أرى
غير ذلك .

قال المهدي : لقد قلت قولاً بديعاً ، وخالفت فيه أهل بيتك جميعاً ، والمرء
مؤمن بما قال وظنَّين بما ادعى ، حتى يأتي بينة عادلة وحجة ظاهرة فاخرج
عما قلت .

قال هارون :

أيها المهدي : إن الحربَ خدعة ، والأعاجم قومٌ مكررة ، وربما اعتدلت
الحال بهم ، واتفقت الأهواء منهم فكان باطن ما يُسرُّون على ظاهر ما يُعلنون
وربما افترقت الحالان ، وخالف القلبُ اللسان ، فانطوى القلبُ على محجوبة تبطن ،
واستسر بمدخولة لا تُعلن ، والطبيب الرفيق بطبه ، البصير بأمره العالم بمقدم يده
وموضع ميسميه ، لا يتعجل بالدواء حتى يقع على معرفة الداء ، فالرأي للمهدي وفقه
الله أن يفرَّ باطن أمرهم فرَّ المسِنَّة ويمخض ظاهر حالهم مخض السقاء بتابعة
الكتب ومظاهرة الرُّسل ، وموالاته العيون ، حتى تهتك حُجُب عيونهم
وتُكشف أغنطية أمورهم ، فإن انفرجت الحال وأفضت الأمور إلى تغيير حال ،
أو دامية صلال اشتملت الأهواء عليه ، وانقاد الرجال إليه وامتمدت الأعناق نحوه
بدين يعتقدونه وإثم يستحلونه عَصَبَتهم بشدة لا لين فيها ، ورماهم بعقوبة
لا عفو معها ، وإن انفرجت العيون واهتصرت الستور ورُفِعَت الحُجُب والحال
فيها مريعة والأمور بهم معتدلة في أرزاق يطلبونها وأعمال ينكرونها ، وظلمات
يدعونها وحقوق يسألونها بما تبت سابقَتهم ودالة مناصحتهم ، فالرأي للمهدي
وفقه الله أن يتسع لهم بما طلبوا ويتجافى لهم عما كرهوا ويشعبَ من أمرهم
ما صدعوا ، ويرتق من فتنهم ما قطعوا ، ويولي عليهم من أحبوا ويداوي

بذلك مَرَضَ قلوبهم . وفساد أمورهم ، فإنما المهدي من أُمَّتِهِ وَسَوَادِ أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ
بِمَنْزِلَةِ الطَّبِيبِ الرَّفِيقِ وَالْوَالِدِ الشَّفِيقِ وَالرَّاعِي الْمُسَجَّرَبِ الَّذِي يَحْتَالُ لِمَرَابِضِ
غَنَمِهِ ، وَضَوَالِ رَعِيَّتِهِ حَتَّى يُبْرِئَ الْمَرِيضَةَ مِنْ دَاءِ عِلَّتِهَا وَيُرَدِّدَ الصَّحِيحَةَ إِلَى
أَنْسِ جَمَاعَتِهَا ؛ ثُمَّ إِنَّ خِرَاسَانَ بِخَاصَّةِ الَّذِينَ لَهُمْ دَالَّةٌ مَحْمُولَةٌ ، وَمَائَتَةٌ مَقْبُولَةٌ ،
وَوَسِيلَةٌ مَعْرُوفَةٌ ، وَحَقُوقٌ وَاجِبَةٌ ؛ لِأَنَّهُمْ أَيْدِي دَوْلَتِهِ وَسُيُوفُ دَعْوَتِهِ وَأَنْصَارُ
حَقِّهِ وَأَعْوَانُ عَدْلِهِ ، فَلَيْسَ مِنْ شَأْنِ الْمَهْدِيِّ الاضْطِغَافُ عَلَيْهِمْ وَلَا الْمُؤَاخَذَةُ
لَهُمْ ، وَلَا التَّوَعُّرُ بِهِمْ . وَلَا الْمَكَاغِفَةُ بِإِسَاءَتِهِمْ ، لِأَنَّ مَبَادِرَةَ حُسْنِ الْأُمُورِ
ضَعِيفَةٌ قَبْلَ أَنْ تَقْشُرَ ، وَمَحَاوَلَةُ قَطْعِ الْأَصُولِ ضَرِيبَةٌ قَبْلَ أَنْ تَغْلُظَ أَحْزَمُ
فِي الرَّأْيِ وَأَصَحُّ فِي التَّدْبِيرِ مِنَ التَّأْخِيرِ لَهَا وَالتَّهَانِ بِهَا حَتَّى يَلْتَمِثَ قَلِيلُهَا
بِكَثِيرِهَا وَتَجْتَمَعَ أَطْرَافُهَا إِلَى جُمْهُورِهَا .

قال المهدي : مَا زَالَ هَارُونُ يَقَعُ وَقَعَهُ الْحَيَا حَتَّى خَرَجَ خُرُوجَ الْقِدْحِ مِنْ
الْمَاءِ وَانْسَلَّ انْسِلَالُ السِّيفِ فِيمَا ادَّعَى ، قَدْ دَعَا مَا سَبَقَ مُوسَى فِيهِ فَأَنَّهُ هُوَ
الرَّأْيُ وَتَنَى بَعْدَهُ هَارُونُ ؛ وَلَكِنْ مِنْ لَأَعْنَةِ الْخَيْلِ وَسِيَاسَةِ الْحَرْبِ وَقَادَةِ النَّاسِ
إِنْ أَمَعْنَ بِهِمُ اللَّجَاجُ وَأَفْرَطَتْ بِهِمُ الدَّالَّةُ ١٢

قال صالح بن علي : لَسْنَا نَبْلُغُ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ بِدَوَامِ الْبَحْثِ وَطُولِ الْفِكْرِ
أَدْنَى فِرَاسَةٍ رَأْيِكَ وَبَعْضَ لِحَظَاتِ نَظَرِكَ ، وَلَيْسَ يَنْقُضُ عَنْكَ مِنْ بَيِّنَاتِ
الْعَرَبِ وَرَجَالَاتِ الْعَجَمِ ذُو دِينَ فَاضِلٌ وَرَأْيٌ كَامِلٌ وَتَدْبِيرٌ قَوِي تُثْقَلُهُ حَرْبُكَ
وَتُسْتَوْدَعُ جُنْدُكَ ، مَنْ يَحْتَمِلُ الْأَمَانَةَ الْعَظِيمَةَ وَيَضْطَلِعُ بِالْأَعْيَاءِ الثَّقِيلَةِ ، وَأَنْتَ
بِحَمْدِ اللَّهِ مِمَّوْنَ النَّقِيبَةِ مَبَارَكِ الْعَزِيمَةِ ، تَخْبُرُ التَّجَارِبَ ، مَحْمُودُ الْعَوَاقِبِ ،
مَعْصُومُ الدِّينِ . فَلَيْسَ يَقَعُ اخْتِيَارُكَ وَلَا يَقِفُ نَظَرُكَ عَلَى أَحَدٍ تَوَلَّيَهُ أَمْرُكَ
وَتُسْنَدُ إِلَيْهِ ثَغْرُكَ إِلَّا أَرَاكَ اللَّهُ مَا تُحِبُّ وَجَمَعَ لَكَ مِنْهُ مَا تَرِيدُ .

قال المهدي : إِنِّي لِأَرْجُو ذَلِكَ لِقَدِيمِ عَادَةِ اللَّهِ فِيهِ وَحُسْنِ مَعُونَتِهِ عَلَيْهِ ،
وَلَكِنِّي أَحِبُّ الْمُؤَافَقَةَ عَلَى الرَّأْيِ وَالْإِعْتِبَارَ لِلْمَشَاوِرَةِ فِي الْأَمْرِ الْمُسْتَهْمِ .

قال محمد بن الليث : أهل خراسان قوم ذوو عزّة ومَنعة وشياطين خدعة ، زُروع الحميّة فيهم نابتة ، وملابس الأنفة عليهم ظاهرة ، فالروية عنهم عازبة والعجلة عنهم حاضرة ، تسبق سيولهم مطرهم سيوفهم عذاهم لأنهم بين سيفلة لا يعدو مبلغ عقولهم منظر عيونهم ، وبين رؤساء لا يُلجمون إلا بشدة ، ولا يُفطمون إلا بالمر ، وإن ولي المهدي عليهم وضعاً لم تنقذ له العُظماء ، وإن ولي أمرهم شريفاً تحامل على الضعفاء ، وإن آخر المهدي أمرهم ودافع حربهم حتى يصيب لنفسه من حشمة ومواليه أو بني عمه أو بني أبيه ، فاصحاً يتفق عليه أمرهم وثقة تجتمع له أملاؤهم بلا أنفة تُلزمهم ولا حِيّة تدخلهم ولا مصيبة تنفرهم ، تنفست الأيام بهم وتراخت الحال بأمرهم ، فدخل بذلك من الفساد الكبير ، والضياع العظيم ما لا يتلافاه صاحب هذه الصفة وإن جد ، ولا يستصلحه وإن جهد ، إلا بعد دهر طويل ، وشرب كبير ، وليس المهدي - وفقه الله - فاطماً عاداتهم ولا قارعاً صفاتهم بمثل أحد رجلين لا ثالث لهما ولا عدل في ذلك بهما : أحدهما لسان فاطق موصول بسمعك ويدٌ ممثلة لعينك وصخرة لا تززع وبهمة لا تُثنى ، وبازل لا يفزعه صوت الجلل ، نقي العِرْض نزيه النفس جليل الخطر ، قد اتضعت الدنيا عن قدره ، وسما نحو الآخرة بهمة فجعل الغرض الأقصى لعينه نصباً ، والغرض الأدنى لقدمه موطئاً ، فليس يقبل عملاً ، ولا يتعدّى أملاً وهو رأس مواليك وأنصح بني أبيك ، رجل قد غدّي بلطيف كرامتك ونبت في ظل دولتك ونشأ على قوائم أدبك فإن قلّدتَه أمرهم وحملته ثقلهم وأسندت إليه ثغرهم ، كان قفلاً فتحه أمرك وباباً أغلقه نهيك ، فجعل العدل عليه وعليهم أميراً ، والإنصاف بينه وبينهم حاكماً . وإذا حكم المنصفّة وسلك المعدلة فأعطاهم ما لهم وأخذ منهم ما عليهم ، غمّس في الذي لك بين صدورهم وأسكن لك السويّداء داخل قلوبهم ، طاعة راسخة العروق باسقة الفروع متائلة في حواشي عوامتهم . متمكنة من قلوب خواصهم ، فلا يبقى فيهم ريبٌ إلا نفوّه ولا يلزمهم

حَقُّ إِلَّا أَدَّوهُ ، وَهَذَا أَحَدُهُمَا . وَالْآخِرُ عُودٌ مِنْ غِيْضَتِكَ ، أَوْ نَسْبَعَةٌ مِنْ أُرْوَمَتِكَ ، فَتَيُّ السِّنِّ كَهْلُ الْحِلْمِ رَاجِحُ الْعَقْلِ مَحْمُودُ الصَّرَامَةِ مَأْمُونُ الْخِلَافِ يُجَرِّدُ فِيهِمْ سَيِّفَهُ وَيَبْسُطُ عَلَيْهِمْ خَيْرَهُ بِقَدَرِ مَا يَسْتَحِقُّونَ وَعَلَى حَسَبِ مَا يَسْتَوْجِبُونَ وَهُوَ « فُلَانٌ » أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ - فَسَلْطَةُ أَعَزُّكَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ، وَوَجْهُهُ بِالْجِيُوشِ إِلَيْهِمْ وَلَا تَمْنَعُكَ ضَرَاةُ سِنِّهِ وَحِدَاثَةُ مَوْلَاهُ فَإِنَّ الْحِلْمَ وَالثَّقَةَ مَعَ الْحِدَاثَةِ خَيْرٌ مِنَ الشُّكِّ وَالْجَهْلِ مَعَ الْكُفُولَةِ ، وَإِنَّمَا أَخْدَاثُكُمْ أَهْلُ الْبَيْتِ فِيمَا طَبَعَكُمْ اللَّهُ عَلَيْهِ ، وَاخْتَصَّصَكُمْ بِهِ مِنْ مَكَارِمِ الْإِخْلَاقِ وَمَحَامِدِ الْفِعَالِ وَمَحَاسِنِ الْأُمُورِ وَصَوَابِ التَّدْبِيرِ وَصَرَامَةِ الْأَنْفُسِ كَفِرَاخٍ عِتَاقِ الطَّيْرِ^١ الْمُحْكَمَةَ لِأَخْذِ الصَّيْدِ بِلَا تَسْذِيرٍ ، وَالْعَارِفَةَ لَوُجُوهِ النَّفْسِ بِلَا تَأْدِيبٍ ، فَالْحِلْمُ ، وَالْعِلْمُ ، وَالْعَزْمُ ، وَالْحَزْمُ ، وَالتَّوَدَّةُ ، وَالرَّفْقُ ، ثَابِتٌ فِي صُدُورِكُمْ مَزْرُوعٌ فِي قُلُوبِكُمْ ، مُسْتَحْكَمٌ لَكُمْ مَتَكَامِلٌ عِنْدَكُمْ ، بِطَبَائِعٍ لَا زِمَةَ ، وَغَرَائِزَ ثَابِتَةً .

قال معاوية بن عبد الله .

أَفْتَاءُ^٢ أَهْلَ بَيْتِكَ أَيُّهَا الْمَهْدِيُّ فِي الْعِلْمِ عَلَى مَا ذَكَرَ ، وَأَهْلَ خُبْرَاسَانَ فِي حَالِ عَزٍّ عَلَى مَا وَصَفَ ، وَابْتَغَى الْإِنِّ وَلَسَى الْمَهْدِيُّ عَلَيْهِمْ رَجُلًا لَيْسَ بِقَدِيمِ الذِّكْرِ فِي الْجُنُودِ وَلَا بَنِيهِ الصُّوتِ فِي الْحُرُوبِ وَلَا بَطْوِيلَ التَّجَرُّبَةِ لِلْأُمُورِ ، وَلَا بِمَعْرُوفِ السِّيَاسَةِ لِلْجِيُوشِ وَالْهَيْبَةِ فِي الْأَعْدَاءِ ، دَخَلَ ذَلِكَ أَمْرَانِ عَظِيمَانِ ، وَخَطَرَانِ مَهُولَانِ أَحَدُهُمَا ، أَنَّ الْأَعْدَاءَ يَغْتَمِزُونَ بِهَا مِنْهَا مَنَافِيهِ وَيَحْتَقِرُونَ بِهَا مَنَافِيَهُ وَيَحْتَرِثُونَ بِهَا عَلَيْهِ فِي النُّهُوضِ بِهِ وَالْمُقَارَعَةِ لَهُ وَالْخِلَافِ عَلَيْهِ قَبْلَ الْإِخْتِبَارِ لِأَمْرِهِ ، وَالتَّكْشُفِ لِحَالِهِ وَالْعِلْمِ بِطَبَاعِهِ . وَالْأَمْرُ الْآخِرُ : أَنَّ الْجُنُودَ الَّتِي يَقُودُ ، وَالْجِيُوشَ الَّتِي يَسُوسُ ، إِذَا لَمْ يَخْتَبِرُوا مِنْهُ الْبَأْسَ وَالنَّسْجُدَةَ وَلَمْ يَعْرِفُوهُ بِالصِّبْغِ وَالْهَيْبَةِ انْكَسَرَتْ شَجَاعَتُهُمْ وَمَاتَتْ نَجْدَتُهُمْ وَاسْتَأْخَرَتْ طَاعَتَهُمْ ، إِلَى حِينِ اخْتِبَارِهِمْ وَوُقُوعِ مَعْرِفَتِهِمْ ، وَرَبَّمَا وَقَعَ الْبَوَارِقُ قَبْلَ

(١) عِتَاقِ الطَّيْرِ : الْجَوَارِحُ مِنْهَا .

(٢) أَفْتَاءُ : أَصْحَابُ الْقُوَّةِ مِنَ الشَّبَابِ ، جَمْعُ فَتَى ، كَيْتِيمٌ وَأَيْتَامٌ .

الاختبار ، بباب المهدي - وفقه الله - رجل مهيب نبيه حنيك صيئت له نسب
ذاك وصوت عالٍ قد قاد الجيوش وساد الحروب وتألف أهل خراسان ،
واجتمعوا عليه بالمقة^١ ووثقوا به كل الثقة ، فلو ولاه المهدي أمرهم لكفاه
الله شرم

قال المهدي : جانببت قصد الرمية وأبيت إلا عصبيّة ، إذ رأيُ الحداث
من أهل بيتنا كراي عشرة حلماء من غيرنا ؛ ولكن أين تركتم ولي العهد ؟

قالوا : لم يمتنعنا من ذكره إلا كونه شبيه جده ونسيج وحده ، ومن الدين
وأهله ، بحيث يقصر القول عن أدنى فضله ، ولكن وجدنا الله عزّ وجلّ حجب
عن خلقه وسترّ دون عباده علم ما تختلف به الأيام ، ومعرفة ما تجري عليه
المقادير من حوادث الأمور ، وريب المتنون المختومة لحوالي القُرُون ، ومَوَاضِي
المُلُوك فكرهنا شُسُوعه عن محلة الملك ودار السلطان ، ومَقَرّ الإمامة
والولاية ، وموضع المدائن والخزائن ، ومستقر الجنود ومعدن الجود ، ومجمع
الأموال التي جعلها الله قُطْنَباً لدار الملك ، ومصيدة لقلوب الناس ، ومثابة
لإخوان الطمّيع وثوّار الفتن ، ودواعي البدع ، وفرسان الضلال ، وأبناء
الموت ؛ وقلنا : إن وجه المهدي ولي عهده فحدث في جيوشه وجنوده ما قد
يحدث يحنود الرسل من قبله ، لم يستطع المهدي أن يعقبهم بغيره إلا أن ينهد
إليهم بنفسه ، وهذا خطر عظيم وهول شديد ، إن تنفست الأيام بمقامه
واستدارت الحال بإمامه ، حتى يقع عيوض لا يُستغنى عنه ، أو يحدث أمر لا
بد منه صار ما بعده مما هو أعظم هولاً ، وأجل خطراً له تبعاً ، وبه متصلاً .

قال المهدي : الخطب أيسر مما تذهبون إليه ، وعلى غير ما تصفون الأمر
عليه ، نحن أهل البيت نجري من أسباب القضايا ومواقع الأمور على سابق من

العلم ، ومحتوم من الأمر ، قد أنبأت به الكتب ونبأت عليه الرسل ، وقد تناهى ذلك بأجمعه إلينا وتكامل بحذافيه عندنا ، فيه نبشّر وعلى الله نتوكل إنه لا بُدَّ لَوَلِيِّ عهدي وولي عهد عَقِيبي بعدي ، أن يقود إلى خراسان البعوث ويتّجه نحوها بالجنود ؛ أمّا الأول فإنه يقدم إليهم رسله ويُعمِل فيهم حيله ثم يخرج نشاطاً إليهم حَنِيقاً عليهم ، يريد أن لا يدع أحداً من إخوان الفِئتن ودواعي البدع ، وفُرسان الضلال إلا تَوَطَّأه بحرّ القتل وألبسه قناع القهر ، وقلده طوق الذلّ ولا أحداً من الذين عملوا في قصّ جناح الفتنة وإخماد نار البدعة ونُصْرَةِ ولَاة الحقّ إلا أجري عليهم ديمّ فضله وجداول نهله ، فإذا خرج مُزْمِعاً به 'بجتماعه عليه لم يسر' إلا قليلاً حتى تأتبه أن قد عملت حيله ، وكدحت كتبه ونفذت مكائده ، فهدأت نافرة القلوب ووقعت طائفة الأهواء واجتمع عليه المختلفون بالرضا فيميل نظراً لهم وبرّاً بهم وتعطفاً عليهم إلى عدوّ قد أخاف سبيلهم وقطع طريقهم ومنع حُجُجاً بهم بيت الله الحرام ، وسلب تجارهم رزق الله الحلال ، وأمّا الآخر ، فإنه 'يوجه' إليهم ، ثم تمعّده الحجة عليهم بإعطاء ما يطلبون وبذل ما يسألون ، فإذا سمّحت الفرق بقراباتها له وجنّح أهل النواحي بأعناقهم نحوه ، فأصغت إليه الأفئدة واجتمعت له الكلمة وقدمت عليه الوفود قصداً الأول ناحية نجعت بطاعتها وألقت بأزمئتها ، فألبسها جناح نعمته وأنزلها ظلّ كرامته وخصتها بعظيم حباه ، ثم عمّ الجماعة بالمعدلة وتعطّف عليهم بالرحمة فلا تبقى فيهم ناحية دانية ولا فرقة قاصية إلا دخلت عليها بركته ووصلت إليها منفعته فأغنى فقيرها وجبر كسيرها ورفع وضعها وزاد رفيعها ، ما خلا ناحيتين : ناحية يغلب عليها الشقاء ، وتستميلهم الأهواء ، فتستخف بدعوته ، وتبطل عن إجابته وتثاقل عن حقّه ، فتكون آخر مَنْ يَبْعث وأبطأ مَنْ يوجه ، فيصنطي عليها مَوجدة وبيتغي لها علة ، لا يلبث أن يجد بحقّ يلزمهم وأمر يجب عليهم فتستلجمهم الجيوش وتأكلهم السيوف ويستحرقهم القتل ويحيط بهم الأسر ويُفنيهم التسبّع حتى يُخترّب البلاد ويُنتّم الأولاد. وناحية لا يَبْسُط لهم أماناً ولا يقبل لهم عهداً

ولا يجعل لهم ذمّة لأنهم أول من فَتَحَ باب الفرقة وتدرّج جلباب الفتنة وربّض في شقّ العصا ، ولكنه يقتل أعلامهم ويأسر قوّادهم ويطلب هُربهم في لجج البحار وقلل الجبال وحمل الأودية وبطون الأرض تقتيلاً وتغليلاً وتنكيلاً حتى يدع الدّيار خراباً والنساء أياّمى - وهذا أمرٌ لا نعرف له في كتبنا وقتاً لا نصحّح منه غير ما قلنا تفسيراً - وأما (موسى وليّ عهدي) فهذا أوانُ توجّهه إلى خراسان وحلوله بحُرّجان وما قضى الله له من الشّخص وإليها والمقام فيها خيرٌ للمسلمين مغبّة وله بإذن الله عاقبة من المقام بحيث يغمر في لجج بحورنا ومدافع سيولنا ومجامع أمواجنا في تصاغر عظيم فضله ويتذّاب مشرق نوره ويتقلل كثير ما هو كائن منه ، فمن يصحبه من الوزراء ويختار له من الناس ؟

قال محمد بن الليث : أيها المهدي - إن وليّ عهدك أصبح لأمتك وأهل مملّتك علماً قد تثنّت نحوه أعناقها ، ومدت سمّته أبصارها ، وقد كان لقُرب داره منك ومحلّ جواره لك عُطل الحال عُغل الأمر واسع العُذر ، فأما إذا انفرد بنفسه وخلا بنظره وصار إلى تدبيره ، فإن من شأن العامة أن تتفقّد مخارج رأيه . وتستنصت لمواقع آثاره ، وتسأل عن حوادث أحواله في برّه ومرحمته ومعدّلاته ، وتدبيره وسياسته ووزرائه وأصحابه ، ثم يكون ما سبق إليهم أغلب الأشياء عليهم وأملك الأمور بهم وألزمها لقلوبهم وأشدّها استمالةً لرأيهم ، وعطفاً لأهوائهم فلا يفتأ المهدي وفقّه الله ناظرآله فيما يُقوّي عمده مملّكته ، ويسدّد أركانه ولايته ، ويستجمع رضاه أمتة بأمر هو أزين لحاله ، وأظهر لجماله ، وأفضل مغبّة لأمره ، وأجلّ موقعاً في قلوب رعيته ، وأحد حالاً في نفوس أهل مملّته ، ولا أدفع مع ذلك باستجماع الأهواء له ، وأبلغ في استعطاف القلوب عليه من مرحلة تظهر من فعله ، ومعدلة تنتشر عن أثره ، ومحبةٍ للخير وأهله - وأن يختار المهدي وفقّه الله من خيار أهل كل بلدة ، وفقهاء أهل كلّ

مصر، أقواماً تسكن العامة إليهم إذا ذكروا ، وتأنس الرعية بهم إذا وُصفوا ، ثم تسهل لهم عمارة سُبُل الإحسان ، وفتح باب المعروف ؛ كما قد كان فتح له وسهل عليه .

قال المهدي : صدقت ونصحت ؛ ثم بعث في طلب ابنه موسى ، فقال له :
 أي بُني - إنك قد أصبحت لِسَمْت وجوه العامة نُصْباً ، ولثني أعطاف الرعية غايةً ، فحسنتك شاملة وإساءتك نائية ، وأمرُك ظاهر ، فعليك بتقوى الله وطاعته فاحتمل سُخط الناس فيها ، ولا تطلب رضاهم بخلافهما ، فإن الله عز وجل كافيك من أسخطه عليك إثارك رضاه ، وليس بكافيك من يُسخطه عليك إثارك رضا من سواه - ثم اعلم أن الله تعالى في كل زمان فترة من رسله ، وبقايا من صفوة خلقه وخبايا لنصرة حقه يجدد حبيل الإسلام بدعواهم ويشيد أركان الدين بنُصرتهم ويتخذ لأوليائه دينه أنصاراً ، وعلى إقامة عدله أعواناً ، يسُدون الخلل ويُقيمون الليل ، ويدفعون عن الأرض الفساد ، وإن أهل خراسان أصبحوا أيدي دولتنا ، وسيوف دعوتنا ، الذين نستدفع المكاره بطاعتهم ، ونستصرف نزول العظام بمناصحتهم ، وندافع ريب الزمان بعزائمهم ، ونزاحم ركن الدهر ببصائرهم ، فهم عماد الأرض إذا أرجفت لُفْقُها وخوف الأعداء إذا برزت صفحتها وحصون الرعية إذا تضايقت الحال بها ، فقد مضت لهم وقائع صادقات ، ومواطن صالحات أخذت نيران الفتن ، وقسمت دواعي البدع ، وأذلت رقاب الجبارين ، ولم ينفكوا كذلك ما جروا مع ريع دولتنا ، وأقاموا في ظل دعوتنا ، واعتصموا بحبل طاعتنا التي أعز الله بها ذاتهم ورفع بها ضيعتهم ، وجعلهم بها أرباباً في أقطار الأرض ومُلوكاً على رقاب العالمين ، بعد لباس الذل وقيناع الخوف ، وإطباق البلاء ومخالفة الأسي وجهد البأس والضرّ فظاهروا عليهم لباس كرامتك ، وأنزلهم في حدائق نعمتك ثم اعترف لهم حق طاعتهم ، ووسيلة دلتهم وماتة سابقتهم ، وحرمة مناصحتهم بالإحسان إليهم ، والتوسعة عليهم ، والإجابة لمحسنهم ، والإقالة لمسيئهم .

أى بُنيّ ، ثم عليك العامة فاستدع رضاها بالعدل عليها ، واستجلب مودتها بالإنصاف لها ، وتحسن بذلك لربك ، وتوثق به في عين رعيتك ، واجعل عمّال العذر وولاء الحُجج مُقدمة بين يديّ عملك ونصفة منك لرعيّتك ، وذلك أن تأمر قاضي كل بلد ، وخيار أهل كل مصر أن يختاروا لأنفسهم رجلاً تؤتليه أمرهم ، وتجعل العدل حاكماً بينه وبينهم فإت أحسنُ حمِدَتَ ، وإن أساءَ عذِرَتَ ، هؤلاء عمّال العذر وولاء الحُجج ، فلا يسقطنّ عليك ما في ذلك ، إذا انتشر في الآفاق وسبق إلى الأسماع من انعقاد السنة العُرجفين وكسبت قلوب الحاسدين وإطفاء نيران الحروب ، وسلامة عواقب الأمور ، ولا ينفكنّ في ظل كترامتك نازلاً ، وبِعُرى حبلِك متعلقاً رجُلان : أحدهما كريمة من كرائم رجالات العرب وأعلام بيوتات الشرف ، له أدب فاضل وحلم راجح ودين صحيح . والآخر له دين غير مغموز ، وموضع غير مدخول ، بصير بتقلب الكلام ، وتصريف الرأي ، وأنحاء العرب ، ووضع الكتب ، عالم بحالات الحروب ، وتصاريف الخطوب ، يضع آداباً نافعة وآثاراً باقية من محاسنك وتحسين أمرك وتحلية ذكرك فتستشيره في حربك وتدخله في أمرك ، فرجل أصبته كذلك فهو يأوى إلى محلتي ويرعى في خضرة جِناني ، ولا تدع أن تختار لك من فقهاء البلدان وخيار الأمصار أقواماً يكونون جيرانك وسمّارك ، وأهل مشاورتك فيما تورد ، وأصحاب مُناظرتك فيما تصدّر ، فسير على بركة الله ، أصحبك الله من عونه وتوفيقه دليلاً يهدي إلى الصواب قلبك ، وهادياً ينطق بالخير لسانك .

وفود بكرة الهلالية على معاوية

استأذنت بكارة الهلالية على معاوية بن أبي سفيان فأذن لها ، وهو يومئذ بالمدينة فدخلت عليه ، وكانت امرأة قد أسنست وعشي بصرها وضعفت قوتها ، ترعش بين خادمين لها ؛ فسلمت وجلست ، فردّ عليها معاوية السلام ، وقال :

كيف أنت يا خالة؟ فقالت: بخير يا أمير المؤمنين، قال: غيَّرَكَ الدهر،
قالت: كذلك هو ذو غيَّرَ، من عاش كبر، ومن مات قُبر، فقال عمرو بن
العاص: هي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

يا زيدُ دونك فاحترق من دارنا سيفاً حُساماً في التراب دفينا
قد كُنْتُ أذخره ليوم كريمة فالיום أبرزه الزمان مصونا

وقال مروان: وهي والله القائلة يا أمير المؤمنين:

أترى ابن هِنْدٍ للخلافة مالكا هيهات ذاك وإن أراد بعيد
مَنَّتْكَ نفسك في الخلامِ ضلالة أغثراك عمرو للشقا وسعيد

وقال سعيد بن العاص: هي والله القائلة:

قد كنت أطمع أن أموت ولا أرى فوق المنابر من أُمِّيَّة خاطبا
فالله آخرَ مُدَّتِي فتناولت حق رأيت من الزمان عجائبا
في كل يوم لا يزال خطيبهم بين الجميع لآل أحمد عائبا

ثم سكتوا، فقالت: يا معاوية، كلامك أعشى بصري، وقصَّصَ حُجَّتِي،
أنا والله قائلة ما قالوا، وما خفي عليك مِنِّي أكثر، فضحك معاوية وقال:
ليس يَمْنَعُنَا ذلك من برك، اذكُرني حاجتك، قالت: أما الآن فلا.

مناظرة السيف والقلم

لزين الدين عمر بن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ هـ

لما كان السيف والقلم عُدَّتِي العمل والقول، وعُندِي الدُّرُك، فإن
عِدَمَتَهُمَا دولة فلا حول، ورُكْنِيَّيْ إِسْنَادِ الْمُلْكِ الْعُمَرَاءِ عَنِ الْخَفُوضِ
وَالْمَرْفُوعِ، ومَقْدَمَتِي نَتِيجَةُ الْجَدَلِ الصَّادِرِ عَنْهُمَا الْحَمُولُ وَالْمَوْضُوعُ فَكُتِرَتْ
أَيُّهَا أَعْظَمُ فَخْرًا وَأَعْلَى قَدْرًا فَجَلَسْتُ لهُمَا بِمَجْلِسِ الْحُكْمِ وَالْفَتْوَى، ومثلتُهُمَا فِي
الْفِكْرِ حَاضِرَيْنِ لِلدَّعْوَى، وسَوَّيْتُ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ فِي الْإِكْرَامِ، واستنظقت لسان
حَا لُهُمَا لِلْكَلَامِ، فقال القلم: بسم الله مجربها ومرساها، والنهار اذا جَلَاها

والليل إذا يَفْشَاهَا ، أما بعد حمد الله باري القلم ، ومشرّفه بالقَسَم ، وجاعله أول ما خلق ، وجعل الورق بغُصْنَه ، كما جعل الغصن بالورق ، والصلاة على القائل جفّت الأَقلامُ ، فإن القلم قصبُ السِّبَاق ، والكاتبُ بسبعة أَقلامٍ مِنْ طبقات الكُتّاب في السبع الطباق ، جَرى بالقضاء والقدر ، ونابَ عن اللسان فيما نهي وأمر ، طالما أُرْبى على البيض والسُّمُر في ضرابها وطعائها ، وقاتل في البعد ، والصوارم في القُرْب ملء أجفانها ، وماذا يُشبه القلم في طاعة ناسه ؟ ومشيه لهم على أمّ راسه ؟ قال السيف : بسم الله الخافض الرافع ، وأنزلنا الحديد فيه بأسٌ شديد ومنافع ، أما بعد حمد الله الذي أنزل آية السيف ، فعظّم بها حرمة الجرح وآمن خيفة الحيف ، والصلاة على الذي نفّذ بالسيف سطور الطروس ، وخدمته الأَقلام ماشية على الرؤوس ، وعلى آله وصحبه الذين أُرْهِقَتْ سيوفُهم ، وبُنيت بها على كَسْر الأعداء حروفهم ، فإن السيف عظيم الدّولة ، شديد الصّولة ، محاسن البِلاغة ، وأساغ ممنوع الإِساعة ، من اعتمد على غيره في قهر الأعداء تعب ، وكيف لا وفي حدّه الحدّ بين الجِدِّ واللعب ؟ (فإن كان القلم شاهداً ، فالسيف قاض ، وإن اقتربت مجادلته بأمرٍ مُستقبل قطع السيف بفعل ماض ، به ظهر الدين ، وهو العُدّة لقمع المعتدين ، حمَلته دون القلم يدُ نبيّنا ، فشرف بذلك في الأمم شرفاً بيّناً ، الجنة تحت ظلاله ، ولا سيباً حين يُسَل فتري ودقّ الدّم يخرج من خِلاله ، زُيِّنَتْ بزينة الكواكب سماء غنّده ، وصدّق القائل « السيف أصدقُ إنباء من ضده » ، لا يعبت به الحامل ، ولا يتناولهُ كالقلم بأطراف الأناجيل ، ما هو كالقلم المُشَبَّه بقوّم عرّوا عن لبوسهم ، ثم نكسوا كما قيل على رؤوسهم ، فكان السيف خلق من ماء دافق ، أو كوكب راسق مُقدراً في السرد ، فهو الجواهر الفرد ، لا يشتري كالقلم بثمن بخس ، ولا يبلى كما يبلى القلم بسواد وطمس ، كم لقائمه المُنتظر ، من أثر في عين أو عين في أثر ، فهو في جراب القوم قوام الحرب ، ولهذا جاء مطبوع الشكل داخل الضرب ، قال القلم :

أو من يُنَسِّئاً في الحِلْيَةِ وهو في الخِصام غيرُ مُبِين ، يُفَاخِرُ وهو القائمُ عن
الشَّيْءِ ، وأنا الجالس على اليَمِين ؟ أنا المخصوص بالرأي وأنت المخصوص
بالصُّدى ، أنا آلةُ الحياة وأنت آلةُ الرَّدَى ، ما لَينَتْ إلا بعد دخول السَّعِيرِ ،
وما حُدِّدَتْ إلا عن ذنْبٍ كبير ، أنت تنفعُ في العمرِ ساعة ، وأنا أفني العُمُرَ
في الطَّاعَةِ ، أنت للرَّهْبِ ، وأنا للرَّغْبِ ؛ وإذا كان بَصْرُكَ حديداً فبَصْرِي
ماءٌ ذهب : أين تقليدُكَ من اجتهادي ، وأين نجاسةُ دَمِكَ من تطهيرِ مِدادِي ؟ .
قال السيفُ : أمِثْلُكَ يُعَيَّرُ مثلي بالدِّماءِ ؟ فطالما أَمُرْتُ بعضُ فِرَاحِي
— وهي السَّكِينِ — فأصبحت من النِّسْفَاتِ في عَقْدِكَ يا مسكِينُ ، فأخِلْتُ من
الحياة جُثْثَانِكَ ، وشَقَّيْتُ أَنْفَكَ وقطعت لسانَكَ . ويكَ ! إن كنت للديوان
فَحَاسِبٌ مَهْمومٌ ، أو للانشاءِ فمُخَادِمٌ لَخَدومٍ ، أو للتبليغِ فسَاحِرٌ مَذْمومٌ ،
أو للفقهِ فناقصٌ في المعلوم ، أو للشاعرِ فسائلٌ محرومٌ ، أو للشاهدِ فخائفٌ
مسمومٌ ، أو للمعلمِ فللحيِّ القِيُوم . أما أنا فلي الوجهُ الأزهرُ والحِلْيَةُ والجوهرُ ،
والهَيْبَةُ إذْ أُشْهِرَ ، والصُّعُودُ على المُنْبَرِ ، ثم إني مملوكٌ كالك ، فإنك كناسِكَ ،
أسلك الطريق ، وأقطعُ الملائق .

قال القلمُ : أما أنا فابنُ ماءِ السماءِ ، وأليفُ الغديرِ وحليفُ الهواءِ ، أما أنت
فابنُ النارِ والدخانِ وبارئُ الأعمارِ وخوَّانُ الإخوانِ تفصلُ ما لا يفصلُ وتقطعُ
ما أمر الله به أن يوصل ، لا جرمُ أن صَعَّرَ السَّيْفُ خَدَهُ وصَقَّلَ قَفَاهُ ، وسَقَى
ماءَ حَمِيٍّ ، فَقَطَّعَ مِيعَاهُ ، يا غُرَابَ البَيْنِ ، يا عُدَّةَ الحَيْنِ ، يا مُعْتَلَّ العَيْنِ ،
ويا ذا الوَجْهِينِ ، كم افنيتِ واعدمتِ ؟ وارملتِ وأيْتَمَمْتَ ؟

قال السيفُ : يا ابنِ الطَّائِنِ ، ألسْتَ ضامراً وانت بطينٌ ، كم جَرَّيْتَ بعكسٍ ،
وتصرفْتَ في مكسٍ ، وزوَّرتَ وحرَّفتَ ، ونكَّرتَ وعرَّفتَ ، وسَطَّرتَ هجواً
وشتماً ، وخلدْتَ عاراً وذمماً ، أبشِرْ بفِرطِ رَوْعَتِكَ ، وشِدَّةِ خِيفَتِكَ ، إذا قِيسَتْ
بِياضِ صحيفتي بسوادِ صحيفتك ، فالنُّ خطابُكَ فأنتَ قصيرُ المدة ، واحسن

جوابك فعندي حدة، وأقلل من غلظتك، وجبهك، واشتغل عن دم في وجهي بقبّيح في وجهك، وإلا فأدنى ضربة مني بروم أرومتك، فتستأصلك وتجتث جرثومتك، فسقياً لمن غاب لك عن غابيك، ورعيماً لمن لو أهاب بك لسلخ إهابك .

فلما رأى القلم السيف قد احتد، ألان له من خطابه ما اشتد، وقال: أما الأدب فيؤخذ عني، وأما اللطف فيكتسب مني، فإن لَينْتَ لَينْتُ، وإن أحسنت أحسنت، نحن أهل السمع والطاعة، ولهذا نجتمع في الدواة الواحدة مناجاة، وأما أنتم فأهل الحدة والخلاف، ولهذا لا يجمعون بين سيفين في غلاف. قال السيف: أمكراً ودعوى عفة؟ لأمر ما جدع قصير أنفه! لو كنت كما زعمت ذا أرب، لما قابلت رأس الكاتب بعقدة الذنب، أنا ذو الصيت والصوت، وغراري لسان مشرّ في يرتجل غرائب الموت، أنا من مارج من ناري، والقلم من صلصال كالفضار، وإذا زعم القلم أنه مثلي، أمرت من يدق رأسه بنعلي. قال القلم: تصه فصاحب السيف بلا سعادة، كأعزل. قال السيف: مه فقلم البليغ بغير حظ مغزل، قال القلم: أنا أركى وأطهر، قال السيف: أنا أبهى وأبهى؛ فتلا ذو القلم لقلمه: إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ، وتلا صاحب السيف لسيفه: فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. فتلا ذو القلم لقلمه: إن شأنتك هو الأبتَر، قال: أما وكتابي المسطور، وبيتي المعمور، والتوراة والإنجيل، والقُرآن ذي التبجيل، إن لم تكف عني غرْبُك، وتبعد مني قرْبُك، لأكتبنك من الصم البكم، ولأسطرنّ عليك بقلمي سجلاً بهذا الحكم، قال السيف: أما ومثني المتين، وفتحني المُسِين، ولساني الرّطبين، ووجهي الصلبيين، إن لم تغب عن بياضي بسوادك، لأمسخن وجهك بمدادك؛ ولقد كسبت من الأسد في الغابة، توقّيح العين والصلابة، مع أني ما ألونك نصحاً، أفنضرب عنكم الذكر صفحاً؟ قال القلم: سلّم إليّ مع من سلم إن كنت أعلى فأنا أعلم، وإن كنت أحلى فأنا أحلم، وإن كنت أقوى فأنا أقوم، أو كنت ألوى فأنا ألوم، أو كنت

أطرى فأنا أطرب' ، أو كنت أغلى فأنا أغلب ، أو كنت أعتى فأنا أعتب' ، أو كنت أقضى فأنا أقضب . قال السيف: كيف لا أفضلك ، والمقرُّ الفلاني شادٌ أزري . قال القلم : كيف لا أفضلك وهو (عزَّ نصره) وليّ أمرني ؟!

قال الحكمُ بين السيف والقلم : فلما رأيتُ الحجتين ناهضتين ، والبينتين بينتين متعارضتين ، وعلمتُ أن لكل واحدٍ منها نسبةً صحيحةً ، إلى هذا المقرِّ الكريم ، وروايةً مُسندةً عن حديثه القديم ، لَطَفْتُ الوسيلة ، ودققت الحيلة حتى رددتُ القلم إلى كُنته ، وأغمدتُ السيف فنام ملء جفنه ، وأخرتُ بينها التّرجيح وسكّنت عما هو عندي الصّحيح ، إلى أن يحكم المقرُّ بينها بعلمه ، ويُسكّن سورة غضبهما الوافر ولجأهما المديد ببسط حلمه .

مناظرة للآمدي بين صاحب أبي تمام - وصاحب البحتري

صاحب أبي تمام : كيف يجوز لقائل أن يقول : إن البُحتريّ أشعرُ من أبي تمام ، ومن أبي تمام أخذ ، وعلى حدّثه احتذى ، ومن معانيه استقى احق قيل الطائي الأكبر ، والطائي الأصغر !

صاحب البحتري : أما الصحبة له فما صحبه ولا تتكلم له ، ولا روى ذلك أحد عنه ولا نقله ، ولا رأى قط أنه محتاج إليه ، ودليل ذلك الخبر المستفيض من اجتماعها وتعارفها عند (أبي سعيد محمد بن يوسف الثغري) وقد دخل عليه البحتري بقصيدته التي أولها * أفاقَ صَبٌّ من هوى فافينا * وأبو تمام حاضر فلما أنشدها علق أبو تمام منها أبياتاً كثيرة ، فلما فرغ من الإنشاد أقبل أبو تمام على محمد بن يوسف فقال : أيها الأمير ، ما ظننت أحداً يقدم على أن يسرق شعري ، وينشده بخصرتي حتى اليوم . ثم اندفع ينشد ما حفظه ، حتى أتى على أبيات كثيرة من القصيدة . فبهت البحتري ، ورأى أبوم تمام الإنكار في وجه أبي سعيد . فحينئذ قال له أبو تمام : أيها الأمير والله ما الشعر إلا له ؛ وإنه

أحسن فيه الإحسان كله ، وأقبل يقرظه ويصف معانيه ويذكر محاسنه ، ولم يقنع من محمد بن يوسف حتى ضاعف له الجائزة .

فمن كان يقول مثل هذه القصيدة التي هي من عين شعره وفاخر كلامه قبل أن يعرف أن أبا تمام جدير به أن يستغني عن أن يصحبه أو يتلذذ له أو لغيره من الشعراء ، على أنني لا أنكر أنه استعار بعض معاني أبي تمام ، اقرب البلدين وكثرة ما كان يطرق سمع البحتري من شعره وليس ذلك بمقتضى أن يكون أبو تمام أستاذ البحتري ، ولا بمانع أن يكون البحتري أشعر من أبي تمام . فهذا « كثير » قد أخذ من « جميل » واستقى من معانيه ، فما رأينا ان أحداً قال إن « جيلاً » أشعر منه بل هو عند أهل العلم بالشعر والرواية أشعر من جميل .

صاحب أبي تمام : إن البحتري نفسه يعترف ان أبا تمام أشعر منه ، فقد سئل عنه وعن أبي تمام فقال : إن جيته خير من جيدي ، وجيد أبي تمام كثير .

صاحب البحتري : إن كان هذا الخبر صحيحاً فهو للبحتري لا عليه لأن قوله هذا يدل على أن شعر أبي تمام كثير الاختلاف وشعره شديد الاستواء ، والمستوي من الشعر أولى بالتقدم من المختلف الشعر ، وقد اجتمعنا نحن وأنتم على أن أبا تمام يعلو علواً حسناً وينحط انحطاطاً قبيحاً ، وأن البحتري يعلو بتوسط ولا يسقط ، ومن لا يسقط ولا يسف أفضل ممن يسقط ويسف .

صاحب أبي تمام : إن أبا تمام انفرد بمذهب اخترعه وصار فيه أولاً ، وإماماً متبوعاً ، وشهيراً له حتى قيل هذا مذهب أبي تمام وطريقة أبي تمام ، وسلك الناس نهجه ، واقتفوا أثره ، وهي فضيلة عري عن مثلها البحتري .

صاحب البحتري : ليس الأمر على ما وصفت ، وليس أبو تمام صاحب هذا المذهب ، ولا بأول فيه ولا سابق إليه ، بل سلك فيه سبيل مسلم بن الوليد

واحتنذا حذوه ، وأفرط في ذلك وأسرف ، حتى زالَ عن النهج المعروف ،
والسنن المألوف .

بل إن مُسلماً غير مبتدع ، ولكنه رأى هذه الأنواع التي وقع عليها اسمُ
البديع متفرقة في أشعار المتقدمين فقصدها ، وأكثرَ في شعره منها ، ولكنه
حرص على أن يضعها في مواضعها ، ولم يسلم مع ذلك من الطعن عليه ، حتى
قيل إنه أول من أفسد الشعر ، فجاء أبو تمام على أثره واستحسن مذهبه ،
وأحب أن يجعل كل بيت من شعره غير خال من هذه الأصناف فسلك طريقاً
وعراً واستكره الألفاظ والمعاني استكراهاً ، ففسد شعره وذابت طلاوته
ونشيف ماؤه ، فقد سقط الآن احتجاجكم باختراع أبي تمام لهذا المذهب وسبقه
إليه ، وكل ما في المسألة أنه استكثر منه وأفرط فكان إفراطه من أعظم
ذنوبه ، وأكبر عيوبه .

أما البحتري فإنه ما فارق عمود الشعر ، وطريقته المعروفة على كثرة ما جاء في
شعره من الاستعارة والتجنيس والمطابقة ، فكان انفراده بحسن العبارة وحلاوة
اللفظ وصحة المعنى والبعد عن التكلف والتعمل سبباً في إجماع الناس على
استحسان شعره واستبجاده وتداوله ، ونفاق شعر الشاعر دليل على علو مكانته ،
واضطلاعها بما يلائم الأذواق ، ويلامس القلوب ، من أساليب الكلام ومناهجه .

صاحب أبي تمام : إنما أعرض عن شعر أبي تمام من لم يفهمه لدقته معانيه
وقصور فهمه عنه ، أما النشقاد والعلماء فقد فهموه وعرفوا قدره ، وإذا عرفت
هذه الطبقة فضيلته لم يضُرّه طعن من طعن بعدهما عليه .

صاحب البحتري : لا يستطيع أحد أن ينكر منزلة ابن الأعرابي ، وأحمد بن
يحيى الشيباني ، ودُعبل الخزاعي من الشعر ، ومنزلتهم من العلم بكلام العرب ، وقد علمتم
مذهبهم في أبي تمام وازدراءهم بشعره ، حتى قال دُعبل : إن ثلث شعره محال

وثلثه مسروق وثلثه صالح، وقال: ما جعل الله أبا تمام من الشعراء، بل شعره بالخطب والكلام المنتثر أشبه منه بالشعر. وقال ابن الأعرابي في شعر أبي تمام: إن كان هذا شعراً فكلام العرب باطل. وهذا محمد بن يزيد السُّبُرد: ما علمناه دُونَ له كبير شيء.

صاحب أبي تمام: إن دُعِبَ كان يشنأ أبا تمام ويحسده على ما هو معروف ومشهور فلا يُقبل قول شاعر في شاعر. وأما ابن الأعرابي فكان شديد التَّعَصُّب عليه لغرابية مذهبه، ولأنه كان يرد عليه من معانيه ما لا يفهمه ولا يعلمه، فكان إذا سُئِلَ عن شيء منها يأنف أن يقول لا أدري فيعدل إلى الطعن عليه. ولا مانع أن يكون جميع من تَذَكَّرُونَهُ على هذا القياس.

صاحب البُحتري: لا عَيْبَ على ابن الأعرابي في طعنه على شاعر عدل في شعره عن مذاهب العرب إلى الاستعارات البعيدة المخرجة للكلام إلى الخطأ والإحالة، والعيب في ذلك يلحق أبا تمام إذ عدل عن المحجة إلى طريقة يحفلها ابن الأعرابي وأمثاله من المضطلعين بالسليقة العربية.

صاحب أبي تمام: إنَّ العلم في شعر أبي تمام، أظهر منه في شعر البُحتري، والشاعر العالم، أفضل من الشاعر غير العالم.

صاحب البُحتري: كان الخليل بن أحمد عالماً شاعراً، وكان الأصمعي شاعراً عالماً، وكان الكسائي كذلك، وكان خلف بن حيسان الأحمر أشعر العلماء، وما بلغ بهم العلم طبقة من كان في زمانهم من الشعراء غير العلماء، والتَّجْوِيد في الشعر ليست علته العلم، والشائع المشهور أن شعر العلماء دُونَ شعر الشعراء، وقد كان أبو تمام يعمل على أن يدل في شعره على علمه باللغة وكلام العرب. أما البُحتري فلم يقصد هذا ولا اعْتَمَدَهُ، ولا كان يمدّه فضيلة ولا يراه عالماً، بل كان يرى أنه شاعر، لا بُدَّ له أن يقرَّب شعره من فهم سامعه، فلا يأتي بالغريب إلا أن يتفق له في اللفظة بعد اللفظة في موضعه من غير طلب له ولا حرص عليه، على أن هذا العلم

الذي 'تؤثرون به أبا تمام لم يَنْفَعه ، فقد كان يلحن في شعره لحناً يضيقُ العذر فيه ، ولا يجد المتأول له مخرجاً منه ، إلا بالحيلة والتحمل الشديد .

صاحب أبي تمام : لسنا 'نشكر أن يكون صاحبنا قد وِهم في بعض شعره ، وعدّل عن الوجه الأوضح في كثير من معانيه ، وغير غريب على فكره نتجّج من المحاسن ما نتجّج وولّد من البدائع ما ولّد ، أن يلحقه الكلال في الأوقات ، والزائل في الأحيان وبلى من الواجب لمن أحسن إحسانه أن يُسامح في سهوه ، ويتجاوز له عن أخطائه وما رأينا أحداً من شعراء الجاهلية سليم من الطعن ، ولا من أخذ الرّواة عليه الغلط والعيب ، وكذلك ما أخذته الرّواة عن المحدثين المتأخرين من الغلط والخطأ ، واللحن أشهر من أن يخفى إلى أن نبرهنه أو ندل عليه ، وما كان أحد من أولئك وهؤلاء بجهول الحق ولا بجهود الفضل ، بل عفا إحسانهم على إساءتهم وتجويدهم عن نقصيرهم .

صاحب البُحتري : أما أخذ السّم والغلط على من أخذ عليهم من المتقدمين والمتأخرين ففي البيت الواحد والبيتين والثلاثة . أما أبو تمام فلا تكاد تخلو له قصيدة واحدة من عِدّة أبيات ، يكون فيها مفسداً أو 'مخيلاً أو عادلاً عن السّن أو مستعيراً استعاراً قبيحةً ، أو مخطئاً للمعنى بطلب الطّيباق والتجنيس ، أو مبهماً بسوء العبارة والتعقيد ، حتى لا يفهم ولا يوجد له مخرج .

صاحب أبي تمام : 'تشكرون على أبي تمام من الفضل ما يعترف به البُحتري نفسه ، فقد رثاه بعد موته رثاء اعترف فيه له بالسبق وفضله على شعراء عصره .

صاحب البُحتري : لم لا يفعل البُحتري ذلك ؟؟ وقد كان هو وأبو تمام صديقين متحابين ، وأخوين متصافين ، يجمعهما الطلب والنسب والمكتسب ، فليس بمُنكر ولا غريب أن يشهد أحدهما لصاحبه بالفضل ، ويصفه بأحسن ما فيه وينحله ما ليس فيه ، على أن الميت خاصة يُعطى في تأبينه من التقريظ والوصف وجميل الذكر أضعاف ما كان يستحقّه .

صاحب أبي تمام : كيفما كان الأمر لا تستطيعون أن تدفعوا ما أجمع عليه الرواة والعلماء ، أن جيّد أبي تمام لا يتعلق به جيد أمثاله ، وإذا كان جيّد هذه المكانة وكان من الممكن إغفال رديئه واطّراحه كأنّته لم يقله فلا يبقى ريب في أنه أشعر شعراء عصره ، والبحثري واحد منهم .

صاحب البحتري : إنّما صار جيّد أبي تمام موصوفاً ومذكوراً لِنُدْرته ، ووقوعه في تضاعيف الرّديء ، فيكون له رونق وماء عند المقابلة بينه وبين ما يليه ، وجيّد البحتري كجيّد أبي تمام ، إلا أنه يقع في جيّد مثله أو متوسط ، فلا يفاجئ النفس منه ما يفاجئها من جيّد صاحبه .

مناظرة بين الليل والنهار

لمحمد أفندي المبارك الجزائري

لمّا أسفر النهار عن بياض الغُرة ، قابله الليل بسواد الطرة ثم صار الهزل جدّاً واشتدّ النزاع بينهما جدّاً ، فاستنجد كلٌّ منهما أميره ، وأفشى له سره وضميره ، وإذا بالليل حمل على النهار ، فصبغُ حمرته وردّته بصُفرة البهّار ، وخطرَ يَجْرُهُ ذُيولُ تيهه وعجبه ، مرصعاً تيجان مفاخره بدُرَرٍ شهبه ، ثم قال : « والليل إذا يَغْشَى » « إنّ في ذلك لَعِبرَةً لِّمَن يَخْشَى » ففتح باب المناقشة في هذا الفصل ، وعقد أسباب المناقشة بقوله الفصل « فإن الحرب أوّلها كلام ، ثم تنجلي عن قتيل ، أو أسير بكلام

ولما بلغ الليل غايته بَزَغَ الفَجْرُ ورفع رايته ، وقال إذ جال في مُعترك المنايا « أنا ابن جلا وطلاّع الثنايا » فتقدم في ذلك الميدان وجلى ، تالياً قوله تعالى « والنّهار إذا جَاحَلى » ثم استوى على عرش السنا والسناء ، وأطلع شمس طلّعه في الأرض والسماء ، فأغرَبَ عن غوامض الرقائق والحقائق ، وأغرب في نشر ما انطوى من الأسرار والدقائق ، وما انحدر من منبره ، حتى أيد دعوى

خبره بشاهد مخبره ، فانتدب إليه « الليل » ومال عليه كل الميل ، وقال : أحمد من جعلني خلوة للأحباب ، وجلوة لعرائس العرفان ونفائس الآداب ، وخلقني ممشوى لراحة العباد ، ومأوى لخاصة النساء والعباد ، والله دره من قال فأجاد :

أيها الليل طُلْ بغير جُنَاحٍ ليس للعين راحةٌ في الصباح
كيف لا أبغض الصُّباح وفيه بأن عني نور الوجوه الصُّباح

أترددُ على أرباب المجاهدة بفنون الغرائب ، وأتوددُ إلى أصحاب المشاهدة بعيون الرغائب ، تدور في ساحتهم بدور الحسن والبهاء ، وتدارُ من راحتهم كؤوس الأنس والهناء ، فتُحييهم نفحات السمر ، وتُخيمهم نسائم السحر ، فأحياناً وصلي بالتهاني مُقَمِّرة ، وأفنان فضلي بالأمانى مُشْمِرة ، وحسي كرامة ، أي للناس خير لباس أقيم بلطف الإناس من كل باس ، ومن واصل الإدلاج وهجر طيب الكرى قيل له (عند الصُّباح يحمد القومُ الشرى) :

وما الليلُ إلا لله يُجيدُ مَطيَّةً وميدانُ سبق فاستبق تبلى المني

فتفتن بمعاني بيانهِ البديع ، وتفتن في أفانين التتصريح والترصيع ثم أتم خطبته بالتأس المغفرة والعفو ، واستعاذ بالله من دواهي الغفلة ودواعي اللهو ، فوثب إليه (النهار) وصال عليه صولة ملك قهار ، وصعد على منبره ثانياً ، وقد أضجى التيه لمطفه ثانياً ، فأثنى على من جلس ظلمة الحجاب ، وتجلسى له باسمه النور وتوجه بسورة من الكتاب وزانه بأبهى سراج وهّاج ، فأوضح بسناه السبيل والمنهاج ثم صاح : أيها الليل ، هلا قصرت من إعجابك الذيل ؟ ! ولئن دارت رحى الحرب واستمرت نار الطعن والضرب ، فلا سبيل غدراتك ، وهي عن الوجوه حاسرة وأنت تتلو يومئذ « تلك إذا كربة خاسرة » فما دعاك إلى حلبة المفاضلة ؟ وما دعاك حتى عرّضت بنفسك للمناضلة ؟ وهل دأبك إلا الخداع والمكر ؟ ! وترقب الفرصة وأنت داخل الوكر ؟ ! أما حض القرآن على التعتوذ برَبِّ الفلستق وندب « من شر ما خلقت ومن شر غاسق إذا

وقب « فبربي يُستعاذ من شرِّك ، ويُستعانُ على صنوف صروف غدرك ،
وهبْ أنك تجمعُ المَحِبَّ بالحبيب ، إذا جار عليه الهوى وحرار الطبيب ، فكم
يُقاسي منك في هاجرة الهجر ويَتَيْنُّ أنين الشكلى حق مطلع الفجر ؟ !

ببيتُ كما باتَ السليمُ مُسَهِّداً وفي قلبه نارُ يَشُبُّ لها وَقْدُ
فَيْسَاهر النَّجْوم ، ويُساور الوُجُوم ، وقد هاجت لواعج غرامه ، وتحركت
سواكن وجده وهِيَامه ؛ فأنشد وزفيره يتصعد :

أَقْضِي نَهاري بالحديثِ وبالمنى وَيَجْمَعُنِي والهمَّ بالليل جامعُ
نَهاري نهار الناس حتى إذا بدا ليَ الليلُ هزَّتني إليك المضاجعُ
على أن العاشق لَوَلَّه ، يشكو منك في جميع أحواله ، فكم قطع آناك
بمواصلة أنينه متعللاً من فرط شوقه وحنينه ، فلما أن حُظِيَ بالوصال تمثَّل بقول
من قال :

الليلُ إن واصلتْ كالليل إن هجرت أشكو من الطول ما أشكو من القِصر

ولئن افتخرت ببدرك الباهر الباهي ، فإنما تُباري ببعض أنواري وتباهي ،
وهل للبدر عند إثراق الشمس من نور ؟ أو لطلعة حسنه من خدور البُطون
ظهور ! ومن ادَّعى أنك تساويني في الفضل والقدر ! أو زعم أن الشمس تقتبِس
من مشكاة البدر ! ومق استمدت الأصول من الفُروع « وما أغنى الشمس عن
الشموع » في تنجس لي محاسن المظاهر الكونية ، وتتحلَّى بجواهر الأعراض
اللوَّنية وأنسى يخفى حسني وجمالي على مشاهد ؟ أو يفتقرُ فضلي وكألي إلى شاهد !
وعرَضِي عار عن العار ، وجميع الحسن من ضيائي مُستعار ؟ !

وليس يصحُّ في الأذهان شيء إذا احتاج النُّشَار إلى دليل

أما كفاك بَيِّنَة ، وزادك ذكرى وتبصرة ، قوله تعالى : « فَمَحْوُنا آيةَ الليل
وَجَعَلْنَا آيةَ النَّهَارِ مُبْصِرةً » و« هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

الظلمات والنور ، وأين منزل أهل الغفلة من منزل أهل اليقظة والحضور أو إن كنت مغنى الأنس والأفراح ، تفعل بمقول الناس فعل الرياح ، فهل حسبت أن السكون خير من الحركة ، وقد أجمع العالم على أن « الحركة بركة » فإن لي بكل خطوة حطوة ، وليس لجوادي كنبوة^١ ، ولا لي صارمي نبوة وإن صرحت^٢ للذين يبيتون لرَبِّهم سجداً وقياماً ، معرّضاً بكل غافل لاه ، في كل مجال رجال لا تلهيهم^٣ تجارة ولا بيع^٤ عن ذكر الله ، وأين من احتجب بظلمات بعضها فوق بعض ، ممن أضحي ينظر بعين الاعتبار في ملكوت السموات والأرض ! وقد أتخفني الله بالصلاة الوسطى فأوتر بها صلواتي ، وشرع فيها الأسرار لأسرار اختصت بها أهل جلواتي ، وكفاني شرفاً « شهر^٥ رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فما ثري مأثورة في القديم والحديث ، ومفاخري منشورة^٦ في الكتاب والحديث ومحاسني واضحة^٧ لأولى الأبصار ، وهل تخفى الشمس في رابعة النهار ! فاكف عن الجدال وأمسيك^٨ ، ولا تجعل يومك مثل أمسك ، وسالم من ليس لك عليه^٩ قدرة ، فقد قيل « ما هلك امرؤ عرف^{١٠} قدره » أقول قولي هذا وأستغفر الله من آفة العجب والكبرياء ، ولما انهار ركن النهار ، ابهار^{١١} (الليل) وتبرقع بالاكفهرار ، فسد ما بين الخافقين بسواده ، وطفق^{١٢} يرمي بسهام جدله في جلاده وقدّم بين نجواه سورة القدر ، آية على ما حازه من كمال الرفعة والقدر ، وثنى بقوله تعالى : « سبحانه الذي أسرى بعبده ليلاً » فأشار إلى الحبيب حين تجلست له قرة عينه ليلاً ، ثم قال : سحفاً لك أيها النهار ، فقد أسست^{١٣} بنيانك على شفا جرف هار^{١٤} ، تناضلي ومني كان انسلاخك وظهورك ، وتفاضلي وبني أرضك أعوامك وشهورك - ألم يأن لك أن تخشع للذكر^{١٥} ! فتعترف برتبة التقديم في الذكر^{١٦} ، وكيف تميزني بلون السواد ! وهل يقبّح السواد إلا في الفؤاد^{١٧} ! أو كيف تميزني

بالخداع (والحرْبُ خُدْعَةٌ) وليس الشيء في موطنه بغريب ولا ببدعة؟! أما تشهد العوالم من هينبني حيارى؟ ه وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، فكم أُرقت^١ ملوكاً أكاسرة؟ وأُرقت^٢ دماء أسود كاسرة ، وكم أُريت^٣ نار الوغى تحت المعجاج؟ وقد ازورت اللحاظ واغبرت الفجاج ، فأنا البطل الذي لا يُصْطَلَى بناره ، ولا يأخذ منه الموتور بشاره ، وافْتِخَارُكَ عليّ بالصلاة الوسطى ، ليس إنصافاً منك ولا قسطاً ، وهبْ أنْكَ انفردت بتلك الصلاة الجليلة ، فأين أنت مما أُوتيتُهُ من الصلوات الجزيلة ، أما كان افتراض الصلاة ليلة العروج؟! فما بالسُّكّ تدعي الارتقاء إلى هذه البروج؟! وما أعجبَني قطُّ دعوى عريضة ولو قام في تصديقها ألف شاهد

وأما افتخارك عليّ بفضل شهر رمضان ، وما نزل فيه من السبع المثاني والقرآن ، فهل صحّ لك صيامه إلا بي بدءاً وختاماً؟! وقد تميّزتُ عليك بفضيلة إحيائه تهجّداً وقياماً ، على أني محلّ النية « ونية المرء خير من عمله » لأنها بمثابة الروح له ، وبها يحظى الراجي ببلوغ أمله ، هذا : وإني أتكفّل للصائم بمديد الراحة ووافر الأجر حق يتبيّن له الخيط الأبيض من الأسود من الفجر ، وكيف تفتخر بالكتاب المنزه في مزاياه عن المشاركة ؟ والله تعالى يقول فيه : « إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ » وهل في مطالع سعودك أشرقت بدور العيدين؟! أم على جناح جُنْحِكَ أُسْري بنور طلعة الكونين؟! ثم عُرجَ به عليه الصلاة والسلام إلى منزلة قاب قوسين وهل في تجليات أسحارك يقول الرب : هل من سائل؟ فيُنَاجِيه العبد متضرعاً إليه بقلب خاشع ودمع سائل .

ومما اختصصت به من الفضائل والمفاخر ، أنه في دولتي وُلد سيد الأوائل والأواخر ، وناهيك بليالي شهر الله رجب ، وكيف لا وفي طالعها السعيد حملت آمنة بسيد العجَم والعرب .

(١) أُرقت : أسهرت .

(٢) أُرقت : أسلمت .

فطلع (النهار) طلوع الأسد من غابه ، وكسر جيوش الدجى حين كسر
عن نابه ، وشمّر للحرب العوان غير ناكل ولا وان ، ناشراً في الأفق رايته
البيضاء وأسذته لامعة بين الخضراء والقبراء ، وقال : والذي كساني حُلل
الملاحة ، وأطلق لساني بالبلاغة والفصاحة ، لأحون سطور الدجى من طُروس
الوجود ؛ ولأثبتن حسن أحوالي في مقامات أهل الشهود ، فلاني معروف بالوفاء
وصدق الخبر ، موصوف بالصفاء الذي لا يشوب صفوه كدر ، كيف يُباهيني
(الليل) بكارم الأخلاق ، ومحاسن الشيم ، وأنا أتحدث بنعم الله وهو موسوم
بكنُفران النعم ؟ أَلست مظهر الهداية والدلالة ، وهو مظهر الفَوَاية والضلالة ؟ !
فكم أرشدت من أضله ، وأعززت من أهانه وأذله ، وكم أظهرت منه عيباً كان
غيباً ، فابيضت عينه حُزناً « واشتعل الرأس شيباً ، :

ومن جهلّت نفسه قدره رأى غيره منه ما لا يرى

وكيف يزعم هذا العبد الأبق أنه لسيّده في حلبة الشرف سابق ، وقد قال
الواحد القهار : « ولا الليلُ سابقُ النهارِ » إن هو وأيم الله إلا كافر ، وبشموس
أنوار الشهادة غير ظافر ، لو كان من السعداء لغاز بدار النعيم ، ولولا شقاؤه لما
شابه سواد طبقات الجحيم ، وماذا يؤمله من الجزاء ويرجوه « يوم تَبْيَضُّ وجوه
وتسودُّ وجوه ، أم أدرى أن صحيفته سوداء مظلمة ، وصحيفتي تفصح عن نفس مؤمنة
بالله مسلمة ! وأننى يرقى كتابه إلى عليّين ، وهو من ظلمات الحجاب في سجين ! .

ثم أقبل عليه ، وأنشد مشيراً إليه :

يا مُشبهاً في فعلهِ لوزنهِ لم تَعُدْ ما أوجبتِ القسمة
خُلُقك من خُلُقك مستخرجٌ والظلم مُستق من الظلمة

وقال : كيف تدعي فوق حالك ، وأي فضل لمن منظره أسود حالك ! .
أما علمت أن الظاهر للباطن عنوان ، كما ان اللسان عن الجنان ترجمان قال
أفضل الخلق عليه الصلاة والسلام : « ابتغوا الخير عند حسان الوجوه » وقال الشاعر :

لا تسأل المرء عن خلائقه في وجهه شاهدٌ من الخبر
فأنا مفتاح خزائن الأرزاق ، وبني يُستفتح بابُ الكريم الرزاق ، وكفاني
دليلاً على الفضل والكمال « إن الله تعالى جميلٌ يحبُّ الجمال » لقد سمعتُ أقاويلك
التي قدمتها بين يديك ، وزعمتَ أنها حُجَّةٌ عليك^(١) ، ولا جرم أن « لسان الجاهل
مفتاحٌ حَسَنٌ » ، وكم من باغٍ قُتلَ بصارمٍ بغيهٍ وحيفه - أما انسلاخي منك فمن
أملح الملح لي والغرر ، وهل تحقُّ لأصناف الأصداف أن تُنافس نفائس الدرر؟
أليست « تلدُ الأمة ربَّتها حُرَّةً نجيبة » وقد قالوا : « إن الليالي حَبَالِي يلدُن
كل عجيبة » وأما تقدُّمك عليّ فمن العادة تقدم الحُدم بين يدي السادة :

أو ما تُرى أن النبيَّ محمداً فاقَ البريةَ وهو آخرُ مرُسلٍ
على أنه « أولُ ما خلق الله النور » كما ورد عن جابر في الخبر المأثور .

وأما تحبلي صفوتك بتجلي الحق تعالى في السَّحَر ، فليس إلا لمن أحيَا
أحيانك بالمجاهدة والسير ، وأما زَهْوُكَ بقصة ظهور سيد ولد آدم الذي هو
نتيجة مقدَّمات الكون وزُبْدَةُ العالَم ، فهل وقع اتفاق الرواة على ذلك ،
وأنتَ لك هذا ، وصَبَحَ طلعتَه تمحو سوادك الحالك ، وأما خبرُ الإسراء فعني
رَوته الأمة^(٢) ثم بَلَغَهُ الشاهد للغائب بعد أمة^(٣) ؛ فما لاحت أسرارُه إلا بطلالعي ،
ولا زاحت أَسْتارُه إلا بطوالعي ، وما أشرَّتْ إليه من بقية معانيك التي أضاءت
بها في الخافقين نجومُ معاليك ، فأين أنت من يوم عَرَفة ، الذي عرفه بأهبي
الخصائص مَنْ عرفه ، وأين أنت من يوم عاشوراء ، الذي يَعظم فيه الشكر
والصبر على السراء والضراء ! وناهيك بِسُمُو شأن العيدَيْن ، فما أجَلَّتْهُما من
موسمين سعيدين ، وكيف تُفَاخِرُنِي بساعة تبدو منك مرة في كل عام ، ولي كل

(١) هكذا بالأصل والأصح أن يقال : « وزعمت أنها حجة لك مع أنها حجة عليك » .

(٢) الأمة : أهل الدين . (٣) الأمة : الحين من الدهر ، أي مدة ، أو وقت .

أسبوع أمدٌ تمتد فيه موائد الجُود والإنعام فأخبارُ أخباري سارت بها الركبان ،
وماست بنسيم رقتها معاطف البيان ، وقدري فوق ما تصفه الألسن ،
وعندي « ما تشتهيهِ الأنفس وتكذِّه الأعين » فدع عنك قول الزور والميثر
« فقد بُيِّنَ الصبح لذي عينين » .

ولمّا افاض (النهار) في حديث يفضح الأزهار ، أبدع في كينايته وتلويحه ،
وأعرب في تعريضه وتصريحه - ابتدر إليه الليل (وأجلب عليه بالرجل
والخيل) وامتطى جواده الأدهم ، واعتم بعمامة سوداء وتلثم ، فأنسى بفتكاته
عنزة بني عبس ، حين أمسى بتوعد عمارة بالقتل والرمس ، ثم نشر في الأفق
ذوائب السود ، وعبس وبسر فأسر بسطوته الأسود ، وقال : « فلا أقسمُ
بالشفق ، والليل وما وسق ، والقمر إذا اتسق » لأسبين رومي النهار ،
ولأجعلن عبدة لذوي الاعتبار فلقد تزيتا المملوك بزي الملوك ، وادعى مقام
الوصول إلى صاحب السير والسلوك ، أمّا كفاه اردرائي وتحقيري ؟! حتي
حكم بتضليلي وتفكيري اكم أسبلت على عوراتي ذيل ساري ، وهو لا يُبالي
بهتك أستاري ؟! وكم أودعت مكنون سره في خزانة سري ، وهو يبوح
بصون أسراري ! أف له من فاضح أما يكفيه ما فيه من المفاض ؟!

أنتم بما استودعتم من زجاجة يرى الشيء فيها ظاهراً وهو باطن

كيف احتج لتقدمه بحديث جابر ، مع أن ما رواه ليكنسري أعظم جابر ،
فإنه برهن على تقدمي عليه لو أدرك سر ما أوما إليه ، وعلام جعل السواد على
النقص علامة ، وهو مشتق من السواد لدى كل علامة ؟ أما درى أي حُزت
من الكمال الحظ الأوفر ، حتى تحلى ببديع وصفه العنبر والمسلك الأذفر !

إن كنت عبداً فنفسي حرة كرماء أو أسود الخلق إني أبيض الخلق

وهل يُزري بالخال سواده البارع ، أو يُغري بالبرص بياضه الناصع ، وفي
بياض المشيب عبدة وأي عبدة ، فكم أجري من الأماق أعظم عبدة .

له منظرٌ في العين أبيضٌ ناصع ولكنه في القلب أسود أسفح

وَمَنْ عَابَ نَعْتَ الشَّبَابِ ، وَفَضَّلَ وَصْفَ الشَّيْبِ ، فَقَدْ غَابَ عَنِ شُهُودِ الْعَيْبِ
وَعَالَمِ الْغَيْبِ ، فَمَا كُلُّ بَيْضَاءٍ شَحْمَةٌ وَلَا كُلُّ حُمْرَاءٍ لَحْمَةٌ ، وَلَمَّا أَنْهَى مَقَالَتهُ ،
وَمَلَّ مَقَامَهُ شَمَّرَ لِلرَّحَلَةِ أَذْيَالَهُ ، وَقَتَّوَضَ خِيَامَهُ ؛ فَتَهَلَّلَ وَجْهَ الصَّبَاحِ ، وَهَلَّلَ
بِذِكْرِ فَالِقِ الْإِصْبَاحِ وَازْدَهَاهُ السَّرُورُ وَالْإِبْتِهَاجُ ، كَأَنَّهُ رَبُّ السَّرِيرِ وَالتَّاجِ :

فَكَانَ الصَّبْحُ لَمَّا لَاحَ مِنْ تَحْتَ الشُّرَيْتَا
مَلِكٌ أَقْبَلَ فِي التَّاءِ جُ يُفْدَى وَيَحْيَا

وَبَرَزَ إِلَى الْمُبَارَزَةِ مِنْ بَابِهَا ، إِذْ كَانَ فِي 'فِرْسَانِهَا وَأَرْبَابِهَا' ، فَسَلَبَ (اللَّيْلُ)
لِبَاسَهُ ، وَأَذَاقَهُ شِدَّتَهُ وَبَاسَهُ ، وَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَعْجَبُ ، بِنَفْسِهِ ، الْمَغْرِبُ فِي نَقْشِهِ
صِيحْفَةُ زُورِهِ بِنَفْسِهِ ، « مَا كُلُّ سَوْدَاءٍ قَمَرَةٌ ، وَلَا كُلُّ صَهْبَاءٍ خَمْرَةٌ » أَلَمْ تَعْلَمْ
أَيْشُنَا أَهْبَى 'مَحْيَا' ، وَشَتَانِ مَا بَيْنَ الثَّرَى وَالثَّرِيَّا ، أَيْنَ سَوَادُكَ مِنْ بِيَاضِي ؟ ! وَمَا
زَهْرُ نَجْمِكَ إِنْ تَتَلَّأَزَهْرُ رِيَاضِي ! وَكَمْ أَطْلَعْتَ بُدُوراً فِي مَوَاكِبِ السَّيَارَةِ ،
فَأَضْحَتِ تَزْهَوُ بِجِهَالِهِ عَلَى الْكَوَاكِبِ السَّيَارَةِ ، وَهَلْ لَكَ مِثْلُ الْغَزَالَةِ ؟ الْقِي
انْفَرَدْتَ فِي الْمَلَاخَةِ لَا مَحَالَةَ ! فَأَنَا الَّذِي ضَاءَ صَبَاحُ الصَّبَاحَةِ مِنْ 'مَحْيَاهُ' ، وَضَاعَ
عَبِيرُ الْعَنْبَرِ مِنْ نَشْرِ أَنْفَاسِهِ وَطِيبِ رِيَّاهُ ؛ وَلَوْ لَا يَ مَا عُرِفَ الْحُسْنُ وَالْجَمَالُ ،
وَلَا سَمِيَ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ بِدَرِ الْكَمَالِ . فَتَوَجَّعَ (اللَّيْلُ) لِبَرَاةِ تِلْكَ الْعِبَارَةِ ،
وَبَلَاحَ مَا لَاحَ لَهُ مِنَ الرَّمْزِ وَالْإِشَارَةِ ، ثُمَّ رَثَبَ لِلْمَقَالِ كَأَنَّمَا أُنْشِطَ مِنْ عِقَالِ ،
وَقَالَ : « رَبِّ مَلُومٌ لَا ذَنْبَ لَهُ » وَمُظْلُومٌ خَيِبَ الدَّهْرُ أَمَلَهُ ، فإِلَى مَتَى يَسُوءُنِي
النَّهَارُ ؟ وَحَقٌّ مَ يَسُومُنِي عَذَابُ النَّارِ ، طَالَمَا أَعْرَتْهُ أَدْمًا صَحْمَاءُ ، وَعَيْنًا عَمِيَاءُ ،
وَهُوَ لَا يَنْثَنِي عَنِ الْمَقَابِلَةِ ، وَلَا يَرْعُونِي عَنِ الْحَارِبَةِ وَالْمَقَاتِلَةِ ، أَمَا تَعْلَمُ أَهْمَهَا
الْمُغْتَرِ بِبِيَاضِكَ أَنَّ السَّوَادَ حِلْيَةُ أَهْلِ الزَّهْدِ وَالصَّلَاحِ ، وَهَلْ يَسْتَرِقُّ الْأَسْوَدُ إِلَّا
سُودُ أَحْدَاقِ الْمَلَاكِ ! بَيِّدْ أَنْ الْحَرَّ لَا يُبَالِي بِالْجَمَالِ الظَّاهِرِ وَإِنَّمَا يَبَاهِي بِالْفِعْلِ

الجميل ، والقلب الطاهر ، فإن تفاوتت المراتب ، بحسب تماوت المناقب .
وما الحسن في وجه الفتى شرف له إذا لم يكن في فعله والخلائق

وكم أعددت للأنس مقاعد ، وفي الأمثال : « رب ساع لقاعد » فإن ظلي
خليل ونسيمي عليل بليل ، تهدأ بي الأنفاس وتسكن الأعضاء والحواس . فقام
(النهار) يعثر بذيله ، وقد كفكف واكف سيله ، فما لبث أن تنفّس الصباح ،
وأظهر من سناه ما أخفى ضوء المصباح ، ورُفرف بجناحه الأبيض على الدجى ،
فاقتنصه من وكره بعدما سكن وسجا :

فكان الصباح في الأفق بازٍ والدجى بين مخالبه غرابٌ

وقال : تبنا لك أيها (الليل) فلقد أوتيت من المئين أوفر نيل ، أي حديث
لك صحيح وضعته ، وأي حق لك صريح أضعته ؟!

عليك بالصدق ولو أنه أحرقك الصدق بنار الوعيد
وأبغ رضا الله فأغشى الورى من أسخط المولى وأرضى العبيد

نعم لك في السمر خبر مرفوع ، بيد أنه مكروه في السنة موضوع ، قد
اشتهرت لكن بأقبح الاوصاف ، وعدلت لكن عن سبيل العدل والإنصاف ،
تكتن عن المرء ما يرذيه « وتخفي في نفسك ما الله مبديه » وفي المثل : « الليل
أخفى للويل » فما أصعب مراسك قبل افتتار سهيل ، وهل يترنم بذكرك إلا
غافل ؟! وأنسى يفتربك عاقل ، ونجمك آفل ؟! وكيف تفتخر علي ، وأنت
تفتقر إلي ؟!

ولما سلب النهار بأساليب بيانه العقول ، سكت الليل ملياً ثم أنشأ يقول :
فعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا
كيف أتصدى للكذب ، وأتردى باللهو واللعب !! وأنا المنعوت باللطف
والظرف والموسوم بالصمت وغيض الطرف ، كيف أورث الغرور ، وأورث الغفلة على
الحضور ، وأنا الداعي لذكر الله وحده ؟ والساعي في رد الكثرة الوهمية إلى عين

الوَحدة وأنا الموصوف بالسُّننِ الجميل ، والمعروفُ بشكر المعروف والجميل ،
وهل أحجبُ البصر عن شُهود عالمِ الكثافة ، إلا لأكشفَ لعين البصيرة عن
عالمِ اللطافة ، وبذلك يتحقق العبد بفنائه عن وجوده ، فيمدّه الربّ تعالى
بسر بقاءه من خزائن جوده . ثم قال (النهار لليل) وقد هجم عليه هُجوم
السيل : أيها المدعي مقام الدَّعوة إلى الله ، وهو في حال الغفلة عن مَوْلَاهُ لاه ،
كيف تَسْذِئْتِ ذُرْوَةَ هذا المنبر ؟ كأنك تَكْتُئِبُ بِالمِسْكِ وتَحْتَمُ بالعنبر !
لقد أطلت فيما « لا طائيل تحته » ولا مَعْنَى ، فكم ذا « أَسْمِعُ جَعِجْجَةً » ولا أرى
طَحْنًا « فلو كنت ممن انتخب غُرر الشَّيْمِ وانتَقَى ، لاتَّعْظت بقوله تعالى :
« فلا تزكوا أنفسكم هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ آتَقَى » فننَّبه من غفلتك أيها « الليل » قبل
أن تدعو بالشُّبُور والويل ، وإلا فَرَّقْتِ طلائع سَوادِك أي تفريق ، ومزقت
سوابغَ ظلامِك أي تمزيق « فما كلُّ مَرَّةٍ تَسْلِمُ الجُرَّة » . فاسودَّ وجه الليل ،
وانقلبَ « بِحَشَفٍ وسوء كيل » وندم على مُناضلة النهار ، ندامة الفِرَزْدَقِ
حين فارَّق النُّوَّار^١ ولما سَقَطَ في يَدِهِ ، ورُزِيَ في عَدَدِهِ وعُدَدَهُ ، تردى
بالسَّواد ، ولبسَ ثياب الحِداد ، ثم لاح هلاله للعين ، كَمِنْجَلٍ صيغ من الجُئِنِ
انظُرْ إلى حُسْنِ هلالِ بدايَحِ يَحْنُو سَنَا طَلُوعِهِ الحِنْدِسَا
كَمِنْجَلٍ قد صيغ من فَضَّةٍ يَحْصُدُ مِنْ زَهْرِ الدَّجَى نَرَجَسَا

(١) بنت مجاشع زوج الفرزدق طلقها في مجلس عبد الملك بن مروان—وذلك
أن الفرزدق قال في المجلس وفيه جرير — النوار طالق ثلاثاً إن لم أقل بيتاً لا
يستطيع جرير أن ينقضه أبداً فقال عبد الملك : ما هو ؟ فقال :
فـإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظر كيف أنت مزاوله
فقال جرير أم حرزة طالق منه ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال
عبد الملك هات . فأنشد :

أنا الدهر يفنى الموت والدهر خالد فجنني بمثل الدهر شيئاً يطاوله
فقال عبد الملك : فضلك والله يا أبا فراس ، وطلق عليك .

وقال : مَنْ يُنْصِفُنِي مِنْ هَذَا الْجَائِرِ؟ وَيُنْصِتُ لِي فَأُبَيِّنَ شَكْوَى الْوَالِهِ الْحَائِرِ
فَحَتَّامِ أَعَانِي حَذَّ الظُّبَا ، وَقَدْ بَلَغَ السَّيْلُ الزُّبَى
وَكُنْتُ كَالْمُسْتَمْنِي أَنْ يَرَى فَلَقًا مِنْ الصَّبَاحِ فَلَمَّا أَنْ رَأَاهُ عَمِي
فَانْتَبَهَ طَرَفُ (النَّهَارِ) وَازْدَهَرَ سِرَاحُهُ أَيَّ ازْدِهَارٍ ، وَشَرَعَ يَتْلُو سُورَةَ
النُّورِ بِكَمَالِ الْإِبْتِهَاجِ ، وَالشَّمْسُ تَرْقُمُ آيَةَ جَمَالِهِ بِالذَّهَبِ الْوَهَّاجِ
وَقَابِلُ الصُّبْحِ جُنُوحُ اللَّيْلِ فَارْتَسَمَتْ سُطُورُهُ الْبَيْضُ فِي الْوَاحِسَةِ السُّودِ
ثُمَّ قَالَ أَيُّهَا « اللَّيْلِ » الْبَهِيمِ « تَاللهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ » كَيْفَ تَدَّعِي
أَنْتَكَ مَظْلُومٌ ، وَتَشْتَكِي مِنْ جَوْرِي وَأَنْتَ الظَّالِمُ ، وَهَبْ أُنِي قَاتِلَتُكَ ظُلْمًا
فَأَنْتَ الْبَادِي ، وَهَلْ قَابِلَتُكَ إِلَّا بَمَا وَاجَهْتَنِي بِهِ فِي الْمُبَادِي ، وَهِيَ أَنَا بَرَهْنْتُ عَلَى
فَضْلِي بِشُهُودِ عُدُولٍ ، لَيْسَ لِلْمُنْصِفِ عَنْ تَرْكِيزِ شَهَادَتِهِمْ عُدُولٌ ، فَاسْتَقِلْ مِنْ
دَعْوَى الْمَجْدِ وَالْفَخْرِ ، فَقَدْ حَصَّنْكَ الْحَقُّ ، وَوَضَحَ الْفَجْرُ ، وَإِنْ أَبَيْتَ سُلُوكَ
مُحِبَّتِي وَلَمْ تَتَضَحَّ لَكَ أَدَلَّةُ حُبِّي ، فَهَلَمْ إِلَى « حَضْرَةِ الْأَمِيرِ » وَلَا يَنْبُتُكَ مِثْلُ
خَبِيرٍ . فَأَنْكَرَ اللَّيْلُ زَعْمَهُ التَّنْفَرِدَ بِالْفَضْلِ وَادْعَاهُ ، وَأَجَابَ فِي عَرْضِ أَمْرِهَا عَلَى
(الْأَمِيرِ) دَعَاهُ ، وَقَالَ : عَلَى الْخَبِيرِ سَقَطَتْ وَعِنْدَ ابْنِ يَحْدِثِهَا حَطَطَتْ .

وكتب أيضاً في مناظرة بين الأرض والسماء

جالت السماء في ذلك المضمار وصالت ، ونوّهت برفيع قدرها وقالت : تبارك
الذي جعل في السماء بُرُوجاً ، ومنح أشرف الخلق إليّ مُرُوجاً ، وقد مني في
الذكر في محكم الذكر ، وشرّفتني بحسن القسم ، وأتحفني بأوفر القسم ، وقد سني
من النقائص والعُيوب ، وأطلعني على الغوامض والعُيوب ، وقد ورد أنّ الرّبَّ
يُنْزِلُ إِلَيَّ كُلَّ لَيْلَةٍ ، فَيُؤَلِّمُنِي مِنْ تَعَرُّضِ لِنَفْحَاتِهِ بَرْدَ وَنَيْلِهِ . فَيَا لَهَا مِنْ تَحَفٍّ جَلِيلَةٍ
وَمَنْحَةٍ جَزِيلَةٍ يَحْقُ لِي أَنْ أُجَرَّ بِهَا ذُنُوبُ الْعِزَّةِ وَالْإِفْتِخَارِ ، وَكَيْفَ لَا وَالْوُجُودَ
بِأَسْرِهِ بَاسِطٌ إِلَيَّ أَيْدِي الذَّلَّةِ وَالْإِفْتِقَارِ ، فَيَا الْعِزَّ الْبَازِخَ ، وَالْمَجْدَ الْأَثِيلَ الشَّامِخَ ،
لَتَفَرِّدَنِي بِالرَّفْعَةِ وَالسُّمُوِّ وَعُلُوِّ الْمَنْزِلَةِ دُونَ غُلُوِّ . فَقَالَتْ لَهَا « الْأَرْضُ » . وَيَا لَكَ لَقْدَ

أكثر نزرأ وارثكبت بما فُهِت به وزرأ، أما إنه لا يُعجَبُ بنفسه عاقل ، ولا يأمنُ مكر ربه إلا غافل ، ومن ادّعى ما ليس له بقوله أو فعله ، فهلاكه أقربُ إليه من شرك نعله ، وقد قيل : « من سعادة جَدُّك » وقوفك عند حدِّك ، ومن فعلَ ما شاء لقي ما ساء ، أو ما كفاك أن خَطَرْتَ في ميادين التيه والإعجاب ! حتى عرضت لشتي « إن هذا شيءٌ عُجَاب » ! وهل اختصك الله بالذكر ؟ أو أقسم بك دوني في الذكر ؟ أو أثرك بالتقديم ، في جميع كلامه القديم ، حتى ترديت بالكبرياء وتعديت تطوّر الحياء !

إذا لم تخشَ عاقبة الليالي ولم تستح فاصنع ما تشاء
فلا وأبيك ما في العيس خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

وكيف تزدري أهلي بالذنوب والمعاصي ؟ وأنت تعلمين أن الله هو الآخذ بالنواصي ؟ فقابلتها « السماء » بوجه قد قطبته ، ومجنّ قد قلبته ، وقالت لها في الحال : أيتها القانعة بالحوال ، ما كنتُ أحسبُ أنك تجترئين على مبارزة مثلي ، وتنكرين عليّ ما ترنمتُ به من شواهد مجدي وفضلي ، وهل خِلت أن التحدث بالنعم مما يلام عليه ؟ مع أنه أمرٌ مندوبٌ إليه ؟ ومن أمثال ذوي الفطنة والعقل « ليس من العدل سرعة العدل » وكيف جحدت ظهور شمس كالي ؟ وهل لك من الفضائل والفواضل كما لي ! ولكنّ لك عندي عُذراً جليلاً ، وإن كنت « لقد جئت شيئاً فريئاً »

قد تنكر العين ضوء الشمس من رَمَدٍ ويُنكر الفم طعم الماء من سقم

ولو رأيت ما فيك من المساوي عياناً ، لما ثنيت إلى حلبة المفاخرة عناناً . فأنتى تفوزين بأشرف الأقدار ، وأنت موضع الفضلات والأقدار ؟ وما هذا التطاول والإقدام ، ووجهك موطىء النعال والأقدام ، إن هذا إلا فعل مكابر ، دعوى عريضة وعجز ظاهر ، وهل يحق للكثيف أن يتغالى على اللطيف ، أم ينبغي للوضيع أن يتغالى على الرفيع ! فقالت لها « الأرض » : أيتها المستغترّة

بطوالع أقمارها والمُعْتَزَّةُ بلوامع أنوارها « ما كلَّ بَيْضَاءَ شَحْمَةً ، ولا كل
 حمراءَ لَمَةً » فِيمَ تَزْعُمِينَ أَنْكَ أَتَقَى مِنِّي وَأَنْقَى ، وما عند الله خيرٌ وأبقى ،
 وَأَنْتَ واقفةٌ لي على أقدام الخدْمَةِ جارية في قضاء مآربي بحسب الحكمة ، قد
 كفلتك الحق بحمل مؤُونتي ، وكلفتك بمساعدتي ومعونتي ، ووكلك بإيقاد سراجي
 ومصباحي ، ووكلك إلى القيام بشؤوني في ليالي وصباحي ، وليس عُلوُّكَ
 شاهداً لك بالرتبة العُلْيَا ، فضلاً عن أن يوجبَ لك مقام الأفضلية - فما كل
 سُرْتَفَعٌ نَجْدٌ ، ولا كلُّ مُتَعَاظِمٍ ذو شَرَفٍ ومجد

وإن علاني مَنْ دوني فلا عَجَبٌ لي أسوةً بالمحطاطِ الشمس عن زُحَل
 فمن أعظم ما فقتُ به حسناً وجمالاً ، وكذتُ بإخمصي أطأ الثريا فضلاً
 وكلا تكوينُ الله مني وجود سيّد الوجود ، فأفرغَ عليّ به خلع المكارم فهو
 بدر الكمال وشمسُ الجمال :

وأَجَلُ منكَ لم تر قط عينٌ وأَكْمَلُ منكَ لم تلد النساءُ
 خُلِقْتَ مبرءاً من كل عيبٍ كأنك قد خلقت كما تشاء

فأكرم به من نبي أسرّني به وأرضى ، كيف لا ولولاه ما خلق سماءٌ ولا
 أرضاً وجعلني له مسجداً وطهوراً ، وأقرّ به عيني بطوناً وظهوراً .

فأبرقت « السماءُ » ، وأرعدتْ ، وأرغتْ وأزبدتْ ، وقالت : إني لم
 تتخطى خطّة الكابرة وتتخلي عن هذه المنابرة ، لأغرقنك في بحر طوفاني ،
 أو أحرقنك بصواعق نيرانِي ، وهل امتطيت السماكين ، أو انتعلت الفرقدين ،
 حق تفتخري عليّ ، وتشيري بالذم إليّ ، وتلك شهادة لي بالكمال ، ولقد صدق
 من قال :

وإذا أتنك مذمتي من ناقص فهي الشهادة لي بأني كامل

أم حسبت أن لك في ذلك حجة ، فخاطرت بنفسك في ركوب هذه الشجة
 وكنت كالباحث عن حتفه بظلفه ، والجادع مارن أنفه بكفّه
 لكل داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ به إلا الحماقة أعيت من يداويها

أما دعواك أني واقفة على أقدام الخدمة ، فهي مما يوجب عليك شكر الفضل والنعمة ، فلو تفكرت أن خدام القوم هو السيد والمولى ، وعرفت الفاضل من المفضول ، أو تدبرت أن اليد العليا خير من اليد السفلى ، لاستقلت من هذا الفضول ، فإن قيامي بشؤونك أوضح أماره - وأما قولك : مني سيد الوجود ، ومن اصطفاهم لحضرته الملك الودود ، فإن كنت تفتخرين بأشباههم الظاهرة ، فأنا أفتخر بأرواحهم الطاهرة ، أما علمت أنها في ملكوتي تغدو وتروح ، وبواردي^١ بسطي وقبضي تشدو وتنوح ، فأنا أولى بهم ، وأحرى بالافتخار بحزبهم .

فلما سمعت الأرض من السماء مقالة تقطر من خلالها الدماء ، أطرقت لحة بارقي خاطف ، أو نغمة^٢ طائر خائف ، ثم قنعت رأسها ، وصعدت أنفاسها وقالت : لقد أكثرت يا هذه اللغط ، وما آثرت الصواب على الغلط ، فعلام تهزئين بي وتستخفين بحسبي ونسي؟ وإلام تنقضين عرى أدليتي ، ولا تعاليليني بالتي ؟ وحتام تقابلينني بأنواع التأنيب ، ولم لا تقفي على حقيقتي بالبحث والتنقيب ؟ أحسبت أن الجسم ما خلق إلا عبثاً ، ولا كان للنفس النفيسة إلا جدياً ؟ وفي ميدانه تتسابق الفهوم ، وتندرك عوارف المعارف والعلوم ، وبه تترقى الأرواح في مراقي الفلاح . وكيف لا يكون مقدساً من كل غي ومين ؟ وهو لا يفتر عن تسبيح بارئه طرفه عيناً ، وإلى متى أنت علي متحاملة ؟ وعن آية العدل والإحسان متاحلة ؟ وأنا لك أسمع من خادم ، وأطوع من خاتم ، على أن لي من الفضائل ما ثبت بأصح البراهين والدلائل ، أما في بقعة من أشرف البقاع على الإطلاق ، لضمها أعضاء من تتم الله به مكارم الأخلاق ! وفي روضة من رياض الجنة ، كما أفصحت عن ذلك السنة السنية ، ومني الكعبة والمشعر الحرام ، والحجر وزمزم والركن والمقام ، وعسلي بيوت الله تشد

(١) وارد : طريق .

(٢) النغمة : الجرعة .

إليها الرّحال ، ويسبّحُ فيها بالغُدُرِّ والآصال رجال ، وأخرجَ مني طيّبات
الرزق فأكرمَ بها عباده ، وأتمَّ نِعَمَتَهُ عليهم فجعل الشكر عليها عبادة ؛
وفاهيك بما اشتملت عليه من الرّياض والغياض ، ذات الأنهار والحياض ، التي
تَشْفِي بنسيمها العليل ، وتنقي ببرد زلالها حرَّ الغليل

لِمَ لا أهيِّمُ على الرّياضِ وطيبها وأظِلُّ منها تحت ظِلِّ ضافٍ
والزهرُ يضحك لي بشعر باسم والنهرُ يلقياني بقلبٍ صافي

فأسفرتُ عن بدر طلعتِها « السماء » وهي تزهُو في بُرود السّنا والسناء ،
وقالت تناجي نفسها عند ما رَقَّ السّمر ، حتّامَ أريها السهي وتُربني القمر ؟ ثم
عظفتُ عليها تقول ، وهي تسطو وتصول : أيتها المتعدية المتفاضلكي ، والمتصدية
لناضلكي متى قيس التراب بالمسجد ؟ أو شُبّه الحصى بالبرجد ؟ ! إن افتخرتِ
بشرف هاتيك البقاع التي زهاها منك اليفاع والقاع ، فأين أنت من عرش
الرحمن ؟ الذي تعكفُ عليه أرواحُ أهل الإيمان ؟ وأين أنت من البيت المعمور !
والكرسي المكلّل بالنّور ؟ ! وكيف تفتخرين علي بروضة من رياض الجنة ،
وهي عليّ بأسرها فضلاً من الله ومِنّة ! أم كيف تزعمين أنه كُتِبَ لك
بأوفر الحظوظ ، وعندني القلم الأعلى واللوح المحفوظ ؟ وأما ازدهاؤك بالحياض
والأنهار ، والرياض المبتهجة بوُرود الورد والأزهار فليت شعري هل حوت
تلك المعاني إلا بنفحات غيوثي وأمطاري ؟ ! أم أشرقت منك هاتيك المعاني إلا
بلمحات شموسي وأقماري ؟ ! فكيف تُباهينني بما منحك إياه ، وعظمتُ
أرجاءك بأريج نَشْره ورياه ؟ ! يا عجباً منك كلما لاحَ عليّ شعار الحزن ،
خطرت في أبهى حلة من حُلل الملاحة والحُسن ، وإن افتقرتُ تُغور بدور
أنسي ، وقرت ببديع جمالي عين شمسي ، زفرت زفرة القيظ ، وكدت أن
تتميزي من الغيظ ، ما هذا الجفاء يا قليلة الوفاء ؟ ! وهل صفت أوقاتك إلا
بوجودي ، أو طابت أوقاتك إلا بوابل كرمي وجودي ؟ ! ولو قطعتُ

(١) وردت الشجرة وروداً إذا أخرجت وردها .

عنك لطائف الإمداد خلعت ملابس الأنس ولبست ثياب الحداد ! او حجبت
عنك الشَّموس والأقمار لما ميّزت بين الليل والنهار ! فهلا كُنْتَ بفضلي معترفة
حيث إنك من بحر قَيْضِي معترفة ؟ ! فنَزَعْتَ « الأرض » عن مُقاتلتها ،
وعلمت أنها لا قِبَل لها بمقابلتها ، وحين عجزت عن العوم في بحرها ، واستسلمت
تمامها لسحرها ، بسطت لها بساط العتاب ، من مُثَلَّةً بقول ذي اللطف والآداب :
إذا ذهبَ العِتابُ فليسَ وُدٌّ وَيَبْقَى الوُدُّ ما بَقِيَ العِتابُ

ثم قالت : اعلمي ايتهها الموسومة بسلامة الصدر ، الموصوفة بسمو المنزلة
وعُلُوّ القدر ، ان الله ما قارنَ اسمي باسمك ، ولا قابل صورة جسمي بجسمك ،
إلا لمناسبة عظيمة ، وألفة بيننا قديمة ، فلا تُشعِني بنا الأعداء ، وتُسيثي
الأحباء والأوداء ، فإن ذلك من اعظم الرزايا ، وأشدّ الحزن والبُلاء
كلّ المصائب قد تمرُّ على الفتى فتَهونُ ، غيرَ شِمانية الأعداء
ألا وإنَّ العبدَ محلُّ النقص والخلل ، وهل يسوغ لأحدٍ ان يُرثي نفسه
من الزلل ؟ ! وَمَن ذا الذي يسلم من القَدَح ، ولو كان اقومَ من القِدَح
وَمَن ذا الذي يُرضي مزايده كلها كفى المرءَ نبلاً ان تُعدَّ معايبه

هذا ، وإنَّ لي مفاخر لا تُنكر ، ومآثر تجلُّ عن ان تحصر ، كما انك في
الفضل اشهرُ من نارٍ على علَم ، وأجلُّ من ان يحصي ثناءً عليك لسانُ القلم ،
فإلى متى ونحنُ في جدالٍ وجلاد ، نتطاعنُ بأَسِنَّةِ حَداد ، وهل ينبغي
ان يُجرَّ بعضنا على بعضٍ ذيلَ الكِبَرِ والصِّلَف ، عفا اللهُ عَمَّا سَلَف ،
وهذه لعمري ، حقيقة امري ، فانظري إلى بعين الرضا واصفحي بحقِّك عما
مَضَى .

ولما سمعت السماء هذه المقالة ، التي تجنَّحُ إلى طلب السُّلم والإقالة ، قالت لها :
هأربُ لا حفاوة ، ومشربٌ قد وَجَدْتُ له حلاوة ، وما ندبتُ إليه من المودة

(١) القَدَح : بكسر القاف السهم قبل ان يراش ويركب نصله .

والألفة ، فلأمر ما جدّ ع قصير^١ أذفه ، ولو لم تلقني إلى القياد ، لعابنت مني ما دونه خرط القتاد ، ولكن لا حرج عليك ولا ضير ، فإنك اخترت الصلح والصلح خير ، وكيف جعلت العتاب شرطاً بين الأحباب أو ما سمعت بعض أولي الألباب :

إذا كنت في كلّ الأمور مُعاتباً صديقك لم تلق الذي لا تُعاتبه
وإن أنبت كم تشرب مراراً على القذى ظمئت وأي الناس تصفو ومشاربه
وما أنا رادة^٢ إليك عوائد إحساني ، وموائد جودي وامتناني ، فقرّي
عيناً وطيب نفساً ، وتبهي ابتهاجاً وأنساً ، وأبشري ببسوغ الوطر ، وزوال
البؤس والخطر ، فسجدت الأرض شكرًا ، وهامت نَشْوَة^٣ وسُكْرًا ،
وتهلل وجهها سرورًا ، وامتلأت طرباً وحُبوراً .

مناظرة بين فصول العام لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٤٠١ هـ

قال الربيع : أنا شاب الزمان ، وروح الحيوان ، وإنسان^١ عين الإنسان
أنا حياة النفوس ، وزينة عروس الغُروس ، ونزهة الأبصار ، ومنطق الأطيّار ،
عرف^٢ أوقاتي ناسم ، وأيامي أعياد^٣ ومواسم ، فيها يظهر النّبات ، وتُنشَر^٤
الأموات ، وتُرَدُّ^٥ الودائع ، وتتحرك الطبائع ، ويمرح^٦ جنيب^٧ الجنوب ،
وينزح^٨ وجيب^٩ القلوب ، وتفيض عيون الأنهار ، ويعتدل الليل والنهار ،
كم لي عقد منظوم ، وطراز وشي^{١٠} مرقوم ، وحلّة فاخرة^{١١} ، وحيلة ظاهرة ،
ونجم سعد يُدني راعيه من الأمل ، وشمس حُسْن^{١٢} تُشَدُّنا^{١٣} : «يا بُعد ما بين بُرج
الجدني^{١٤} والحمل^{١٥}» عساكري منصوره ، وأسلحتي مشهورة فمن سيف غُصْن^{١٦}

(١) ما يرى في سوادها (٢) الريح الطيبة (٣) تحيا (٤) ينشط (٥) مجنوب ،
والجنوب ريح تخالف الشمال ، مهبها من مطلع سهيل إلى مطلع الثريا (٦) ريح
تخالف الشمال ومنه إذا جاءت الجنوب جاء معها خير كثير (٧) يبعد ويذهب
(٨) خفّقانها (٩) تقول لنا من إنشاد الشعر (١٠) برج في السماء وهو أحد البروج
الاثنى عشر التي تمر بها (١١) برج في السماء أيضاً .

مجوهر ، وديرع بنفسج مشهر ، ومغفر شقيق^٢ أحمر، وترس بهار يبره ،
وسهم آس يرشق فينشق ، ورُمج سوسن^٣ سِنانه أزرق ، تحرسها آيات ،
وتكتنفها ألوية^٤ ورايات ، بي تحمر من الورد خدوده ، وتهتز من البان قدوده ،
ويخضر عذار الریحان ، ويلتبه من النرجس طرفه الوسنان^٥ ، وتخرج الحبايا
من الزوايا ويفتر تغر الأفسحوان^٦ قائلاً أنا ابن جلا وطلاع الثنايا)

إن هذا الربيع شيء عجيب^٧ يضحك الأرض من بكاء السماء
ذهاب حيثها ذهبنا ودُر^٨ حيث دُرنا وفيضة في الفضاء

(وقال الصيف : أنا الخيل الموافق ، والصديق الصادق ، والطبيب الحاذق
أجتهد في مصلحة الأحباب ، وأرفع عنهم كللفة تحمل الثياب ، وأخفف
أثقالهم ، وأوفر أموالهم ، وأكفيهم المؤونة ، وأجزل لهم المعونة ، وأغنيهم
عن شراء الفراء ، وأحقق عندهم (أن كل الصيد في جوف الفراء) نصرت^٩
بالصبا ، وأوتيت الحكمة في زمن الصبا ، بي تتضح الجادة^{١٠} وتنضج من الفواكه
المادة ، ويزهو البسر والرطب وينصلح مزاج العنب ، ويقوى قلب اللوز ،
ويلين عطف التين والموز ، وينعقد حب الرمان ، فيجمع الصفراء ، ويسكن
الحفقان ، وتخضب وجنات التفاح ويذهب عرف^{١١} السفرجل مع هبوب
الرياح ، وتسود عيون الزيتون وتخرج تيجان الثارنج والليمون ، مواعدي منقودة ،
وموائدي تمدودة ، الخير موجود في مقامي ، والرزق مقسوم في أيامي .
الفقير ينصاع^{١٢} بملء مده وصاعه ، والغني يرتفع في ربيع ملكه وإقطاعه ،
والوحش تأتي زرافات^{١٣} ووحداناً ، والطير تغدو خصاصاً وتروح بطاناً^{١٤} .

(١) زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٢) شقائق النعمان وهو نبات
أحمر الزهر مبقع بنقط سوداء كبيرة (٣) نبات طيب الرائحة (٤) النعسان
الغفلان (٥) البابونج نبات طيب الرائحة حوالیه ورق أبيض ووسطه أصفر
(٦) الطريق (٧) رائحته الطيبة (٨) ينتقل راجعاً مسرعاً
(٩) جماعات (١٠) تذهب جائعة وترجع ممتلئة .

مصيفٌ له ظِلٌّ ظليلٌ على الورى وَمَنْ حَلا طعماً وحلَّلَ أخلاطاً
يعالج أنواع الفواكه مُبدياً لصحتِها حفظاً يُعجز بقراطاً^١

(وقال الخريف) : أنا سائق الغيوم ، وكاسر جيش الغيوم ، وهازم أحزاب السموم^٢ ، وحادي نجائب السحائب ، وحاسر نقاب المناقب ، أنا أصد الصدى^٣ وأجود بالندى ، وأظهر كل معنى جلي^٤ ، وأسمو بالوسمي^٥ ، والولي^٦ ، في أيامي تقطف الثمار ، وتصفو الأنهار من الأكدار ويتفرق^٧ دمع العيون ، ويتلون ورق الغصون ، طوراً يحاكي البقم ، وتارة يشبه الأرقم ، وحيناً يبدو في حلته الذهبية فيجذب^٨ إلى خلته القلوب الأبية ، وفي^٩ يكفى الناس هم الهوام^{١٠} ، ويتساوى في لذة الماء الخاص والعام ، وتقدم^{١١} الأطيوار مطربة^{١٢} بنشيشها رافلة^{١٣} في الملابس المجددة عن ريشها ، وتعصر^{١٤} بنت العنقود وتوثق^{١٥} في سجن الدن^{١٦} بالقيود ، على أنها لم تجتزح^{١٧} إثمًا ، ولم تعاقب^{١٨} إلا عدواناً وظالماً ، في تطيب^{١٩} الأوقات ، وتحصل^{٢٠} اللذات ، وترق^{٢١} النسمات ، وترمى^{٢٢} حصى الجمرات ، وتسكن^{٢٣} حرارة القلوب ، وتكثر أنواع المطعوم والمشروب ، كم لي من شجرة أكلها دائم ، وحملها للنفع المتعدي لازم ، ورقها على الدوام غير زائل ، وقدود^{٢٤} أغصانها^{٢٥} تحسجل^{٢٦} كل رُمح ذابل :

إن فصل الخريف وافى إلينا يتهادى في حلّة كالعروس
غيره كان للعيون ربيعاً وهو ما بيننا ربيع النفوس

(وقال الشتاء) أنا شيخ الجماعة ، ورب البضاعة ، والمقابل^١ بالسمع والطاعة أجمع شمل الأصحاب ، وأسدل^٢ عليهم الحجاب ، وأتحفهم بالطعام والشراب ، وَمَنْ ليس له بي طاقة^٣ أغلق من دونه الباب ، أميل^٤ للطبيع ، القادر المستطيع

(١) بقراط الحكيم اليوناني وهو لفظ يوناني معناه ناسك الصبح (٢) الريح الحارة (٣) العطش (٤) المطر الذي يأتي في الخريف ، والولي الذي يأتي بعده (٥) تفرق الدمع في العين تحرك .

المعتضد بالبرود والفرا ، المتمسك من الدينار بأوثق العُرى ، ومن يَعِشُ عن
ذِكْرِي ، ولم يَمَثُلْ أُمْرِي ، أَرْجَفْتُهُ بصوت الرُّعد ، وَأَنْجَزْتُ لَهُ من سيف البرق
صَادِقَ الوعد ، وَسَرَّتُ إِلَيْهِ بعساكر السحاب ، ولم أَقْنَعِ من الغنيمة بالإياب ،
مَعْرُوفِي مَعْرُوف ، وَنَسِيلَ نَسِيلِي مَوْصُوف ، وَثَمَارَ إِحْسَانِي دَانِيَةَ القُطُوف ، كم
لِي من (وابل) طویل المدى (وَجُود) وافر الجدا (وقطر) حلا مذاقه
(وَغِث) قيد العُمة إطلاقه (وديمة) تُطرب السمع بصوتها (وَحْيًا) يحیی
الأرض بعد موتها ، أيا مِي وَجِيزَةً وَأَوْقَاتِي عَزِيزَةً ، وَبِجَالِسِي مَعْمُورَةً بِذَوِي
السِّيَادَةِ ، مَغْمُورَةً بِالْخَيْرِ وَالْمَعْرِ والسَّعَادَةِ ، نُقْلَهَا يَأْتِي من أنواعه بِالْعَجَبِ ،
وَمُنَاقِلَهَا تَسْمَحُ بِذَهَبِ اللُّهَبِ ، وَرَاحَتُهَا تُنْشَعِشُ الأَرُوحَ ، وَسَقَاتُهَا يَجْهَرُ بِهَمِّ
السَّقِيمَةِ تَفْتِنُ الْعُقُولَ الصَّحَاحَ ، إِنْ رُدَّتْهَا وَجَدْتَ مَا لَا مَمْدُودَ ، وَإِنْ زُرْتَهَا
شَاهَدْتَ لَهَا بَنِينَ شُهُودًا .

مناظرة بين البر والبحر لقمع الأدباء

قال (البر) يا صاحب الدَّر ، وَمَعْدِنِ الدَّر ، أَطَرَقْتَ رِيَاضِي وَمَزَّقْتَ
قُصُورِي وَأَحْوَاضِي ، وَأَغْرَقْتَ جَنَّتِي ، وَدَخَلْتَ جَنَّتِي ، وَتَلَاطَمْتَ أَمْوَاجَكَ
عَلَى جَنَّتِي ، وَأَكَلْتَ جَزَائِرِي وَجُرُوفِي ، وَأَهْلَكْتَ مَرْعَى فَصِيلِي وَخُرُوفِي ،
وَأَهْزَلْتَ ثُورِي وَحَمَلِي وَفَرَسِي وَجَمَلِي ، وَأَجْرَبْتَ سَفْنَكَ عَلَى أَرْضٍ لَمْ تَجْرَ
عَلَيْهَا ، وَلَمْ تَمَلْ طَرَفَ غَرَابِهَا إِلَيْهَا ، وَغَرَسْتَ أَوْتَادَهَا عَلَى أَوْتَادِ الأَرْضِ ، وَعَرَّسْتَ
فِي مَوَاطِنِ الْفَلِّ وَالْفَرَسِ ، وَجَمَلْتَ بَحْرِي مَرَاكِبَكَ فِي بَحْرِي مَرَاكِبِي ، وَمَشَى
حَوْتُكَ عَلَى بَطْنِهِ فِي سَعْدِ أَخْبِيَةِ مِضَارِي ، وَغَاصَ مَلَا حَمْلَكَ فِي دِيَارِ فَرَحِي ،
وَهَاجَرْتَ مِنَ الْقَرْيِ إِلَى أُمِّ الْقَرْيِ وَحَمَلْتَ فَسَلَاتِحِي أَنْتَقِلَهُ عَلَى الْقَرْيِ ، وَقَدْ
تَلَقَيْتَكَ مِنَ الْجَنَادِلِ بِصَدْرِي ، وَحَمَلْتُكَ إِلَى بَرْزَخِكَ عَلَى ظَهْرِي ، وَقَبَّلْتُ
أَمْوَاجَكَ بِثَغْرِي ، وَخَلَفْتُ مِقْيَاسِي فَرَحًا بِقُدُومِكَ إِلَى مِصْرِي وَقَدْ جُرْتُ
وَعَدَلْتُ وَفَعَلْتُ مَا فَعَلْتَ ، فَلَعَلَّكَ تَفِيضُ ، وَلَا يَكُونُ ذَهَابُكَ عَنْ ذَهَابِ بَغِيضُ ،

أو تفارق هذه الفجاج ، وتختلط بالبحر العجاج ، وإن لم تفعل شكّوناك إلى
من أنزلك من السماء ، وأنعم بك علينا من خزائن الماء :

إذا لم تكن ترحم بلاداً ولم تُغيثْ عِبَاداً فلولاهم يَغِيثُ وَيَرْحُمُ
وإن صدرت منهم ذنوبٌ عَظِيمَةٌ فَعَفُوُ الذي أجراك يا بحرُ أعظمُ
غَدُّه إليه أيدياً لم تَمُدّها إلى غيره والله بالخالِ أعلمُ

قال (البحر) : يا بَرُّ ، يا ذا البِرِّ ، ومنبتِ البِرِّ ، هكذا تخاطب
ضيفك وهو يخصب شتاءك وصيفك ، وقد ساقني الله إلى أرضك الجرّ ،
ومعدن الدّر والخرز لأ بهج زرعها وخيلها ، وأخرج أبّها ونخيلها ، وأكرم
ساكنك ، وأنزل البركة في أماكلك ، وأثبت لك في قلب أهلك أحكام الحبّة ،
وأثبت بك لهم في كل سنبله مائة حبّة ، وأحييت حياة طيبة ، يبتهج بها
عمرّك الجديد ، وتتلو « كذلك يُحيي الله الموتى » ألسنة العبيد ، وأطهرّك من
الأوساخ ، وأحيل إليك الإبلين فأطيبك به من عرق السباخ ، وأنا هدية الله إلى
مصرّك ، وملك عصرّك ، القائم بنصرّك ، ولولا برّكاتي عليك ، ومسيري في كل
مسرّتي إليك ، لكنّك وادياً غير ذي زرع ، وصادياً غير ذي ضرع :

سرّيتُ أنا ماء الحياة فلا أذى إذا ما حفظتُ الصّحب فالمال هيّنُ
فكن خَضراً يا بَرُّ واعلم بأنني إلى طينِكَ الظمآن بالري أحسنُ
وأسمى إليه من بلادٍ بعيدةٍ وأحسنُ أجري بالتي هي أحسنُ
إذا طاف طوفاني بمقياسك الذي يُسرُّ بآتيان الوفاءِ ويُمِلُّ
فقم وتلقّاه ببسطتِكَ التي لرَوْضَتِها فضلٌ على الرّوض بيّنُ

ولعمري : لقد تَلَطَّفَ (البرُّ) في عِتابه وأحسن ، ودَفَعَ (البحرُ) في جوابه
بالتّي هي أحسن ، وقد اصطَلَحَا وهما بمحمّدٍ الله أخوان مُتَضَافِرَانِ على عمارة
بلاده ، ونشر الشّروة ونموّ الخيرات بين عباده ، فالله تعالى يخصب مرعاها
ويحرسها ويرعاها

مناظرة بين الهواء والماء لبعض الأدباء

قال (الهواء) : الحمد لله الذي رفع فلك الهواء ، على عنصر التراب والماء .
 «أما بعد» فأنا الهواء الذي أُولف بين السحاب وأنقلُ نسيم الأحاب ، وأهْبُ
 ثارةً بالرَّحمة وأخرى بالعذاب ، وأنا الذي سَيَّرَ بي الفلكُ في البحر كما تسير
 العيسُ في البسطاح ، وطار بي في الجوُّ كل ذي جَناح ، وأنا الذي يضطربُ مني
 الماءُ اضطراب الأنابيب في القنا ، إذا صَفَوْتُ صفا العالم ، وكان له نَصْرَةٌ
 وزَهْوٌ ، وإذا تَكَدَّرَتْ انكدرت النجوم وتكدَّر الجوُّ ، لا أتلوّن مثل الماء
 المتلوّن بلوّن الإناء ، لولايَ ما عاش كل ذي نفس ، ولولايَ ما طاب الجوُّ من
 بخار الأرض الخارج منها بعد ما احتبس ، ولولايَ ما تكلم آدميٌ ولا صوت
 حيوان ، ولا غرَّد طائر على غصن بان ، ولولايَ ما سَمِعَ كتاب ولا حديث ،
 ولا عُرِفَ طَيِّب المسموع والمشموم من الخبيث فكيف يُفاخرنِي الماء الذي إذا
 طال مُكثه ، ظهر خبثه ، وعلت فوقه الجيفُ وانحطَّت عنده اللآلئُ في
 الصدف .

فقال (الماء) : الحمد لله الذي خلق كلَّ حيٍّ «أما بعد» فأنا أول مخلوق
 ولا فخر ، وأنا لذة الدنيا والآخرة ويوم الحشر ، وأنا الجوهر الشفاف ، المشبه
 بالسيف إذا سُلَّ من الغلاف ، وقد خلق الله فيَّ جميع الجواهر حق اللآلئِ
 والأصداف ، أحْيِي الأرضَ بعد مماتها ، وأخرج منها للعالم جميع أقواتها ،
 وأكسو عرائس الرِّياض أنواع الحلل ، وأنثر عليها لآلئ الوَبَل والطلل ، حق
 يُضْرَبُ بها في الحُسْن المثل ، كما قيل :

إن السماءَ إذا لم تَبْكِ مقلتها لم تَضْحَك الأرضُ عن شيءٍ من الزَّهر

فكيف يُنْكِرُ فضلي مَنْ دَبَّ أو درَج ؟ وأنا البحرُ الذي قيل عنه في
 الأمثال « حدث عن البحر ولا حَرَج » ، وأما أنت أيها الهواء : فطالما أمْلَكْتَ
 أمّا بِسُموِّكَ وزمهريرِكَ ، ولا تقوِّمَ جَنَّتُكَ بِسَمِيرِكَ .

وأما قولك: لولايَ ما عاش إنسان، ولا بقيَ على الأرض حيوان، فجوابه: لو شاء الله تعالى لعاش العالم بلا هواء، كما عاش عالم الماء في الماء، وأنشدك الله أما رأيتَ ما حباني الله به من عظيم المنّة، حيث جعلني نهرًا من أنهار الجنة، أنا أرفع الأحداث، وأطهرُ الأخباث، وأجلو النظر، وأزيلُ الوَضر، أما رأيتَ الناسَ إذا غيبتُ عنهم يتضرّعون إلى الله بالصوم والصلاة والصدقة والدعاء ويسألونه تعالى لإرسالي من قبيل السماء؟ واعلم أني ما نلتُ هذا المقامَ الذي ارتفعتُ به على أبناء جنسي، إلا بالخطاطبي الذي عيّرَني به وتواضعي وهضم نفسي.

وقد كثرَ بينها النزاع والجدال، حتى حكمَ بينهما أميرٌ وقال: إن كلا منكما مُحِقٌّ فيما يدّعيه، فما أشبهكما في السماء بالفرّقدين، وفي الأرض بالعينين، إلا أن مرآة الحقّ أرّثني فضيلةً تفضّلُ بها أيها الماءُ أخاك الهواء، وحققت لي بأنكما لستما في الفضل سواء، وهي (أن الله تعالى خلق آدمَ من الماء) فاعترفْ لأخيك بالفضل والذكاء.

مناظرة بين الجمل والحصان للقدسّي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ

قال (الجمل): أنا أحيلُ الأحمالَ الثقَالَ، وأقطعُ بها المراحلَ الطوالَ، وأكابِدُ الكتلالَ، وأصبرُ على مرِّ النّسكالِ، ولا يعتريني من ذلك ملال، وأصولُ صوْلةِ الإدلالِ، بل أنقادُ للطفل الصغير، ولو شئتُ استصعبتُ على الأمير الكبير، فأنا الذَّلُولُ، وللأثقالِ حِمُولُ، لستُ بالخائن ولا الغلول، ولا الصائل عند الوُصولِ أقطعُ في الوُحولِ، ما يَعَجِيزُ عنه الفحول، وأصابِرُ الظلمات في الهواجر ولا أحول، فإذا قضيتُ حقَّ صاحبي، وبلغتُ مأربي ألقيتُ حَبْلِي على غاربي، وذهبتُ في البوادي أكتسبُ من الحلال زادي، فإن سمعتُ صوتَ حاديّ سلمتُ إليه قيادي، وواصلتُ فيه سُهادي، وطلقتُ طيّبَ رُقادي، ومددتُ إليه عُنْقِي لبلوغ مرادي؛ فأنا إن ضللتُ فالدليلُ هادي، وإن زللتُ أخذَ بيدي من إليه انقيادي، وإن ظمِئتُ فذِكرُ الحبيبِ زادي،

وأنا المسخر لكم ، بإشارة « وَتَحْمِيلُ أَثْقَالِكُمْ » فلم أزل بين رحلة ومقام ، حتى أَصِلَ إلى ذلك المقام .

فقال (الحصان) : أنا أَحمِلُ صاحبي على كاهلي فأجتهدُ به في السير ، وأنطلقُ به كالطير ، أهبّجُ هجْجَ الليل ، وأقتحمُ اقتحام السيل ، فإن كان طالباً أدركَ بي طلبه ، وإن كان مطلوباً قطعت عنه سببه ، وجعلت أسباب الردى عنه محتجبة ، فلا يُدركُ مني إلا الغبار ، ولا يُسمعُ عني إلا الأخبار ، وإن كان الجملُ هو الصابر المحرَّب ، فأنا السابق المقرَّب ، وإن كان هو المقصد اللاحق ، فأنا المقرَّب السابق ، فإذا كان يوم اللقاء قدمتُ إقدام الوالِه ، وسبقت سبق نبالِه ، وذلك مُتخلفٌ لثقل أحمالِه ، وإن أوثقَ سائسي قيدي وأمين قائدي كيدي ، أوثقتُ بِشكالي ، لكيلا أحول على أشكالي ، وأجِمتُ بلجامي كيلا اغفل عن قيامي ، وأنعلتُ الحديدَ أقدامي كيلا أُكِلَ عن إقدامي ، فأنا الموعود بالنجاة ، المعدود لينيل الجاه ، المشدود للسلامة ، المقصود للكرامة ، قد أجزل المنعم عليّ إنعامه ، وأمضى بالعناية الأزليّة أحكامه « فإن الخير معقودٌ بنواصي الخيل إلى يوم القيامة » خُلِقتُ من الريح ، وألهمت التسبيح ، وما برح ظهري عزّاً ، وبطني كنزاً ، وصهوتي حِرْزاً ، فكُم رَكَضْتُ في ميدان السباق وما أبديت عجزاً ، وكُم حزرت رهوس أهل النفاق حزّاً ، وكُم أخليت منهم الآفاق (هل تحسُّ منهم من أحدٍ أو تسمعُ لهم رِكْزاً) .

الفن الثالث في الأمثال

المثل عبارةٌ عن تأليف لا حقيقة له في الظاهر ، وقد ضُمِّنَ باطنه الحكيم الشافية وهي ثلاثة أقسام : مفترضةٌ ممكنة ، ومخترةٌ مستحيلة ، ومختلطة : (١) الأمثال المفترضة الممكنة : هي ما نُسيب فيها النطق والعمل إلى عاقل .

(١) وتختلف عن الحكاية من وجهين : الأول أن لها مغزى ، والثاني كونها غير واقعة وإن كانت في حيز الإمكان .

(٢) والمختزعة المستحيلة: ما جاءت على السنة الحيوانات والجمادات فيُعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان .

(٣) والمختلطة : ما دار فيها الكلام أو العمل بين الناطق وغير الناطق .
وشروط المثل أربعة: (الأول) أن تكون روايته خالية من كل تعقيد ليفضي المقصود منه إلى ذهن السامع . (الثاني) أن لا يكون مُسهباً 'مِلاً'. (الثالث) أن يُسهج السامع بطلاوته ويفكه فكرته بهزل كلامه وابتكار معانيه، ويضبط عقله في فهم الرواية المختلقة وفض* مشكلها (الرابع) أن يُورد بصورة محتملة .
وفوائد المثل جمّة، منها نزهة البال وترويح المخاطر ، ومنها استقصاء الحكم؛ وهي قديمة العهد جداً ، ولا يعرف اسم أول من تكلم بها ، وكما تكون نثراً تكون نظماً – ونذكر لك من الأمثال ما طاب وراق فنقول :

أمثال القرآن الكريم

أمثال القرآن الكريم قسمان : ظاهرٌ مُصرّحٌ به ، وكامنٌ لا ذِكر للمثل فيه ،
أما أمثاله الظاهرة : فكقوله تعالى في شأن المنافقين « مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمْ بُكُمْ » عني فهم لا يرجعون* أو كصَيَّبَ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ * يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا ، وَلَوْ شَاءَ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ، .

وقوله سبحانه تعالى في شأن الذي يُنفق أمواله ابتغاء مرضاة الله ، والذي ينفقها رياءً : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى ، كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

صَفَنُوا^١ عَلَيْهِ تَرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ^٢ فَتَرَكَهُ صَلْدًا^٣ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ، وَمِثْلُ الَّذِينَ يُسْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيْتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمِثْلِ جَنَّةٍ بَرْبُورَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُضِبْنَهَا وَابِلٌ فَطُلٌّ^٥ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ، أَيُّودُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ^٦ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ،

وقوله تعالى في تمثيل الحق والباطل : « أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ^٧ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ، فَأَمَّا الزُّبَدُ^٨ فَيَذْبُغُ جُفَاءً^٩ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ .

وقوله تعالى في تمثيل الحكمة وضدها : « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مِثْلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ، وَمِثْلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثِلَتْ^٩ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ .

وقوله جل شأنه في حال الكفار وما يعبدون من دون الله : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مِثْلٌ^{١٠} فَاسْتَمِعُوا لَهُ ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّهَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ . ضَعُفَ الْمَطَالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ، وقوله تعالى : « مِثْلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمِثْلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ، وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ .

(١) حجر أملس (٢) مطر شديد (٣) صلباً نقياً من التراب (٤) مكان مرتفع

(٥) مطر خفيف (٦) ريح شديد (٧) ما يعلو على وجه الماء من قذر ونحوه

(٨) باطلاً مرمياً به (٩) قطعت من أصلها

(١٠) - جواهر الأدب (١)

وقوله تعالى في أن عمل الكافر يذهب هباءً تذرره الرياح :

« مثل الذين كفروا برهيم أعمالهم كرمادٍ اشتندت به الرياح في يومٍ عاصف لا يقدرّون ممّا كَسَبُوا على شيءٍ » .

وقوله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ ۚ بِقِيعَةٍ ۚ يَحْسِبُهُ الظَّمآنُ مَاءً ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفَاتٍ ۚ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجْجِي ۚ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْنُذْ ۚ يَٰرَاهَا ۚ وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُّورٍ » .

وقوله تعالى في أن الدنيا ظلٌّ حائلٌ وخيالٌ باطل :

« واضربْ لهم مثل الحياة الدنيا كماءٍ أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً ۖ تذرّوه الرياح » .

وقوله تعالى ، « اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ ۖ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثمّ يهيج فتراه يَصْفَرُّ ۖ ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا » .

وأما أمثاله الكامنة ، فهي الآداب البارعة والحكم الباهرة فمن ذلك قوله تعالى :

٣ إِنَّكَ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ

فِي الصَّبْرِ وَالثَّباتِ

١ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ

فِي الصَّدَقِ

١ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ

وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

٢ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صَدَقُهُمْ

(١) شعاع يرى مثل الماء حين اشتداد الحر نصف النهار

(٢) جمع قاع وهو الأرض المستوية (٣) عميق (٤) يابساً متفرقة أجزاؤه .

٣ فمن عفا وأصلح فأجره على الله
٤ عفا الله عما سلف

في الوفاء

١ وأوفوا بالعهد إن العهد كان
مسئولاً

٢ إن الله يأمركم أن تؤدوا
الأمانات إلى أهلها

في الاقتصاد

١ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك
ولا تبسطها كل البسط فتقعد
مملوماً مخسوراً

٢ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين
٣ وكلوا واشربوا ولا تسرفوا

في الأمر بالمعروف

١ خذ العفو وأمر بالعرف
وأعرض عن الجاهل

٢ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير
ويأمرون بالمعروف وينهون عن
المنكر وأولئك هم المفلحون

٣ وتعاونوا على البر والتقوى
ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

٤ إن الله يأمر بالعدل والإحسان
وإيتاء ذي القربى وينهى عن
الفحشاء والمنكر والبغى

٢ فاصبر صبراً جميلاً

٣ واصبر على ما أصابك إن ذلك
لن عزم الأمور

٤ فصبر جميل

٥ واصبر على ما يقولون واهجرهم
هجرأ جميلاً

في العلم والاسترشاد

١ إنما يخشى الله من عباده العلماء

٢ وما يعقلها إلا العالمون

٣ قل هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون

٤ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون
في الاتحاد والوئام بعد الخصام

١ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا
تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم
إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم
فأصبحتم بنعمته إخواناً

٢ ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب
ريحكم

٣ ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها
من بعد قوة أنكاثاً

في العفو

١ فاصفح الصفح الجميل

٢ والكاذمين الغيظ والعافين عن
الناس

برُّ الوالدين والتقريب والجار
والصاحب

١ وقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ
وبالوالدين إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ
عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفًّا وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ
لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ
ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا

٢ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ
٣ وبالوالدين إِحْسَانًا وَبِذِي
الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ
وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ
الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ
السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ
اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَلًا فَخُورًا

في النصيحة

١ إني لك من الناصحين
٢ وأنا لكم ناصحٌ أمين
٣ ونصحتُ لكم ولكن لا تحبون
الناصحين .

في الشكر

١ لئن شكرتم لأزيدنكم

٢ وقليلٌ من عبادي الشكور
٣ ومن شكر فلنما يشكر لنفسه
٤ وسيجزى الله الشاكرين
في الاغضاء والتغافل واللين
١ أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم
فأعرض عنهم وعيظهم وقل لهم
في أنفسهم قولاً بليغاً .
٢ لا تثرِيبَ عليكم اليومَ يغفرُ
الله لكم .

٣ ادفع بالتي هي أحسن
٤ فاصبرْ على ما يقولون واهجرْهم
هجرًا جميلًا .
٥ ولو كنتَ فظًا غليظَ القلبِ
لأنفضوا من حولك
٦ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ
يُبْدِهَا لَهُمْ
٧ وَإِذَا خَاطَبْتَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا
سَلَامًا

في المرح

١ ما هذا بشراً إن هذا إلا مَلَكٌ
كريم .
٢ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لَوْلُؤَا
مَنْشُورًا .
٣ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ آمِينَ .

- ٤ إنَّ هذا لهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ
- ٥ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ
- ٦ خَتَامُهُ مَسْكٌ
- ٧ ذُرِّيَّةٌ بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ
- ٨ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا .
- ٩ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا
- ١٠ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ
- ١١ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ
- ١٢ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ
- ١٣ سِيَاهٌ فِي وُجُوهِهِمْ
- ١٤ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا
- ١٥ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَامٍ اقْتَسَدَهُ .
- ١٦ إِنَّ خَيْرَ مَنْ اسْتَأْجَرَ الْقَوِيَّ الْأَمِينُ .

في التبرئة والتنزيه

- ١ حَاشَا لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ
- ٢ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ
- ٣ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا

في حسن الخلق

- ١ مَا شَاءَ اللَّهُ

- ٢ وَصُورَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ
- ٣ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ
- ٤ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ
- ٥ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ

في الكذب والزور

- ١ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا .
- ٢ إِنَّ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ
- ٣ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ
- ٤ فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ
- ٥ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ .
- ٦ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ .
- ٧ أَنْظِرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ
- ٨ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

في الخيانة ونقض العهد

- ١ أَوْ كَلِمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ .
- ٢ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ
- ٣ لَهُمْ لَا إِيمَانَ لَهُمْ .

فقد جعلنا لوليّه سلطاناً فلا
يُسْرِفُ في القتل إنّه كان
منصوراً .

٣ ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة .
٤ ولا تقتلوا أنفسكم إنّ الله كان
بكم رحيمًا .

في الزنا

١ ولا تقربوا الزّنا إنّهُ كان
فاحشةً وساءَ سبيلًا .
٢ ولا تُكثِرُوا فَتَنَاتِكُمْ عَلَى
الْبِغَاءِ إِنّ أَرْدَنَ مُحْصًى
لِتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا .

في الخمر والميسر

١ يسألونك عن الخمر والميسر
قل فيها إثمٌ كبيرٌ ومنافع للناس
وإثمها أكبرٌ من نفعيها .
٢ يا أيها الذين آمنوا إنّما الخمر
والميسرُ والأنصابُ والأزلامُ
رجسٌ من عمل الشيطان
فاجتنبوه لعلكم تفلحون إنّما
يريد الشيطان أن يُوقعَ بينكم
العداوةَ والبغضاءَ في الخمرِ
والميسرِ ويصدّكم عن ذكر الله
وعن الصلاة فهل أنتم مُنتهون؟!

٤ فَمَن تَكُنْ فَإِنَّمَا يَنشُكْ عَلَى
نَفْسِهِ .

٥ إنّ الله لا يحبُّ من كان خوّاناً أثمياً
٦ وأنّ الله لا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ

في السخرية والغيبة والنميمة والجهر

١ يا أيها الذين آمنوا لا يَسْخَرِ
قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عسى أن يكونوا
خيراً منهم ولا نساءٌ من نساءٍ
عسى أن يَكُنَّ خيراً مِنْهُنَّ
ولا تلمِزُوا أَنْفُسَكُمْ ولا
تَنَابَزُوا بِاللُّقَابِ .

٢ ولا تَجَسَّسُوا ولا يَفْتَنِبْ
بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ .

٣ لا يُحِبُّ الله الجهرَ بالسُّوءِ مِنَ
الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ .

٤ وَيَلْ لِكُلِّ هَمْزَةٍ مُلْمَزَةٍ

٥ وإذا مرُّوا بهم يتغامزون .

في القتل والانتحار

١ ولا تقتلوا أولادكم خَشِيسَةً
إِمَّا لِقَاءِ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِن
قَتَلْتُمْ كَانِ خَطِيئَةً كَبِيرَةً .

٣ ولا تقتلوا النفسَ التي حَرَّمَ اللهُ
إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا

في البخل وحب المال

- ١ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَلَى نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ
- ٢ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يَنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ
- ٣ الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ
- ٤ وَتَأْكُلُونَ الثَّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا

في الرِّبَا

- ١ وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا
- ٢ يَحَقُّ لِلَّهِ الرِّبَا وَوُجِدَ فِي الصَّدَقَاتِ

في العُجْب والكِبَر

- ١ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ
- ٢ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى
- ٣ ثَانِيًا عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ
- ٤ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ
- ٥ إِنَّ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرًا مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ

- ٦ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا

في الاستبداد والأثرة

- ١ فَإِذَا جَاءَتْهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى وَمَنْ مَعَهُ
- ٢ وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ
- ٣ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى

في التفرق والاختلاف

- ١ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى
- ٢ كُلٌّ حِزْبٌ بِمَا لَدَيْهِمْ قَرْحُونَ
- ٣ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ
- ٤ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ

في الجبن والفرار

- ١ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا
- ٢ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعُدُو
- ٣ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِالسِّنَةِ حِدَادٍ

٤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ
اسْتَفْنَى .

٥ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ !

فِي الدِّمِ وَالْإِهَانَةِ وَالتَّهْمِ وَالتَّحْقِيرِ

١ أَنْتُمْ شَرٌّ مَكَانًا !!

٢ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ؟

٣ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ .

٤ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ .

٥ كَلِمًا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ
أَخْسَهَا .

٦ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ .

٧ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ .

٨ سَوَاءٌ نُنَجِّيهِمْ وَمِمَاتِهِمْ .

٩ لَقَدْ كُنْتُمْ أَكْثَرُ مُنْكَرٍ
أَنْفُسَكُمْ .

١٠ يُعْرِفُ الْجَائِمُونَ بِسِيَاهِهِمْ .

١١ ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ .

١٢ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ
بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ .

١٣ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَإِنَّهُ مِنْ أَهْلِ الْكَرَمِ

١٤ وَمَا أَرْتَبْتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا .

١٥ ذَلِكَ مَبْلَغُنَا مِنْ الْعِلْمِ .

١٦ فَتَشَدُّ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ

عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثْ .

فَيَمْنُ بِمَا لَا يَفْعَلُ وَيَعْلَمُ وَلَا يَعْمَلُ

١ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ
أَنْفُسَكُمْ .

٢ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ؟

٣ كَمَثَلِ الْخَمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .

فِي الْغَفْلَةِ

١ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ
يَعْمَهُونَ .

٢ قَتَلَ الْخُرَاصُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي
غَمْرَةٍ سَاهُونَ .

٣ وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ .

٤ فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ الَّذِينَ هُمْ عَنْ
صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ .

٥ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ .

٦ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ عَنْ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ .

فِي انْكَارِ الْجَمِيلِ

١ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ صُورَةَ مَرْ
كَانَ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضَرْبٍ مَسَّةٍ .

٢ وَلَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ
مِنْ ضُرٍّ لَلَّجِبُوا فِي طُغْيَانِهِمْ
يَعْمَهُونَ .

٣ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ
لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ .

٦ رَبَّنَا إِنَّا أَعْطَيْنَا سَادَاتِنَا
وَكُيُورَاءَنَا فَأَصْلَحْنَا السَّبِيلَ .

فِيمَنْ عَمِيَتْ بِصِيرَتِهِمْ وَأَضَلَّهُمْ هَوَاهُمْ
١ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ
أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ
آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ
هُمْ الْغَافِلُونَ .

٢ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ
تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .
٣ أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ
وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ ؟

فِي 'قِرْنَاءِ السَّوِّءِ' وَالْفَاوِينَ وَالنَّهْيِ
عَنْ اتِّبَاعِهِمْ :

١ وَلَا تُطِيعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ
ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ
'فَرُطًا' .

١ يَدْعُو لِمَنْ ضَرَّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ
لِبَشْسِ الْمَوْلَى وَابْتِسَ الْعَشِيرِ .

٣ وَلَا تَرْكَبُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا
فَتَمْسَكُ النَّارَ .

٤ وَلَا تَتَّبِعُوا سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

٥ وَإِخْوَانَهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ

١٧ كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا .

١٨ أُولَئِكَ هُمُ الشُّرُكُوتُ .

١٩ هَمَّازٍ مَشَاءٍ يَنْمِيهِ مَنْتَاجٌ لِلْخَيْرِ
'مُعْتَدٍ' أَنَّهُمْ . عُتِلَ بَعْدَ ذَلِكَ
زَنِيمٌ .

٢٠ إِنَّكَ كَلَفَوْنِي مُبِينٌ .

٢١ إِنْ شِئْتَ هُوَ الْأَبْتَرُ .

٢٢ أُولَئِكَ لَا خَلَائِفَ لَهُمْ فِي
الْآخِرَةِ .

٢٣ أَنَا يُوجِّهُ 'لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ' .

٢٤ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ .

٢٥ اتَّخَذُوا أَيْمَنَهُمْ جُنَّةً .

٢٦ فَمَا لَهُمْ لَا يُكَادِرُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا

فِي الضَّالِّينَ وَالْمُضِلِّينَ

١ إِنَّهُمْ أَلْفَوْا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ ، فَهُمْ
عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ

٢ الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ .

٣ وَإِنَّ كَثِيرًا لَيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِمْ
بَغْيِرَ عِلْمٍ .

٤ وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ الْأَوَّلِينَ

٥ وَإِخْوَانَهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
لَا يُقْصِرُونَ .

- ٦ يَا لَيْتَ بَنِي وَيَيْنِكَ بُعْدَ
المُشْرِقَيْنِ فَبُئْسَ الْقَرِينُ .
٧ يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا
خَلِيلًا .

في التنبيه على الخطأ والضلال

- ١ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ؟
٢ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ؟
٣ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى
بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ ؟
٤ تِلْكَ إِذْ نَاقَسْتُمُ الذِّكْرَ .
٥ تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالٍ الْقَدِيمِ .
٦ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ .
٧ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُحْسِنُونَ صُنْعًا .

في المنافقين والمرائين

- ١ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ
وَمَا تُخْفِي صدورُهُمْ أَكْبَرُ .
٢ وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمْ
الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ .
٣ يَقُولُونَ بِالسَّيِّئَةِ مَا لَيْسَ فِي
قُلُوبِهِمْ .
٤ يُرْضَوْنَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى
قُلُوبُهُمْ .
٥ وَلِيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى

- واللهُ يشهدُ إنهم لَكَاذِبُونَ .
٦ إِنْ تَحْسَبَنَّكُمْ حَسَنَةً تَسَوْءُ لَهُمْ
وَأِنْ تُصِيبَكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا
بِهَا ، وَإِنْ تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا
يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا .
٧ مُذَبِّذِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى
هَؤُلَاءِ ، وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ .
٨ يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ
لَهُمْ .
٩ لَقَدْ ابْتِغَوْا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ
وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ
الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ
كَارِهُونَ .
١٠ وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لَعْنُهُمْ
وَمَا هُمْ بِمَنْكُومٍ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ
يَفْرَقُونَ .

في تمثيل أعمال المرائين والمنافقين

- ١ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ
فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا .
٢ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ
الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ .
٣ أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بَقِيعةٌ يَحْسِبُهَا
الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ
يَجِدْهُ شَيْئًا .

في الانذار والوعيد

- ١ فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم .
- ٢ فسوف يأتيتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون .
- ٣ لكل نبي مستقرٌ وسوف تعلمون .
- ٤ وإن تفتنوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثررت .
- ٥ فانتظروا إني معكم من المنتظرين .
- ٦ واتقوا فتنة لا نصيب الذين ظلموا منكم خاصة .
- ٧ إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .
- ٨ ذلك وعد غير مكذوب .
- ٩ وما هي من الظالمين ببعيد .
- ١٠ هذا بلاغ للناس لينذروا به .
- ١١ عما قليل ليصبحن نادمين .
- ١٢ وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون .
- ١٣ فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً .
- ١٤ اعملوا على مكانتكم إني عاملٌ سوف تعلمون .

- ١٥ إنه لقولٌ فصلٌ وما هو بالهزل .
- ١٦ ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون .
- ١٧ سيعلمون غداً من الكذاب الأشر .
- ١٨ سيهزم الجمع ويولثون الدبر .
- ١٩ لتنبؤن بما عملتم .
- ٢٠ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مژدجر .
- ٢١ اعملوا ما شئتم .
- ٢٢ فستعلمون من هو في ضلال مبين .
- ٢٣ إن ما توعدون لواقع .
- ٢٤ فستذكرون ما أقول لكم .
- ٢٥ فليضحكوا قليلاً ولينبكوا كثيراً .
- ٢٦ فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون .
- ٢٧ اعملوا على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون .
- ٢٨ كلا سيعلمون ، ثم كلا سيعلمون .
- ٢٩ وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال .
- ٣٠ كلوا وتمتعوا قليلاً إنكم مجرمون .
- ٣١ ولنخرجنهم منها أدلة وهم صاغرون .

٤ ولهنّ مثل الذي عليهنّ بالمعروف وللرجال عليهنّ درّجة .

٥ وإن امرأة خافت من بعلها نشوزاً أو إعراضاً فلا جناحَ عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير .

٦ وعاشروهنّ بالمعروف .

٧ واتّميروا بينكم بمعروف .

في آداب النساء

١ وقلّ للمؤمنات يَغضُضْنَ من أبصارهنّ ويحفظنّ فروجهن ولا يُبدِينَ زينتهنّ إلا ما ظهر منها وليضربن بخُمُرهن على جيورهن .

٢ وقرنّ في بيوتكنّ ولا تبرزنّ تبرّج الجاهلية الأولى .

٣ محصّنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان وقلن قولاً معروفاً .

٤ إن اتقيتُنّ فلا تخضعن بالقول فيطمع الذي في قلبه مرضٌ وقلن قولاً معروفاً .

في الصلح والسلام

١ فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم

٣٢ وقد أفلح اليوم من استعلى .

٣٣ ولا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها في الدنيا ٣٤ لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك .

٣٥ وليعلمنّ نبأه بعد حين .

٣٦ سنسِمْهُ على الخرطوم .

٣٧ أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثرُ جمعاً .

٣٨ كلا لا وَزَرَ .

٣٩ إنا من المجرمين مُنتَقِمون .

٤٠ سنستدرجهم من حيث لا يعلمون

٤١ سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين .

في الحياة الزوجية

١ ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً .

٢ وأن تعفوا أقرب للتقوى ولا تلسوا الفضل بينكم

٣ وإن خفتم شقاقَ بينها فابعثوا حَكماً من أهلها وحكماً من أهلها إن يريدوا إصلاحاً يوفّق الله بينها .

٥ وما تنفقوا من خير يوف إليكم .
٦ وأما السائل فلا تنهر .

في التحية والاستئذان

١ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها .
٢ رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها .

٤ فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم .
٥ فإذا استأذنتك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم .

في آداب المشي

١ واقصِد في مشيك واغضُض من صوتك .
٢ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً .
٣ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا .

في التلطف والدعوة والطلب

١ إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت
٢ يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد

٢ إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم .
٣ والصِّلح خير .
٤ وإن جئتموهم للسلام فاجنح لها .
٥ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان .

الناس بخير ما تباينوا

١ ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين . إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم .
٢ ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سُخْرِيّاً .

في الحث على الصدقة والنهي

عما يبطأها

١ كمثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة .
٢ لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون
٣ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمال والأذى .
٤ قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى .

٣ هل تبعك على أن تعلمني مما علمت رشداً .

٤ فقل هل لك إلى أن تزكى .

٥ إني لكم رسول أمين .

٦ فاتبعوني أهدك صراطاً سوياً .

في الشورى

١ وشاورهم في الأمر .

٢ وأمرهم شورى بينهم .

٣ أفستوني في أمري .

في الشفاعة

١ من يشفع شفاعة حسنة يكن له

نصيب منها ومن يشفع شفاعة

سيئة يكن له كفل منها .

في الخطأ والاضطرار

١ وليس عليكم جناح فيما أخطأتم

به ولكن ما تعمدت قلوبكم .

٢ فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فلا

إثم عليه .

في المسئولية عن العمل

١ ولا تزر وازرةٌ وزرَ أخرى .

٢ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى .

٣ كلُّ امرئٍ بما كسبَ رهين .

٤ وكلُّ إنسانٍ ألزمناه طائره في عنقه

٥ لا يضركم من ضلَّ إذا هتدبتم .

في الجهاد

١ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

ومن رباط الخيل ترهبون به

عدو الله وعدوكم .

٢ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة .

٣ وفضل الله المجاهدين على القاعدين

أجرأ عظيماً

٤ ولولا دفع الله الناس بعضهم

ببعض لفسدت الأرض .

في الإيمان

١ واحفظوا أيمانكم .

٢ ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم .

٣ ولا تنقضوا الأيمان بعدتوكيدها .

في الكلام والاستماع

١ ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة

طيبة كشجرة طيبة أصلها

ثابت وفرعها في السماء تؤتي

أكلها كل حين بإذن ربها .

٢ ومثل كلمة خبيثة كشجرة

خبيثة اجتثت من فوق الأرض

ما لها من قرار .

- ٣ الذين يسمعون القول فيتبعمون
أحسنه أولئك الذين هداهم
الله وأولئك هم أولوا الألباب
- ٤ وقولوا للناس حسناً .
- ٥ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله
وقولوا قولا سديداً .
- ٦ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه .
- ٧ وإذا أمروا باللغو أمرُوا كراماً .
- في الجدال والمناظرة
- ١ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا
بالتي هي أحسن إلا الذين
ظلموا منهم .
- ٢ 'أدع' إلى سبيل ربك بالحكمة
والموعظة الحسنة وجادلهم بالتی
هي أحسن .
- في تباين المذاهب وتفاوت الدرجات
- ١ لكل جعلنا منكم شرعةً
ومنهاجاً .
- ٢ ولكل وجهة هو موليها .
- ٣ قل كل يعمل على شاكلته .
- ٤ والله فضل بعضكم على بعض في
الرزق .
- ٥ وما منا إلا له مقام معلوم .
- ٦ وفوق كل ذي علم عليم .
- ٧ وأنا منا الصالحون ومنا دون
ذلك .
- وبضدها تميز الأشياء
- ١ قل لا يستوي الخبيث والطيب
ولو أعجبك كثرة الخبيث .
- ٢ أقم أسس بنيانه على تقوى
من الله ورضوان خير أم من
أسس بنيانه على شفا جرف
هار فانهار به في نار جهنم .
- ٣ مثل الفريقين كالأعمى والأصم
والبصير والسميع هل يستويان
مثلاً .
- ٤ وما يستوي البحران هذا عذب
فراة سائغ شرابه وهذا ملح
أجاج .
- ٥ أقم يمشي مكباً على وجهه
أمدى أم من يمشي سوياً على
صراط مستقيم .
- ٦ قل هل يستوي الذين يعلمون
والذين لا يعلمون .
- في الحث على العمل والسعي
والتنافس والمهاجرة
- ١ ولكل درجات مما عملوا .

٢ وفي ذلك فليتنافس المتنافسون
 ٣ ألم تكن أرض الله واسعة
 فتهاجروا فيها ؟؟
 ٤ فامشوا في مناكبها وكلوا من
 رزقها .

في الجزاء على العمل

١ ظهر الفساد في البر والبحر بما
 كسبت أيدي الناس ليذيقهم
 بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون .
 ٢ إن هذا كان لَكُمْ جزاءً وكان
 سعيكم مشكوراً .
 ٣ فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره
 ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره
 ٤ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى
 وأن سعيه سوف يرى ثم يـُـجزاه
 الجزاء الأوفى .

الجزاء من جنس العمل

١ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها
 ٢ فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم
 ٣ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما
 عوقبتم به .
 ٤ وجزاء سيئة سيئة مثلها .
 ٥ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه
 بمثل ما اعتدى عليكم .

٦ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان
 ٧ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة .
 ٨ فاذكروني أذكركم .
 ٩ وإن عدتم عدنا
 ١٠ إن الله لا يغير ما بقوم حتى
 يغيروا ما بأنفسهم .
 ١١ وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم .
 ١٢ وما كان ربك ليهلك العزرى بظلم
 وأهلها مصلحون .
 ١٣ جزاء وفاء

شبيه الشيء من جذب إليه

١ الخبيثات للخبيثين والخبيثون
 للخبيثات والطيبات للطيبين
 والطيبون للطيبات .

في الفساد والبغي والنهي عنهما

١ ولا تُفسدوا في الأرض بعد
 إصلاحها .
 ٢ ولا تبغ الفساد في الأرض .
 ٣ وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي
 بعضهم على بعض .
 ٤ ولا تعاونوا على الإثم والعدوان

في المفسدين المكابرين

١ وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض

في سوء عاقبة الظالمين والشاة
بما يصيبهم

- ١ فقلِّبُوا هُنَالِكَ وَاَنْقَلِبُوا صَاحِرِينَ
- ٢ اَنْقَلَبَ عَلَى عَقْبَيْهِ خَسِرَ الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانِ
الْبَيْنُ .
- ٣ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ .
- ٤ فَجَعَلْنَاهُمْ اَحَادِيثَ وَمَزَقْنَاهُمْ كُلَّ
مُزَقِّقٍ .
- ٥ فَاتَى اللّٰهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ .
- ٦ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ
وَاتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا
يَشْعُرُونَ .
- ٧ فَاصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ
بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ .
- ٨ فَاصْبَحَ يَقْلُوبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا
اَنْفَقَ فِيهَا .

الاعراض عن الدعوة

- ١ وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَى
مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَن فِي
أُذُنِهِ وَقْرًا .
- ٢ كَأَنَّهُمْ مُّخْرَجُونَ مُسْتَنْفَرَةٌ فَرَّتْ
مِنْ قَسْوَةِ .
- ٣ ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ
أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ .

(٢٠ - جواهر الأدب ١)

قالوا إنما نحن مُصْلِحُونَ أَلَا إِنَّهُمْ
مُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ .
٢ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا
٣ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا
إِنَّهُمْ مُّكَذِّبُونَ .

في غرور الظلمة واستدراجهم

- ١ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ
زُخْرَفَ الْقَوْلِ غُرُورًا .
- ٢ يَعْبُدُهُمْ وَيُمْنِّيهِمْ وَمَا يَعْبُدُ
الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا .
- ٣ بَلْ إِنَّ يَعْبُدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا .
- ٤ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللّٰهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ
الظَّالِمُونَ .
- ٥ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .
- ٦ فَذَرْنُوهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ حَتَّى حِينٍ .
- ٧ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعِدُهُمْ عَدَا
٨ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا
يَعْلَمُونَ .
- ٩ ذَرَّهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا
وَيُلْهِمُهُمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ .

في التدخل في ما لا يعني والنهي عنه

- ١ ولا تقفُ ما ليس لك به علم
- ٢ لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم .
- ٣ عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ
- ٤ فلا تسألن ما ليس لك به علم
- ٥ ليس لك من الأمر شيء

في الكرم والاكرام والضيافة

- ١ ادخلوها بسلام آمنين .
- ٢ كلوا واشربوا هنيئاً .
- ٣ فكلوه هنيئاً مريئاً .
- ٤ فكلّوا واشربوا وقرّوا عينا .
- ٥ وفاكهة مما يتخيرون ولحم طير مما يشتهون .
- ٦ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

في التعزية وتهوين الخطب

- ١ ويخفف ما لا تعلمون .
- ٢ كل نفس ذائقة الموت
- ٣ كل من عليها فان .
- ٤ كل شيء هالك إلا وجهه
- ٥ فإن مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً .

٦ ولا تبأسوا من روح الله .

- ٧ فلا تدّهب نفسك عليهم حسرات .
- ٨ ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيق مما يمكرون .
- ٩ ولا يحزنك قولهم .
- ١٠ سيجعل الله بعد عسر يسراً .

في الكيل والميزان

- ١ أوفوا الكيل ولا تكونوا من الخسرين
- ٢ ولتستقيم المستقيم ولا تبغسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مغيدين .
- ٣ ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنهم يخسرون .

في النهي عن الرشوة

- ١ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلّوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون .
- ٢ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا

أموالكم بينكم بالباطل إلا أن
تكون تجارة عن تراضٍ منكم

في مال اليتيم ومتاعه

١ ولا تقرّبوا مال اليتيم إلا بالتي
هي أحسنُ .

٢ ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم
إنه كان حُوباً كبيراً .

٣ إن الذين يأكلون أموال اليتامى
ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا
وسيصّلون سعيراً .

٤ فامّا اليتيم فلا تقهر .

في صكّ الدين وإنظار المصّر

١ يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم
بدينٍ إلى أجلٍ مُّسمى
فاكتبوه .

٢ وإن كان ذو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ
إلى ميسرة .

في الأحكام والحكام

١ وإذا حكمتم بين الناس أن
تحكموا بالعدل .

٢ وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا
قربى .

٣ ولا ينجبر منكم شئ من قوم

على ألاّ تعدلوا ، أعدلوا هو
أقربُ للتقوى .

٤ ولا تلبسوا الحقّ بالباطل
وتكتموا الحقّ وأنتم تعلمون .

في اتهام الأبرياء

١ ومن يكسب خطيئةً أو إثماً
ثم يرم به بريئاً فقد احتمل
بهتاناً وإثماً مبيناً .

٢ ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون
إنا أن نتكلم بهذا سبحانك
هذا بهتانٌ عظيم .

٣ إذ تلقّونه بالسّمتكم وتقولون
بأفواهكم ما ليس لكم به علم
وتحسّبونه هيئاً وهو عند الله
عظيم .

٤ لكل امرئٍ منكم ما اكتسب
من الإثم والذى تولى كبيرة
منهم له عذابٌ عظيم .

في المكابرة في الحق والمعاندة

١ ويجادل الذين كفروا بالباطل
ليُدْحِضُوا به الحق .

٢ وجعّدوا بها واستيقنتها
أنفسهم ظلماً وعلواً .

٩ ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك
بالحق وأحسن تفسيراً .

في أداء الشهادة

١ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين
بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم
أو الوالدين والأقربين .

٢ ولا تكتتموا الشهادة ومن
يكتتمها فإنه آثمٌ قلبه .

٣ فإذا دفعتم إليهم أموالهم
فأشهدوا عليهم .

٤ ولا ياب شهداء إذا ما دُعوا .

٥ وأشهدوا إذا تباعدتم ولا يُضارّ
كاتبٌ ولا شهيد .

٦ وأنا على ذلكم من الشاهدين .

٧ وما شهدنا إلا بما علمنا .

في الخبر اليقين

١ ما زاع البصر وما طغى .

٢ فلنقصنّ عليهم بعلمٍ وما كُنّا
غائبين .

٣ نحنُ نقصُ عليك نبأهم بالحقّ

٤ أحطتُ بما لم تحط به .

٥ ولا يُنبئُكَ مثلُ خبير .

٣ ما ضربوه لك إلا جدلاً .

٤ يُريدون أن يُطفئوا نورَ الله
بأفواههم .

٥ يحادلونك في الحقّ بعد ما تبينَ

٦ وإنّ فريقاً منهم ليكتمون الحقّ
وهم يعلمون .

٧ أنظر كيف نصرّفُ الآيات ثم
هم يصدّفون .

في الحقّ والباطل

١ لِيُحِقَّ الحقُّ وَيُبْطِلَ الباطلَ
ولو كره المجرمون .

٢ الْآنَ حَصْحَصَ الحقُّ .

٣ فَمَا الزَّيْبُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً
وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ

في الأرض .

٤ قُضِيَ بِالْحَقِّ وَخَسِرَ هُنَالِكَ
الْمُبْطِلُونَ .

٥ الحقُّ أَحقُّ أن يُتَّبَعَ .

٦ فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال .

٧ لقد جئناكم بالحقّ ولكنّ أكثركم
للحقّ كارهون .

٨ فوقَ الحقِّ وبطل ما كانوا
يعملون .

في الاستنكار والتعجب

- ١ إني لعمركم من القالين
- ٢ لقد جئتم شيئاً إداً .
- ٣ لقد جئتم شيئاً إمرأ .
- ٤ لقد جئتم شيئاً نكراً .
- ٥ ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين
- ٦ إن هذا لشيء عجيب

في المحاماة والدفاع عن الأئمة

- ١ ها أنتم هؤلاء جادلنكم عنهم
- في الحياة الدنيا فمن يجادل الله
- عنهم يوم القيامة أمن يكون
- عليهم وكيلاً .
- ٢ ولا تجادل عن الذين يختانون
- أنفسهم
- ٣ ولا تعاونوا على الإثم
- والعُدوان .
- ٤ فلن أكون ظهيراً للمجرمين .

في التحدي وعدم المبالاة

- ١ فاقض ما أنت قاض .
- ٢ فإن كان لكم كيد فكيّدون .
- ٣ فكيّدوني جميعاً ثم لا تنظرون
- ٤ قل هاتوا برهانكم إن كنتم
- صادقين .

- ٥ قل هل عندكم من علم فتخرجوه
- لنا .

في النجوى والمؤامرة

- ١ فتنار عوا أمرهم بينهم وأسرؤا
- النجوى .
- ٢ لا خير في كثير من نجواهم .
- ٣ أم يحسبون أننا لا نسمع
- سرهم ونجواهم .

في الظن والشك

- ١ إن يتبعون إلا الظن وإن
- الظن لا يغني من الحق شيئاً .
- ٢ وإنهم لفي شك منه مريب .
- ٣ وإننا لفي شك مما تدعونا
- إليه مريب .
- ٤ إن يتبعون إلا الظن وما تهوى
- الأنفس .
- ٥ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً إن
- بعض الظن إثم .

في التبرؤ والتنصّل

- ١ فلما تراءت الفئتان نكص
- على عقبيته وقال إني بريء
- منكم إني أرى ما لا ترون .

في الافحام والالزام

- ١ إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً .
- ٢ هذا كتابنا ينطق عليك بالحق إننا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون .
- ٣ ووجدوا ما عملوا حاضراً .

في اليأس والتيسيس

- ١ 'قضى الأمر' الذي فيه تستفتيان
- ٢ فنادوا ولات حين مناصٍ .
- ٣ اصبروا أو لا تصبروا .
- ٤ ولا تخاطبني في الذين ظلموا .
- ٥ لا تعذبوا اليوم .

في إمضاء الأمر

- ١ فإذا عزمت فتوكل على الله .
- ٢ وكان أمراً مقضياً .
- ٣ إفعل ما تؤمر .
- ٤ فافعلوا ما تؤمرون .

في حال المجرمين وهم يعذبون

- ١ كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها فيها .
- ٢ لهم فيها زفير وشهيق .

- ٢ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون .

- ٣ فلا تلو موني ولوموا أنفسكم .

في موقف الظلمة والمجرمين أمام العدالة

- ١ وقِفْهُمُ لِنِهمِمْ مَسْئُولُونَ .
- ٢ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَعْنَاكُمْ وَالْأُولَى .
- ٣ مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشَرَّ كَاؤُكُمْ .
- ٤ خُذُوهُ فَعْلُوهُ .
- ٥ مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ .
- ٦ مَا لَكُمْ لَا تَنْصَرُونَ .
- ٧ لَا تَخْتَصِمُوا لَدِيَ .

في حيرة المجرمين وإشفاقهم عند ظهور الحق

- ١ فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ .
- ٢ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ .
- ٣ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمَجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ .

في صفات الانسان الفطرية

- ١ إن الإنسان لظلومٌ كفارٌ .
- ٢ وكان الإنسان أكثر شيءٍ جدلاً
- ٣ خُلِقَ الإنسان من عَجَلٍ .
- ٤ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ .
- ٥ وَخُلِقَ الإنسانُ ضَعِيفًا .
- ٦ إِنَّ الإنسانَ لِرَافِعٍ أَنِ رَأَى اسْتَغْنَى
- ٧ إِنَّ الإنسانَ خُلِقَ هَلُوعًا إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا، وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا
- ٨ قَتِيلَ الإنسانَ مَا أَكْفَرَهُ !

في الخوف

- ١ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ
- ٢ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ .
- ٣ لَوْ أَطَاعَتْ عَلَيْهِمْ كَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمْ لِيْلَيْتُ مِنْهُمْ رُعْبًا .
- ٤ ذَلِكَ الَّذِي يُخَوِّفُ اللَّهَ بِعِبَادِهِ
- ٥ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً .
- ٦ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى
- ٧ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُون .
- ٨ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ .

٣ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ .

٤ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كَلَّمَا تَضَيَّجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ .

في الشيب والكبر والضعف

- ١ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا .
- ٢ وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا .
- ٣ وَمَنْ نَعْمَرُهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ
- ٤ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا

جزع الناس ومظاهرم عند البلاء

- ١ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُؤُسِهِمْ لَا يَرُدُّهُمْ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ .
- ٢ وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى
- ٣ هَلْ تَحَسُّهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْرًا
- ٤ وَوُجُوهُهُمُ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرَةُ الْفَجَرَةُ .
- ٥ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَتَخِفَتُونَ .

- ٩ إنا منكم وجيلون .
- في التضجر والتحسر وإظهار الضعف
- ١ لقد لقينا من سفرنا هذا نصيباً .
- ٢ يا ليتني كنتم معهم فافوز فوزاً عظيماً .
- ٣ يا ليتني مت قبل هذا وكنتم نسياً منسياً .
- ٤ هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين .
- ٥ هذا يوم عسر .
- ٦ يا ليتها كانت القاضية .
- ٧ ويضيق صدري ولا ينطق لساني
- في النفس الأمار بالسوء
- ١ ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك
- ٢ وما أبرئ نفسي إني للنفس لأمار بالسوء لإماراً حيم ربي .
- في الخجل والاستحياء
- ١ فجاءته إحداهن تمشي على استحياء
- ٢ يتوارى من القوم من سوء ما بشئ به .
- في النسيان
- ١ وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره .
- ٢ فنبسي ولم نجد له عزماً .
- ٣ ونسوا حظاً مما ذكروا به .
- ٤ ولا تنسوا الفضل بينكم .
- ٥ واذكر ربك إذا نسيت .
- ٦ سنقرئك فلا تنسى .
- ٧ لا تؤاخذني بما نسيت .
- في الرؤيا والأحلام
- ١ نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين .
- ٢ أفتوني في رؤيائي إني كنت للرؤيا تعبرون .
- ٣ أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين .
- ٤ أنا أنبئكم بتأويله .
- ٥ هذا تأويل رؤيائي من قبل قد جعلها ربي حقاً
- الفرح بزوال المكروه
- ١ وكفى الله المؤمنين القتال .
- ٢ الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن .
- ٣ الحمد لله الذي فجأنا من القوم الظالمين .
- ٤ فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

٢ . وقال اركبوا فيها باسم الله
تجربوها ومُرساها .

٣ . وهي تجري بهم في موج كالجبال

٤ . أو كظلمات في بحرٍ لجيٍّ يَغْشاه

مَوْجٌ من فوقه مَوْجٌ من فوقه

سحابٌ ظلماتٌ بعضها فوقَ

بعض إذا أخرج يده لم يكدْ

يراهما .

٥ . ففَشَّيْهِم من اليمِّ ما غَشَّيْهِم .

٦ . وحال بينهما الموجُ فكان من

المفرقين .

٧ . وله الجوارِ المنشآتُ في

البحر كالأعلام .

في المطر والبرق والرعد والريح

١ . يكاد سنا بَرْقه يذهب بالأبصار .

٢ . هذا عارضٌ ممطرنا .

٣ . ريحٌ فيها عذابٌ أليم .

٤ . وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيحَ بِشْرَى

بين يدي رحمة .

في البساتين والروح والريحان

١ . ودانيةٌ عليهم ظِلّالُها وُذِلَّتْ

مُطَوِّفُها تَذُلُّ لَهَا .

٢ . فيها فاكهةٌ والنخل ذاتُ الأكام

٥ . فوقَ الحَقِّ وبطلَ ما كانوا
يُفْعَلُونَ .

٦ . فانقلبُوا بِنِعْمَةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِ

لم يَمَسَّسْهُمْ سُوءٌ .

٧ . فوقاه الله سيئاتٍ ما مَكُرُوا .

في النعيم والمرور والقصور

وما حوت

١ . تعرفُ في وجوهِهِمْ نَضْرَةَ النعيم

٢ . إذا رَأَيْتَهُمْ حُسْبَتَهُمْ لَوَلُّوا مَنْشُوراً

٣ . وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ

ضاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ .

٤ . فيها سُرُورٌ مرفوعةٌ وأكواب

مَوْضُوعَةٌ وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ

وَزَرَابِي مَبْنُوثَةٌ .

٥ . مُتَكَبِّينَ عَلَى فُرُشٍ بَطَائِنُهَا

مِنْ اسْتَبْرَقٍ .

٦ . وَيُطَافُ عَلَيْهِمْ بِآنِيَةٍ مِنْ فِضَّةٍ

وَأَكْوَابٍ كَانَتْ قَوَارِيراً .

٧ . مُتَكَبِّينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ

في الجبال والبحار والسفن

والأمواج

١ . وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ

مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ

والحب ذو العصف والريحان .
 ٣ في سدريّ نخضود وطلح منضود
 وظلّ منمود ، وما من مسكوب
 وفاكهة كثيرة ، لا مقطوعة
 ولا ممنوعة .

في التفكير والنظر والاستدلال على الخالق

١ وما من دابة في الأرض ولا طائر
 يطير يُخناحيه إلا أمم أمثالكم .
 ٢ وترى الجبال تحسبها جامدة
 وهي تمرّ مرّ السحاب صنع
 الله الذي أتقن كل شيء .
 ٣ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده
 وهو أهون عليه .
 ٤ ما خلقكم ولا بعثكم إلا
 كنفس واحدة .
 ٥ خلق السموات والأرض أكبر
 من خلق الناس ولكن أكثر
 الناس لا يعلمون .
 ٦ وما خلقنا السموات والأرض
 وما بينهما لاعبين .
 ٧ وفي أنفسكم أفلا تبصرون .
 ٨ فلينظر الإنسان إلى طعامه .

٩ فلينظر الإنسان ممّ خلق .
 ١٠ والله أنبتكم من الأرض نباتاً ثم
 يُعيدكم فيها ويُخرجكم إخراجاً .
 ١١ وجعلنا الليل والنهار آيتين
 فمحوا آية الليل وجعلنا آية النهار
 مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم
 ولتعلموا عدد السنين والحساب .
 ١٢ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا
 عليها الماء اهتزت وربت
 وأنبتت من كل زوج بهيج .

في العظة والعبرة

١ إن في ذلك لذكرى لمن كان له
 قلب أو ألقى السمع وهو
 شهيد .
 ٢ فاعتبروا يا أولى الأبصار .
 ٣ ذلك ذكرى للذاكرين .
 ٤ لنجعلها لكم تذكرة وتعيها
 أذن واعية .
 ٥ إن في ذلك لعبرة لمن يخشى .
 ٦ إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار .
 ٧ وما يذكر إلا أولوا الأبصار .
 ٨ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى
 الأبصار .

في نعم الله وفضله

- ١ ذلك تخفيفٌ من ربِّكم ورحمة .
- ٢ يريدُ الله بكم اليسرَ ولا يريد بكم العسرَ
- ٣ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها .
- ٤ وإن تعدُّوا نعمة الله لا تحصوها
- ٥ وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم .

ما استأثر الله بعلمه

- ١ إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأيّ أرض تموت إن الله عليم خبير .
- ٢ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي .

في العمل لوجه الله لا لجزاء الناس

- ١ إنما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاءً ولا شكوراً .
- ٢ وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين .

وصف الدنيا وتحقير متاعها

- ١ قل متاع الدنيا قليل .
- ٢ إنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهو .
- ٣ وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور .

في التحذير من النفس والشيطان وغرور الدنيا

- ١ الشيطانُ يَعِدُكم الفقر ويأمركم بالفشاء .
- ٢ إن النفس لأَمَّارةٌ بالسوء .
- ٣ فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغررنكم بالله الغرور .

في التسليم بقضائه تعالى وقدره

- ١ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا .
- ٢ ولو شاء ربك ما فعلوه
- ٣ ليقضي الله أمراً كان مفعولاً .
- ٤ إن الله بالغ أمره .
- ٥ ألا له الخلق والأمر .
- ٦ الله ينسُط الرزق لمن يشاء ويقدر .
- ٧ وربك يخلق ما يشاء ويختار .
- ٨ الله الأمر من قبل ومن بعد .

السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ .

٢ وليستِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ .

٣ وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَحْدِثِ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا

في الدعاء والتضرع الى الله تعالى

١ رَبَّنَا لَا تَوَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا .

٢ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ .

٣ رَبَّنَا فَاعْفُرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ .

٤ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا .

٥ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا .

٦ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي .

٩ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ .
١٠ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ .

في الترغيب في التقوى والاحسان

١ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا .

٢ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ .

٣ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ .

٤ وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ .

٥ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ .

في الاعتماد على الله والتوكل

١ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ .

٢ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ

٣ حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ .

٤ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ

٥ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ .

٦ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ .

في الموت وعدم تخلف الآجال

١ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ .

٢ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ .

في التوبة والانابة

١ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ

في فضل القرآن الكريم

- ١ ولقد يسرنا القرآن للذِّكْرِ فهل
مِنْ مُدَّكَرٍ .
- ٢ إن هذا القرآن يَهْدِي لِلتي هي
أَقْوَمُ .

- ٣ فاقْرَأْهُ وَاذْكُرْ مِنَ الْقُرْآنِ .
- ٤ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ
وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

في الانبياء والاستنباء

- ١ عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبِإِ الْعَظِيمِ،
الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ .
- ٢ فَأَقْبَلْ بِعَعْضِهِمْ عَلَى بَعْضٍ
يَتَسَاءَلُونَ .

- ٣ عَرِّفْ بَعْضَهُ وَأَعْرِضْ عَنْ
بَعْضٍ .

- ٤ مَنْ أَنْبَأَكَ هَذَا .

- ٥ هل أَتَاكَ حَدِيثُ الْجُنُودِ .

في الكتب والكتابة والرسالة

- ١ إِذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهِ إِلَيْهِمْ .
- ٢ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ .
- ٣ فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ .
- ٤ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهٗ .

في الاقتراب والدنو

- ١ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ .

- ٢ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ؟؟

- ٣ أَزِفَتْ الْأَزْفَةُ .
- ٤ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .
- ٥ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا .

في الضعف والمعجز

- ١ فَمَا اسْتَطَاعُوا مِنْ قِيَامٍ وَمَا
كَانُوا مُنتَصِرِينَ .
- ٢ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ
وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا .

- ٣ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ .
- ٤ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا .
- ٥ وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتَ لَبِثَتْ
الْعَنَكَبُوتُ .

- ٦ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ .

- ٧ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ .

- ٧ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا .

في البلاء وما يصاب به الناس

- ١ فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَمْ
بِالْأَمْسِ .
- ٢ إِنَّ هَذَا لَهَوُ الْبَلَاءِ الْمُبِينِ .
- ٣ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَى إِلَّا مَسَاكِينُهُمْ
- ٤ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ
الْأَجَلُ كُلُّ مُمٍ .

- ٥ فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية .
٦ وأخرجت الأرض أنقالها .
٧ فجعلهم كعصف ما كول .

في الاغترار بالمظاهر

- ١ وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مستندة .
٢ يحسبه الظمان ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً .
٣ يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف .
٤ تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى .
٥ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود .

في البشري والتهينة

- ١ يا بشري هذا غلام .
٢ بشراكم اليوم .
٣ بشراً فاك بالحق فلا تكن من القانطين .
٤ وبشروه بغلام عليم .
ما يقال عند الظفر بالحاجة
١ هذا من فضل ربي .

- ٢ إن هذا هو الفوز العظيم .
٣ فضلاً من الله ونعمة .
٤ ذلك ما كنا نبغ .

في الامتنان بالنعم

- ١ ألم نشرح لك صدرك .
٢ ألم يجدك يتيماً فآوى، ووجدك ضالاً فهدى ووجدك عائلاً فأغنى .
٣ اذكروا نِعْمتي التي أنعمت عليكم .
٤ كلوا وارزقوا أنعامكم .
٥ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً .

في التحدث بالنعمة

- ١ وبراً بوالدتي ولم يجعلني جباراً شقيماً .
٢ ولولا نعمة ربي لكنت من الخضرين .
٣ وأما بنعمة ربك فحدث .

التأمين والطمأنينة

- ١ خذها ولا تخف .
٢ لا تخف نجوت من القوم الظالمين .

٣ أقببيل ولا تخف انك من الآمنين .	٧ ولا تخافي ولا تحزني إسمًا رادوه
٤ ولكن ليطمئن قلبي .	إليك .
٥ لا تخف إنك أنت الأعلى .	٨ كن يصلوا اليك .
٦ وما أريد أن أشق عليك ستجدني	٩ ولا تهمنوا ولا تحزنوا وأنتم
إن شاء الله من الصالحين .	الأغلبون والله معكم .

أمثال مختارة للعرب

إن من البيان لسحراً ١ ، إن البلاء مؤكل بالمنطق ٢ ، إن الموصين بنو سهوان ٣ ، إن الشقي وافد البراجم ٤ ، إن البغاث بأرضنا يستنسر ٥ ، إن الجبان حثفه من فوقه ٦ ، إن المعافي غير مخدوع ٧ ، إن في الشر خياراً ، إن الحديد بالحديد يفلح ، إن الشفيق بسوء ظن مولع ٨ ، إن وراء الأكمة ما وراءها ، إن العصا من العصية ٩ ، إن العوان لا تعلتهم الخمرة ١٠ ، إن الغني طويل الذيل مياس ١١ ، إن الليل طويل ، وأنت مقيم ١٢ ، إن العصا قرعت لذي الحلم ١٣ ، إن الحبيب إلى الإخوان ذو المال ، إن الهزيل إذا شبع مات ١٤ ، إن غداً لناظره قريب ، إن أخاك من آسائك ١٥ ، إنك لا تجني من الشوك العنب ، أتنك بجائن رجلاه ، إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ، إن يبع عليك

(١) يضرب في استحسان المنطق (٢) يضرب لمن أسيء إليه . (٣) يضرب لمن يسهو عن طلب شيء أمر به (٤) البراجم : بطن من تميم ، يضرب لمن يوقع نفسه في هلكة طمعاً . (٥) يضرب للضعيف يصير قوياً . (٦) يضرب في إن الحذر لا ينجي من القدر . (٧) يضرب لمن يخدع فلا ينخدع . (٨) يضرب لمن يفشي على نفسه أمراً مستوراً . (٩) يضرب في مشاكلة الفرع للأصل . (١٠) العوان : المرأة النصف ، والخمرة : لبس الخمار . يضرب في استغناء المحرب عن الإرشاد (١١) أي لا يستطيع ذو الغنى أن يكتمه . (١٢) يضرب للأمر بالتصبر في طلب الحاجة . (١٣) يضرب لمن إذا نبه انتبه (١٤) يضرب فيمن استغنى فتجبر على الناس . (١٥) يضرب في الحث على مراعاة الإخوان .

قومك لا يبيع عليك القمر^١، إن كنت ريحاً فقد لاقيت إصصاً^٢، إن ترد الماء بماء أكيس^٣، إحدى حظيات لقمان^٤، أكل عليه الدهر وشرب^٥، إنه ليعلم من أين تؤكل الكتف^٦ كل لمي ولا أدع^٧ لا كل^٨، إيتاك وما يعتذر منه، إذا زل العالم زل بزلته عالم، أنت تشق وأنا ميثق^٩ فمق نتفق^{١٠}، إيتاك أعني واسمعي يا جارة، إذا حان القضاء ضاق القضاء^{١١}، أم الجبان لا تفرح ولا تحزن إذا جاءت السنة جاء معها أعوانها^{١٢}، إن حالت القوس فسهمي صائب^{١٣} ألا من يشتري سهراً بنوم^{١٤}، إذا ما القارظ المعزي آبا^{١٥}، إن كنت كذوباً فكن ذكوراً^{١٦}، إنما يحمل الكل على أهل الفضل^{١٧}، إذا تخاصم اللسان ظهر المسروق^{١٨}، إذا تفرقت الغنم قادتها العز الجرباء، إذا عاب البزاز ثوباً فاعلم أنه من حاجته^{١٩}، إذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع، إن يكن الشغل مجهداً، فإن الفراع مفسدة، إذا قدم الإخاء سمح الشاء، بلغ السيل الزبى^{٢٠} بعض الشراؤون من بعض^{٢١} بلغ السكين العظيم^{٢٢} باقعة من البواقع^{٢٣}

- (١) يضرب للأمر المشهور (٢) يضرب للمداهي الشديد يبلى بمن هو أدهى منه وأشد (٣) يضرب للأخذ في الأمور بالاحتياط (٤) يضرب في الشر يصدر عن عرف به ، وحظيات لقمان: سهامه (وفي القاموس خطأ). (٥) يضرب لمن طال عمره. (٦) يضرب في المحرب المحنك. (٧) يضرب في الرجل ينصر قرينه وإن كان عدوه . (٨) التثق : السريع إلى الشر ، والمثق : السريع إلى البكاء يضرب للمختلفين أخلاقاً . (٩) يضرب لمن يخاطب شخصاً وهو يريد غيره تعريضاً . (١٠) السنة القحط وأعوانها الجراد والأمراض ، يضرب في تجمع الشدائد . (١١) حالت القوس: زالت عن استقامتها. يضرب فيمن زالت نعمته ولم تزل مروءته. (١٢) يضرب لمن غمط النعمة وكره العافية . (١٣) يضرب في امتداد البعد والغيبة (١٤) يضرب للرجل يكذب ثم ينسى فيناقض نفسه . (١٥) الكل : الثقل . (١٦) يضرب في القوم يختلفون فيسود فيهم الأشرار (١٧) البزاز: بائع الثياب. (١٨) الزبى : جمع زيبة وهي أعلى الجبل، يضرب لمن جاوز الحد (١٩) يضرب في الشرين يختار أهونها (٢٠) يضرب لمن جاوز الحد . (٢١) الباقعة : الداهية يقال في الرجل يكون داهياً منكراً .

إبدأهم بالصُّراخ يَفِرُّوا^{١١}، أبدى الصَّريخ عن الرُّغوة^{١٢}، بَمَضَ الجَدَبَ أمراً للهِزِيلِ^{١٣}، بَنَانُ كَفَّ ليس فيها ساعد^{١٤}، بعد البلاء يكون الشُّنَاءُ، أبلغ من قَسٍّ، أُنْجِلْ من مادر، أَبْصِرْ من زَرْقَاءِ اليَمامَةِ، أَبْصِرْ من غَرَابٍ، أَبْقَى من الدهر، أَبْقَى من وَحْيٍ في حَجَرٍ^{١٥}، أَبِينُ من فلق الصُّبْحِ، أَبْكَرُ من غَرَابٍ، تَرُكُ الذَّنْبِ أَيْسَرُ من طلب التَّوْبَةِ، تَجْوَعُ الحُرَّةُ ولا تأكلُ بِشْدِيئِهَا^{١٦}، تَسْأَلُنِي بِرَامَتَيْنِ سَاجِدَتَيْنِ^{١٧}، تَجَشَّأُ لِقَمَانُ من غيرِ شَبْعٍ^{١٨}، تَضْرِبُ في حديد بارد، تَلْدَغُ العَقْرَبُ وتَصِيءُ^{١٩}، تَرَكْتُهُمْ في حَيْضِ بَيْضٍ^{٢٠}، تَطْلُبُ أثراً بعد عَيْنٍ^{٢١}، تَسْمَعُ بالمُعِيشَةِ خَيْرٌ من أن تَرَاهُ^{٢٢}، اتَّخَذَ اللَّيْلُ جَلًّا^{٢٣}، تَرَى الْفَتَيَانِ كَالْمَخْلُومِ وما يدريكُ سَا الدُّخْلَ^{٢٤}، التَّتَبُّعُ نَصْفُ الْعَفْوِ، تَقَطَّعَ أَعْنَاقُ الرِّجَالِ الْمُطَامِعِ، أَتَبَعَ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحَّهَا، اتَّقِ شَرَّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ^{٢٥}، تَضَرَّعَ إِلَى الطَّبِيبِ قَبْلَ أَنْ تَمْرُضَ^{٢٦}، تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السَّفِينُ، التَّقْدِيرُ أَحَدُ الْكَاسِبِينَ، التَّدْبِيرُ نَصْفُ الْمَعِيشَةِ، جَزَاءُ سَنَارٍ، اسْمِعْ جَمْعَةً ولا أَرَى طَحْنًا، جَوْعُ كَلْبِكَ يَتْبَعُكَ^{٢٧} جَاوَزَ الْحَزَامُ الطَّبِيبِينَ^{٢٨}، جَانِيكَ مِنْ يَحْيَى عَلَيْكَ^{٢٩}، جَلِيسُ السُّوءِ كَالْقَيْنِ^{٣٠}، إِنْ لَمْ يُحْرِقْ ثَوْبُكَ

(١) يضرب في الظالم يتظلم ليسكت عنه (٢) يضرب عند انكشاف الأمر وظهوره (٣) يضرب فيمن لا يحسن احتمال الفنى بل يطغى فيه (٤) يضرب فيمن له همه ولا قدرة له على بلوغ ما في نفسه (٥) الوحي : الكتابة (٦) أي لا تكون مرصعاً، يضرب في صيانة الرجل نفسه عن خسيس المكاسب (٧) السلجم اللفت، يضرب لمن يطلب شيئاً في غير موضعه (٨) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك (٩) يضرب لمن يظلم ويتظلم وصاءت العقرب صوتت (١٠) يضرب فيمن وقع فيما لا يخلص له منه (١١) يضرب فيمن ترك الشيء ثم طلبه بعد ذهابه (١٢) يضرب فيمن منظره دون خبره (١٣) أي أدى واجبه من العمل ليلاً (١٤) يضرب لذي المنظر لا خير فيه (١٥) يضرب في مقابلة الإحسان بالإساءة (١٦) يضرب فيمن يعد ولا يفي (١٧) يضرب فيما ينبغي أن يعامل به اللئيم (١٨) يضرب في تفاقم الأمر (١٩) أي لا تزر وازرة وزر أخرى (٢٠) القين : الحداد .

دَخْنُهُ ، جاءوا على بكرة أبيهم^١ ، أجودُ من حاتم ، ومن كعب بن مامة ، أجبُنُ من صافر ، ومن نعامة^٢ ، أجهلُ من فراشة ، أجمعُ من نملة ، حال الجريضُ دون القريض^٣ ، حنَّ قدحٌ ليس منها^٤ ، حسبك من شرِّ سماعة ، حسبك من القلادة ما أحاط بالعنق^٥ ، حُبُّكَ الشيء يُعمي ويُصم ، الحديث ذو شجون^٦ ، حافظ على الصديق ولو في الحريق ، أحشَفاً وسوء كيلة^٧ ، الحكمة ضالة المؤمن ، الجباري خالة الكروان ، الحاجة تفتشُ الحيلة^٨ ، أحمقُ من هبَنَقَةٍ ومن جُحَا ، أحلم من الأحنف ، أحكم من لقمان ، أخطرُ من غراب ، ومن ذئب ، ومن ظليم^٩ ، أحفظُ من الشعبي ، أخذُ من جذع ما أعطاك^{١٠} ، خالفُ تذكر ، خرقاءَ وجدت صوفاً^{١١} ، خير المال عينُ خرارة في أرض خواراة^{١٢} ، أخطبُ من سحبان ، ومن قس ، أخونُ من ذئب ، دون ذا وينفقُ الحمار^{١٣} ، أدهى من قيس بن زهير ، ومن عمرو بن العاص ذهبوا أيدي سبأ^{١٤} ، الذئب خالياً أسد^{١٥} ، ذكرتني الطعن وكنت ناسياً^{١٥} ، رمتني بدائها وانسلت^{١٦} ، رماه الله بثالثة الأثافي^{١٧} ، رُب قول أشد من

- (١) أي جاءوا جميعاً (٢) الصافر من الطيور بغائثها وضعافها (٣) الجريض : الغصة والقريض : الشعر . يضرب في الأمر يتيسر حين لا ينفع (٤) يضرب في الرجل يفتخر بقوم ليس منهم أو يتمدح بما ليس فيه (٥) يضرب في اقلالة السيئة وما يخشى منها (٦) الشجون . الفنون . يضرب في الحديث يتذكر به غيره (٧) يضرب في الجمع بين خصمتين مكروهتين (٨) يضرب في مناسبة أحد الشيشين للآخر ٩ ، الظليم : ذكر النعام (١٠) جذع : اسم رجل . يضرب في اغتنام ما يوجد به البخيل (١١) الخرقاء : التي لا تحسن العمل ، يضرب لمن يفسد عمله بسوء تصرفه (١٢) الخواراة : الأرض التي فيها لين وسهولة (١٣) يضرب في المبالغة في المدح بغير احتياج إليه (١٤) أي تفرقوا تفرقاً لا اجتماع معه كما تفرقت سبأ ١٥ يضرب في تذكر الشيء بغيره (١٦) يضرب فيمن يعير صاحبه بعيب هو فيه (١٧) الأثافي : جمع أثفية وهي الحجر توضع عليه القدر ، وهما اثنتان وثالثتهما الحبل ، والمراد بها الداهية العظيمة .

صَوَّلَ^١ ، رُبُّ أَخِي لَكَ لَمْ تَلِدْهُ أُمُّكَ ، رَجَعَ بِخُفَّتِي حَنِينٌ^٢ ، رُبُّ رَمِيَةٍ مِنْ غَيْرِ رَامٍ ، الرَّاوِيَةُ أَحَدُ الشَّامَتَيْنِ^٣ رُبُّ كَلِمَةٍ سَلَبَتْ نِعْمَةً ، رُبُّ مَلُومٍ لَا ذَنْبَ لَهُ ، رُبُّ زَارِعٍ لِنَفْسِهِ حَاصِدٌ سِوَاهُ أَرَوَى^٤ مَضْبَبٍ^٥ ، أَرَقَ مِنَ النَّسِيمِ وَمِنْ رُقْرَاقِ السَّرَابِ وَمِنْ غِرْقَى الْبَيْضِ^٦ ، الزَّيْتُ فِي الْعَجِينِ لَا يَضِيغُ^٧ ، زَكَاةُ النِّعَمِ الْمَعْرُوفُ ، أَزْكَنُ مِنْ إِيَّاسٍ ، أَزْهَى مِنْ طَاوُسٍ^٨ ، سَبَقَ السَّيْفُ الْعَدْلُ^٩ ، أَسَاءَ سَمِعًا فَأَسَاءَ إِبْجَابَةً^{١٠} ، سَكَّتْ أَلْفًا وَنَطَقَ خُلْفًا^{١١} ، سَرِقَ السَّارِقُ فَانْتَحَرَ^{١٢} ، السَّلِيمُ لَا يَنَامُ وَلَا يُنِيمُ^{١٣} ، سَحَابَةُ صَيْفٍ عَنْ قَلِيلٍ تَقْشَعُ ، شَرُّ الرَّأْيِ الدُّبْرِيُّ^{١٤} ، شُعْبٌ فِي الْإِنَاءِ وَشُعْبٌ فِي الْأَرْضِ^{١٥} ، شَذْشَنَةُ أَعْرَفُهَا مِنْ أَخْزَمَ^{١٦} ، شَرُّ مِنَ الْمَوْتِ مَا يُتَمَنَّى مَعَهُ الْمَوْتُ ، أَشَامُ مِنَ الْبَسُوسِ ، وَمِنْ أَحْمَرِ عَادٍ ، وَمِنْ غَرَابِ الْبَيْنِ^{١٧} أَشْكُرُ مِنْ كَلْبٍ ، صَدَقَنِي سَنٌّ بَكَرَهُ^{١٨} ، صَادَفَ دَرَّةُ السَّيْلِ دَرَّةً أَيْ صَدَعَهُ^{١٩} ، صَادَرَكَ

- (١) يضرب عند الكلام يؤثر فيمن يواجه به (٢) يضرب في الخيبة (٣) هذا كقولنا شتمك من بلغك (٤) تزعم العرب أن الضب لا يحتاج إلى شرب الماء بفتح فاء للهواء فيكون في ذلك ربه (٥) الغرقى القشة الرقيقة الملتزمة ببياض البيضة (٦) يضرب في الإحسان إلى الأقارب (٧) الزهو : العجب (٨) يضرب في الخطأ يلام فاعله بعد وقوعه الخلف الرديء من القول ١٠ يضرب لمن تسترع من يده ما ليس له فيجزع عليه (١١) السليم : الملدوغ ، يضرب فيمن لا يستريح ولا يريح غيره (١٢) الدبري ما يسنح بعد فوات الفرصة (١٣) الشخب : ما خرج من الضرع ممتدأ من اللبن ، يضرب فيمن يصيب مرة ويخطئ أخرى .
- (١٤) الشذشنة : الطبيعة والعادة يضرب في مشابهة الفرع لأصله في الشر .
- (١٥) البسوس . هي المرأة التي هاجت بسببها حرب بكر وتغلب ، وأحمر عاد هو أحمر ثمود ، وهو الذي عقر الناقة فحل العذاب بشمود من جزاء عمله .
- (١٦) يضرب في الإنسان يقول الحق على غير قصد منه .
- (١٧) هذا كمن قال : لا يقل الحديد إلا الحديد .

أوسع لِسرك . أصدق من قطاة^١ ، أصمب من رد الشئخ في الضرع ، ضرب أخاساً لأسداس^٢ ، أضيّق من ظيل الرمح ، أضعف من بعوضة ، أضبط من نملة ، أطرق كراً ، إن النعامة في القرى^٣ أطول صُحبة من الفرقدين ، أطمع من أشعب ، طبيب يُداوي الناس وهو مريض^٤ ، طفيلي ومُفترِح ، ظيّر رءُوم خير من أمّ سئوم^٥ ، عند الصباح يَحْمَدُ القوم السرى^٦ ، عند جهينة الخبر اليقين^٧ ، عرض عليه خصلتي الضبُع^٨ عَشَ رَجَباً ترّعجباً ، أعط القوس باريها ، أعرض ثوب الملبس ، العودُ أحمد ، عند الامتحان يُكرم المرء أو يُهان ، أعز من كليب وائل ، أعين من باقل ، أعدى من الظليم ، ومن الشئفري ، ومن السليك ، أعق من ذئبة ، أعقد من ذنب الضب^٩ ، وأعجز ثمن قتل الدخان^{١٠} غدة كغدة البعير وموت في بيت سلولبة^{١١} ، غثك خير من سمين غيرك ، في الصيف ضيعت اللب^{١٢} في بيته يؤتى الحكم ، في كل شجر نار ، واستمجد المرح والعقار^{١٣} ، أفرس من بسطام ، أفتك من عمرو بن كلثوم ، قطعت جهيزة قول كل خطيب^{١٤} ، وقد أنصف القارة من رامها^{١٥} ، قبل الرماء تملأ الكنان^{١٦} ،

- (١) لأن صوت القطاة واحد لا يتغير (٢) يضرب فيمن يريد الشيء ويظهر غيره (٣) الكرا : الكروان ، يضرب فيمن يتكلم بما لا يقدر عليه (٤) الظئر : الحاضنة والراءوم : العطوف (٥) يضرب في تحمل التعب رجاء الراحة (٦) يضرب في الرجل يعرف الشيء على وجهه كقولهم : على الخبر سقطت (٧) تزعم العرب أن الضبُع صادت ثعلباً وخيرته بين أن تأكله وأن تمزقه ، يضرب فيمن يسوم غيره ما لا خيار فيه من البلاء (٨) يضرب فيمن إذا سأله عن أمر اهتم الجواب (٩) ساول قبيلة ذليلة ، يضرب في اجتماع خصلتين من الشر (١٠) يضرب لمن يطلب شيئاً قد فوته على نفسه (١١) المرح والعقار . شجرتان قويتا النار يضرب في تفضيل بعض الشيء على بعض (١٢) يضرب لمن يقطع على الناس ما هم فيه بحاقة يأتي بها (١٣) القارة : قبيلة من أبرع الناس في المراماة . (١٤) يضرب في الاستعداد للأمر قبل الشروع فيه .

أقتلوني ومالكاً^١ ، القول ما قالت خدامي ، كان كراعاً فصار ذراعاً^٢ ، كلام كالغسل ، وفعل كالأسل^٣ ، كل فتاة بأبيها متعجبة^٤ ، كطالب القرن جُدِعت أذنه^٥ كمُجِير أم عامر^٦ كيف أعادوك وهذا أثر فأسك^٧ ، كأن علياً وسهم الطير ، كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لو ذات سوار لطمتني^٨ ، لو خيَّرت لاخترت ، لو برك القطا ليلاً لنام^٩ ، لعل له عذراً وأنت تلوم^{١٠} ، لأمر ما جدع قصير أنفه ، لكل مقام مقال^{١١} ، لا نخباً لِعِطر بعد عروس^{١٢} ، لا تعدم الحسنة ذاتاً^{١٣} ، لا تهرف بما لا تعرف^{١٤} ، لا تافقي فيها ولا جلي ، لا في العير ولا في النفير^{١٥} ، لا ينس الحديد إلا الحديد ، لا تأمن الأحق وبغيره سكين^{١٦} ، لا تجزعن من سئة أنت سرتها ، ما وراءك أعصام ، ما يوم حليلة يسر^{١٧} ، ما أشبه الليلة بالبارحة . مرعى ولا كالسعدان^{١٨} ، ما كل بيضاء شحمة^{١٩} ، منك أنفك وإن كان أجذع^{٢٠} ، من استرعى الذئب ظلم ، من مأمنه يؤتى

- (١) يضرب فيمن يريد بصاحبه انكروه وإن ناله هو منه ضرر (٢) يضرب في الدليل يصبح عزيزاً (٣) الأسل الرماح (٤) يضرب في عجب الرجل رهطه وعشيرته (٥) أصل المثل في النعام ، ويضرب في طلب الأمر يفضي بصاحبه إلى التلف (٦) أم عامر الضبيع وقد أكلت من أجارها . يضرب في الذي يجزى على إحسانه بالسوء (٧) يضرب فيمن لا يفي بالعهد (٨) يضرب في الوضع يقع منه العدوان (٩) يضرب فيمن حمل عمل مكروه من غير إرادته (١٠) يضرب فيمن لا يدخر عنه نفيس (١١) يضرب في الشيء الحسن لا يخلو من عيب (١٢) يضرب لمن يتعجل في مدح الشيء قبل تمام معرفته (١٣) يضرب في الوضع ليس فيه شيء من خلال الشرف (١٤) يضرب في عسف الجاهل إذا قدر (١٥) حليلة بنت مالك غسان ، يضرب للأمر المشهور الذي لا يكاد يحفل (١٦) السعدان : نبت من أنفع الأشجار للإبل ، يضرب في الشيء يفصل على أشكاله وأقرانه

(١٧) يضرب فيمن يلزمك خيره وشره

الحذر ، مواعيد عرقوب^١ ، مكره أخوك لا بطل^٢ ، أمنع من عقاب الجو
نفس عصام سودت عصاماً^٣ نعيم كلب في بؤس أهله^٤ أندم من الكسبي^٥
وافق شن^٦ طبقة^٧ ، أوردها سعد وسعد مشتمل^٨ ، أوفى من السموءل^٩
ومن الحارث بن عباد ، هما كفرسي رهان ، يداك أوكتا وفوك^{١٠} نفخ^{١١}
اليوم خمر وغداً أمر^{١٢}

الفن الرابع في الأوصاف

الوصف^١ عبارة عن بيان الأمر باستيعاب أحواله وضروب نعوته المشتمل
له وأصوله ثلاثة :

الأول : أن يكون الوصف حقيقياً بالموصوف مفرزاً له عما سواه .

الثاني : أن يكون ذا طلاوة ورونتى .

الثالث : أن لا يخرج فيه إلى حدود المبالغة والإسهاب ، ويكتفى بما كان
مناسباً للحال - وأنواعه كثيرة ، ولكنّها ترجع إلى قسمين : وهما وصف
الأشياء ووصف الأشخاص - أمّا الأشياء الحرية بالوصف فهي كالأمكنة
والحوادث ومناظر الطبيعة .

وأما وصف الأشخاص فيكون بوصف الصورة أو الطبع أو بوصفها معاً ،
ولمذكر لك فقرأ جارية على ألسنة البلغاء في صفات شتى - ثم نتبعها بمقالات في
الوصف نثراً ونظماً .

(١) يضرب فيمن يحمل على ما لبس من شأنه (٢) يضرب في سؤدد الرجل
نفسه (٣) يضرب في التابع - كالخاد ، يشغل سادته بمصيده فيغتم ما قدر عليه
من أموالهم (٤) يضرب في تمام المشاكلة والاتفاق (٥) يضرب للمقصر في الأمر
(٦) يضرب لمن يجني على نفسه (٧) يضرب في تلب الأيام (٨) أحسن طريقة
للإجادة في الوصف أن ترسم أولاً في بدء وصفك نظراً عاماً جامعاً لمجملي الأمر
الذي تحاول وصفه ثم تأخذ بإيراد مختلف الأجزاء قسماً فقسماً وذلك إما على
تتابع ورود هذا الأجزاء ، أو إظهار ما كان يراه الكاتب اشد مناسبة لغايته .

وصف البلدان

بلدة^١ كأنها صورة جنة الخلد ، منقوشة^٢ في 'عرض الأرض ، بلدة^٣ كأن^٤ محاسن الدنيا مجموعة^٥ ومحصورة في نواحيها ، بلدة^٦ تراهبا عنبر ، وحصابؤها عقيق ، وهواؤها نسيم ، وماؤها رحيق ، بلدة^٧ معشوقة السكنى ، رغبة المثنوى^٨ ، كوكبها يقظان ، وجوؤها غريان ، يومها غداة^٩ ، وليلها سحر ، بلدة^{١٠} واسعة الرقعة ، طيبة البقعة ، واسطة البلاد وسرعتها ، ووجهها وغرتها .

وصف الدلاع

قلعة^١ حُلِّقت^٢ بالجو تناجي السماء بأسرارها ، قلعة^٣ تتوشح بالغيوم ، وتحتلي النجوم ، قلعة^٤ متناهية في الحصانة ، ممتعة^٥ عن الطلب والطلب ، منصوبة على أضييق المسالك وأوعر المناصب ، لم تزلها الأيام إلا نبوء^٦ أعطاف ، واستصعاب جوانب وأطراف ، قد مل^٧ الملوكة حصارها ، ففارقوها عن طمّاح^٨ منها وشماس^٩ وسنمت الجيوش ظللتها ، ففادرتها^{١٠} بعد قنوط وإياس ، فهي حمى لا يُراعى^{١١} ومَعْقِل^{١٢} لا يُسْتَطَاع ، كأن الأيام صالحتها على الإعفاء من الحوادث والتدليالي ، وعاهدتها على التسليم من القوارع^{١٣} .

وصف الدور

دار^١ قرار^٢ توسع العين قزّة^٣ ، والنفس مسرة^٤ ، كأن بانيتها استسلف الجنة ، فعبّلت له دار^٥ تغار^٦ منها الدور ، وتنقاصر^٧ عنها القصور ، دار^٨ اقترن اليمن^٩ بيمينها واليسر بيسرها ، الجسم منها في حَضَر^{١٠} والعيون على سفر ، دار^{١١} دار السعد نجمها وفار بالحسن سهمها ، يخدمها الدهر ، ويأويها البدر ، ويكنفها النصر ، هي مرتع النواظر ومتنفس الخواطر أخذت ادوات الجنان ، وضجّكت من العبقرى^{١٢} الحسان^{١٣} .

(١) الإقامة (٢) ارتفعت (٣) بعداً (٤) كبر وفخر (٥) إناء وامتناع (٦) تركتها (٧) لا يفزع ولا يخاف أحداً (٨) الحوادث والنوائب (٩) البركة (١٠) البسط المعجب شكلها .

وصف الديار الخالية

دارٌ لبِيسَت البيلى وتعطلت من الحلى ، صارت من أهلها خالية ، بعد ما
كانت بهم حالية ، وقد أنفذ البين سكانها ، وأقعدَ حيطانها ، دارٌ شاهدُ
اليأس منها ينطق ، وحبلُ الرجاء فيها يقصر ، كأنَّ عمرانها يطوى ، وخرابها
يُنشر ، أركانها قيامٌ وقعود ، وحيطانها رُكَّعٌ وسجود :

بَكَتْ دارهم من بَعْدَهم فتهللت دموعي فأى الجازعِ عين ألوم
أُستعبراً يَبكي على اللهو والسلى أم آخر يَبكي شَجوه فيهم ؟

وصف أيام الربيع

يَوْمٌ جلايب غيومه رواقٌ وأوديةٌ سيمه رفاق ، يومٌ سماءه فاخِبةٌ ،
وأرضه طاووسيةٌ ، يومٌ ممسك السماء ، مُعصفِرُ الهواء ، مُعْثِرُ الروض ،
مصنِّدُ الماء ، يومٌ تبسم عنه الربيع ، وتبرِّج عنه الرُّوض المربع ، يومٌ
كأنَّ سماءه بُحْدٌ تلباكي وأرضه عروسٌ تتجلى ، يومٌ دَجْنُه عاكف ،
وقطرُه واكف^٣

وصف الرياض

روضةٌ رقت حواشيتها وتأنقَ واشيها^١ ، روضةٌ كالعُقود المنظمة على البرود
المنعمة^٢ ، روضةٌ قد راضتها أكفَ المطر ، ودججتها أيدي الندى ، رياضٌ
كالعرائس في حليها وزخارفها ، والقيان^٣ في وشيها ومطارفها^٤ ، باسطة رَابيها^٥
وأنماطها ، ناضرة برودها ورياطها ، زاهية بحمرائها وصفرائها ، نائمةٌ بغيدانها
وغدرانها ، كأنما احتفلت لوفد^٦ ، أو هي من حبيب على وعْد^٧ ، روضةٌ قد تضوعت^٨
بالأرج^٩ الطيب أرجاؤها ، وتبرجت^{١٠} في ظلل الغمام صحراؤها ، وتنافحت

(١) الكساء المرسل على مقدم البيت من أعلاه إلى الأرض (٢) الغيم (٣) سائل
(٤) حائكها وناقشها (٥) جمع قين : المغنية ١٦ جمع مطرف رداء من خز مربع
فيه أعلام والزراعي البسط ، والأنماط الأنواب التي تطرح على الهوادج ، والرباط
الأنواب الرقاق (٦) تحركت (٧) النفح : الريح الطيب (٨) تزينت .

بنوافح المسك أنوارها، وتعارضت بغرائب النطق أطياريها . بُسُتَانُ أنهاره
محفوظة بالأزهار، وأشجاره موقرة بالثمار، أشجار كأن الحور إعارتها قدودها
وكستنها برودها، وحلتها بقودها، شقائق كتيجان العقيق على رؤوس الزنوج
كأنها أصداغ المسك على الوجنات الموردة، كأن الشقيق جام من عقيق أحمر،
مليث قرارته بمسك إذ فر الأرض رُمُدة، والأشجار وشي، والماء سيوف،
والطيور قيان^٢ قد غردت خطباء الأطياري على منابر الأنوار والأرهار .

وصف طول الليل والسهرة وما يعرض فيه من الهموم والفكر

ليلة قص جناحها، وضل صباها . ليل ليست لها أسحار، وظلمات لا
تتخللها أنوار . ليل ثابت الأطناب^٣، بطيء الغوارب طاميح الأمواج وفي
الدوئيب . بات بليلة ساورته^٤ فيها الهموم، وسامرته النجوم، واكتحل السهاد،
وافترش القتاد، واكتحل بماء السهر، وتامل على فراش الفكر، قد أقض مهاده^٥
وقليق وساده، هموم تفرق بين الجنب والمهاد، وتجمع بين العين والسهاد .

وصف انتصاف الليل وتناهيه وانتشار النور وأقول النجوم

قد اكتمل^٦ الظلام، قد نصقنا عمر الليل واستغرقنا شبابه، قد شاب رأس
الليل، كادينم^٧ النسيم بالسحر، قد انكشف غطاء الليل وستر الدجى، هريم الليل
وشيطت ذوائبه، قوضت^٨ خيام الليل، وخلع الأفق ثوب الدجى، تبسم
الفجر ضاحكاً من شرفه، ونصب أعلامه على منارل أفقه، اقتنص بازي الضوء
غراب الظلام، وفص كافور النور من الغسق مسك الحتام، طرز قيص الليل
بغرة الصبح، باح الصبح بسرده، خلج الليل ثيابه وحدر^٩ الصبح نقابه، بث
الصبح طلائعه، تبرقع الليل بغرة الصبح، أطار منادي الصبح غراب الليل،

(١) إناه (٢) مغنيات (٣) جبال الخيمة (٤) شغلته وقاومته
(٥) خشن وتترب (٦) صار كهلاً تشبيهاً بالرجل الكهل وهو من تجاوز الأربعين
سنة (٧) هدمت (٨) أنزل .

عزلت نوافج الليل يحامات الكافور ، وانهزم جيش الظلام عن عسكر النور ،
مالئت الجوزاء^١ للغروب ، وولست مواكب الكواكب ، وتناسرت عقود
النجوم ، ووهى نطاق الجوزاء^٢ ، وانطفأ قنديل الثريا .

وصف طلوع الشمس وغروبها

بدأ حاجب الشمس ، لقت الفزالة^٣ لعابها وصربت الضحى^٤ أطناها ،
انتشر جناح الضوء ، في أفق الجو ، استوى شباب النار على روث الضحى ،
بلغت الشمس كبسدة السواء ، قام قائم الهاجرة ورمت الشمس بجمرات الظهر .
اصفرت غلالة الشمس ، وصارت كأنها لدينار يلمع في قرار الماء ، نفضت تبراً
على الأصيل ، وشدت راحلها للراحيل ، جنتحت الشمس إلى مغاربها دلكت^٥
دلوح^٦ واغبر كوخ اللوح^٧ تصوبت الشمس للغيب ، تضيئت للمعروب ،
فأذن جنبها بالوجوب^٨ شاب النهار وأقبل شباب الليل ، استتر وجه الشمس
بالسحاب ، وتوارت بالحجاب ، وكان هذا الأمر من مطلع الفلق إلى جمع الغسق .

وصف الرعد والبرق

قام خطيب الرعد ، نبض عرق البرق ، حابة ارتجزت^٩ رعودها ،
وذهبت بروقها برودها ، نطق لسان الرعد ، وخفق قلب البرق ، فالرعد
ذو صخب^{١٠} والبرق ذو لهب ، ابتسم البرق عن قهقهة الرعد ، زارت أسود
الرعد ولعت سيوف البرق ، رعدت الغمام وبرقت ، وانحلت عرى السماء
قطبت ، هدرت رواعدها ، وقربت باعدها ، وصدقت مواعدها .

(١) برج في السماء (٢) الشمس (٣) الضحى جمع ضحوة ، مؤنث
والضحا تذكر على أنها اسم (٤) الثوب الرقيق (٥) غربت (٦) السحابة
(٧) واللوح الملح والمعان ؛ من لاح يلوح لوحاً (٨) وجبت الشمس وجيباً
ووجوباً غابت (٩) تحرك (١٠) الرجز ضرب من الشعر ويقول رجز
الراجز وارتجزت أيضاً (١١) كثير اللفظ والحلبة .

وصف مقدمات المطر

لبست السماء سرِّها، وسحب السحاب أذيالها، قد احتجبت السماء في سرِّ داق الغيم، لبس الجو مطرَقه^١ الأدكن^٢، باحت الرِّيح بأسرار الندى، ضربت خيمة الغمام، ابتل جناح الهواء واغرو وركت مقلّة السماء، هبت شمائل الجنائب، لتأليف شمل السحاب، تألفت أشتمات الغيوم، استور وأسبلت على النجوم.

وصف الثلج والبرد وأيام الشتاء

مد الشتاء رواقه، وألقى أوراقه^٣ وحلّ نطاقه، أناخ بموازله، وأرسي بكلاكله، وكلّح بوجهه، وكشّر عن أنيابه، قد عادت الجبال شيباً، ولبست من الثلوج ملاء قشيباً، شابت مفارق البُروج بتراكم الثلوج، ألم الشيب بها، وابيضت لموها، برد يقضة^٤ الأعضاء، وينقض الأحشاء، برد يجمد الريق في الأشداق والدمع في الآفاق، يوم كأن الأرض شابت لهو له، يوم فضي الجلباب مسكي النقاب، عبوس قطير^٥، كشّر عن ناب الزمهرير وفرش الأرض بالقوارير^٦، يوم أرضه كالقوارير اللامعة، وهوؤه كالزنابير اللامعة.

وصف المطر والسحاب والماء والغدران

ماء إذا مسته أيدي النسيم^٧، حكى سلاسل الفضة، غدير تفرقت فيه دموع السحاب، وتواترت عليه أنفاس الرياح الغرائب، انحلّ عقد السماء وانهلّ دمع الأنواء^٨ انحل سلك القطر، عن دُرّ البحر، سحابة تجدد من الغيوم جمالاً، وتمتد من الأمطار جبلاً، سحابة ترسل الأمطار أمواجاً.

(١) رداء من خبز مربع ذو أعلام (٢) المائل إلى السواد (٣) جمع روق. وهو الرواق بمعنى (٤) جديد (٥) جمع لمة للشعر الذي يحاوز شحمة الآذان (٦) يكسر ويضعف (٧) شديد مظلم (٨) جمع قارورة وهي الإناء من الزجاج (٩) شابة (١٠) تحركت (١١) جمع نوء: المطر.

والامواج أفواجاً . سحابة^١ يضحك من بكائها الرّوض^٢ ، وتخضّر^٣ من سوادها الأرض ، سحابة^٤ لا تجف جفونها ، ولا يخف أنينها ، ديمة^٥ روت أديم^٦ الثرى^٧ ، ونبت عيون الثور من الكرى^٨ ، سحابة ركبت أعناق الرياح وسحت كأفواه الجراح . مطر^٩ كأفواه القرب .

وصف القيظ وشدة الحر

حر^{١٠} يشبه قلب الصب ، ويذيب دماغ الضب^{١١} قوي سلطان الحر^{١٢} وبسط بساط الجمر ، أوقدت الشمس نارها ، وأذكت^{١٣} أوارها^{١٤} ، حر^{١٥} يلفح حر^{١٦} الوجه ، هاجرة^{١٧} كأنها من قلوب العشاق ، إذا اشتعلت فيها نار فمراق ، هاجرة تحكي نار الهجير ، وتذيب قلب الصخر ، حر^{١٨} تهرب له الحيراء^{١٩} من الشمس ، قد صهرت^{٢٠} الهاجرة الأبدان ، وركبت الجنادب^{٢١} العيدان ، حر^{٢٢} ينضج الجلود ، ويذيب الجلود ، أيام الفرقة امتداداً ، وجر كجر^{٢٣} الوجه اشتداداً ، هاجرة^{٢٤} كالسمير الهاجم ، يحرز أذيال السمائم^{٢٥} .

وصف الشيب

ذوى^{٢٦} غصن شبابه ، بدت في رأسه طلائع المشيب ، أقر ليل شبابه ، ظهرت غرة القمر ، وأومض^{٢٧} البرق في ليل الشّعفر^{٢٨} رومي فاحم الفود^{٢٩} بضد^{٣٠} واشتعل المبيض^{٣١} في مسود^{٣٢} ، لمع ضوء^{٣٣} فرعه ، وتفرق شمل جمعه ، علاه غمار وقائع الدهر ، بينا هو راقد^{٣٤} في ليل الشباب ، أيقظه صبح المشيب ، طوى مراحل الشباب ، وأنفق عمره بغير حساب ، جاوز من الشباب مراحل ، وورد من الشيب مناهل ،

- (١) المطر بلا رعد (٢) وجه الأرض (٣) التراب (٤) النوم (٥) حيوان بري لا يعيش إلا في الجهات الشديدة الحر (٦) أوقدت (٧) نارها (٨) حيوان يستقبل الشمس ويدور معها كيفما دارت ويتلون ألواناً بحر الشمس (٩) أذابت (١٠) الجراد (١١) شدة الحر عند الزوال (١٢) الرياح احارة (١٣) نبل (١٤) برق ولمع (١٥) معظم شعر الرأس مما يلي الأذن .

فل* الدهر شبا شبابه، ومحاسن رؤائه، طار غراب شبابه، انتهى شبابه، وشاب أترابه، استبدل بالأدهم^٢ الأبلق^٣ وبالغراب العفّاق^٤، استعاض^٥ من الغراب بقادمة النسر، أسفر^٦ صبح^٧ المشيب، علّته^٨ أهبة^٩ الكبر، نفّض^{١٠} جبهة الصبا، وتولى داعية الحجاج^{١١}، الشيب زبدة^{١٢} نخضتها الأيام، وفضة^{١٣} محضتها التجارب سرى في طريق الرشد بمصباح الشيب، الشيب خطام^{١٤} المنية، الشيب نذير^{١٥} الآخرة.

وصف آلات الكتابة

الدواة - المداد - الأقلام

الدواة من أنفع الأدوات، وهي للكتابة عتاد^{١٦}، وللخاطر زناد^{١٧}، غدير^{١٨} لا يرد غير الأفهام، ولا يمتح^{١٩} بغير أرشية^{٢٠} الأقلام، غدير^{٢١} تفيض ينابيع الحكمة من أقطاره، وتنشأ^{٢٢} سحب البلاغة من قواره.

مداد^{٢٣} كسواد العين، وسويداء القلب، وجناح الغراب، ولعاب الليل، وألوان دهم الخيل، مداد^{٢٤} ناسب خافية الغراب، واستعار^{٢٥} لونه من شرخ^{٢٦} الشباب.

أقلام^{٢٧} جمّة المحاسن، بعيدة^{٢٨} من المطاعن، أنابيب^{٢٩} نسبت^{٣٠} رماح الخط في أجناسها، وشاكلت^{٣١} الذهب ألوانها، وضاهت^{٣٢} الحديد في لمعانها، أقلام^{٣٣} كأنها الأميال استواء^{٣٤}، والآجال مضاء^{٣٥}، بطيئه^{٣٦} الخفى قوية القوى قلم لا ينبؤ^{٣٧} إذا نبت الصفايح، ولا^{٣٨} يخرج^{٣٩} إذا أحجمت^{٤٠} الرماح، قلم يسكت^{٤١} واقفاً، وينطق ساكتاً.

وصف الخطباء

جَلَسُوا بكلامهم الأبصار العلية، وشَحَدُوا بمواعظهم الأذهان الكليّة،

-
- (١) هزم (٢) الأسود (٣) الأبيض وأصله للرخام (٤) طائر قدر الحمامة
(٥) جعله عوضاً (٦) العقل (٧) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر (٨) لا ينزع
(٩) حبال الدلاء (١٠) ريمانه (١١) لا يبعد (١٢) لا يتأخر

وتبها القلوب من رقدتها ، ونقلوها عن سوء عادتها ، فشفّوا من داء القسوة ،
 وغباوة الغفلة وداووا من العي^١ الفاضح ، ونهجوا لنا الطريق الواضح ، خطيب^٢
 لا تناله حبسة ، ولا ترتنهش^٣ لكنة^٤ ، ولا تنمشى في خطابه رنة^٥ ، ولا تتجيف^٦
 بيانه عجمة ، ولا تعترض لسانه عقدة ، خطيب^٧ جواهر نفثاته صحاح ، وعرائس
 أفكاره صباح ، خطيب^٨ تزينت بدُرَرِ ألفاظه عقود الملح ، لا عيب فيه إلا
 أن لفظه عطل الياقوت والدُر^٩ ، خطيب^{١٠} مصقع ينثر لسانه اللؤلؤ المكنون ،
 هو الخطيب المصقع الذي أشخص^{١١} بآيات خطبه الزاجرة عيون القوم وأبكاهها ،
 هو الخطيب المصقع الذي تتلاعب بالعقول معانيه ، ويصاغ^{١٢} الدُرُّ من لفظ فيه ،
 هو الخطيب الذي تهتز له المنابر ، وتنقاد إليه كلمات السّحر متسابقة^{١٣} ، آخذاً
 بعضها برقاب بعض .

وصف العلماء

بدُر العلوم اللائح ، وقطرها الغادي والرائح ، وثبیرها^{١٤} الذي لا يزحم ،
 ومنیرها الذي ينجلي به ليلها الأسحم^{١٥} ، أما فنون الأدب فهو ابن يحدتها^{١٦} وأخو
 جملتها وأبو عذرتها ، ومالك أزميتها^{١٧} ، تستخرج الجواهر من بحوره ، وتحلى
 لمعات الصُّروس بقلائد سُطوره ، وتآليفه عقائل أصبح الدهر من خطائبها ، له
 بدائع مائسات^{١٨} الأعطاف ، بحر البيان الزّاهر ، شيخ المعارف وإمامها ومن في
 يديه زمامها ، لديه تنشد ضوال^{١٩} الأعراب ، وتوجد شوارد اللغة والإعراب ،
 مالك أعیسة العلوم وناهج^{٢٠} طريقها ، وعارف بترصيعها وتسميقها ، النّساظم
 لعقودها ، الرّاقم لبُرودها ، المجید لإرهافها^{٢١} العالم بحلائها وزفافها ملك
 رِقّ الكتابة والإنشاء ، وتصرف في فنون الإبداع كيف شاء ، عالم يتفجّر
 العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة من نواحيه ، صاحب المصنفات التي دلت على

(١) العجمة (٢) بمعنى تنقص (٣) المثابر المواظب (٤) الأسود

(٥) العالم بها المتقن لها (٦) متبخرات مائلات (٧) لدقتها ولطفها .

وفرة اطلاعه ، وغزارة مادته ، وحُسْنُ بيانه ، لم يترك معنى مغلقاً إلا فتح صياصيته^١ ، ولا مشكلاً إلا أوضح مَبَانِيه .

وصف البلغاء

فلانُ يحوكُ الكلامَ على حسب الأمانى ، ويخيطُ الألفاظَ على قدود المعاني ، يحتثي من الألفاظ أنوارها ، ومن المعاني ثمارها ، يعبت^٢ بالكلام وبقوده بألین زمام ، حتى كأن الألفاظ تتحاسد في التسابق إلى خولطره ، والمعاني تتغايِرُ في الانشغال^٣ على أناميله بليغ نسق^٤ ، من جواهر كلامه أكاليل دُرٍّ ، ما لمنظوميهـا سِلك بليغ تفكُّ سهام أفكاره الزرد ، ناظم سِلك البلاغة وقائد زمام البراعة ، إذا أوجز أعجز ، وإذا شاء أطال ، وأطلق من البلاغة العقال ، إذا أذكى سراج الفِكْر ، أضاء ظلام الأمر ، يستنبط حقائق القلوب ، ويستخرج ودائع الغيوب .

وصف الشعراء والمنشئين ومحاسن النظم والنثر

مقدِّفُ حصي القريض وجماره ، ومطلعُ شموسه وأقماره ، نثره سِحْر البيان ونظمه قطع الجنان ، طلعت شمس الأدب من أفق أشعاره ، وتفجرت ينابيعها من خلال آثاره ، شاعرٌ توقدت جراتُ افكاره ، شاعرٌ عرائس افكاره صِباح ، إن نثره فالنَّجْوم في افلاكها ، أو نظم . فالجواهر في اسلاكها ، اخذت بمجامع القلوب كلمه^٥ ، إذا كتب انتسب إليه السَّخَرُ أصح انتساب . ونسق^٦ المعجزات نسق حساب ، وارى البدائع بيض الوجوه كريمة الأحساب ، إن نثر رأيت بحراً يزخر ، وإذا نظم ازرى بنظم العقود بالجواهر ، واتى بأحسن من رقم البرود ، إذا كتب ملاً المهارق^٦ بياناً ، وارى السحر عياناً ، هو الكاتب

(١) جمع صيغة : الحصن المنيع (٢) يلعب (٣) الانصباب (٤) نظم (٥) نظم (٦) جمع مهرق حرير ثوب ابيض ينقى الصمغ منه ويفسل ثم يكتب فيه .

الذي تحسّد أرقام الطراز سطور قلمه ، ويود التّبرُّ لو كان مداد كلمه ، هو الكاتب الذي تنقاد إلى يراعه^١ دقائق المعاني صاغرة بزمّام ، نثر كنثر الورد ، ونظم كنظم العقد ، نثر كالسّحر أو أدق ، ونظم كاللّماء أو أرق ، نثر كما تفتّح الزهر ، ونظم كما تنفّس السّحر ، رسالة تضحك عن غرر وزهر ، وقصيدة تنطوي على حبر ودُر ، كلام كما هبّ نسيم السّحر ، على صفحات الزّهر . كتاب مطلع مطلع اهليلة الأعياد ، وموقعه موقع نيّيل المراد ، كتاب حسّيته يطير من يديّ الخِفّة ، ويلطف عن حِسِّي لِقَلْبته ، صحائف انطوت المحاسن تحت رِقّ منشورها ، وصدحت حمائم البلاغة على اغصان سطورها ، صحائف تنوب عن الصفائح ، وقراطيس تزفّ إلى الأسماع عرائس المرائح ، ضحائف ألبسها الحبر أثواباً من الحُبّر^٢ ، وديجها^٣ صوب^٤ الفكر ، لا صوب المطر .

وصف الأمراء والأشراف

فلان من شرف العنصر الكريم ، ومعدن الشرف الصميم^٥ ، أصل راسخ ، وفرع شامخ^٦ ، ومجد باذخ^٧ ، قد ركّب الله دَوْحَتَه^٨ في قرارة المجد وغرس نبته في منبت الفضل ، المجد لسان أو صافه ، والشرف سبب أسلافه . دَوْحَة رُسب^٩ عرقها وبَسَق^{١٠} فرعها وطاب عبودها واعتدل عمودها وفيأت ظلالها ، وتهدّلت^{١١} ثمارها وتفرّعت اغصانها ، وبَرَدَ مَيْقِلُهَا^{١٢} . أمير جيشه الهمم . دَوْحَة مجده وريفة^{١٣} الظل وريقة^{١٤} ، أمير لا عيب في نداه^{١٥} إلا أنه يستعبد كل حرّ . هو غرة الجمال ، وصورة الكمال . عقد

(١) أقلامه (٢) الخبرات التي تلبسها النساء المصريات إذا خرجن (٣) نقشها (٤) المطر (٥) الخالص (٦) المرتفع (٧) العالي (٨) الشجرة العظيمة (٩) الشجر أيضاً (١٠) نبت (١١) ارتفع (١٢) تدلّت (١٣) مكانها (١٤) ممتدة متممة (١٥) مورقة (١٦) عطائه وهذا نوع من انواع البديع يسمى تأكيد المدح بما يشبه الذم كقول بعضهم :

ولا عيب في معروفهم غير أنه يبين عجز الشاكرين عن الشكر
وفي الحقيقة ليس بعيب بل نهاية في المدح .

المناصب به نَصِيد، أميرٌ عَصِيقت من شمائله نَسِمَات النَّد، وقطرت من سلسبيل
أوصافه مياهُ المجد، جامعٌ ما تفرق من شمل الفضائل، ناظمٌ ما انتثر من عقد
المآثر، أنارت به نجوم المعالي وشموسها، له شرف باذخ تُعقد بالنُجوم ذوائبه،
أَلقت إليه الرئاسة مقاليدها^١، وملكته طريقها وتليدها^٢، أميرٌ تَفَرَّعَ من
دَوْنِحة سناء^٣، وتحدّر من سلالة أكابر، ورُقاة أسرّة ومنابر، مرّضع نُدْني
المجد، ومفترش حجر الفضل، له صدر تضيق به الدهناء^٤، وتفزع إليه
الدهماء^٥، له في كلِّ مكرمة غرّة الإصباح، وفي كلِّ فضيلة قادمة الجناح،
له صورة تستنطق الأفواه بالتسبيح، ويترقرق فيها ماء الكرم، وتقرأ فيها
صحيفة البشير، ينابيع الجود تتفجّر من أنامله، وربيع السماك يضحك من
فواضله، له أخلاقٌ خلقت من الفضل وشيتم^٦ تشام^٦ منها بوارق المجد، أَرَجَ^٧
الزمان بفضله، وعقيم النساء عن الإتيان بمثله، ماله للعفاة^٨ مباح، وفعاله^٩
في ظلمة الدهر مصباح، مناقب تشدّخ^{١٠} في جبينها غرّة الصُّباح، وتتهادى
أبناءها^{١١} وفود الرياح، سألت عن أخباره فكأنني حرّكت المسك فتيقاً،
وصبّحت الروض أنيقاً^{١١} هو رائش^{١٣} نبلمهم، ونبعة^{١٤} فضلهم، وواسطة^{١٥}
عقدهم، له همّة علا جناحها إلى عنان النجم، وامتد صباحها من شرق إلى غرب،
همته أبعد من مناط^{١٦} الفرقد، وأعلى من منكيب الجوزاء^{١٧}، موضعه من أهل
الفضل موضع الواسطة من العقد، وليلة التّم من الشهر، بل ليلة القدر إلى مطلع
الفجر، هطلت عليّ سحائب عنايته، ورفرفت خولي أجنحة رعايته، وقد

- (١) مفاتيحها (٢) حديثها وقديمها (٣) مجد ورفعته (٤) الفلاة الواسعة
(٥) جماعة الناس (٦) تنظر (٧) فاحت منه رائحة طيبة (٨) الطالبون للعطاء
(٩) بفتح الفاء: كرمه (١٠) تفلّق (١١) أخبارها (١٢) معجبا (١٣) السهم
ذو الريش (١٤) الشجرة (١٥) ما تكون وسط العقد وهي أحسنه
(١٦) محل علاقته (١٧) برج في السماء .

استظهرت على جَوْرِ الأيام بغيره، واستتسرت من دهره بظله، قد غرقتني نِعَمُهُ
حق استنفدت شُكْرَ لساني ويدي، وتتابعت نِعَمُهُ تتابع القطر على القفر،
وترادفت مِنَنُهُ ترادف اليسر إلى ذوي الفقر، له أياد قد عمّت الآفاق،
وطوّقت الأعناق أياد قد حبست عليه الشكر، واستعبدت له الحر. من
توالى توالي القطر، واتسعت سعة البر والبحر، وأنقلت كاهل الحر.

وصف القلم

القلم أحد اللسانين، وهو المخاطب للغيوب، بسرائر القلوب، على لغات
مختلفة من معاني معقولة، بحروف معلومة، متباينات الصور مختلفات الجهات،
ليقاضي التفكير وينتاجها التدبير، تخرس منفردات، وتنطق مزدوجات
بلا أصوات مسموعة، ولا ألسن محدودة، ولا حركات ظاهرة. خلا قلم حرّف
باريه قسطه، ليتعلق المداد به، وأرّهف جانبيه ليرد ما انتشر عنه إليه،
وشق رأسه ليحتبس المداد عليه، فهناك استعد القلم بشقه، ونشر في
القرطاس بخطه حروفاً أحكمها التفكير وأولى الأسماع بها الكلام الذي سداه
العقل، وألمه اللسان ونهسته اللوات، وقطعته الأسنان، ولفظته الشفاه،
ووعته الأسماع عن أنحاء شتى من صفات وأسماء. قال البحتري:

طعان بأطراف القوافي كأنه طعان بأطراف القنا المتكسر

وقال ابن المقفع: «القلم بريد القلب: يخبر بالخبر، وينظر بلا نظر».

وقال أبو دلف: «القلم صانع الكلام يفرغ ما يجمعه العلم».

وقال الجاحظ: «الدواة منهل، والقلم ماتح، والكتاب عطن».

وقال سهل بن هارون: «القلم أنف الضمير، إذا رعى أعلن وأبان
آثاره».

وقال عمرو بن مسعدة: «الأقلام مطايا الفطن».

وقال المأمون: «لله در القلم كيف يحوك وتشي المملكة».

- وقال جالينوس : « القلم طبيب المنطق » .
- وقال أحمد بن عبدالله : « القلم راقِدٌ في الأفئدة مُسْتَيْقِظ في الأفواه » ..
- وقيل : « عَقُول الرجال تحت أَقْلَامها » .
- وقال آخر : « القلم أَصَمَّ يَسْمَع النَّجْوَى . وأخرسُ يَفْصَح بالدَّعْوَى .
- وجاهل يَعْلَم الفَتْحَى » .
- وقال أحمد بن يوسف : « عبرات الأقلام في حدود كتبها أحسن من عبرات الغواني في صُحُون خدودها » .
- وقال أيضاً : « القلمُ لسان البَصَر يُنَاجِيه بما استتر عن الأسماع ؛ إذا نَسَج حُلله ، وأودعَها حكمه » .
- وقال العتابي : « الأقلام مطايا الأذهان » .
- وقال عبد الحميد : « القلمُ شجرةٌ ثمرتها الألفاظ ، والفكر بحرٌ أوْلؤه الحكمة » .
- وقيل : « بريُّ القلم تروى القلوب الظميمة » .
- وقال ابن أبي دؤاد : « القلم سفير العقل ، ورسوله الأنبل ، ولسانه الأطول ، وترجمانه الأفضل » .
- وقال أيضاً : « القلم الدنيا والآخرة » .
- وقال آخر : « بنو القلم تصوّب الحكمة » .
- قال ابن مَيْشَم : « من جلاله شأن القلم أنه لم يكتب الله تعالى كتاب قط إلا به » .
- وقالوا : « القلم قَسِيمُ الحكمة » .
- وقال يحيى بن خالد البرمكي : « الخط صورة روحها البيان ، ويدها الشرع وقدمها التسنوية ، وجوارجها معرفة الفصول » .
- ووصف أحمد بن إسماعيل خطاً حسناً فقال : « لو كان نباتاً لكان زهراً ؛ ولو كان معدناً لكان تبراً ، أو مذاقاً لكان حلواً ، أو شراباً لكان صفواً » .

وقال إقليدس : « الخطُّ هندسةٌ روحانيةٌ ، وإن ظهرت بآلةٍ جسمانية »
أخذهُ النظام فقال : « الخطُّ أصلٌ في الروح وإن ظهر بالجسد » .
وقال بعض الملوك اليونانية : « أمرُ الدِّين والدُّنيا تحت شيتين : قلمٌ وسيفٌ ،
والسِّيفُ تحت القلم » .

وقال أفلاطون : « الخطُّ عِقالُ العقل » .

وقال أرسططاليس : « القلمُ العِلَّةُ الفاعلة والمِدَادُ العِلَّةُ الهَيُولَانِيَّةُ ، والخطُّ
العِلَّةُ الصُّورِيَّةُ ، والبَلَاغَةُ العِلَّةُ السَّامِيَّةُ » .

سُئِلَ بعض الكتَّاب عن الخط : متى يستحق أن يوصفَ بالجوادة؟ فقال :
« إذا اعتدلت أقسامه ، وطالت ألفه ولامه ، واستقامت سطورهُ ، وضامى
صُعُوده حُدُوره ، وتفتحت عِيونه ، ولم تُشبه راءه نُونه ، وأشرق قرطاسه ،
وأظلمت أنفاسه ، ولم تختلف أجناسه ، وأسرع إلى العيون تنصُّوره ، وإلى
العقول ثمره ، وقُدِّرَت فُصُوله ، وانسدَّحت وُصُوله ، وتناسبَ رقيقته
وجليله ، وخرج عن نمطِ الورَّاقين ، وبعُدَ عن تصنُّعِ الحَبْرين ، وقام لكتابه
مقامُ النَّسْبَةِ والحِلْيَةِ » .

وقالوا ، « القلمُ أحدُ اللَّسَّانين ، والعمُّ أحدُ الأبوين ، والتثبُّتُ أحدُ
العقوين ، والمطلُّ أحدُ المُنعمين ، وقلمةُ العيال أحدُ اليَسَّارين ، والقناعةُ أحدُ
الرِّزْقين ، والوعيدُ أحدُ الضُّرْبين ، والإصلاحُ أحدُ الكَسْبين ، والرَّوَايةُ أحدُ
الهَاجِجين ، والهجرُ أحدُ الفِرَاقين ، واليأسُ أحدُ النُّشْجَين ، والمزاحُ أحدُ
السَّبايِن » .

وقال آخر : « مساقُ الدُّنيا بسين وقافٍ فيقال سق » يريد السيف والقلم .

وقال آخر : « القلمُ لسانُ اليد » .

حدثني يحيى البحتري قال ، حدثنا أبي عن ابن التَّرجَمَان - وكان الواثقُ
أنفذهُ إلى ملكِ الرُّومِ بهدايا - قال : وافقت لهم عيداً ، فرأيتهم قد علَّقوا على
بابِ بمعهم كتباً بالعربية سنشورة ، فسألتُ عنها : فقيل : هذه كُتُبُ المأمون

بخط أحمد بن أبي خالد الأحول ، استحسنوا صورته وتقديره فجعلوه هكذا .
فحدثتُ أنا بهذا الحديث أبا عُبَيْد الله محمد بن داود بن الجراح فقال : هذا حق ،
قد كتب سليمان بن وهب كتاباً إلى ملك الروم في أيام المُعْتَمِد فقال : ما رأيتُ
للعرب شيئاً أحسنَ من هذا الشكلُ ، ولستُ أحسِدُهم على شيءٍ حَسِدي إياهم
عليه ، والطاغية لا يقرأ العربي ، وإنما راقته اعتداله وهندسته وحُسْنُ
موقعه ومراتبه .

وقال هشام بن الملك الأعرابي : انظر ، كم على هذا الميل من عدد الأميال ،
وكان الأعرابي لا يحسنُ أن يقرأ فحُضِي ونظر ثم عاد فقال : رأيتُ كُرْأْسَ المحجنِ
مُتَّصِلاً بحلقة صغيرة ، تتبعه ثلاثة كأطباء الكلبة ، تفضي إلى هنة كأنها رأس
قِطَاة بلا منقار . ففهم بوصفه أنها خمسة .

حدثني يعقوب بن بيان الكاتب قال : قال بعضُ الكُتَّاب « القلمُ الرديءُ »
كالولد العاق .

وقالوا : « رَدَاءَةُ الخطِّ إحدى الزَّمانتين ، كما أن حسنَه إحدى البَلاغتين »
حدثني طلحة بن عبد الله قال :

اعتذر رجل إلى محمد بن عبد الله بن طاهر من شيء بلغه عنه ، فرأى خطه
قبيحاً ، فوقع في رقعته : « أردنا قبولَ عذرك ، فاقسطعنا عنه ما قابلنا من قبح
خطك ولو كنت صادقاً في اعتذارك لساعدتك حركةُ يدك ، أو ما علمت أن
حسن الخطِّ يُناضل عن صاحبه بوضوح الحُجَّة ، ويُمكن له دَرَكُ البغية » ؟

وكان أبو هَفَّتَان عبد الله بن أحمد المهتزمي من أقبح الناس خطاً ، وكان
يَبْتَدِيءُ الخطَّ من رأس الورقة ويعوّج سطورَه حتى يبقى آخر سطر في الورقة
كلمةً واحدةً فَرَّثَاهُ يحيى بن عليّ فقال في مرثيتِه :

مَعَ خطِّ كَأَنَّهُ أَرْجُلُ البَطِّ أو الخطُّ في ذوي الفتيان

قالوا : « رَدَاءَةُ الخطِّ زَمَانَةُ الأديب » .

نظر عبدالله بن طاهر إلى خطّ بعض كُتّابه فلم يرضه ، فقال : « نحتوا هذا عن مرتبة الديوان فإنه عليل الخط ، ولا يؤمن أن يُعدي غيره » .
أنشدني العزي الحسن بن علي في قبج الخط :

جزعت من قبج خطي وفيه وضعي وحطّي
رجعت من بعد حذقي إلى تعلم حطّي

حدثنا أبو العباس الرّبعي قال حدثنا الطلحي قال حدثني أحمد بن إبراهيم قال : دخل على الرّشيد أعرابي فأنشده أرجوزة - وإسماعيل بن صبيح يكتب بين يديه كتاباً ، وكان أحسن الناس خطاً ، وأسرعهم يداً - فقال الرّشيد للأعرابي : صف هذا ، فقال له : ما رأيت أطيّش من قلمه ، ولا أثبت من حلمه ، ثم قال :

له قلمٌ بؤسي ونعمي كلاهما صحابته في الحالتين درور
يناجيك عتاً في ضميرك لحظه ويفتح باب النّجح وهو عسير
فقال الرّشيد : « قد وجب لك يا أعرابي عليه حقّ » وهو يقضيك إياه ،
وحق علينا فيه نحن نقوم به ، ادفعوا إليه دية الحر » فقال له : « على عبدك دية العبد » .

جاء يوماً عبد الله بن المعتز في المسجد الجامع إلى أبي العباس أحمد بن يحيى ليسلم عليه فقام له وأجلسه مكانه ، فداس ابنُ المعتز قلماً فكسره ، فلما جلس قال لمن حوله :

لكفّني ثأراً عند رجلي لأنّهم أثارت قتيلاً ما لأعظمه جبر
فمعجب الناس من سرعة بديهته .

وأما رجل إلى إبراهيم بن المدبر قلماً وكتب إليه :
قد وجهت إليك أعزّك الله بمفاتح العلوم ، بادٍ جاهلها ، تام كالمها ، فهي كما
قال الشاعر :

ليس فيها ما يقال له كملت لو أن ذا كَملاً

كلّ جزءٍ من محاسنها كائنٌ من حسنه مثلاً
وقال أحمد بن إسماعيل :

وإذا تَمَنَّيْتُ بِنانك خطّاً مُعرباً عن إصابة وسداد
عجب الناس من بياض معانٍ يُحتجب من سواد ذلك المداد
حدثنا أحمد بن يزيد الملهبي قال حدثني أبو هفّان ، قال سألت ورّاقاً عن
حاله فقال :

« عَيْشِي أَضِيقُ مِنْ مَحَبَرَةٍ ، وَجِسْمِي أَدْقُ مِنْ مِسطَرَةٍ ، وَجَاهِي أَرْقُ
مِنَ الزَّجَاجِ ، وَوَجْهِي عِنْدَ النَّاسِ أَشَدُّ سَوَاداً مِنَ الْخَبَرِ ، وَحَظِّي أَحْقَرُ مِنْ
شَقِّ الْقَلَمِ ، وَبَدَنِي أضعفُ مِنْ قَصْبَةِ ، وَطَعَامِي أَمَرٌ مِنَ الْعَفْصِ ، وَسَوْءُ الْحَالِ
أَلْزَمُ لِي مِنَ الصَّبْغِ » فَقُلْتُ لَهُ : عَبَّيْتُ عَنْ بِلَاءِ بَيْبِلَاءٍ ^١ .
وَسُئِلَ وَرَّاقٌ عَنْ حَالِهِ فَقَالَ :

وإذا كنت بالليل لا أكتب وطول النهار أنا ألعبُ
فَطَوَّراً يُبْطِلُنِي مَأْكُلٌ وَطَوَّراً يُبْطِلُنِي مَشْرَبٌ
فإن دام هذا على ما أرى فبئس أول ما يخربُ

وصف الكتاب

الكتابُ نَعْمَ الْأَنْيسُ في ساعة الوَحْدَةِ ، وَنَعْمَ الْمَعْرِفَةُ في دار الْغُرْبَةِ ،
وَنَعْمَ الْقَرِينُ وَالذَّخِيلُ ، وَنَعْمَ الزَّائِرُ وَالزَّائِلُ ، وَغَاءُ مُلَى عِلْمًا وَظَرْفًا ،
وَإِنَاءُ مُلَى مَرْحًا وَجِدًّا ، وَحَبْدَا بَسْتَانٍ يَحْمِلُ في خَرَجٍ ، وَرَوْضُ يَقْلَبٍ في
حَجَرٍ ، هَلْ سَمِعْتَ بِشَجَرَةٍ نَوِي أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ بِأَلْوَانٍ مُخْتَلِفَةٍ وَطَعُومٍ مُتَبَايِنَةٍ ؟
هَلْ سَمِعْتَ بِشَجَرَةٍ لَا تَذْوِي وَزَهْرٌ لَا يُتَبَوَّى ^٢ وَثَمَرٌ لَا يَفْنَى ، وَمَنْ لَكَ يَحْلِسُ

(١) ومثله قول قائلهم :

تَبّاً لِرِزْقٍ نَازِلٍ مِنْ شَقِّ هَذِي الْقَصْبَةِ
تَبّاً لَهُ ، تَبّاً لَهُ مَا أَتَعَبَهُ ، مَا أَتَعَبَهُ

(٢) يتوى : يهلك .

يفيد الشيء، وخلافه، والجنس وضدّه، ينطق^١ عن الموتى ويترجم عن الأحياء،
 إن غَضِبْتَ لم يَغْضَبْ وإن عَرِبْتَ لم يَصْخَبْ^٢، أَكْتَمُ من الأرض وَأَنْتُمْ من
 الرِّيح وأهوى من الهوى، وأخدع^٣ من المُنَى، وأمتع من الضحى، وأنطق من
 سحبان وائل، وأعشى من باقل^٤ هل سمعت بمعلم تحلّست^٥ بخلال كثيرة وجمع
 أوصافاً عديدة عربي^٦ فارسي^٧ يوناني^٨ هندي^٩ سندي^{١٠} رومي^{١١}، إن وعظ
 أسمع، وإن ألهى أمتع، وإن أبكى أدمع وإن ضَرَبَ أوجع، يُفِيدُك ولا
 يستفيد^{١٢} منك، ويزيدك ولا يستزيد منك. إن جَدَّ فعبرة، وإن مزَحَ فنُزْهة.
 قَبْرُ الأسرار ومخزَنُ الودائع، قيد العلوم وينبوع الحكم، ومعدن المكارم
 ومؤنس^{١٣} لا ينام - يفيدك علم الأولين، ويُخبرك عن كثير من أخبار المتأخرين
 - هل سمعت في الأولين أو بلغك أن أحداً من السالفين جمع هذه الأوصاف مع
 قلة مؤنثه؟ وخفة محمله، لا يرتزوك^{١٤} شيئاً من دُنْيَاكَ، نعم المتأخر لعُدَّة^{١٥}،
 والمشتغل والحرفة، جليس لا يطريك^{١٦} ورفيق لا يملك^{١٧}، يطيعك في الليل
 طاعته في النهار، ويطيعك في السُّفَر طاعته في الحضر، إن أطلت النظر إليه
 أطال إمتاعك^{١٨} وشحن^{١٩} طباعك، وبسط لسانك وجوّد بيانك، وفجّتم
 ألفاظك، إن ألّفته خلد على الأيام ذكرك، وإن درّستَه رفع في الخلق
 قدرك، وإن نعتَه نوه عندهم باسمك، يُقْنَعُ العبيد في مقاعد السّادات،
 ويُجْلَسُ السوقة في مجالس الملوك، فأكرم به من صاحب، وأعزز به من
 موافق.

(١) لم يصوت (٢) رجل من إياد يضرب به المثل في العي، ومن عيه أنه اشترى
 طبيباً فحمله على عاتقه، فسئل عن ثمنه، فحل عنه يديه وفتح أصابعه وأشار بها،
 وأخرج لسانه، يريد أنه بأحد عشر درهماً، ولم يلهم أن يخبر عن سعره بلسانه،
 فصار عيه مثلاً. (٣) لا ينقصك (٤) ما يعده الإنسان لحوادث الدهر من سلاح
 وغيره (٥) لا يمدحك (٦) انتفاعك (٧) أحدها وأقواها.

وصف عاصفة لجلال الدين السيوطي

المتوفى سنة ٩١١ هـ

أتى عارض في ليلة الجمعة التاسعة من جمادى الآخرة ، وكانت فيه ظلمات متكايفة وبروق خاطفة ورياح عاصفة ، فقويت أهويتها ، واشتد هبوبها فتدافعت لها أعينة المطلقات ، وارتفعت لها صواعق مصيقات ، فرجفت لها الجدران واصطفقت ، وتلاقت على بعدها واعتنقت ، وثارت بين السماء والأرض عجاج فليل لعل هذه على هذه أطبقت ، وتحسب أن جهنم قد سال منها وانزعدا منها عادي ، وزاد عصف الرياح إلى أن انطفأت مصابيح النجوم ، ومزق أديم السماء ونحي ما فوقه من الرقوم ، لا عاصم من الخطف للأبصار ، ولا ملجأ من الخطب إلا معاقبل الاستغفار ، وفر الناس نساء ورجالاً ، ونفروا من دورهم خفافاً وثقالاً ، لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلاً ، فاعتصموا بالمساجد الجامعة ، وأذعنوا للتأزلة بأعناق خاضعة ، ووجوه عانية ، ونفوس عن الأهل والمال سالية ، ينظرون من طرف خفي ، ويتوقعون أي خطب جلي ، قد انقطعت من الحياة علسهم وعميت عن النجاة طرقهم ، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون ، وقاموا إلى صلاتهم وودوا أن لو كانوا من الذين هم عليها دائمون ، إلى أن أذن الله في الركود وأسعف الهاجدين بالهجود .

وأصبح كل يسلم على رفيقه ، ويهنئته بسلامة طريقه ، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة ، وأفاق بعد الصيحة والصرخة ، وأن الله قد رد له الكرامة وأدبه بعد أن كاد يأخذه على غيره ؛ ووردت الأخبار بأن كسرت المراكب في البحار ، والأشجار في القفار ، وأتلف خلق كثير من السفار ، ومنهم من فر فلم ينفعه الفرار .

وصف العلم لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

العلم شيءٌ بعيد المرام ، لا يُصادُ بالسهم ، ولا يُقسمُ بالأزلام^١ ، ولا يرى في المنام ، ولا يُضبطُ باللجام ، ولا يُكتبُ للثام ، ولا يُورثُ عن الآباء والأعمام . وزرعٌ لا يزكو^٢ إلا متى صادف من الخزم ثرى طيباً ، ومن التوفيق مطراً صيباً ، ومن الطبع جواً صافياً ، ومن الجهد رَوْحاً^٣ دائماً ، ومن الصبر سقياً نافعاً .

وغرضٌ لا يُصاب إلا بافتراش المدر ، واستيناد الحجر ، ورَد الضجر ، ورُكوب الخطر ، وإدمان السهر ، واصطحاب السفَر ، وكثرة النظَر ، وإعمال الفكر .

وصف رجل لخصمه

كان أحمد بن يوسف متصرفاً عن غسان بن عباد ، وجرت بينهما هَنَات^٤ بحضرة المأمون ، ثم قال المأمون يوماً لخاصة أصحابه : « أخبروني عن غسان بن (١) الأزلام : جمع زلم - بفتح الزاي أو ضمها مع فتح اللام - وهي سهام لا نصل لها ولا ريش . كان العرب إذا ارادوا القمار احضروا جزوراً فنحروها وقسموا لحمها إلى ثمانية وعشرين قسماً ، ثم اتوا بعشرة أزلام ، فرسموا على واحد منها خطاً ، وعلى الثاني خطين ، وعلى الثالث ثلاثة ، وهكذا إلى السابع ، فيكون عليه سبعة وهو المسمى بالقدح المعلى ، وتبقى ثلاثة غفلاً لا يرسم عليها شيء ، ثم يضعون الجميع في خريطة ويدخل رجل يده فيها فيخرج زلماً باسم واحد من المقامرین ، فإن كان مرسوماً له عليه شيء اخذ من اقسام اللحم بقدره ، وإن كان غفلاً غرم ثمن الجزور . والمقصود من هذه العبارة ان العلم لا ينال بطريق البحث والمصادفة ، كما ينال اللحم المقسوم . (٢) يزكو : ينمو ويطيب . (٣) الروح - بفتح فسكون - نسيم الريح . (٤) المدر : قطع الطين اليابس ، وافترش المدر : نام عليه . (٥) كاتب بليغ من كتاب المأمون ، وكان بارعاً في الرسائل ، ويكنى ، أبا جعفر . (٦) الهنات : جمع هنة ، وقد تجمع على هنوات ، والمراد : أمور .

عباد ، فإني أريده لأمر جسيم » وكان قد عزم على تقليده السُّنْدَ . فتكلم كلُّ بما عنده في مدحه ، فقال أحمدُ بن يوسف : هو يا أمير المؤمنين رجلٌ محاسنه أكثرُ من مساويه ، لا يتطرق^١ إلى أمرٍ إلا تقدّم فيه ، ومهما تخوّف عليه فإنه لن يأتي أمرًا يُعْتَدَرُ منه ، لأنه قَسَمَ أيامه بين أفعال الفضل ، فجعل لكلِّ خلق نوبة^٢ ، إذا نظرت في أمره لم تدّر أيّ حالاته أعجب : أما هداه إليه عقّله ؟ أم ما اكتسبه بأدبه ؟ فقال له المأمون : لقد مدحتّه على سوء رأيك فيه . قال : لأني في أمير المؤمنين كما قال الشاعر :

كفى ثمنًا لما أسديت أنسي نصحتك في الصديق وفي عدائي
وإني حين تنذُبني لأمر يكون هواك أغلب من هوائي^٣

وصف أبي دلف لعبدالله بن طاهر

دَخَلَ أَبُو دُلْفُ^٤ على المأمون بعد الرضا عنه ، فسأله عن عبدالله بن طاهر فقال : خلفته يا أمير المؤمنين أمين غيب ، نصيح جيب^٥ ، أسدًا عاتيًا قائمًا على برائته ، يستعد به وليك ، ويشقى به عدوك ، رَحِبَ الفناء لأهل طاعتك ،

(١) تطرق إلى الأمر : ابتغى إليه طريقًا (٢) النوبة : الفرصة والدولة والمرّة ، جمعها نوب كغرف (٣) يريد هواي ، ومده للضرورة (٤) أبو دلف - كعمر - هو القاسم بن عيسى البكري من قواد المأمون ثم المعتصم ، وكان جوادًا شجاعًا ، وفيه يقول الشاعر :

إنما الدنيا أبو دلف بين ناديمه ومحتضره
فإذا ولي أبو دلف ولت الدنيا على أثره

توفي سنة ٢٢٦ هـ . (٥) هو عبدالله بن طاهر بن الحسن ، من كبار ولاة المأمون ولي مصر مدة سنتين تقريبًا ، قال صاحب كتاب ادب الخوارج : إن البطيخ العبد لاوي الموجود بالديار المصرية منسوب إليه ، اهـ .
(٦) يقال : هو ناصح الجيب ، أي القلب والصدر .

ذا بأسٍ شديد لمن زاغ عن قصد محبَّتكَ ، وقد فقَّسه الحزم ، وأيقظه العزم ،
فقام في نحر الأمور على ساق التسمير ، يبرمها بأيديهِ^١ وكيدهِ ، ويفلها بجده
ورجده ، وما أشبهه في الحرب إلا بقول العباس بن مرداس :

أكره على الكتيبة لا أبالي أحتفي كان فيها ام سواها
فقال قائل : ما أفصحه على جليليته ! فقال المأمون : إن بالجليل^٢ قوماً
أجداً^٣ كراماً أنجاداً ، وإنهم لسيوفون السيف حفظه يوم النزال ، والكلام
حقه يوم المقال .

وصف أعرابي لرجل

وصف أعرابي رجلاً فقال :

إن سألَ ألحف ، وإن سُئِلَ سوِّف ، وإذا وعد أخلف ، وإذا صَنَعَ
أَتلف ، وإذا همَّ بالفعل الجميل توقف ، ينظر بنظر الحسود ، ويُعْرِضُ
إعراض الحقود ، بينما هو خيلٌ ودود ، إذ هو خِلٌ ودُود ، فناؤه شاسع ،
وضيفه جائع ، وشره شائع ، وسرته ذائع ، ولونه فاقع^٤ ، وجفنه داعم ،

(١) الأيد: القوة (٢) الجبل: بلاد بين أذربيجان وعراق العرب وخوزستان
وبلاد الديلم (٣) الأنجاد - جمع ماجد أو مجيد ، كآشهاد في شاهد وشهيد -
والماجد والمجيد : الحسن الخلق السمع (٤) الأنجاد - جمع نجد بكسر الجيم أو
ضمها - وهو الشديد البأس ، ومن كلام علي : أما بنو هاشم فأنجاد أنجاد .

(٥) فناء البيت : الساحة امامه ، وجمعه افنية والشاسع : البعيد ، والجملة
كناية عن أنه بخيل ، لأن من عادة البخيل عندهم ان يبني خباءه بعيداً عن الحي
حتى لا يقصد ، قالت الفارعة :

ولا يحل إذا ما حل منتشياً يخشى الرزية بين الماء والبادي
(٦) الفاقع : الشديد الصفرة ، وربما أكد به الأبيض .

ودياره بلاقع ، رديء المنظر ، سىء الخُبَر ، يَبْخَل إذا أيسر ، ويَهْلَع إذا أعسر ، ويكذب إذا أخبر ، إن عاهد غدر ، وإن خاصم فجر ، وإن خوطب نَفَر .

وصف الإمام العادل

كتب "عمر" بن عبد العزيز رضي الله تعالى عنه لما ولى الخِلافة إلى الحسن ابن أبي الحسن البصري ، أن يكتب إليه بصفة الإمام العادل . فكتب إليه الحسن :

اعلم يا أمير المؤمنين أن الله جعل الإمام العادل قوام كل مائل ، وقصد كل جائر ، وصلاح كل فاسد ، وقوة كل ضعيف ، ونصف كل مظلوم ، ومفزع كل ملهوف . والإمام العادل يا أمير المؤمنين كالرأعي الشقيق على إبله ، الرقيق الذي يرتاد لها أطيب المراعي ، ويزودها عن مراتع المهلكة ، ويحميها من السباع ، ويكنفها من أذى الحر والقر ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأب الحاني على ولده ، يسعى لهم صفاراً ، ويعلمهم كباراً ، يكتسب لهم في حياته ويدخر لهم بعد مماته ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالأم الشقيقة ، البرّة الرقيقة بولدها ، حملته كرهاً ، ووضعته كرهاً ، وربته طفلاً ، تسهر بهسره ، وتسكن بسكونه ، ترضعه تارة ، وتنفطه أخرى ، وتفرح بمعايته ، وتغتم بشكايته ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، وصي اليتامى ، وخازن المساكين ، يربي صغيرهم ويمون كبيرهم ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، كالقلب بين الجوانح ، تصلح الجوانح بصلاحه ، وتفسد بفساده ، والإمام العادل يا أمير المؤمنين ، هو القائم بين الله وبين عباده ، يسمع كلام الله

وَيُسْمِعُهُمْ ، وَيَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ وَيُرِيهِمْ ، وَيَنْقَادُ إِلَى اللَّهِ وَيَقُودُهُمْ - فلا تكن يا أمير المؤمنين فيما ملّكك الله كمعبداً انتمته سيّده ، واستحفظه ماله وعياله ، فبدد المال ، وشرّد العيال ، فأفقر أهله وفرّق ماله .

واعلم يا أمير المؤمنين أن الله أنزل الحدودَ لِيَزْجُرَ بِهَا عَنِ الْخَبَائِثِ وَالْفَوَاحِشِ ، فكيف إذا أتاها من يليها ؟! وأنت الله أنزل القصاص حياةَ لعباده ، فكيف إذا قتلهم من يقتص منهم ؟! واذكر يا أمير المؤمنين الموت وما بعده ، وقلّة أشيائك عنده ، وأنصارك عليه ، فتزوّد له ولما بعده من الفزع الأكبر .

واعلم يا أمير المؤمنين ، أن لك منزلاً غير منزلك الذي أنت فيه ، يطول فيه ثوابك ، ويفارقك أحبّائك ، يُسلمونك في قعره فريداً وحيداً ، فتزوّد له ما يصحبك ، يوم يفرّ المرء من أخيه ، وأُمّهُ وأبيه وصاحبته وبنيه - واذكر يا أمير المؤمنين ، إذا بُعثَ ما في القبور ، وحُصِّل ما في الصدور ؛ فالأسرار ظاهرة ، والكتب لا يُغادرُ صغيرةً ولا كبيرة إلا أحصاها - فالآن يا أمير المؤمنين وانت في مهل قبل حلول الأجل ، وانقطع الأمل - لا تحكم يا أمير المؤمنين في عباد الله بحكم الجاهلين ، ولا تسلك بهم سبيل الظالمين ، ولا تُسلط المستكبرين على المستضعفين ، فإنهم لا يرقبون في مؤمن إلاّ ذمّة ، فتبوء بأوزارك وأوزار مع أوزارك ، وتحمل أثقالك وأثقالاً مع أثقالك ، ولا يغُرنك الذين يتنعمون بما فيه بُؤُسك ، ويأكلون الطيبات في دنياهم بإذْهابِ طيباتك في آخرتك ، ولا تنظر إلى قدرتك اليوم ، ولكن انظر إلى قدرتك غداً ، وأنت مأسورٌ في حبائل الموت ، وموقوف بين يدي الله في مجمع من الملائكة والنبيين والمرسلين ، وقد عنّت الوجوه للحي القيّوم . إني يا أمير المؤمنين ، وإن لم أدلغ بمظني ما بلغه أولوا النّهي من قبلي فلم آلك

شفقةً ونصحاً ، فأنزل كتابي إليك كمدأوي حبيبته ، يسقيه الأدوية الكريهة ،
لما يرجو له في ذلك من العافية والصحة .

وصف عمرو بن العاص لمصر لسيدنا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

مصر ترربة غبراء ، وشجرة خضراء ، طولها شهر ، وعرضها عشر^١ ،
يخطف وسطها نهر ميمون الغدوات ، مبارك الروحات ، يجري بالزيادة
والنقصان كجري الشمس والقمر ، له أوان تظهر به عيون الأرض ويتأبى بها ،
حق إذا أصلح عجاجه ، وتمعظمت أمواجه ، لم يكن وصول أهل القرى إلى
بعض إلا في خفاف القوارب^٢ وصغار المراكب ، فإذا تكاملت زيادته نكص^٣
على عقبه كأول ما بدأ في شدته ، وطما في حيدته ، فعند ذلك يخرج
القوم ليحرقوا بطون أوديته وروابيهم فيبذرون الحب ، ويرجون الثمار من
الرب ، حق إذا أشرق وأشرف ، سقاء من فوقه الندى ، وغذاء من تحته
الثرى ، فعند ذلك يدرك حلابه ، ويغني ذبابه - فبينما هي يا أمير المؤمنين درة
بيضاء ، إذا هي عنبرة سوداء ، فإذا هي زبرجدة خضراء ، فتبارك الله
الفعال لما يشاء .

وصف حرب لأبي منصور النيسابوري المتوفى سنة ٤٢٩ هـ

عندما دارت رحا الحرب ، صممت الألسنة ، ونسقت الأسنة ، وخطبت
السيوف على منابر الرقاب ، وأقدمت الرماح على الخطط الصعاب ، وتلاصقت
القنا والقنابل^٤ ، وتعانقت الصوارم^٥ والمناصل ، وبلغت القلوب الحناجر
وأدركت السيوف المناحر ، وضاق المجال ، وتحكمت الآجال ، فلا ترى

(١) أي عشر ليال ، لأن عادة العرب السير في الليل . (٢) السفن الصغيرة .
(٣) رجع (٦) ارتفع (٥) القنا : الرماح ، والقنابل : جمع قنبل ما بين الخمسين
فصاعداً من الخيل (٦) السيوف القاطعة ، وكذا المناصل .

إِلَّا رُءُوسًا تُنْذِرُ ١! وَدِمَاءً تَهْدَرُ ، وَأَعْضَاءَ تَنْطَايِرُ وَتَنْثَانِثِرُ ، وَأَجْسَامًا
تَنْزَايِلُ وَتَنْتَايِلُ حَقَّ ثَمَلَتِ الرِّمَاحُ مِنْ الدِّمَاءِ ، فَتَعَثَّرَتْ فِي النُّحُورِ ، وَتَكَسَّرَتْ
فِي الصُّدُورِ ، فَرَجَعُوا الْأَعْدَاءَ مِنْ جَوَانِبِهِمْ ، وَتَمَكَّنُوا مِنْ فَضِّ مَوَاكِبِهِمْ .

وصف المطر شعراً لأبي الفضل الميكالي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ

مع مقدمة لعمر بن علي المطوعي في وصف ذلك المطر نثراً

حكى عمر بن علي المطوعي قال: رأى الأمير السيد أبو الفضل عبد الرحمن
ابن أحمد أدام الله عزه أيا مُقَامِهِ يَجُودِينَ ٢ أن يطالع قرية من قرى ضياعه ٣
تُدعى « يجاب » على سبيل التنزه والتفرُّج ، فكنت في جملة من استصحبه إليها
من أصحابه ، واتفق أن وصلنا والسماء مُصْحِيَةً ٤ ، والجو صاف ، لم يُطرز ثوبه بعلم
الغمام ٥ ، والأفق فيرُزج لم يعبق به كافور السحاب ٦ فوق الاختيار على ظل
شجرة باسقة الفروع ٧ ، مُتَّسِعَةً الأوراق والغصون ، قد سترت ما حواليا
من الأرض طولاً وعرضاً ، فنزلنا تحتها مُسْتَظِلِينَ بَسَامُوتِهَا ٨ مُسْتَتَرِينَ مِنْ
وَهْجِ الشَّمْسِ بِسِتَارَةِ أَغْصَانِهَا ٩ ، وَأَخَذْنَا نَتَجَاذَبُ أَذْيَالَ الْمَذَاكِرَةِ ١٠ ،
وَنَتَسَالَبُ أَهْدَابَ الْمُنَاشِدَةِ وَالْمَحَاوِرَةِ ١١ ، فَمَا شَعَرْنَا بِالسَّمَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُرْعِدَتْ

(١) تسقط (٢) كورة بخزاسان ، وبلدة بسرخس من بلاد فارس (٣) يطالع
قرية ، يطالع صليها ، والضياع : جمع ضيعة ، وهي العقار والأرض المغلة .
(٤) لا غيم فيها (٥) عبارة عن خلو الجو من السحاب (٦) أي لونه مثل الفير وزج
وهو الزرقة ، ولم يعبق به : لم يلصق به ، والكافور : طيب يستخرج من شجر
كبير ، ولون هذا الطيب يصير أبيض بحد عملية تعمل فيه . والمعنى : أنه لا
يرى شيء من السحاب في الأفق (٧) طويلتها (٨) الأفنان الغصون ، وسمواتها :
يعني أوراقها العريضة المتلاحمة نلاحاً يجعلها تشبه السقوف (٩) وهج الشمس :
شدة حرها وتوقدها (١٠) عبارة عن تذاكرهم (١١) عبارة عن تناشدهم الأشعار
وتحاور بعضهم مع بعض تحاوراً أدبياً .

وأبرقت^{١٠} وأظلمت بعدما أشرقت^{١١}، ثم جادت بمطر كأفواه القرب^{١٢}، فأجادت^{١٣} وحكت أنامل الأجواد^{١٤}، بل أوقفت عليها وزادت^{١٥}، حتى كاذ غيثها يعود عيشاً^{١٦} وهم وبلها أن يستحيل ويلا^{١٧} فصبرنا على أذاها وقلنا سحابة صيف عن قليل تقشع^{١٨} فإذا نحن قد أمطرتنا برد الثغور^{١٩}، لكنها من ثغور العذاب^{٢٠} لا من الثغور العذاب^{٢١}، فأيقنا بالبلاد^{٢٢}، وسلفنا لأسباب القضاء^{٢٣}، فما مرت ساعة من النهار^{٢٤} حتى سمعنا خرير الأنهار^{٢٥} ورأينا السيل قد بلغ الزبي^{٢٦} والماء قد غمر القيعان^{٢٧} والربا^{٢٨} فبادرنا إلى حصن القرية^{٢٩}، لائذين من السيل بأفئتيها^{٣٠}، وعائذين^{٣١}

(١) يقال : رعدت وبرقت. أي جاء بالرعد والبرق، وأرعدت وأبرقت يعني تهددت بالرعد وتوعدت بالبرق (٢) جادت : تكرمت ، وأجادت : أحسنت. (٣) حكمت : شابهت، وأنامل الأجواد: المقصود أيدي الكرام، ومحا كاتها أيدي الكريم يعني مشابقتها لأيديهم في السخاء ، وأوقفت وزادت بمعنى واحد. (٤) الغيث : المطر ، والغيث : الإفساد . (٥) الوبل المطر العظيم القطرات ، والويل : الشر . (٦) أي لا تمكث إلا قليلاً وتذهب . (٧) البرد - بفتحات - قطرات المطر المتجمدة تنزل على الأرض كالحب في شكل الثلج أو الجليد : تشبه به اسنان الغواني وثناياها عند افتراق الثغور ، والثغر : الفم ، وثغور العذاب : فتحاته . (٨) من الثغور العذبة الريق . (٩) وخضعنا لحكم المقادير . (١٠) يعني جرى الماء بشدة ، فصار يسمع له صوت كصوت مياه الأنهار . (١١) السيل : الماء العظيم الذي يتجمع من المطر ، ويسيل بشدة . والزبي - جمع زيبة - وهي الأرض المرتفعة ارتفاعاً عظيماً بحيث لا يعلوها الماء عادة ، أو حفرة تحفر فيها ليصاد فيها الأسد . ١٢ الربا - جمع ربوة - الأرض المرتفعة ارتفاعاً، والقيعان - جمع قاع - وهو الأرض السهلة المطمئنة التي انفرجت عنها الجبال والآكام . (١٣) فبادرنا : أسرعنا ، والحصن : الموضع الحصين المنيع، الذي لا يوصل إلى جوفه، ولائذين: محتمين متحصنين، والأفنية - جمع فناء - وهو المتسع أمام الدار.

من القطر بأبنيتها^١ وأثوابنا قد صندل كافورها ماء الوبل^٢ ، وغلف طرازها طين الوحل^٣ ، ونحن نحمد الله تعالى على سلامة الأبدان ، وإن فقدنا بياض الأكام والأردان^٤ ، ونشكره على سلامة الانفس والارواح ، شكر التاجر على بقاء رأس المال ، إذا فجع بالأرباح^٥ فبتنا تلك الليلة تحت سماء تكيف^٦ ولا تكف^٧ ، وتبكي علينا إلى الصباح بأدمع هوام^٨ ، وأربع سجام^٩ فلما سل سيف الصبح من غبد الظلام^{١٠} ، وصرف بوالى الصحو عامل الفهم^{١١} ، رأينا صواب الرأي أن نوسع الإقامة بها رفضاً^{١٢} ونتخذ الارتحال عنا فرضاً^{١٣} ، فما زلنا نطوي الصحاري أرضاً فأرضاً ، إلى أن وافينا المستقر ركضاً^{١٤} ، فلما نفضنا غبار ذلك المسير^{١٥} ، الذي جعلنا في ربة الأسير^{١٦} ، وأفضيئنا إلى ساحة التيسير^{١٧} بعد ما أصبنا بالأمر العسير ، وتذاكرنا

- (١) عائذين : ملتجئين ، والقطر : ما نزل من ماء المطر ، والأبنية : المباني .
 (٢) صندل : استعمله متعدداً بمعنى جعل لون الصندل أحمر ضارباً إلى السواد ، والكافور والوبل تقدم معناه . (٣) غلف الشيء : جعل له غلافاً أي حجاباً وستراً ، والطراز : رسم الثوب ، والمعنى : أن رسم الثوب ستره الطين المتناثر من الوحل (٤) الأردن : أصول الأكام . (٥) أي أوجع بعدم الأرباح وفقد المكاسب . (٦) تكف : تقطر ، ولا تكف : لا ينقطع مطرها . (٧) هوام - جمع هام - من همى يهمى بمعنى سال . (٨) لعله يريد أربع نواح يقطر منها الماء كثيراً . (٩) أي الصبح الشبيه بالسيف ، والظلام الشبيه بالغمد . (١٠) الوالى : العامل أو الحاكم ، والمعنى أزال الصحو الفهم . (١١) أي ان نرفض الإقامة بها رفضاً باتاً . (١٢) وافينا : اتينا ، والمستقر : السكن ، وركضاً : يعني عدواً ، وجرياً على الأقدام . (١٣) يعني لما أزلنا وسخ هذا السير بمعنى استرحنا (١٤) الربة : عروة تجعل في جبل مع عرى غيرها ، ويربط في هذا الجبل (ويسمى الربق) أولاد الضأن والمعز والبقر (١٥) أفضيئنا : وصلنا . والساحة : رحبة واسعة بين الدور ، والتيسير : بمعنى اليسر والتسهيل .

ما لقينا من التعب والمشقة ، في قطع ذلك الطريق وطى تلك الشقة ١ أخذ
الأمير السيد أطل الله بقاءه القلم فعلق هذه الأبيات ارتجالاً :

دَهَمَتْنَا السَّمَاءُ غَدَاةَ السَّحَابِ بَغِيثٍ عَلَى أَفْقِهِ مُسْبِلٍ ٢
فَجَاءَ بِرَعْدٍ لَهُ رَنَّةٌ ٣ كَرَنَةٌ تَكْلِي وَلَمْ تَشْكَلْ ٤
وَنَنَى بِوَيْلٍ عِدَا طَوْرَهُ ٥ فَعَادَ وَبَالًا عَلَى الْمُحِلِّ ٦
وَأَشْرَفَ أَصْحَابُنَا مِنْ أَذَاهُ عَلَى خَطَرٍ هَائِلٍ مُعْضِلٍ ٧
فَمَنْ لَانْدِي بِفَنَاءِ الْجِدَارِ ٨ وَآرٍ إِلَى نَفْقٍ مُهِمِلٍ ٩
وَمَنْ مُسْتَجِيرٍ يُنَادِي الْغَرِيقَ هُنَاكَ وَمِنْ صَارِخٍ مَعُولٍ ١٠
وَجَادَتْ عَلَيْنَا سَمَاءُ السَّقُوفِ بِدَمْعٍ مِنَ الْوَجْدِ لَمْ يُهِمِلْ ١١

(١) وطى تلك الشقة أي قطع تلك المسافة (٢) الغداة: أول النهار، يعني دهمتنا السماء بمطر في أول النهار الذي كان فيه غيم . والغيث: المطر ، والمسيل : الهاطل، يعني دهمتنا السماء بمطر هاطل على الأفق الذي كان السحاب مخيماً عليه .
(٣) له رنة : أي دوي وصوت هائل (٤) التكلية : التي فقدت ولدها ، ولم تشكل : يعني لم يفقدها الله ولدها ، والمعنى كصوت الغائب عنها ولدها ، مع أن الله لم يهلكه ، فهي تصوت على غيابه ، ولم ينقطع أملها من وجوده
(٥) الويل : تقدم تفسيره وهو المطر الشديد ، وعدا طوره : تجاوز حده .
(٦) فصار ثقيلاً وخيماً على المكان الممحل الجذب المنقطع عنه المطر .
(٧) أشرف على كذا : قرب منه . والمعضل : الذي لا دواء له .
(٨ و ٩) فمن متحصن بالأراضي المجاورة للجدران ومن لاجئ إلى سرب في الأرض لم يتمهده أحد (١٠) ينادي الغريق : أي يدعو الناس ويقول الغريق لينقذوه ، والمعول : الرافع صوته بالبكاء . (١١) همل الدمع : سال ، والمعنى : أنها جادت بدمع لم يكن السبب في إسباله لا الغرام ولا الوجد .

كَأَنَّ حَرَامًا لَهَا أَنْ تَرَى يَبِيسًا مِنَ الْأَرْضِ لَمْ يَبْلُلْ^١
 وَأَقْبَلَ سَيْلٌ لَهُ رَوْعَةٌ^٢ فَأَذْبَرَ كُلٌّ عَنِ الْمُقْبِلِ^٣
 يُقْلَعُ مَا شَاءَ مِنْ دَوْحَةٍ^٤ وَمَا يَلْقَى مِنْ صَخْرَةٍ يَحْمِلُ^٥
 فَمِنْ غَامِرٍ رَدَّهِ غَامِرًا^٦ وَمِنْ مُعْصَمٍ عَادَ كَالْجَهْلِ^٧
 كَفَانًا بَلِيَّتَهُ رَبَّنَا فَقَدْ وَجِبَ الشُّكْرُ لِلْفَضْلِ^٨
 فَتَلَّ لِلسَّمَاءِ أَرْعُنْدِي وَابْرُقِي^٩ فَلَمَّا رَجَعْنَا إِلَى الْمَنْزِلِ

وصف حديقة لابن حبيب الحلبي المتوفى سنة ٧٧٩ هـ

لما صدأت امرأة الجنان^{١٠} قصدت لجلائها بعض الجنان^{١١} فدخلت إليها،
 وماكدت أن أقدم عليها، فإذا هي جنة عالية^{١٢} قطوفها دانية^{١٣} وطلحها
 منضود^{١٤}، وظلها تمدود^{١٥}، وأعلام أشجارها مرفوعة^{١٦} وفاكهتها كثيرة^{١٧}

(١) كأن حراماً لها، أي كأن السماء محرم عليها أن ترى أرضاً يابسة لم تبلل بالماء. (٢) الروعة : الفرعة (٣) كل واحد يولي ويهرب ممن يقابله. (٤) يقتلع كل ما يريد من الشجر العظيم. (٥) يحمل كل ما يلقاه من الصخور الضخام (٦) رده غامراً صيره خراباً. (٧) من معلوم صار كالجهل. (٨) كفانا الله شره، فوجب الشكر له لأفضاله علينا. (٩) إيت بالرعدي والبرق. (١٠) الجنان : القلب، وصدئت مرآته علامة على الوسخ، والمعنى: لما كل القلب، ومل العمل. (١١) لجلائها. أي إراله الوسخ الذي علاها، والجنان - جمع جنة - وهي الحديقة ذات النخل والشجر. (١٢) أي مرتفعة (١٣) غناقيدها متدلّية قريبة من الجاني. (١٤) الطلح : الأشجار العظام، ومنضود يعني متراكم بعضه فوق بعض. (١٥) أي متسع. (١٦) أي أغصانها مرتفعة.

لا مقطوعة^١ ولا ممنوعة^٢ ، تجوس^٣ المياه^٤ خلال ديارها^٥ وتشرق^٦ بآفاقها^٧ أنوار^٨ نوارها^٩ ، نزهة^{١٠} النواظر^{١١} ، وشرك^{١٢} الخواطر^{١٣} ، بها أشجار^{١٤} لا تحصى^{١٥} ، وثمار لا تعد^{١٦} ولا تستقصى^{١٧} .

وصف البيان لأمر المؤمنين ابن المعتز المتوفى سنة ٢٩٦ هـ

البيان^١ ترجمان^٢ القلوب وصيقل^٣ العقول^٤ ، ومجلى^٥ الشبهة^٦ ، وموجب^٧ الحجة^٨ ، والحاكم^٩ عند اختصام^{١٠} الظنون^{١١} ، والمفرق^{١٢} بين^{١٣} الشك^{١٤} واليقين^{١٥} ، وخير^{١٦} البيان^{١٧} ما كان مصرحاً^{١٨} عن^{١٩} المعنى^{٢٠} ، ليسرع^{٢١} إلى^{٢٢} الفهم^{٢٣} تلقينه^{٢٤} ، أو موجزاً^{٢٥} ليخفف^{٢٦} على^{٢٧} اللفظ^{٢٨} تعاطيه^{٢٩} .

ووصف أيضاً للمكارم

إن تكسب^١ أعزك^٢ الله^٣ المحامد^٤ ، وتستوجب^٥ الشرف^٦ ، إلا بالحمل^٧ على^٨ النفس^٩ والحال^{١٠} ، والنهوض^{١١} بحمل^{١٢} الأثقال^{١٣} ، وبذل^{١٤} الجاه^{١٥} وأمال^{١٦} ، ولو كانت^{١٧} المكارم^{١٨} تنال^{١٩} بغير^{٢٠} مؤونة^{٢١} لا شترك^{٢٢} فيها^{٢٣} السفلى^{٢٤} ، والأحرار^{٢٥} ، وتساها^{٢٦} موضعها^{٢٧} الوضعا^{٢٨} من^{٢٩} ذوي^{٣٠} الأخطار^{٣١} ، ولكن^{٣٢} الله^{٣٣} تعالى^{٣٤} خص^{٣٥} الكرماء^{٣٦} الذين^{٣٧} جعلهم^{٣٨} أهلها^{٣٩} ، فخفف^{٤٠} عليهم^{٤١} حملها^{٤٢} وسوء^{٤٣} غم^{٤٤} فضلها^{٤٥} وحظرها^{٤٦} ، على^{٤٧} السفلة^{٤٨} لصغر^{٤٩} أقدارهم^{٥٠} عنها^{٥١} ، وبعد^{٥٢} طباعهم^{٥٣} منها^{٥٤} ، ونفورها^{٥٥} عنهم^{٥٦} ، واقتشع^{٥٧} رارها^{٥٨} منهم^{٥٩} .

ووصف أيضاً القرآن الكريم

فصل^١ القرآن^٢ على^٣ سائر^٤ الكلام^٥ معروف^٦ غير^٧ مجهول^٨ ، وظاهر^٩ غير^{١٠} خفي^{١١} يشهد

-
- (١) لا تقطع عن الطالب ولا تمنع عنه . (٢) أي تتردد بين بيوتها .
(٣) النوار: الزهر . (٤) تنزه فيها العيون . (٥) تصطاد الخواطر وتسي
العقول . (٦) لا يمكن الإتيان على عددها . (٧) لا يتأتى إدراك آخرها .
(٨) جلاؤها . (٩) كاشفها . (١٠) السفلى : جمع سفلة ، وهم طغام الناس
وغوغاؤهم . (١١) جمع وضع : هو الساقط . (١٢) معها .

بذلك عجز المتعاطين، وهن^١ استكفين، وهو المبلّغ الذي لا يمل، والجديد الذي لا يخلق^٢ والحق الصادع، والنور الساطع، والمأحي لظلم الضلال، ولسان الصدق النافي للكذب، ومفتاح الخير، ودليل الجنة، إن أوجز كان كافياً وإن أكثر كان مذكراً، وإن أمر فناصحا، وإن حكم معادلاً، وإن أخبر فصادقا، سراج تستضيء به القلوب، وبحر العلوم، وديوان الحكم، وجوهر الكلم.

وصف البلاغة لفحول البلغاء.

(١) قال الجوهري : أحسن الكلام نظاماً ما ثقبته يدُ الفكرة ، ونظمته الفطنة ووصل جوهر معانيه في سموط^٣ ألفاظه ، فاحتملته 'نحور' الرواة .

(٢) وقال العطّار : أطيب الكلام ما عُجِنَ عنبرُ ألفاظه بمسك معانيه ، ففاح نسيم نشقه^٤ وسطعت رائحة عبقه ، فتعلقت به الرواة ، وتعمّرت به السراة .

(٣) وقال الصائغ : خير الكلام ما أحمّيته بكبير الفكر ، وسبكته بمشاعل النظر وخلصته من خبث الإطناب ، فبرز بروز الإبريز ، في معنى وجيز^٥ .

(٤) وقال السيرفي : خير الكلام ما نقدته عين البصيرة ، وجلته يد الرؤية ووزنته بمعيار الفصاحة ، فلا نظر يزيفه^٦ ؛ ولا سماع يبهجه^٧ .

(١) ضعف . (٢) لا يبلى . (٣) السمط : الخيط الذي ينظم فيه . (٤) الفشق : الاستنشاق ، العبق : لصوق الطيب بالشيء ، وتغلف الرجل بالطيب : تهن به ، والسراة : الأثراف . (٥) الكير : زق ينفخ فيه الحداد ، والمشاعل : جمع مشعل وهو القنديل وهو موضع شعل النار أي إلهابها . (٦) زيف الدرام : أي أنها زائفة أي مغشوشة . (٧) ويهرجها : أبطلها .

(٥) وقال الحداد : أحسنُ الكلام ما نصبتَ عليه منفحةً قريبة ، وأشعلتَ عليه نار البصيرة ، ثم أخرجته من فحم الأفيخام ورققتته بغطيس الأفهام^١ .

(٦) وقال النجار : خير الكلام ما أحكتَ نجر معناه بقُدوم التقدير ، ونشرتَه بمشار السدير ، فصار باباً لبیت البيان ، وعارضة^٢ لِسقف اللسان .

(٧) وقال الحائك : أحسنُ الكلام ما اتصلتْ لُحمة ألفاظه ، بسدَى معانيه مرفوقاً منيراً ، موثى مخبراً^٣ .

(٨) وقال الجمال : البليغ من أخذ بخطام^٤ كلامه ، فأناخه في مبرك المعنى ، ثم جعل الاختصار له عِقْلاً ، والإجادة له مجالاً ، فلم يند^٥ عن الآذان ولم يشذ عن الذهان .

وصف عمر بن الخطاب

قال معاوية بن أبي سفيان لصعصعة بن صوحان : وصف لي عمر بن الخطاب فقال : كان عالماً برعيته ، عادلاً في قضيته ، عارياً من الكبر قبُولاً للمذر ، سهلَ الحجاب ، مصون الباب ، متحريراً للصواب ، رفيقاً بالضعيف ، غير محاب للقريب ولا جاف للغيرب .

(١) الغطيس كسكين المطرقة العظيمة (٢) العارضة ، الخشبة العليا التي يدور فيها الباب وعوارض البيت خشب سقفه . (٣) المفوف : الرقيق من الثياب أو الذي فيه خطوط بيض . والمنير : المفسوج على نيرين أي المضاف للنسج . والموثى : المنقوش ، والمهبر : المحسن . (٤) الخطام : كل ما وضع في أنف البعير ليقاد به . وجمعه : خطم (٥) ند : هرب .

وصف علي بن أبي طالب

قال معاوية لِإِضرار الصّدائِي : يا ضرار صف لي عليّاً قال : اعفني يا أمير المؤمنين . قال لتصفنه ، قال : أما إذا لا بُد من وصفه فكان - والله - بَعِيدَ المَدَى ^١ شديد القوى ، يقول فصلاً ، ويحكم عدلاً ، يتفجر العلم من جوانبه وتَنطقُ الحكمةُ من نواحيه ، يَسْتوحشُ من الدنيا وزَهرتها ، وَيَسْتَأْنَسُ بالليل ووحشته ، وكان - والله - غزيرَ العبرة ، طويلَ الفكرة ، يُقلب كفه ، ويُخاطبُ نفسه ، يُعجبه من اللباس ما قصر ، ومن الطعام ما خشن ، وكان فينا كأحدنا يُحيينا إذا سألناه وينبئنا إذا استنبأناه ، ونحن مع تقرّيبه إيانا ، وقُربه منا ، لا نكادُ نُكلمه لهيبته ، ولا نبتدئه اعظمته ، يُعظم أهلَ الدين ، ويحب المساكين ، لا يطمعُ القوي في باطله ، ولا ييأس الضعيف من عدله .

وصف كلام العرب لعتبة بن أبي سفيان

قال عُتْبَةُ بن أبي سفيان : إنَّ للعرب كلاماً هو أرق من الهواء ، وأعذب من الماء ، مرّق من أفواههم مرّوق السهام من قسيها ، بكلمات مؤتلفات ، إن فسرت بغيرها عَطِلت ^٢ ، وإن بُدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها لكنة إذا نمت ، وصعوبتها تملك أنها مفقودة إذا طَلَبْتَ ^٣ .

(١) المدى : الغاية .

(٢) التعطيل : ترك الشيء ضياعاً .

(٣) هذا النوع من الكلام يسمى السهل الممتنع .

وصف الكتاب للجاحظ

قال الجاحظ : الكتاب وعاءٌ مليءٌ علماً وظرفٌ حشيٌّ ظُرفاً ، وبستانٌ يحملُ في رُدنٍ^١ ورَوْضةٍ تقلَّبُ في حجرٍ ، ينطقُ عن الموتى ، ويترجمُ كلامَ الأحياء ، ولا أعلمُ جاراً أبر ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهرَ كفايةً ، وأقلَّ جنسيةً ، ولا أقلَّ لامللاً وإبراماً ، ولا أقلَّ خلافاً وإجراماً ، ولا أقلَّ غيبةً ، ولا أبعدَ من عضبته^٢ ، ولا أكثرَ أعجوبةً وتصرفاً ، ولا أقلَّ صلفاً^٣ وتكلفاً ولا أبعدَ من مرءٍ ، ولا أترك لشغبٍ ، ولا ازهدَ في جدالٍ ، ولا أكفَّ عن قتالٍ - من كتابٍ ، ولا أعلمُ قريناً أحسنَ مواةً^٤ ، ولا أعجلَ مكافأةً ، ولا أحصرَ معونةً ، ولا أقلَّ مؤونةً ، ولا شجرةً أطولَ عمراً ولا أجمعَ امرأً ، ولا أطيبَ ثمرةً ، ولا أقربَ مجتنىً ، ولا أسرعَ إدراكاً في كلِّ أوانٍ ، ولا أوجدَ في غيرِ إبانٍ - من كتابٍ ، ولا أعلمُ نتاجاً في حداثةِ سنهِ ، وقربِ ميلاده ، ورخصِ ثمنه ، وإمكانِ وجوده يجمعُ من التدايبِ الحسنة ، والعلومِ الغريبة ، ومن آثارِ العقولِ الصحيحة ، ومحمودِ الأخبارِ اللطيفة ، ومن الحكمِ الرقيقة ، ومن المذاهبِ القديمة ، والتجاربِ الحكيمة والأخبارِ عن القرونِ الماضية والبلادِ المتراخية والأمثالِ السائرة والأممِ البائدة ما يجمعُ الكتاب .

وقيل لبعض العلماء : ما بلغ من سرورك بكتبك ؟

فقال : هي إنْ خلوت لذي ، وإنْ اهتممتُ سلوتي ، وإنْ قلت : إن زهر البستان ونور الجنان يجلوان الأبصار ، ويمتعان بحسنها الألباظ ، فإن بستان

(١) الردن : الكم ، وجمعه أردان (٢) العضبة : البهتان والنميمة
(٣) الصلف : تمذح المرء بما ليس عنده (٤) المواة : حسن المطاوعة والموافقة
وأصله بالهمزة وفي الحديث : خبر النساء المواتية لزوجها . (٥) القديعة الهالكة .

« الكتب » يحلو العقل ، ويشحذ الذهن ، ويحيي القلب ، ويقوّي القرينة ، ويعين الطبيعة ، ويبعث نتائج العقول ، ويستثير دفائن القلوب ، ويمتدح في الخلوة ، ويؤنس في الوحشة ، ويضحك بنوادره ، ويسرّ بغرائبه ، ويفيد ولا يستفيد ، ويمطّي ولا يأخذ ، وتصل لذته إلى القلب من غير سامة تدركك ، ولا مشقة تمرض لك .

وصف التاريخ لابن الأثير

التاريخ : معاد^١ معنوي ، يعيد الأعصار وقد سلفت ، وينشر أهلها ، وقد ذهبت آثارهم وعفت^٢ ، وبه يستفيد عقول التجارب من كان غراً ، ويلقى من قبله من الأمم وهلم جرا . فهم لديه أحياء ، وقد تضمنتهم بطون القبور ، وعنه غيب وقد جعلتهم الأخبار في عداد الحضور ، ولولا التاريخ لجهلت الأنساب ونسيت الأحساب ، ولم يعلم الإنسان أن أصله من تراب ، وكذلك لولاه لماتت الدول بموت زعمائها وعمي^٣ على الأواخر حال قدمائها ، ولم يحط علماء بما تداولته الأرض من حوادث سماها ، ولما كان العناية به لم يخل منه كتاب من كتب الله المنزلة ، فمنها ما أتى بأخباره المحتملة ، ومنها ما أتى بأخباره المنفصلة ، وقد ورد في التوراة مفرداً في سفر من أسفارها ، وتضمن تفصيل أحوال الأمم السالفة ومُدّد أعمارها .

وقد كانت العرب على جملها بالقلم وخطّه ، والكتاب وخطّه ، تصرف إلى التواريخ بجمال دواعيها ، وتجعل له أول حظ من مساعيها ، فتستغني بحفظ قلوبها عن حفظ مكتوبها ، وتعتاض برقم صدورها ، عن رقم سطورها ، كل

(١) معاد : يقصد أنه كالיום الآخر . (٢) عفا الشيء : هلك .

(٣) عمي عليه الأمر : التبس وكذلك عمي عنه .

ذلك عنايةً منها بأخبار أوائلها ، وأيام فضائلها ، وهل الإنسان إلا ما أسسه
ذِكْرُهُ وبناءه ؟ وهل البقاء لصورة لحمه ودَمِهِ لولا بقاء معناه ؟!

وصف الرجل الكامل

كتب الحسن^١ بن سهل إلى محمد^٢ بن سماعة القاضي يصف له الرجلَ
الكاملَ :

أما بعدُ : فلإني احتجتُ لبعض أموري إلى رجل جامع لخصال الخير ، ذي
عِفَّةٍ ونزاهة ، طعمة^٣ قد هذبتَه الآداب وأحكمته التجارب ، ليس بظنَّتين^٤
في رأيه ولا بمطمئون في حسبه ، إن أوثقن على الأسرار قام بها ، وإن قلَّند مهمًّا
من الأمور أجزأ^٥ فيه ، له سن مع أدب ولسان ، وثقعدُه الرزانة ، ويسكنه
الحلمُ قد فرَّ^٦ عن ذكاء^٧ وفطنة ، وعَضَّ على قارحة^٨ من الكمال ، تكفيه
اللتحظة وترشده السكينة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها وقام في أمورهم
فحمد فيها له أناة الوزراء ، وصوله الأمراء ، وتواضع العلماء ! وفهم الفقهاء
وجواب الحكماء . لا يبيع نصيبَ يومه . بحِرمان غده ، يكاد يسترق^٩ قلوب
الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمازات^٩
العلم شاهده .

(١) هو وزير المأمون وختنه أبو زوجه بوران توفي سنة ٢٣٦ هـ . (٢) من
أصحاب محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة توفي سنة ٢١٣ ، وقد بلغ مائة سنة
وهو صحيح الحوادث . (٣) الطعمة بالضم طريق الكسب وبالكسر هيئة الأكل
والسير فيه . (٤) الظنين : المتهم . (٥) أجزأ : أغنى . (٦) فر الدابة : كشف
عن أسنانها ليعرف مبلغ عمرها . (٧) الذكاء تمام السن واكتاله أو حدة الذهن .
(٨) الفرس القارح الذي استكمل القوة باكتال العمر ونظيره في الإبل البازل ،
والسن التي تنبت له عند قروحه تسمى قارحاً وقارحة والجملة كلها كناية عن
استيفاء صفات الكمال . (٩) يستعبد .

مُضْطَلَعاً^١ بما استنهض، مستقلاً^٢ بما حُمِّل، وقد آثرتك بطلبه وحَبَوْتُكَ
بارتِيادِه^٣، ثِقَةً بفضل اختيارك، ومعرفةً بحسن تَأْتِيْلِكْ^٤.

وصف قناة السويس

للمرحوم أحمد شوقي بك مخاطباً ابنَيْه يوم أنْ عبرَ قناة السويس ميمماً الأندلس
حينما نَفَتَه الأحكام العُرفِيَّة إِيَّانَ الحربِ العَالِمِيَّة [الأولى]

يا بَنِي القَنَاة لقومكها فيها حياة، ذِكْرِي إِسْمَاعِيلَ ورِيَّادِه^٥ وعُلْيَا مفاخر
دُنْيَاه، دولة الشرق المرجاة، وسلطانهُ الواسعُ الجاه، طريقُ التَّجَارَةِ،
والوسيلة والمنارة، ومَشْرِع^٦ الحضارة

تعبُرانها اليومَ على مُزْجاة^٧ كأنها فلنكُ النِّجاة، خرجت بنا بَيْنَ طوفان
الحوادث، وطغيمان الكوارث، تفارق برآ مغتَصِبُهُ مُضْطَرِي^٨ الغَضْبَةِ.
قد أخذَ الأُمْنِيَّةَ، وأَسْتَجْمَعَ كَالأسدِ للوْتْبَةِ، وتلاقى بجزراً جُنَّتْ جواريه،
ونزت^٩ بالشرِّ نوازيه، وتَمَثَّلَتْ بِكُر سبيل عواديه. ملوهُ آبِغَتَاتِ الماءِ،
مُنْتَرِعاً بفجاءات السماء من نون^{١٠} يَنْدِيهِ الدُّوَارِعُ، أو طير^{١١} يَقْذِفُ البَيْضَ
مصارِغَ، فقلت: سيري، عَوْدَتُكَ بَوْدِيعة^{١٢} التابوت^{١٣}، وبصاحب^{١٤}

(١) يقال هو مضطلع لهذا الأمر وبه إذا كان قديراً عليه (٢) استقل بالحمل
نهض . ٣ والارتياح : مصلب ٤ تأبى للأمر : ترفق وناه من وجهه .
(٥) الريا - الرائحة الطيبة . (٦) المشرع : المورِد . (٧) زجاء وأزجاء : ساقه
وسيره . (٨) مضر فخذ من أفخاذ العرب ينسب لمضر بن نزار وهذا مأخوذ من
قول بشار :

إذا ما غضبنا غضبة مضرية هتكنا حجاب الشمس أو تقطر الدما

(٩) النَّزْو : الوثب ، والنَّازِيَة : حدة الرجل الوثاب إلى الشر وجمعها نواز .

(١٠) النون الحوت والمراد الغواصة (١١) يريد بالطير الطائرات وبالبيض ما يلقي منها
من مهلكات القذائف . (١٢) هو موسى كلم الله . (١٣) هو نبي الله يونس

الحوت ، وبالحي الذي لا يموت ، وامشري يا ابنة اليم ، زمامك الروح ^١ ،
وربّانك ^٢ نوح ، فكم عليك من منكوب ومجروح .

إن للنفي لرّوعة ، وإن للنأي للرّوعة ، وقد جرت أحكام القضاء ، بأن نعبّر
هذا الماء ، حين الشرّ مضطرم ، واليأس محتدم ، والعدوّ مُنتقم ، والخصم
محتكم . وحين الشامت جذلان مُبتسم ، يهزأ بالدمع ، وإن لم ينسجم ^٣ ، ففانا
حُكام عجم ، أعوان العدوان والظلم ، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم ،
ويمرحون في أرسان يُسمّونها الحكم ، ضربونا بسيف لم يطبعوه ، ولم يملكوا
أن يرفعوه ، أو يضعوه ، ساحهم في حقوق الأفراد ، وساحوه في حقوق البلاد ،
وما ذنبُ السيف إذا لم يستحي الجلاّد ؟!

ماذا تهمسان ؟ كأي أسمكما تقولان : أي شيء بداله ، على هذه الضاحية ؟
وماذا شجأ خياله من هذه الناحية ؟ أي حسن أو طيب للملح يتصبب في كئيب
ماء عكر في رمل كدر ؟؟ .

قناة حَيّة ^٤ ، كأنها قناة صَدِنة ، بل كأنها وعبرَينها ^٥ رمال بعضها متماسك
وبعضها منهل ، وكأن راكب البحر مُصْحِر ^٦ ، وكان صاحب البرّ مُبْحر .
رويد كما : ليس الكتاب بزينة جلده ، وليس السيف بجملة غمده . تلك
التنائف ^٨ ، من تاريخكم صحائف ، وهذه القفار ، كتب منه وأسفار ، وهذا
المجاز هو حقيقة للسيادة ، ووثيقة للشقاء أو السعادة ، خيط الرقبة ، من اغتصبه
اختص بالقلبة ، ووقف للأعقاب عقبة ، ولو سكت لنطقت العبر ، وأين
العيان وأين الخبر ؟

(١) جبريل . (٢) الربان رئيس الملاحين وجمعه ريلين . (٣) انسجم الدمع —
سال . (٤) الضاحية البادية وكل أرض بارزة للشمس . (٥) الحملة : التي فيها الحملة
أي الطين الأسود المنقش ، والقناة الأولى الترعَة والقناة الثانية الرمح . (٦) عبر النهر
شاطئه . (٧) أسحر سار في الصحراء . (٨) التنائف جمع تنوفة وهي المفازة .

انظروا : تريا العبرين عبدة الأيام ، حصون وخيام ، جنود قعود وقيام ، جيش غيرنا فرسانه وقواده ، ونحن بُعْرانهُ^١ وعليننا أزواده^٢ ، ديك على غير جداره ، خلا له الجو فصاح ، وكلب في غير داره انفرد وراء الدار بالشباح .

القناة وما أدراكا ما القناة ، حظّ البلاد الأغبر من التيقّاء الأبيض والاحمر ، بئسَ أنها أحلام الأول ، وأمانى الممالك والدّول ، الفراعنة حاولوها ، والبطلاسة زاولوها ، والقياصرة تناولوها ، والعرب لأمر ما تجاهلوها ، إلى أن جرى القدر لغايته ، وأتى « إسماعيل » بآيته ، فافتتح البرزخ بعنانيته ، والتقى البحران تحت رايته في جمع من التّيجان لم يشهده إكليله^٣ ، قد كان يُسوّج فيه لو شهدته جيوشه وأساطيله ، وما إسماعيل إلا قنصر لو أنه وفق ، والإسكندر لو لم يُخفق . ترك لكم عزّ الغد وكنز الابد ، والمنجم الاحد ، والوقف الذي إن فات الوالد فلن يفوت الولد .

ماذا على الرّمال ، من لمحات جلال وجمال ؟ ارجعنا القهقري بالخيال إلى المعصر الخال واعرضا في حدائتها الأجيال ، تريا على هذا المكان وجوها تتمثل وركابا تنقل ، وتريا النبوة تهمل ، والآيات تنزل ، وتريا الملك يترجّل ، حق كأنكما بالزمان الاول . فها هنا وضع للنبوة المهد ، وابتدأ بها العهد ، فأقبل صاحب المقام ، ومحطم الاصنام ، وبنّاء البيت الحرام ، خليل ذي الجلال والإكرام^٤ .

هاجر إلى مصر أكرم من هاجر ، ثم انقلب منها بأمر العرب هاجير^٥ ، ومن هذه الثنّيات طلع يوسف في القيد ، وهو للسياره صيد ، يسير من كيند^٦ إلى كيند^٧ ، قلب جرحته الإخوة ، وجنب قزحته النسوة ، فيالك « يوسف » من

(١) البعران جمع بعير كأبعر (٢) الأزواد جمع زاد وهو الطعام (٣) زاول الشيء : حاوله . (٤) يروى أن هارون الرشيد فكر في أن يصل البحرين بقناة وأنه استشار يحيى بن خالد البرمكي في ذلك فقال له : يا أمير المؤمنين « إن خرق السويس خرق في الإسلام » فعدل عن رأيه . (٥) الإكليل : التاج (٦) هو خليل الله إبراهيم . (٧) هي جارية مصرية اهداها فرعون إلى السيدة زوج سيدنا إبراهيم فوهبتها له فاستولدها إسماعيل جد العرب المستعربة .

أسوة^١ ، عز^٢ بعد هون ، وذلة بعد المنزل الدون ، وشئون أقدار وشجون ،
وسهول حياة وحزون ، وسجوف القصور بعد السجون إلى سجود الشمس لك
والقمر والكواكب الأخر

وإلى هذا الفضاء خرج موسى حين زال رويله^٢ ، وطلبه قتيله ، وزين له
الفرار خليله^٣ ، فحوته هذه الرمال ، فإذا الامن سبيله ، واليؤمن دليله ، والسلامة
زاملته^٤ ، والسلم زميله ، ولو أطلعه الله على غيبه ، للسن النبوء بين يديه وجيبه
إلى أن رُفِع له المنار ، واكتحل بالنور واقتبس من النار ، وقيل له : 'كن' من
الاحرار الاحبار ، وارجع فسلط الحق على فرعون الجبار ، فكان عليه السلام
أول من اقتحم على الفرد جبروته وهتك على المستبد طاغوته^٥ ، وخطم^٦
المتأله^٧ وحطم عظموته ، ماء الحق على لطفه ، ظفر بنار الباطل على عنفه ،
ظهر العدل على الحيف وكسرت العصا السيف .

وعلى هذه الارض كسرت السماء^٨ الطاهرة ، والنيرة الزاهرة ، والآية المنتظرة
أم الكلمة^٩ وطريدة الظلمة ، سرحوها في عرضها فأخرجوها من ارضها فضربت في
طول الارض وعرضها ، يوسف خاديا ، وجبريل هاديا ، والقدس ناديا ، والطهارة
أرجاء واديا ، وعلى ذراعيها مصباح الحكمة وخنجر الرحمة والإصباح من الظلمة ، حق
هبطت به أكرم الاديم^{١٠} فلشأ بين الحكيم والعليم وترعرع حيث ترعرع بالامس الكليم
(١) الاسوة : القدوة ، وما يتأسى به الحزين اي يتعزى . (٢) زال زويله :
فزع وحذر . (٣) يشير إلى ما كان من أمر موسى حين وجد قبطياً وإسرائيلياً
يقنتلان فاستنصره الإسرائيلي على القبطي فوكزه وكرة كانت القاضية فلما أصبح
وجد الإسرائيلي نفسه قاتل قبطياً آخر فاستغاثه فقال موسى إنك لغوي مبين .
ثم هم بنصرته على القبطي فظن أنه يريد به بالأذى فصاح الإسرائيلي يا موسى أتريد
ان تقتلني كما قتلت نفسك بالامس فذاع امره ولم يلبث ان جاءه رجن وقال يا موسى
إن الملائكة يأتون بك ليقتلوك فإخرج إني لك من الناصحين فخرج منها إلى بلاد مدين .
(٤) الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل وغيرها . (٥) الطاغوت : الشيطان وكل
رأس ضلال . (٦) خطمه : قهره او ضرب انفه . (٧) المتأله المتكبر غير
ان معناه اللغوي المتنسك المتعبد . (٨) يريد السيدة مريم . (٩) الكلمة سيدنا
عيسى . (١٠) الاديم : وجه الارض .

فيالك من دار لعبت على عرصات الاقدار ، فأرّيت ^١ موسى القريب ،
وآويت عيسى القريب ، نبوت ^٢ بالنبي ، وحَبَوْتُ الامنَ عيسى ومو صبي ،
عُذرك لا تنضى ^٣ إليه المطي ، فإنما اغضبت القبطي لابنك القبطي .
ثم انظرا تريا إبلا صعباً ، وخيلاً عرباً ^٤ ، وتريا الرعاة ^٥ انقضوا على
الوادي ذئاباً ، فأخافوا القرى الآمنة ، وأخرجوا من مصر الفراعنة ، واستبته وا
بالمك فيها آونة .

وتريا الوحوش الضارية والجوارح الكاسرة ، يقودها شرّ الكاسرة ^٦ ،
ملأت هذه الفجاج ^٧ ، وكأنها حرجبات ^٨ السّاج ، او حركات الامواج ، ثم
تدفقت تكتسح الدّيار ، باغية السيّف طاغية النار ، تدك الهياكل والمعازل ،
وتهتك العقائد والعقائل .

وتريا الإسكندر الكريم ، قد كلع كالصارم من هذا الضريم ^٩ ، يحمّل
الحملات النّجائب ، ويفتح بالكتب والكتائب .

وتريا ابن العاص والصّحابة ، مرّوا من هذه الارزاء مرّ السحابة ، يفتحون
للحق ويفتكون بالرتق ، حتى أدخلوا القصور من القياصرة ، وراحوا مصر
الصابرة من صلف الجبارة .

وتريا صلاح الدين يخفى كالبدل ويبدو ، ويروح كالفيث ويفندو ، يبعث ^{١٠} بلا
عدد ، ومدّ ^{١١} إثر مدد ، وذخائر وعدد ، وبشرى كل يوم بفتوح جدد .

وتريا نابليون قد ركب طيشه ، واركب الفرر جيشه . وتريا إبراهيم بن عليّ
مشهور الجراز ، موفور الجهاز ، ملك سورية وضبط الحجاز . وتريا إسماعيل بعث

(١) فأوأه ونواه : عاداه . (٢) نبابه المكان : لم يوافقه . (٣) أنضى المطية :
هزّلها . (٤) العرب من الخيل والإبل العربية . (٥) هم العمالقة الذين ملكوا
مصر مدة من الدهر (٦) قمبيز . (٧) الفجاج : الطرق الواسعة . (٨) الحرجة :
الشجرة الملتفة والساج شجر يعظم جداً ويذهب طولاً وعرضاً له ورق عريض
جداً . (٩) الضريم : الرمل .

الحشمرين ، وحشد الحافرين ، وقرب المسافة للمسافرين ، غير وجه السفر ،
فقليل : بلغ غاية الظفر ، وقيل وقع الحافر فيما حفر .
”ثم انظر اليوم ترأ القناة في يد القوم إن أمنوار كزوها، وإن خافوا هزوها.

وصف فرس

قال محمد بن الحسين يصف فرساً :

هو حسنُ القميص ، جيدُ الفُصوص ، وثيقُ الفص ، نقيُّ العصب ، يبصر
بأذنيه ، ويتبوعُ بيديه ، ويدخلُ برجليه ، كأنه موج في لجّة أو سيل في
حدور ينهب المشي قبل أن يبعث ، ويلحق الأرنب في الصعوداء ، ويحساوز
جوارى الظّباء في الاستواء ، ويسبق في الحدور جري الماء ، إن عطيف جار ،
وإن أرسل طار ، وإن كُلتف السير أمعن وسار ، وإن حبس صفن ، وإن
استوقف قطن ، وإن رعى أنن ، فهو كما قال تأبط شراً :
ويسبق وقد الريح من حيث تُنحى بمنخرق من شدة المتدارك

وصف العصا

لقي الحجاج أعرابياً فقال : من أين قبلت ؟ قال من البادية . قال : ما بيدك ؟
قال عصاً أر كزها لصلاقي ، وأعدّها لعُداتي ، وأسوق بها دابتي وأقوى بها على
سفري ، وأعتمد عليها في مشيبي ، ليتسع بها خطوي ، وأعبر بها النهر فتؤمنني
وألقي عليها كساء فيسترني من الحر ، ويقيني من القر ، وتدني ما بعد مني ، وهي
محمل سفرتي وعلاقة إداوتي ، وميشجب ثيابي ، أعتمد بها عند الضراب وأقرع
بها الأبواب ، وأتقي بها عقور الكلاب ، تنوب عن الرئع في الطعان ، وعن
الحربة عند منازلة الأقران ورثتها عن أبي ، وأورثها بعدي ابني ، وأهش بها
على غنمي ، ولي فيها مآرب أخرى ، كثيرة لا تحصى

(١) إداوة : وعاء ماء يتطهر به .

وصف كرة القدم لمؤلف الكتاب

قاتل الله الكرة : ما أعجب أمرها ، وما أدق سرها ، قد جمعت الأضداد واسترقت النجباء ولأوغاد ، فهي كبيرة الحجم ، مفعوفة الجسم ، لكنها خفيفة الوزن ، سريمة الوثنب ، وهي ناعمة الشمس ، مليحة الرقص ، لكنها تأبى الوخز ولا تطيق اللكز ، وهي تفر من المبداعة والملاعبة ، ولكنها لا تمل من ضرب ولا تكل من دحرجة ، وهي محبوبة مألوفة ، تنقل على الأيدي والأحضان ، لكنها تطرد بالأرجل والعصي ، فهي عزيزة ذليلة ، حقيرة جليلة ، تشبه القنابل في صورها ، والدفوف في أصواتها ، والطير في امتطاء الهواء ، واختراق الفضاء .

وصف جيوش لابن الرومي المتوفى سنة ٢٨٢ هـ

وصار فلان في جيوش ، عليهم أردية السيوف وقصة الحديد ، وكان رماحهم قرون الوعول ^١ ، وكان أذراعهم زبد السيول على خيل تأكل الأرض بجوافرها وقد بالنقع سرادقها ، قد نشرت في وجوها غرر ^٢ كأنها صحائف الرق ^٣ وأمسكها تحجيل ^٤ كأنها أسورة اللجين وقرطت عذراً ^٥ كأنها الشنوف تتلقف الأعداء أوائلها ، ولم تنهض أو اخرها ، قد صب عليهم وقار الصبر وهبت معهم ريح النصر .

وصف الحسد للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ هـ

الحسد - أبقاك الله - داء ينهك الجسد ، علاجه عسير ^١ وصاحبه ضجر ، وهو باب غامض ^٢ وما ظهر منه فلا يداوى ، وما بطن منه فداويه في عناء ، ولذلك قال النبي ﷺ : « دَبَّ ^٣ إليكم داءُ الأمم من قبلكم : الحسد والبغضاء » . الحسد عقيد ^٤ الكفر ، وحليف الباطل ^٥ وضد الحق ، منه تتولد العداوة ،

- (١) جمع وعل وهو تيس الجبل . (تيس الشاة الجبلية) وقرونة طويلة .
- (٢) جمع غرة وهي بياض في جبهة الفرس . (٣) الرق جلد رقيق أبيض يكتب فيه
- (٤) التحجيل بياض قوائم الفرس (٥) أي ألبست عذراً وهو ما على خد الفرس .
- من اللجام . (٦) أي مسلك خفي يمسر الخروج منه . (٧) سرى فيكم .
- (٨) أي معاهده ومخالفه . (٩) ملازمه .

وهو سبب كل قطيعة^١ ومُفرق كل جماعة^٢ ، وقاطع كل رحم من الأقرباء^٣ ،
ومُحدث للتفرق بين القُرُناء^٤ ، ومُلَقِّح الشر^٥ بين الحلفاء^٦ ؛

ووصف أيضاً أفضل الكلام - وقال :

أفضل الكلام ما كان قليله يُغني عن كثيره ، ومعناه ظاهره في لفظه ، وكان
الله قد ألبسه من ثياب الجلالة ، وغشاه^٧ من نور الحكمة ، على حسب نيّة
صاحبه وتقوى قائله - فإذا كان المعنى شريفاً واللفظ بليفاً صحيح الطبع بعيداً
من الاستكراه^٨ مُنزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن الكلف صنع في القلوب صنيع
الفَيْث^٩ في التربة الكريمة ، ومضى فُصِّلَت الكلمة على هذه الشريطة ونفذت
من قائلها على هذه الصفة ، كساها الله من التوفيق ، ومنحها من التأييد ما لا يمتنع
من تعظيمها به صدور الجبابة ، ولا يذهل عن فهمها معه عقول الجهالة .

وصف الشعراء المحدثين

قال ابن دُرَيْد ، سألت أبا حاتم عن « أبي نواس » فقال : « إن جدّ أحسن
وإن هزل ظرف ، وإن وصف بالغ ، يُلقي الكلام على عواهنه لا يُبالي من
أين أخذه ؛ قلت : « فبشار بن بُرد » ؟ قال : « نظار عوّاص مطيل مجيد يصف
ما لم يره كأنه رآه على أن في شعره خللاً كثيراً ؛ قلت : « فمروان بن أبي
حفصة » ؟ قال : « شاعر راضٍ عن نفسه يستحسن كل ما جاء منه معجب به ، لا
يرى أن من سبقه يتقدمه ، كثير الصواب ، كثير الخطأ ، ليس لشعره صنعة .

قلت : « فمسلم بن الوليد » ؟ قال : « خليج صافٍ ينزع من بحر كدر ، كالزند
يوري قارة ويصلد أخرى ؛ قلت : « فأبو العتاهية » ؟ قال : « غشاء جَمٌّ » ، واقتدار
سهل وشعر كخرز الزجاج ، وربما أشبه الياقوت والزبرجد ؛ قلت :

(١) انفصال . (٢) كل قرابة واتصال . (٣) المناظر . (٤) مولد الشر بين

المتحالفين . (٥) كساه . (٦) أي من إجبار الفكر . (٧) المطر .

«فعباس بن الأحنف» قال : 'يلقي دلوهُ' في الدلاء فيعترفُ الصفو أحياناً والجماء أحياناً ، على أن كدره أكثر من صفوه ، قلت : «فسلم الخاسر» ، قال : مُقِلّ مداح ، شعره ديباج وعهن ، 'يموّه الرديء حتى يشبه الجيد' قلت «فأبو الشيص» قال : جده كله فيه حلاوة وبشاعة كالسدرّة التي نَسَفَت فففيها المستعذب والمستبشع قلت «فعلي بن جبلة» قال : بحثّ عن الكلام الفخّم ، والمعنى الرائع ، لا ينال مرتبة القدماء ، ويحجل عن منزلة النظراء قلت «فأبو تمام» ، قال : سيل كثير الغناء ، غزير الغنّاء ، جم النطف ، فإذا صفا فهو السّلاف بالماء الزلال ، قلت : «فعبد الصمد بن المعذل» ؟ قال : خراج ولاّج ، يعتسف تارة ويهتدي أخرى ، قلت «فعلي بن الجهم» ، قال كلام رصين ومسلّك وعز ، عقله أغلب على شعره من طبعه ، قلت «فبكر بن النطاح» ، قال : تشبّه بالأعراب فأفرط وتجاوز حد المولدين فأسهب ، فهو الساقط بين القرينين

وصف ابن الأثير المتوفى سنة ٧٥٩ هـ أبا تمام والبحتري والمتنبي

قال : لقد وقفت من الشعر في كل ديوان ومجموع ، وأنفدت شطراً من العمر في المحفوظ منه والمسموع ، فألفيته بجرأ لا يوقف على ساحله ، وكيف يحصى قول لم تخص أسماء قائله ؟ فعند ذلك اقتصرت منه على ما تكثرت فوائده ، وتتشعب مقاصده ، ولم أكن بممن أخذ بالتقليد والتسليم ، في اتّباع من قصر نظره على الشعر القديم ، إذ المراد من الشعر إنما هو إبداع المعنى الشريف ، في اللفظ الجزل اللطيف فمضى وجدت ذلك فكل مكان خيّمته فهو بابل ، وقد اكتفيت من هذا بشعر أبي تمام ، والبحتري والمتنبي ، وهؤلاء الثلاثة هم لات الشعر وعزّاده ومناثيه الذين ظهرت على أيديهم حسناته ومُسْتَحْسَنَاتُهُ ، وقد حوّت أشعارهم غرابية المحدثين وفصاحة القدماء ، وجمعت بين الأمثال السائرة ، وحكمة الحكماء أما أبو تمام : فإنه ربّ معاني وصيقل أذهان ، وقد شهد له بكل معنى مُبتكر ، لم يعيش فيه على أثر ، فهو غير مُدافع عن مقام الإغراب ، الذي برز فيه على الأضراب

ولقد مارست من الشعر كل أول وأخير ، ولم أقل ما أقوله إلا بعد التنقيير ، فن حفظ شعر الرجل وكشف عن غامضه ، وراض فكره برائضه أطاعته أعنته الكلام وكان قوله في البلاغة ما قالت «حذام» ؛ فخذ مني في ذلك قول حكيم وتعلمتم (ففوق كل ذي علم عليم) .

وأما البحري : فإنه أحسن في سبك اللفظ على المعنى ، ولقد حاز طرفي الرقة والجزالة على الإطلاق ، فبينما يكون في شطف نجد ، إذ يتشبث بريف المراق ، وسئل المتنبّي عنه وعن أبي تمام وعن نفسه فقال : أنا وأبو تمام حكيان ، والشاعر البحري ، ولعمري إنه أنصف في حكمه ، وأعرب بقوله هذا عن متانة علمه ، فإن البحري أتى في شعره بالمعنى المقدود من الصخرة الصماء ، في اللفظ المصنوع من سلافة الماء ، فأدرك بذلك بُعد المرام ، مع قربه إلى الأفهام ، وما أقول إلا أنه أتى في معانيه بالنوادر الغالية ، وركب في ديساجة لفظه إلى الدرجة العالية . وأما المتنبّي فإنه أراد أن يسلك مسلك أبي تمام ، فقصر عنه خطاه ، ولم يعطه الشعر من قياده ما أعطاه ولكنه حظي في شعره بالحكم والأمثال . واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال . وأنا أقول قولاً لست فيه متاثماً ، ولا منه متلثماً ، وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها . وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ، حتى يظن أن الفريقين قد تقابلا ؛ والسلاحين قد تواقلا ، فطريقه في ذلك تفضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه ، ولا شك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة فيصف لسانه ، ما أدّاه إليه عيانه ، ومع هذا فإني رأيت الناس عادلين عن سنن التوسط فإمّا مفرط في وصفه وإمّا مفرط . على أنه إذا كان انفراد بطريق صار أبا عذره ، ولقد صدق في قوله من أبيات يمدح بها سيف الدولة :

لا تطلبين كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخام يداً ختموا
ولا تبال بشعر بعند شاعره قد أفسد القول حق أحمد الصمم

وصف المفضل الضبي المتوفى سنة ٤٣٠ هـ مروره ببعض أحياء العرب

رَوَى المفضل الضبي قال : نزل علينا بنو ثعلبة في بعض السنين وكنت
منشفوفاً بسماع أخبار العرب وجمعها ؛ فأخذت أجول بين خيامهم ، وأنحس
من أحوالهم وإذا أنا بامرأة واقفة في فناء خبائها آخذة بيد غلام قلما رأيت مثله
في حسنه وجهه وهي تعاتبه بلسان رطب ، وكلام عذوب ، يسترقه السمع
ويتشفه القلب ؛ فكان أكثر ما أسمع منها بني - وأي بني ، وهو يتبسم
في وجهها وقد غلب عليه الحياء والحجل كأنه من ربات الحجال فلا يحير
جواباً ؛ ولا يبدي خطاباً ؛ فاستحسنْتُ ما رأيتُ ، واستحليت ما سمعتُ ،
فدنوتُ فسلمتُ فرد عليّ السلام ، ووقفتُ أنظر إلى المرأة والغلام ، فقالت لي :
يا حضري ، ما حاجتك ؟ قلت : الاستكثارُ مما أسمعُ ، والاستمتاع بما أرى ،
فابتسمت وقالت يا هذا إن شئت سقْتُ إليك ما هو أحسنُ مما رأيتُ ، فقلت
هاهنا حفظك الله ، قالت ولد هذا الغلام فكأن ثالت أبويه فرُبِّيَ بيننا كأنه
شبلٌ ، وكنتُ أقيه برد الشتاء وحرّ الهجير ، حتى إذا ما تمت له خمس سنين ،
أسلمته إلى المؤدب فحفظه القرآن فتلاه ، وعلمه الشعر فرّواه ، ورغب في
مُفاخرة قومه ، وطلب مآثر آبائه وأجداده فلما اشتد عظمه وكمل خلقه ،
حملته على عتاق الخيل ففارس وتمرس ولبس السلاح ومشى الخيلاء بين بيوتات
الحي ، وأصغى إلى اصوات ذَوِي الحاجات ، فأخذ في قرى الضيف وإطعام
الطعام ، وأنا عليه وجلة أحرسه من العيون ان تصيبه ، ومن الألسن ان تعيبه ،
إلى أن نزلنا في بعض الأيام منهلاً من المناهل بين أحياء العرب ، فخرج فتیان
الحي في طلب ثأر لهم وشاء الله تعالى ان أصابت الغلام وعكة شغلته عن
الخروج ، حتى إذا امعن القوم ولم يبق في الحي غيره ، ونحن آمنون
وادعون ، فوربك ما هو إلا أن أدبرَ الليل وأقبل الصبح حتى طلعت علينا
طلائع العدو وغرر الجياد ثواراً لا زواراً ، فما كان إلا هنيئة حتى أحرزوا .

الأموال ، وهو يسألني ما الخبر ؟ وأنا أستره عنه إشفاقاً عليه وضناً به ، حتى إذا علت الأصوات وبرزت المخدرات ، رمى دثاره وثار كما يشور الضرغام إذا أغضب ، فأمر بإسراج فرسه ، ولبس درع حربه ، وأخذ رمحاً بيده ، وركب حتى لحق حماة القوم وأنا انظر إليه فطعن أدناهم منه فرمى به ، ولحق أبعدهم فقتله ، فانصرفت إليه وحوه الفرسان ، فرأوا علاماً صغيراً ، لا مدد وراءه ، فحملوا عليه ، فأسرع يؤم البيوت ، حتى إذا خلفهم وراءه وامتدوا في أثره عطف عليهم ففرق شملهم وشتت جمعهم وقلل كثرتهم ومزقهم كل ممزق ومزق كما يترق السهم من الرمية ، وناداهم خلوا عن المال فوالله لا رجعت إلا به ، أو لأهلكن دونه ، فتداعت إليه الأقران ، وتمايلت نحوه الفرسان ، وتميزت له المتيان وحملوا عليه وقد رفعوا إليه الأسنة ، ومالوا عليه بالأعنة ، فوثب عليهم وهو يزأر كالأسد ، وجعل لا يحمل على ناحية إلا حطمتها ، ولا كتيبة إلا هزمها ، حتى لم يبق من القوم إلا من نجا به فرسه ، ففاز بالأموال وأقبل بها ، فكبر القوم عند رؤيته ، وفرحوا فرحاً عظيماً بسلامته ، فوالله ما رأينا قط يوماً كان أصبح صباحاً وأحسن رواحاً من ذلك اليوم ، ولقد سمعته ينشد في وجوه فتيات الحبي هذه الأبيات :

تأملنَ فعلي هل رأيتن مثله	إذا حشرجت نفس الكمي عن الكرب
وضاقت عليه الأرض حتى كأنه	من الخوف مسلوب العزيمة والقلب
ألم أعطِ كلاً حقه ونصيبه	من السميري اللدن والصارم العضب
أنا ابن أبي هند بن قيس بن خالد	سليل المعالي المكارم والسينب
أبى لي أن أعطي الظلامة مرفه	وطرف قوي الظهر والجوف والجنب
وعزم صحيح لو ضربت بحده	شماريخ رضوى لا تحططن إلى الترب
وعرض نقي أتقي أب أعيبه	وبيت شريف في ذرا ثعلب الغلب
فإن لم أقاتل دونكن وأحتمي	لكن وأحيكن بالطنم والضرب

وأبذل نفساً دوسكنَ عزيزةً عليّ لأطراف القناء وظُبيّ القضبِ
فلم تصدق اللاتي مَشين إلى أبي يهنئنه بالفارس البطل التذبِ

وصف نهج البلاغة للإمام المرحوم الشيخ محمد عبده المتوفى سنة ١٣٢٣ هـ

أوفى لي حكم القدر بالاطلاع على كتاب نهج البلاغة (صدفةً بلا تعمد، أصبته على تغير حال، وتبديل بال، وتزاحم أشغال، وعطلة من أعمال، فحسبته تسلية وحيلةً، فتصفحت بعض صفحاته، وتأملت جملاً من عباراته من مواضع مختلفة، ومواضيع متفرقات، وكان يخيل لي في كل مقام أن حروفاً شبت، وغارات شنت^١، وأن للبلاغة دولة، ولل فصاحة صولة، وأن للأوهام عرامة^٢، وللريب دعارة^٣، وأن جحافل الخطابة، وكائب الذرابة، في عقود النظام، وصفوف الانتظام، تنافح بالصفيح الأبلج^٤ والقويم الأملج^٥، وتمتلج^٦ المهج بروائع الحجج، وتفل دعارة الوسوس وتصيب مقاتل الخوانس^٦، فما أنا إلا والحق منتصر، والباطل منكسر، ومرج الشك في خمود، وهرج الريب في ركود، وأن مدير تلك الدولة، وباسل تلك الصولة هو حامل لوائها الغالب، أمير المؤمنين علي ابن أبي طالب؛ بل كنت كلما انتقلت من موضع إلى موضع أحس بتغير المشاهد، وتحول المعاهد، فتارة كنت أجدني في عالم تعمره من المعاني أرواح عالية، في جلل من العبارات الزاهية، تطوف على النفوس الزاكية، وتدنو من القلوب الصافية توحى إليها رشادها، وتقوم منها منادها، وتنفر بها عن مداحض المزال^٧ إلى جواد الفضل والكمال، وطوراً كانت تتكشف لي الجمل عن وجوه بأسرة، وأنياب كاشرة، وأرواح في أشباح النثمور، ومخالب الذبور، وقد تحفزت للوثاب، ثم انقضت للاختلاب فخلبت القلوب عن هواها، وأخذت الخواطر دون مرماها،

(١) العرامة : الشراسة . (٢) الدعارة : سوء الخلق . (٣) الصفيح : السيف، والأبلج : اللامع البياض . (٤) الرمل الأملج : الأسمر (٥) تمتلج : تنص . (٦) الخوانس : خواطر السوء تسلك من النفس مسالك الخفاء .

واغتالت فاسد الأهواء ، وباطل الآراء ، وأحياناً كنت أشهد ان عقلاً نورانياً لا يشبه حلقاً جسدانياً 'فصيل عن الموكب الإلهي' ، واتصل بالروح الإنساني ، فخلعه عن غاشيات الطبيعة ، وسما به إلى الملكوت الأعلى ، ونما به إلى مشهد النور الاجلي ، وسكن به إلى عمار جانب التقديس ، بعد استخلاصه من شوائب التلبيس ، وآثات كآني أسمع خطيب الحكمة ، يُنادي بأعلماء الكلمة ، وأولياء أمر الامة ، يُعرّفهم مواقع الصواب ، ويُبصّرهم بمواضع الارتياب ، ويُجذّرم مزالق الاضطراب ، ويُرشّدهم إلى دقائق السياسة ، ويهديهم طريق الكياسة ، ويرتفع إلى منصات الرياسة ، ويصعدهم شرف التدبير ، ويُشرف بهم على حسن الصير .

وصف حفلة للمرحوم المؤيّلحي المتوفى سنة ١٩٣٠ م

لو كان لليالي لسانٌ ينطق بالفخار ، وجنانٌ يجري بنظم الأشعار ، لأنشدت ليلةُ الحفلة (الخديوية) قصيدةً تسجل لها في ديوان العصور والدهور ، ما لم تبلسغه ليلة قبلها في تكامل الفرح والسرور ، ولو كان الدهر يُفصح لنا يوماً عن اشراحه وابتهاجه ، لانبأنا بأنه أدّخرها غيرةً لجبينه ، ودرةً لتاجيه .

لا زالت أيام الجناز العالي ولياليه مشرقةً بالسعد والهناء ، متألفة تألق البُذور في 'أفق السماء' .

ووصف أيضاً متحفاً من مقامة له

قال عيسى بن هشام: زآيلنا الاهرام وخلصناها ، تندُبُ من شادها وتُنمي من بناها ، ومِلنا إلى دار التثخف ومستودع الآثار ، لمشاهدة ما حفيظته لنا من صنوف الطرّف وعُيون الاخبار ، وما أخترَجته الايام من عالم الخفاء إلى عالم الظهور ، بعد أن كان سرّاً مكتوماً في خواطر العصور والدهور ، وما صانته بطون القبور من الفناء والدثور ، وحثته احشاء الرُؤوس من العفاء والدّروس ، وما أخبته

أرحام المعابد والهيكل من بقايا الماضين وخبايا الاوائل ، وما انكشفت عنه
سُجوف الاحقاب وديعة الاسلاف للأعقاب ، من مكنون الدفائن ومكنوز
الخزائن ، وعجائب الفن الدقيق ، وبدائع البدع الانيق ، وغرائب الصنع
العتيق ، بليت في اصطحابها بطون الايام والليالي ، وانحنيت في احتضانها
ظهور العصور الخوالي ، وانقلبت البحار وهاداً ، واصبحت الوهاد اطواداً ،
وغدت الأغوار أنجاداً ، وأضحى العمار خراباً والخراب عماراً ، والفهار
سراباً ، والشراب غماراً ، وتمدنت بواد ، وتبدت مدائن^١ ، وبادت
مواطن وقامت مواطن^٢ ، ومضت دول ، وذهبت أول^٣ لآخر أول ، وبدت
أحوال وحالت ، وظهرت أعمال وزالت ، وهي كما تركها أهلها ، مصون
وضمها ، محفوظ شكلها ، خبر صادق ، ولسان فاطق تخبر بالعبر ، وتحدث
عن غبر :

مضت غبرات العيش وهي غوابر على الدهر مكتوب عليها حبايس

وصف الفونغراف «الحاكي» للمرحوم مصطفى بك نجيب المتوفى سنة ١٣٢٠هـ
مثال القوة الناطقة ، من غير إرادة سابقة ، يقتطف الألفاظ اقتطفافاً ،
ويختطف الصوت اختطفافاً ، مطبعة الأصوات ، ومرتبة الكلمات ، ينقل الكلام
من ناحية إلى ناحية ، نقل كلام عمر رضي الله عنه إلى سارية^٣ أشد من الصدى
في إعادة الصوت على أصله ، كأنه الحروف على يد الطابع ، والوتر عن يد
الضارب ، والقصب على قم القاصب ، يحفظ الكلام ولا يبديده ، ومتى استعدته
منه يعيده ، من غير أن يبقي لفظاً في صدره ، أو يكتسب شيئاً من أمه ، كأنما
حفظ الوديعة في نفسه طيبة ، فلو تقدم له الوجود في مرتبة الزمن لما احتجنا
في الأخبار إلى عنة ، ولا في الدعاوي إلى بيئة ، بل كان يسمعنا كلام السيد

(١) البادية: الصحراء . (٢) مواطن الأولى - جمع موطن - أي مكان الإنسان ومقره ؛ ومواطن الثانية : مشاهد الحرب . (٣) ابن زعيم الذي ناداه عمر رضي الله عنه على المنبر . (٤) مراده الأخبار عن النبي ﷺ التي تروى عن فلان عن فلان .

المسيح في المهد، وصوت عاذراً من اللحد، وكانت استنود عنه الفلاسفة حكمتهم، وأنشدوه كلمتهم، فرأينا غرائب اليونان وبدائع الرومان؛ وربما سمعنا خطب سحبان، وشعر سيدنا حسن بذلك اللسان، وأصنبح وجود الإنسان غير محدود بزمان من الزمان. لله درّه من تلميذ يستوعب ما عند المعلم، ويستخلصه في لحظة مُعيداً لقوله، ناقلاً لصوته ولفظه :

لقد وجدت مكان القول ذا سعة فإن وجدت لساناً قائلاً فقل

نديم ليس فيه هفوة النديم، وسير لا يذنب إليك تقصير، تسكتيه وتستعيد تدمته وتستعيد وتنتقصه وتستزيده، وهو في كل هذه الأحوال راض بما يقال، لا يكل من تحديث، ولا يكل من حديث، فتمام ينم لك كما ينم عليك، وينقل لغيرك كما ينقل إليك، فهو المصور لكل فن، المتكلم بكل لغة، المتحدث عن كل إنسان، المؤرخ لكل زمان، الشاعر الناثر، المغني العازف لا تعجزه العبارة، ولا يجهده الأداء، ولا يضره اختلاف شكل، ولا تباين أصل، بل تعهدت شدة حفظه للبشرية من اللغات، إلى حفظ أصوات العجماوات إلى اصطكاك الجمادات.

ووصف أيضاً نظارة ويشكر من أهداها

ورد الكتاب المطرر بحلى الكرم، المصحى يجمع النعم، واستلمت الهدية فسلمت يد أهدتها، وحفظت السجايا التي محاسن الأعمال هبتها، ودامت رحاب مثل هذه الحسنات فيها مجال، وللمحسنات بهاء وجمال، وللآمال محط رحال، وللمقاصد كعبة إقبال، وطابت نفس تعالى الله أن تماثلها نفس عصام فإنها نخت آية الكرم والإقدام، بآية الجود والإكرام، وفعلت في القلوب بالعتاء والنوال، ما قصرت عنه الرماح الطوال؛ وتأملتني فأرتني ما لا

عينُ رأتُ ، وأظهرتُ من محاسن المناظر ما أعمرت وقرّبت كلَّ منظور بعيد ،
وتلت « فكشفنا عنك غطاءك فبصرُك اليوم حديد » ، وصفا وقي بصفائها ، فلم
أشئت شيئا إلا جمعت بينه وبينني ، وصحح علينا قولُ القائل : « رأيت بعينيها
ورأت بعيني » ثم سرّحت نظري في الأطلال والرُسوم ، حتى نظرتُ نظرة في
النجوم فلم تخف عني شجراً ولا مدرأ ، ولا نجماً ولا قمرأ :

يزيد وجهها حُسنًا إذا ما زِدته نظرا

ببهاء يخيل لي أنها صيغت من ضياء ، فلا عيب فيها غير أنني نظرتُ بها في
سما فضلك الباهر ، وأفق شرّك الظاهر ، فلم ينكشف لي بها لجودك آخر ،
لا زال كبرمك بعيداً حدّه على كلِّ ناظر وباصر ، وفصل مناهلك غاية
تقصدها الأوائل والأواخرُ

وصف سان استفانو بالأسكندرية المؤلف الكتاب

كتابي والقلمُ في الننان ، يُسَطَّرُ ما يلبه الجنان ، على محاسن ذلك المسكن .
المشهور بـ سان استفانو ، هناك ترى البحر كالمرآة تمثلتُ فيها السماء ، فكأنما
الماءُ سماء ، والسماء ماء ، وتخال الشاطئ مرّناً للظبيات الآيسات ، أو سوق
جمال تُباع فيه القلوب على الغانيات .

هناك الشبيبة واللعب ، والزّهو والطرب ، وقد اعتلّ الصبا ، وصحّ الصبا .
خُورٌ وولِدَن يمرحون بنشاط الشباب ، ويتهاوَن بنشوة الدلال والإعجاب ،
فن « غادات » روائح وعاديات ، قدودُهِن الرّماح الطاعنات ، ولحاظهنّ
القاتلات الخبيئات .

ومن « ولدان » يلعبون بالكرة والصوّلجان ، فالكرة قلبُ الحبيب المتيمّم ،
والصوّلجان الذي يدفعها شوق العاشق المغرم ، هناك نغمات الأوتار تدعو إلى
اغتنيم الأوطار ، تهدي الارتياح إلى الأرواح ، وتبدل الأفراح من الأتراح .

هناك الكؤوسُ على قُطْبُ الخلاعة تدور ، فهي برشقاتها الثغور ، وبنورها
البدور تشترق من الحنان وتغربُ في أفواه الندمان ، فيعلو الوجوه الشفق ،
فتبارك المبدعُ فيما خلق .

هناك فريقٌ من أهل الهوى ، حلفاء الآسى والجوى ، يختلسون النظرات
وتحتها سهام صائبات ، تقصد قلوبهم ولا راحمَ لهم ، ينادون من يحبون فلا
يحابون ، ويتذللون لعزّ المحال على أنهم لا يحابون ، يتمنون الرضا بعد الهجر ،
وحلو اللقاء بعد الصبر ، وفريقٌ آخر قد وافاهم السعد فنالوا الأمان ، تعلو
وجوههم نضرة النعيم بما نالوه من إشارة أو تسليم ، يتبادلون التحيات بالحواجب ،
ويشدهقون على القلوب يضعون الأيدي فوق الترائب ، حتى إذا الليل سجا ،
وسترهم رداء من الدجى ، يتلاقون إلى جانب اليم ، ويتهايمسون والقم قريب
من القم ، تراهم على الأرائك جنباً بجنب ، وعُنقاً على كتف ، مبتعدين عن
العيون هنا وهنا ، وقد بلغوا الآراب والمثنى ، يحنّون الثمر من السمر ،
ويلثمون الرّاح بالراح ، ولا يزالون في مسرة وهناء وأنس وصفاء ، حتى يُنادي
مناي الموائد بحبي على شهى الطعام ، وهلمّوا إلى رائق المدام ، فيجلسون مثنى
وثلاث ورباع محفوفين ببايع الأزهار ، مستضيئين بأرهم الأنوار ، والعلمان عن
يمينهم وشمالهم قائمون بحوائجهم ، وهم في لباسهم كأقمار ، وفي خيقتهم كلسج
الأبصار ، فيما كلون ويشربون ، ويضحكون ويلعبون بين نغمة بالحديث الرّخم ،
ونشوة بالمدام القديم ، حتى إذا أخذت كل حاسة حظها ، وتلجلجت الألسنة فلا
تفهم لفظها ، هنالك تراهم كسرب الأطباء رائح وغاد ، هذه مائلة وهذا مُتهاد ،
إلى أن يتمشّى النوم في الجفون ، فتدبل العيون فينصرفون إلى المنام ، ويحلمون
بليذذ الأحلام ، بعد أن يتعاهدوا على الأوبة ويحسنوا الختام بالتوبة .

وصف الشمس

الشمس كوكبٌ مضيء بذاته ، وهي اعظم الكواكب المرئية لنا منظرًا ،

وأسطعها ضوءاً ، وأغزرها حرارةً ، وأجزؤها نفعاً للأرض التي نساكنها ،
ولكثير من أخواتها ، سيارات الشمس وبناتها .

والشمس كرةٌ متأججةٌ ناراً ، حرارتها أشد من حرارة أي ساعور^(١)
أرضيٍّ ويبلغ ثقلها ثلثمائة وزنٍ من ثقل الأرض ، وهي أكبر منه جبرماً
بثلثمائة ألف والى ألف مرة .

وتدور الشمس على محورها من الغرب إلى الشرق مرة واحدة في نحو خمسة
وعشرين يوماً . وتبعد عنا بنحو اثنين وتسعين ألف ألف ميل وخمسمائة ألف ميل
وهي مع كل هذا العظم الهائل لا تعد في النجوم الكبرى ، بل إن أكثر ما
نشاهد من النجوم الثابتة شمس أكبر من الشمس بألوف الألوف ، والشمس
بسياراتها تابع من توابع أحدها .

وسطح الشمس مهبّ عواصف وزوابع نيرانية شديدة ، تثير في جوفها
أشواط^(٢) هائلة تندلع^(٣) ألسنتها المتأججة عن محيط كرتها أميالاً ، وقد وصف
بعض العلماء لها ارتفاع من سطحها الأول وهلة نحو أربعين ألف ميل في الفضاء ،
ثم ازداد بريقاً ، ثم ارتفع بعد نصف ساعة إلى خمسين وثلثمائة ألف ميل ، ثم
جعل يضئ ويضعف ، فلم تقض ساعتان حتى اضمحل اضمحلالاً ، غير أن ما
وصفّه هذا العالم ليس إلا من قبيل النوادر ، ولكن ارتفاع اللهب نحو مائة
ألف ميل ليس بغير العادي وكثيراً ما تبلغ سرعة اللهب مائة ميل في الثانية ،
وأكثر مادة الشمس من عنصر الهيدروجين (الإيدروجين) المتقد .

وبرصد الشمس مراراً بالمرقب المغشى بالسواد شوهد في صفحة قرصها
نكت سود ، وكلف يشوّه مجياها ، كأنما هي كرة سوداء الباطن غلفت .

(١) الساعور : النار نفسها أو موقدها . (٢) الشواظ : اللهب .

(٣) اندلع اللسان خرج من الفم . (٤) تلالؤاً .

بسطح ساطع من الصّعادات يتخلّله نقبٌ يظهر تحتها السوادُ ، ولا تزال حقيقة هذه البقّع موضوعَ البحث والتعليل عند الفلكيين ، ومن تنقل هذه النكت عرفت دَورها على محورها .

وللشمس سياراتٌ أو أبناءٌ انفصلت منها منذُ أزمانٍ سحيقة ، عُلم منها إلى الآن نحوُ ثمانية ، هي على ترتيب الأقرب منها فالأقرب ، عطارد ، فالزهرة ، فالارض ، فالمرّيخ ، فالمشتري ، فزُحل ، فأورانوس ، فنبشون^١ ولم تعلم كل شؤون هذه السيارات حق العلم ، وإنما ألمّ العلماءُ بمعرفةِ موادها وكثافتها وأبعادها . ولكن أمرَ الحياة فيها لم يزل مبهمًا مستغلقًا - اللهم إلا في الارض وقمرها .

أما مقدارُ النعم التي سخّرها الله لنا بوجود الشمس فما لا يحصىه العد ، فهي مبعثُ حياتنا وحياة الحيوان الذي يعيش معنا ، ومصدرُ نورنا وحرارتنا وحرّنا وبردنا ، وهي التي تحيل مياه البحار بخاراً ، وتقلّها في الجو غيوماً ، وتنزّلها على الارض أمطاراً ، حيث تجري جداولٌ وأنهاراً ، فتروي زرعنا ، وتنمي غراسنا وتثير الرياح ، وتطلعُ الانواء ، وتزجي السفن والبواخر في عباب الماء وتُدفع القطرات الحديدية ، وتدير الآلات البخارية ، وتثير المصابيح الدخانية والزيتية إذ ليس الفحم الحجري والزيت الارضي إلا حرارة نارها المدخرة منذُ قديم الدهور ، لينتفع بها أحياء هذه العصور ، وما النهار المبصر ، والليل المظلم إلا آيتان من آيات الله المسخرة لما يتسخّر هذا المخلوق العجيب ، ففي النهار نسمي في مناكب الارض لابتغاء رزقنا ، وتدبير معاشنا ، وتنظيم شؤون حياتنا ونسبح بحمد ربنا ونعتبر بآثار من سبقنا ، وفي الليل نسكن لإراحة أبداننا ، واستجمام^٢ قوانا ، واستيفاء حظنا من النوم الذي به نستديم صحتنا ، ونستعيض ما فعدناه بأعمالنا ، وننظر في ملكوت السموات وما خلق الله من شيء في حركات الكواكب وانتقالها ، وبديع صورها وألوانها ،

(١) تسير .

(٢) استجماع .

فَتَعْنُو وجوهنا ، ويتضاءلُ كبرياؤنا ، أمامُ قُدْرَةِ خالقنا العظيم ، فسبحانه من إله حكيم .

وما الألوان التي نراها في نور الأزهار ، وريش الاطيوار ، ونفائس المصنوعات إلا أثر وقوع أضواءها على هذه المرئيات وانعكاسها^١ على أبصارنا ؛ فإن نور الشمس الأبيض مؤلف من سبعة ألوانٍ أصلية^٢ تنشأ منها كلُّ الألوان الفرعية وهي : الاحمر ، والبُرْتُقَالِيّ ، والأصفر ، والأزرق ، والأخضر ، والنَّيْلَجِيّ ، والبنفسجيّ . فمن الاجسام ما لا يمتص شيئاً من هذه الألوان ؛ بل يعكسها كلها على العين ، فيبدو أبيض ناصعاً كزهرة الياسمين ، ومنها ما يمتص بعضها ويعكس باقيها ، فيتلون بلون ما يعكس منها ، فإذا أبصرت ورقة الشجر خضراءَ عرفت أنها اختزنت من ضوء الشمس ستة ألوان ، وردت إلى عينيك سابعها وهو الأخضر لأن فيما ادخرته نفعاً لها ، وليس بها إلى ما لم تظنه اقتقاراً ، ومنها ما يرد لونين أو أكثر ، فيبدو لونه مزيجاً بين هذه الألوان السبعة ، وهذه الألوان من عجائب صنع الله في الارض لتمييز بعضها من بعض ، فقد يتماثل الشيطان شكلاً ، وحجماً وصلابةً ، وليناً ، وشماً ، ثم لا يتباينان إلا من حيث اللون فيكون اللون آيةً تباينهما ، وأكثر ما يكون ذلك في الازهار .

وتنوعُ اللون هو السرُّ في جمال المرئيات من مشاهد الطبيعة وبدائع الصناعة وإن أعظم المصورين وأمهرة النقاشين لم يبرزوا على غيرهم ، ويدلوا على ذكائهم ونبوغهم إلا ببراعتهم نحاً كآلة ألوان الطبيعة المؤتلفة وأشكالها المتجانسة ، وإنما يتم لهم ذلك إذا عرفوا كيف يمزجون من الأصباغ ما يستخدمون به ألوان النور خيراً استخداماً ، ويتفهمون به أحسن انتفاع ، وقد سخر علماء الطب تباين

(١) نعكس مضارع عكس كما في الاساس .

(٢) أمكن إرجاع هذه الألوان في الصناعة إلى ثلاثة .

الألوان في كشف النِّقَابِ عن حقائق الجرائم ، فإنَّ منها ما لا يتَّضح للعين في الجَهر إلا إذا أُلقي عليه صبغٌ خاصٌ يؤثِّرُ فيه فيُصبِغُ به

ولأمواج الشَّمْس الضَّوئية سرعةٌ معلومة تسيرُ بها ، فإذا انخفضت هذه السَّرعَةُ عما هي عليه لم تعد العينُ قادرة على رؤيتها ، لأنها تستحيل إلى مظهرٍ آخر غير مظهر الضوء والحرارة ، وليس يُنكَّر ما للضوء والحرارة معاً من الأثر الحسن في تنقية المساكن مما يَقطُّنها من الجرائم القتالة ، والعفن المضني ، ولذلك قيل إنَّ الدَّار التي تدخلها أشعة الشَّمْس لا يدخلها الطميبُ .

وصف القمر

القمرُ أجلُّ الكواكب صورةً ، وأبينُّها منظراً ، وأسهلها رصداً ، وأكبرها في رأى العين بعد الشمس جِرمًا ، وهو سِتَّارٌ كرويٌّ أصغر من الأرض بنحو تسع وأربعين مرَّة ، انفصل منها زَمَن التَّكوين وصار تابعاً لها ، طائفاً حولها ، مُستمدّاً نوره من الشمس مثلها دائراً حول الشمس معها ، غير أنَّ طواف الأرض بقمرها حولها يتمُّ في سنة شمسيَّة ، وطواف القمر حول الأرض يتمُّ في شهر قمرى : أي مُدَّة تسع وعشرين يوماً ، ونصف يوم تقريباً ، ومع أنه خاضعٌ لنظام الأرض لا يقلُّ بُعْدُه عنها عن واحد وعشرين ألفاً ومائتي ألف ميل .

والذي يسترعى أنظارنا كما استرعى أنظار مَنْ قبلنا اختلافُ أشكاله وتعدُّد مطالعه ، بما جعله مَبْنَعٌ تخيُّل القُدَماء ، ومشار تفكير الحكماء ، ومَقْصِدٌ لعبادة الجُهلَاء ، فتراه يلوحُ ليلة أوَّل الشهر إثر غروب الشمس ضئيلاً مُقَوَّماً ، لا يلبثُ أن يغرب ويغيب في شفق الشمس ، ثم يَهِيلُ في الليلة الثالثة أبينَّ صورة وأبقى زمناً لازدياد تأخُّره في الغروب عن الشمس ، ولا يزال نوره في تزايد ، ومطالعُه في تقدُّم نحو المشرق حتى يطلع من المشرق في الليلة الرابعة عشرة عند غروب الشمس بدرًا كاملاً ، بهيَّة الطلعة باهرَ الأنوار ؛ فتبارك اللهُ أحسنُ

الخالقين .

ولكن الكمال لله وحده ، فإن مُنتهى الزيادة مُبتدأ النقص ، ففي الليلة الخامسة عشرة يتأخر طلوعه من المشرق ، وينقص من حافة نوره التي كانت موضع هلاله الأول زيق لا يُشعرُ به إلا في الليالي التالية ، ولا تزال مطالعته في تقهقر ونوره في تناقص حتى قرب آخر الشهر فيُشرق قبيل الفجر هلالاً ضئيلاً يكاد يكون مقلوب الهلال الأول ، وفي الليلة الأخيرة يكون عند الصباح في الأفق الشرقي مظلماً لا يرى منه شيء ، وهو ليلة المحاق أو السُّرار ويظلم بعض النهار كذلك ثم يتولد هلاله الجديد ، ولكنه لا يظهر إلا بعد أن يغيب قرص الشمس فيلوح هلاله ، ثم يختفي كما قدمنا .

وعلة ذلك : أن نور القمر كنور الأرض مستفاد من الشمس ، وهو لا يُقابل الأرض إلا بوجه واحد لا يتغير ، وهذا الوجه بالنسبة إلى حركته مع الأرض حول الشمس لا يقابل الشمس مقابلةً تامة إلا في وضع واحد ومرة واحدة هي الليلة الرابعة عشرة ، فيغشاه نورها ، ويصير بدرأ ، أما بقية الليالي التي قبلها والتي بعدها فينحرف قليلاً أو كثيراً عنها ، حتى يصير كله ظلاماً ليلة المحاق ، فيُطوى خبره ويكون الوجه الآخر الذي لا يرى لنا بدرأ كاملاً ، ثم يتولد هلاله خلقاً جديداً

وكذلك شأن الأرض في استمداد نورها أو ما نسميه نهراً ، ولو كان في القمر سكان ، لكانت الكره الأرضية في رأي أعينهم أكبر كوكب في السماء ، ولشاهدوا أكبر من الجرم الذي نشاهد القمر عليه أضعافاً مضاعفة ولكانت عندهم أرواح جمالاً وأبدع من قمرهم في نظرنا تشكلاً ، فبدورانها على نفسها يرونها كلها جزءاً فجزءاً ، وتظهر قاراتها ومحيطاتها واضحة عليها في وقت الصحو ، ومُظلمةً بعضها بالغمام في وقت الدجى ، وتبدو أهلها وبدورها ضخمة بأهرة ، ولكن لا يراها إلا سكان النصف المقابل لنا ، أو الذين يريدون التفرج برؤيتها من أهل النصف الثاني .

ولقُرب القمر منا وخلوّ جوّه من الهواء سهّل رصده علينا، فنرى في صفحته عند الشروق ليلة التّسّام كثيرًا من الخُحوّ يجعلُ صورته أشبه بوجه إنسان ذي أنف وفمٍ وحاجبين وعينين إحداهما مُغضّيةٌ، ولا يزالُ كذلك حتّى يتعدّى خطّ زوال مكان الناظر. فإذا مال إلى المغرب انحرفت هذه الصورة حتّى يصير عاليها سافلها. وليس هذا الخُحوّ إلا ظلام بطون الأودية والسهول البعيدة الغور وظلال الجبال والهضاب الشاهقة الطول شوقًا يكاد يمنع استدارته، أمّا قسَمُ الجبال وسطوحها المقابلة للشمس فتتّرى لامعة ساطعة فتبين سلاسل الجبال طرائق مضيئة وقسَمها نقطًا لامعة وفوهات جبال ناره الشديدة السّعة، البعيدة الغور التي تعدّ بعشرات الألوف، كأنها حلقات وسطها نقط سود.

وقد ظنّ القدماء في علّة الخُحوّ ظنوبًا، بعضها صادف الحقيقة، وبعضها جانبها حتّى ظهر غاليليو، واخترع سنة ١٦٠٦، مرّقبًا يُقرب الأشباح ثلاثين مسافة فأثبت وجود الجبال والأودية فيه، وزاد عليه غيره في تحسين المراقب المكبّرة حتّى صبح القمر يُرى كأنه على بُعد أربعين ميلًا منّا، على أن هذا القرب لا يجعلنا نرى الأشباح الصغيرة التي من نوع الحيوان لتتحقّق أن للقمر سكانًا كما للأرض أو لا؛ ولكن قد أصبح من المَرَجَح إن لم يكن من المحقّق أنه خالٍ من الماء ومن السحاب والضباب الناشئين منه ومن النبات، إذ لو كان به شيءٌ منها لتغير شكله من حال إلى حال، ويُشكّ أن له هواءً، وإن كان له هواءٌ فلمعه لا يزيد على قسَم جباله ولا شك أن الماء والهواء هما ينبوعا الحياة، وتجردُه منها، وخبود جبال ناره، ويُبئس جرمه يجعل برده شديدًا جدًّا في الليل، وحرّه عظيمًا جدًّا في النهار على فترّط طولهما البالغ فيه خمسة عشر يومًا، مما يجعل الحياة فيه متعسّرة بل مستحيلة، اللهم إلا أن تكون حياة غير حياتنا.

وَيُرَجَّحُونَ أَنَّ الْقَمَرَ كَانَ فِي أَزْمَانٍ سَحَابَةٍ عَلَى طَبِيعَةٍ تَقْرُبُ مِنْ طَبِيعَةِ أُمِّهِ الْأَرْضِ ، فَكَانَ آمِلاً بِالْحَيَوَانِ وَالنَّبَاتِ ، إِلَّا أَنَّ صِغَرَ جَسْمِهِ جَعَلَهُ يَسْبِقُ الْأَرْضَ فِي الْيُبْسِ وَالْبَرودة فَتَقَبَّضَ وَبَرَدَ وَانْتَهَتْ دُنْيَاهُ ، وَأَصْبَحَ كَالْإِسْفَنْجَةِ مُشْعِئَةً ذَاتِ شَعْبٍ وَنَخَارِبٍ^١ تَكْوِينُهَا مِنْ حِينِ تَكْوِينِ الْأَرْضِ .

وَلَقَدْ خَلَقَ اللَّهُ الْقَمَرَ مُسَخَّرًا لِأَهْلِ الْأَرْضِ خَاصَّةً ، فَهُوَ بِعَكْسِ نَوْرِ الشَّمْسِ عَلَيْهِمْ هِدَايَةٌ لَهُمْ فِي ظِلْمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، وَلَقَدْ قَضَى الْإِنْسَانُ عُصُورًا وَدُهُورًا وَلَيْسَ لَهُ مُصْبِحٌ فِي جُنْحِ الظَّلَامِ غَيْرُهُ ، وَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ لِأَهْلِ الْبَدْوِ وَقَبَائِلِ الْهَمَجِ . وَهُوَ بِاخْتِلَافِ أَشْكَالِهِ تَقْوِيمُ فِطْرِيٍّ لَهُمْ ، فَبِإِهْلَالِهِ يُعْرَفُ^٢ أَوَّلُ الشَّهْرِ وَبِالتَّرْبِيعِ الْأَوَّلِ يُعْرَفُ رُبْعُهُ ، وَبِبَدْوِهِ^٣ يُعْرَفُ نِصْفُهُ ، وَبِالتَّرْبِيعِ الْآخِرِ يُعْرَفُ ثَلَاثَةُ أَرْبَاعِهِ ، وَبِمَحَاقِهِ تُعْرَفُ نَهَائِيَتُهُ .

وَإِذَا مَرَّ الْإِنْسَانُ عَلَى النَّظَرِ فِي تَقْدِيرِ ضَوْئِهِ ، وَأَوْقَاتِ مَطَالَعِهِ ، عَرَفَ الشَّهْرَ يَوْمًا يَوْمًا ، وَاللَّيْلَ سَاعَةً سَاعَةً ، قَالَ تَعَالَى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَاجَّةِ » .

وَبِاتِّحَادِ جُذْبِهِ مَعَ جُذْبِ الشَّمْسِ لِلْأَرْضِ يَنْشَأُ الْمَدُّ وَالْجُزُرُ ، وَفَائِدَتُهُمَا فِي تَسْهِيلِ الْمَلَاخَةِ لَا تَنْكُرُ ، فَكَمْ مَوَانِيءَ وَمَرَافِيءَ لَوْلَاهُمَا لَسُيِّدَتْ بِرَوَاسِبِ الْأَنْهَارِ وَالسِّيُولِ

وَلِضَوْءِ الْقَمَرِ فِي إِنْضَاجِ الثَّمَرِ وَالْبَقُولِ أَثَرٌ أَيْمًا أَثَرٌ حَتَّى إِنْ بَعْضُهَا لَا يَنْمُو وَيَزْهُو لَوْنُهُ إِلَّا فِي لِيَالِيهِ الْبَيْضِ .

الفن الخامس في المقامات

المقامة عبارة عن كتابة حسنة التأليف ، أنيقة التصنيف ، تتضمن نكتة

(١) جمع : فخر وب وهي الثقوب التي تكون في مثل بيوت الزنابير والنحل .

(٢) بمصدر بدر البدر يبدر بدرًا . وبالمصدر سمي هذا الكوكب عند تمام نوره كأنه يبادر الشمس بالشروق في ليلة التمام عند غروبها .

أدبية ومدارها على رواية لطيفة مختلفة 'تسند' إلى بعض الرواة ، ووقائع شتى
تُعزى إلى أحد الأدباء؛ والمقصود منها غالباً جمع دُرر وغرر البيان، وشوارد
اللغة ونوادر الكلام، منظوم ومنثور، فضلاً عن ذكر الفرائد البديعة، والرقائق
الأدبية ، كالرّسائل المبتكرة ، والخطب المحبّرة ، والمواعظ المبكية
والأضاحيك الملهية^١ ولندكر منتخبات من مقامات مختلفة فنقول :

قال الحريري^٢ المتوفى سنة ٦١٥ هـ المقامة التاسعة الإسكندرانية :

أخبر الحارث بن همام قال : طحا بي^٣ مَرَحُ الشباب، وهوى الاكتساب^٤
إلى أن جُبت^٥ ما بين فرغانة^٦ وغانة^٧ أخوض الغمار^٨ لأجني الثمار، واقتحم
الأخطار^٩ لكي أدرك الاوطار^{١٠}. وكنت لقفت من أفنواه العلماء وثقت^{١١}
من وصايا الحكماء ، أنه يلزم الأديب الأريب^{١٢} إذا دخل البلد الغريب ، أن
يستميل قاضيه^{١٣} ويستخلص مراضيه^{١٤} ليشهد ظهره عند الخصام ويأمن في
العُرّة جور الحكام. فاتخذت هذا الادب^{١٥} إماماً^{١٦} وجعلته لمصالحى زماماً،
فما دخلت مدينة ، ولا ولجت^{١٧} عرينة^{١٨} إلا وامتزجت بحاكمها امتزاج الماء

(١) اعلم ان المقامات تعرف بالمكان الذي تجري فيه فيقال المقامة الحلبية أو
الموصلية بناء على أن محل وقوعها حلب أو الموصل، وربما نسبت إلى المروي عنه.
ويستحب في راوي المقامة أن يمثل رجلاً ظريف النفس كثير الاسفار حسن الراوية
متفرداً بفنون الادب جاداً في طلب غرره كاداً ذهنه في تحصيل درره كالخارث
ابن همام في المقامات الحريرية وعيسى بن هشام في المقامات البديعية، ومختار هذا
الفن هو بديع الزمان الهمذاني وبعده الحريري واشتهر بعدهما كثيرون ممن نسجوا
المقامات على منوالهما وإن لم يبلغوا شأوهما . (٢) نقدم أنه توفي سنة ٦١٥ هـ

(٣) ذهب بي (٤) هو النشاط وشدة الفرح (٥) أي حبة اكتساب المال (٦) قطعت.
(٧) بلد بأقصى بلاد المشرق (٨) بلد بأقصى المغرب ٩ بالكسر جمع غمرة الكثير
من الماء والمراد هنا الامور الصعبة (١٠) أي ادخل في القحمة بالضم وهي الشدة
والاخطار الامور العظيمة (١١) الحجاب (١٢) أدركت (١٣) العاقل (١٤) يرغبه
ويتراضاه ويطلب ميله إليه (١٥) يطلب خالص رضاه (١٦) أي هذا الامر الظريف
المستحسن (١٧) قدوة أي أعمل بمقتضاه (١٨) دخلت (١٩) مأوى الاسد .

بالراح، وتقويت بعنايته تقوي الاجساد بالارواح، فبينما أنا عند حاكم الإسكندرية،
 في عشية عريّة^١ وقد أحضر مال الصدقات، ليقضه^٢ على ذوي الفاقات^٣ إذ
 دخل شيخ عَفْرِيَّة^٤ تعتله^٥ امرأة مُصْبِيَّة^٦، فقالت: أَيْدَ^٧ الله القاضي، وأدام
 به التراضي^٨، إني امرأة من أكرم جرثومة^٩، وأطهر أرومة^{١٠}، وأشرف خؤولة
 وعمومة، مَيْسَمِي^{١١} الصّون^{١٢}، وشيمتي^{١٣} الهون^{١٤}، وخلقي نِعَم^{١٥} العون^{١٥}،
 وبيني وبين جارتي بَوْن^{١٦} وكان أبي إذا خطبني بُنَاة^{١٧} المجد وأرباب الجد،
 سكّتهم^{١٨} وبكّتهم^{١٩} وعاف وصلّتهم^{٢٠} وصلّتهم^{٢١} وأحتجّ^{٢٢} بأنه عاهد الله
 تعالى بحلفه أن لا يُصاهر^{٢٣} غير ذي حرفة^{٢٤} فقيّض^{٢٥} القدر^{٢٦} لَصَصِي^{٢٧} ووصي^{٢٨}
 أن حضّر هذا الخُدسة^{٢٩} نادي^{٣٠} أبي^{٣١} فأقسم بين رهطه^{٣٢} أنه وفّق^{٣٣} شرطه،
 وادّعى أنه طالما نظم دُرّة^{٣٤} فباعها ببذرة^{٣٥} فاغتر بي بزخرفة محاله، وزوجني
 قبل اختبار حاله، فلمّا استخرجني من كِنَاسِي^{٣٦} ورحلني عن أناسي، ونقلني إلى
 كَسْرَه^{٣٧} وحصلني تحت أسره، وجدته قعدة جُئمة^{٣٨} وألفيته ضجعة نومة^{٣٩}

- (١) اي شديدة البرد او ذات ريح باردة (٢) يفرقه (٣) اي الفقراء المحتاجين
 (٤) اي خبيث شديد الدهاء (٥) تجرد بعنف وجفاء (٦) اي ذات صبيان
 (٧) قواه ونظيره (٨) أراد التراضي بين الخصوم بحيث يرضي بحكمه الغالب
 والمغلوب (٩) اي اصل (١٠) الأرومة بالفتح اصل الشجرة ثم استعير لأصل
 الحسب (١١) علامتي وأصل الميسم الآلة التي يكوي بها ويعلم (١٢) الحفظ
 والعفاف (١٣) خلقي وعادتي (١٤) الرفق (١٥) اي الرفيق الظهير (١٦) اي
 فرق وتفاوت في الفضل (١٧) بالضم جمع بان (١٨) اي قال لهم كلاماً لا يجدون
 له جواباً (١٩) ألزمهم الحجة (٢٠) اي كره قريها (٢١) عظام (٢٢) اي يزوج
 ابنته (٢٣) صناعته (٢٤) يعني قدر الله تعالى (٢٥) لتعبي ومرضي (٢٦) الكثير
 الخداع (٢٧) مجلس أبي (٢٨) قومه وعشيرته (٢٩) البذرة عشرة آلاف درهم
 (٣٠) اي منزلي واصله بيت الطيبي او بقر الوحش (٣١) بفتح الكاف وكسرهما
 اي جانب بيته (٣٢) كثير القعود كثير الجثوم اي يلازم الموضع الذي يقعد فيه
 (٣٣) الضجعة والنومة اصله العاجز الذي لا يتصرف والمعنى أنه عاطل عن العمل كسول

وكنيت برياش وزى وأثاث^١ وري^٢ فما برح يبيعه في سوق الهضم^٣ ، ويتلف ثمنه في الحضم والقضم^٤ إلى ان مزق مالي بأسره^٥ ، وأنفق مالي في عسره ، فلما أنساني طعام الراحة ، وغادر بيتي أنقى من الراحة^٦ قلت له : يا هذا إنه لا خبأ بعد بوس^٧ ، ولا عطر بعد عروس^٨ فانفض^٩ لاكتساب بصناعتك ، واجتن^{١٠} ثمرة براعتك^{١١} فزعم أن صناعته قد رُميت بالكساد^{١٢} لما ظهر في الارض من الفساد ، ولي منه سُلالة^{١٣} كأه^{١٤} خلالة^{١٥} وكلانا ما ينال منه شبعة^{١٦} ولا ترقأ^{١٧} له من الطوى^{١٨} دَمعة ، وقد قدته^{١٩} إليك وأحضرتك^{٢٠} لديك ، لتعجُم^{٢١} عودَ دعواه ، وتحكم بيننا بما أراك الله - فأقبل القاضي عليه ، وقال له : قد وعيت^{٢٢} قصص غيرك ، فبرهن الآن عن نفسك ، وإلا كشفت^{٢٣} عن لبسك^{٢٤} ، وأمرت بحبسك فأطرق اطراق الافعوان^{٢٥} ثم شمر للحرب العوان^{٢٦} وقال :

اسمع حديثي فإننه عجب^{٢٧} يضحك^{٢٨} من شرحه ويُلْتَجِب^{٢٩}
أنا أمرؤ^{٣٠} ليس في خصائصه^{٣١} عيب^{٣٢} ولا في فخاره ريب^{٣٣}
سُروج داري التي ولدت^{٣٤} بها ، والاصل غسان^{٣٥} حين أنتسب^{٣٦}

- (١) رياش : مال ولباس فاخر ، زي : هيئة حسنة ، أثاث : متاع البيت .
- (٢) حسن حال و كثرة نعمة وهو بكسر الراء وفي الاصل اسم من روى (٣) المراد يبيعه بأقل من القيمة (٤) الاكل بأطراف الاسنان وقيل الحضم أكل بأطراف الاسنان والقضم بقديمها وقيل الحضم اكل الرطب والقضم اكل الياض تريد انه يصرف ثمنه في أنواع الاكل واللذات (٥) اي فرق الذي لي بأجمعه (٦) بطن الكف لنقائه من الشعر (٧) اي فقر (٨) مثل قالته امرأة من بني غازة مات عنها زوجها واسمه عروس فتزوجها رجل أبخر وأمرها ان تتعطر فقالت (٩) اي الجنى ، جمع الثمرة (١٠) اي فضلك على اقرانك (١١) هو بخود السوق وقلة البيع ضد النفاق بالفتح (١٢) يعني ولدأ (١٣) ما يتخلل به (١٤) قدر ما يشبع به مرة (١٥) اي لا تسكن (١٦) الجوع (١٧) اتيت به (١٨) لتقضي وتختبر (١٩) فهمت وحفظت ما قصته زوجك (٢٠) أظهر أشكالك وتعمية أمرك (٢١) ذكر الافاعي او العظيم منها (٢٢) الحرب التي قبلها وهي تكون حرب أشد من الاولى (٢٣) الانتحاب رفع الصوت بالبكاء (٢٤) خصاله وطباعه (٢٥) اسم ماء نزل عليه قوم من الازد فلنسبوا إليه ، منهم بنو خفنة ورهط الملوك وقيل غسان قبيلة .

وشغليّ الدرس ، والتبحرُ في العلم طلابي وجبذا الطلبُ
ورأس مالي سحرُ الكلام^١ الذي منه يصاغ القريض^٢ والخطبُ
أغوصُ في 'لجّة البيان' فأختار اللآلئ منها^٣ وأنتخبُ
وأجتني^٤ البانع^٥ الجني^٦ من القول وغيري للعود يحتطبُ
وآخذ اللفظ فضةً فإذا ما صفته^٧ قيل إنه ذهبُ
وكنّت من قبل أمّ تري نشباً^٨ بالأدب المقتنى وأحتلبُ
ويمطّي^٩ أخصي^{١٠} لحرمة^{١١} مراتبها ليس فوقها رتبُ
وطالما زُفّت الصلّات إلى ربعي^{١٢} فلم أرضَ كل من يهبُ^{١٣}
فالיום من يعلّقُ الرجاءُ به أكسدُ شيء في سوقه الادبُ^{١٤}
لا عرضُ أبنائه يُصان ولا 'يرقب' فيهم إل^{١٥} ولا نسبُ
كأنهم في عراضهم^{١٦} جيّف^{١٧} يبعد من تلتنها ويحتذبُ
فجار لبّي^{١٨} لما منيت به^{١٩} من اللبسالي وصرّفها^{٢٠} عجبُ
وضاق ذرعي^{٢١} لضيق ذات يدي وساورتني^{٢٢} الهوموم والكربُ
وقادني دهري المليم^{٢٣} إلى سلوك ما يستشينه^{٢٤} الحسب^{٢٥}

(١) هو ما لطف مأخذه ورق (٢) الشعر (٣) أي أتمعق في بليغ المعاني
وانتقي منه الملمح (٤) أقتطف (٥) الزاهي (٦) الطري من الثمر الذي جني
حديثاً (٧) سبكته (٨) أي اكتسب مالاً (٩) أي يركب (١٠) ما ارتفع من
باطن القدم عن الأرض (١١) أي حملت الجوائز والهدايا إلى منزلي (١٢) أي لم أرض أن
أكون تحت منة كل أحد بل لم أقبل إلا من العظماء (١٣) أي أن ما يتعلق به الأمل
ويرجى منه النوال لا يستعمل الادب والمعارف حتى صار ذلك كالسلعة الكاسدة
عنده (١٤) يحفظ (١٥) بكسر الهمزة وتشديد اللام - العهد والقربة والجوار
(١٦) جمع عرصة وهي فناء الدار أي كأنهم في مواضعهم (١٧) تحير عقلي
(١٨) بليت به (١٩) تفلّسها (٢٠) انقبض قلبي (٢١) انتابتنى وغلبتنى
(٢٢) الذي يأتي بما يلام عليه (٢٣) يستبشعه (٢٤) ما يعد من مفاخر الآباء أو
الدين وقيل الكرم

فبعت حتى لم يبق لي لسبد^١ ولا بتات^٢ إليه أنقلب
 وادّنت^٣ حتى أثقلت سالفتي
 ثم طويت الحشا على سغب^٥
 لم أر إلا جهازها عرضاً^٨
 فجعلت فيه والنفس كارهة^٩
 وما تجاوزت^{١١} إذ عبّنت^{١٢} به
 فإن يكن غاظها توهّمها
 أو أنني إذ عزمت خطبتها
 فوالذي سارت الرفاق^{١٥} إلى
 ما المكر بالخصّسات^{١٨} من خلقي
 ولا يدي منذ نشأت نيّط بها^{٢١}
 بل فكرتي تنظم القلائد^{٢٣} لا
 ولا بتات^٢ إليه أنقلب
 بحمل دين من دونيه العطب^٦
 خساً^٧ فلما أمضيت^٧ السغب
 أجول في بيعه وأضطرب
 والعين عبري^٩ والقلب مكتئب^{١٠}
 حدّ التراضي^{١٣} فيحدث الغضب
 أن بنسائي بالظم تكتسب^{١٤}
 رخرفت^{١٥} قولي لينجّج الأرب^{١٥}
 كعبته تسنّحها^{١٦} الدجّج^{١٧}
 ولا شعاري^{١٩} أتمويه^{٢٠} والكذب
 إلا مواضي السراع^{٢٢} والكتب
 كفي وشعري المنظوم لا السخب^{٢٤}

(١) يقال ما له سبد ولا لبد أي لا شعرو ولا صوف والمراد ذوات الشعر والصوف من المواشي ، وأراد الحريري أنه لم يبق له كثير ولا قليل كناية عن شدة الفقر والحاجة (٢) الزاد ومتاع البيت (٣) تداينت (٤) صفحة العنق وقيل مقدمه (٥) جوع (٦) خمس ليال (٧) أحرقني (٨) حطام الدنيا ، وهو المال قل أو كثر (٩) دامعة باكية (١٠) حزين (١١) تعديت (١٢) فعلت به ما لا يليق فعله (١٣) أي حد الرضا (١٤) الحاجة (١٥) جمع رفقة ، وهو جمع رفيق (١٦) تستعجلها (١٧) جمع نجبية ، وهي الكريمة من الإبل (١٨) جمع محصنة ، النساء العفائف (١٩) تخلفي (٢٠) تزين الكلام وأصله أن يطلى المعدن غير الذهب والفضة بأحدهما أو الفضة بالذهب (٢١) علق بها (٢٢) جمع براعة وهي القصبة الجوفاء والمراد بها الأقلام (٢٣) جمع قلادة أصله ما تقلد به المرأة من الذهب والمراد ما ينظم من القصائد والأشعار (٢٤) جمع سخاب وهو القلادة من القرنفل والمسك ليس فيها من الجواهر شيء يجعل في أعناق الاطفال .

فهذه الحِرْفَةُ المشارُ إلى ما كنتُ أحوي بها وأجتَلِبُ
فأذَنُ لشرحي كما أذنتَ لها ولا تُراقبُ واحكم بما يجبُ

قال : فلما أحكم ما شاده ^٢ ، وأكمل إنشاده ، عَطَفَ القاضي إلى الفتاة ،
بعد أن شغف ^٣ بالأبيات ، وقال : أما أنه قد ثبت عند جميع الحكام ، وولاية
الأحكام انقِراضُ ^٤ جيل الكِرام ^٥ وميلُ الأيام إلى اللُثَام ، ولاني لإخال ^٦
بملك ^٧ صدوقاً في الكلام بَرِيئاً من الملام — وما هو قد اعترف لك بالقرض ،
وصرح عن الخض ^٨ ، وبيّنَ مِصْدَاقَ النظم ، وتبيّنَ أنه معروءُ العظم ^٩ ،
وإعْثاتُ المعذر ملأمة ^{١٠} ، وحبسُ المعسر ^{١١} ملأمة ^{١٢} ، وكتانُ الفقر زهّادة ،
وانتظارُ الفرج بالصبر عبادة فارْجعي إلى خدرك ^{١٣} ، واعذري أبا عذرك ^{١٤} ،
ونهنّهي من غَيْرِ بك ^{١٥} ، وسلمي بقضاء ربك — ثم إنه فرض لهما في الصّدقات
حِصّةً ، وناولهما من دارهما قبضة ^{١٦} ، وقال لهما : تملّلا ^{١٧} بهذه العلالة ^{١٨} ،
وتندّيا بهذه البلالة ^{١٩} ، وصبراً على كيد الزمان وكده ، فعسى الله أن يأتي بالفتح

(١) أي لا تنظر إلى واحد منا والمراد لا تعدل عن الحق (٢) أي أتقن ما
قاله وأنشأه من شاد البناء إذا طلاه بالشيد وهو الجص (٣) ويروى بالعين المهملة من
شغف الحب فؤاده أي علاه وشمله — وبالعين المعجمة أي فتن وبلغ حبها شغافه ،
وهو غلاف القلب (٤) انقطاع وفناء (٥) أي جماعة الكرم ، والجيل أهل زمان
واحد (٦) بكسر الهمزة أي لا اظني (٧) زوجك (٨) الخالص (٩) كناية
عن الهزال يقال عظم معروء إذا اخذ ما عليه من اللحم (١٠) الإعْثات : الحمل
على المشقة الشديدة والمعذر البالغ في العذر أو هو الذي يأتي بما يعذر به ويطلق
على المحقق العذر ، وعلى الذي بان عذره والملأمة اللؤم (١١) العساجز عن قضاء
الدين (١٢) إيلام (١٣) بيتك وسترك (١٤) أبو عذر المرأة أول زوج لها
(١٥) أي كفي وازجري نفسك عن الحدة (١٦) هي ما يتناولها الإنسان بأطراف
أصابعه (١٧) تشاغلاً وتلاهما (١٨) ما يتعلل به وأصلها بقية اللبن (١٩) قدر ما
يبيل به الشيء واسم للبقية أيضاً .

أو أمر من عنده ، فنهضا وللشيخ فرحة المطلق من الإسار ١ ، وهيزة الموسر بعد الإعسار .

قال الراوي : وكنت عرفت أنه أبو زيد ، ساعة بزغت شمسهُ ، ونزعت ٢ عرسهُ وكدتُ أفصح عن افتنانه ٣ ، وأغار أفنانه ٤ ثم أشفقت ٥ من عثور ٦ الماضي على بُهتانه ٧ ، وتزويق ٨ لسانه ، فلا يرى عند عرفانه ٩ أن يُرشحه ١٠ لإحسانه ، فأحجمت ١١ عن القول إحجامَ المرتاب ١٢ ، وطويت ذكره كطي السجل للكتاب ١٣ ، إلا أني قلت بعد ما فصل ١٤ ووصل إلى ما وصل ؛ لو أن لنا مَنْ يَنْطلق في أثره لأنا بفصّ خبره ١٥ ، وما يُنشر من خبره ١٦ فأتبعه ١٧ القاضي أحد أمتائه ، وأمره بالتجسس ١٨ عن أنبائه ١٩ ، فما لبث أن رجع مُتدهداً ٢٠ ، وقهقر مُقهقهاً ٢١ ، فقال له القاضي :

(١) القيد الذي يشد به الأسير (٢) خبثت والنزع الذر بالقيح والإفساديين الناس ومعناه خاصته عرسه (٣) يقال افتن لرجل في حديثه إذا جاء بالأفانين وهى الاساليب والمراد هنا تصرفه في الفنون والمعارف (٤) جمع فنن بالتحريك وهو طرف الغصن (٥) خفت (٦) اطلاع (٧) كذبه (٨) التزويق التحسين ، والتزويق مأخوذ من الزاويق ، وهو الزئبق (٩) معرفته (١٠) الترشيح ، والتربية ، والتأهيل من ترشيح الطيبة ولدها ، لأنها إذا بلغ ولدها السعي سمعت به حتى عرقا فتقوى ؛ وبأني بمعنى القوة ايضاً (١١) تأخرت (١٢) الشاك (١٣) السجل : الصحيفة فيها الكتابة - أي كما تطوي الصحيفة الكتابة (١٤) ذهب (١٥) بحقيقة حاله (١٦) الخبر أردية يمانية موشاة جمع حبرة ، هي : ما تلبسه المرأة المصرية ، والمراد ما يذكره من الكلام المسجع الشبيه بالخبر في الحسن (١٧) أي أرسل وراءه من يقبعه (١٨) أي بالبحث سرّاً بحيث لا يشعر (١٩) أخباره (٢٠) التدهده : الإسراع من دهمته الحجر إذا دحرجته وتبدل الهاء الأخيرة جاء فيقال تدهدي تدهدياً (٢١) القهقرى المشي إلى الوراء ، والقهقهة الضحك بصوت مرتفع .

مهيّم^١ يا أبا مريم^٢؟ فقال له: لقد عايننت عجباً، وسمعت ما أنشأ لي طرباً، فقال له: ماذا رأيت؟ وما الذي وعيت؟ قال: لم يزل الشيخُ مذخرج يُصفتي بيديّه، ويخالف بين رجله^٣، ويُمرّد ببلء شديقه؛ ويقول:

كذتُ أصلي؛ ببليته من وقاح^٤ شمّريته^٥
وأزور السّجن لولا حاكم الإسكندريته

فَضَحَكَ القاضي حتى هوت^٦، دُنَيْتُهُ^٨، وذوت^٩ سكيّفته^١، فلما فاء^{١١} إلى الوقار، وعَقَبَ الاستغفار بالاستغفار، قال: اللهم بحرمة عبادك المقرّبين حرّم حبسي على المتأدّبين، ثم قال لذلك الأمين: عليّ^{١٢} به، فانطلق مُجِدّاً في مطلبه، ثم عاد بعد لآيه^{١٣} بخبراً بنأيه^{١٤}، فقال له القاضي: أما إنه لو حضر لكُفّي الحذر^{١٥}، ثم لأوليته ما هو به أولى، ولأريته أنت الآخره خير^{١٦} له من الأولى؛ قال الحارث بن همام: فلما رأيت صغوّ^{١٦} للقاضي إليه، وفوت ثمرة التنبيه عليه غَشِيْتَنِي^{١٧} ندامة الفرزدق^{١٨} حين أبات

-
- (١) اي ما الخبر، وهي كلمة لأهل اليمن، معناها، ما خبرك وما شأنك
(٢) يقال لعون القاضي أبو مريم (٣) اي يرقص (٤) احترق (٥) الوقاح قليلة الحياة بينة القحة والوقاحة وحافر وقاح صلب (٦) الشمري الماضي في الأمور الجاد فيها يحاول (٧) وقعت (٨) بتشديد النون والباء جميعاً قلنسوة يلبسها القضاة كأنها منسوبة إلى لدن (٩) ذبلت وفترت (١٠) وقاره (١١) رجع (١٢) اي ائت به وأحضره (١٣) اللأبي كالسعي الإبطاء والاحتباس (١٤) اي ببعده (١٥) ما يختار منه ويخاف (١٦) ميله (١٧) أتتني وحضرني (١٨) هو همام بن غالب التميمي الشاعر

النَّوَّارُ^١ والعُكْسَمِيُّ^٢ لَمَّا اسْتَبَانَ النَّهَارَ .

المقامة البشرية لبديع الزمان الهمذاني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

حدثنا عيسى بن هشام، قال كان بشر بن عوانة العبديّ صُعلوكاً، فأغار على ركب فيهم امرأة جميلة فتزوج بها ، وقال : ما رأيت كالليوم ، فقالت :

أَعْجَبَ بَشْرًا حَوْرًا فِي عَيْنِي وَسَاعِدًا أَبْيَضُ كَاللُّجَيْنِ
وَدُونَهُ مَسْرَحُ طَرْفِ الْعَيْنِ تَخْصَانَةُ تَرْفُلٍ فِي حَجَلَيْنِ
أَحْسَنُ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ لَوْ كَضَمْتُ بَشْرًا بَيْنَهَا وَبَيْنِي
أَدَامَ هَجْرِي وَأَطَالَ بَيْنِي وَلَوْ يَقِيسُ زَيْتُهَا بِزَيْتِي
لَأَسْفَرَ الصُّبْحُ لَذِي عَيْنَيْنِ

قال بشر : ويحك من أعنيت ؟ فقالت : بنت عمك فاطمة ، فقال : أهى من الحسن بحيث وصفت ؟ فقالت : وأزيد وأكثر ، فأنشأ يقول :

(١) النوار على وزن سحاب اسم زوجة الفرزدق ، وكان قد طلقها ثم ندم على ذلك ومن شعره في ذلك قوله :

ندمت ندامة الكسعي لما غدت مني مطلقة نوار
وكانت جنتي فخرجت منها كآدم حين أخرجه الضرار
ولو أني ملكت يدي وأمرني لكن علي للقدر الخيار

(٢) الكسعي هو عامر بن الحارث نسبة إلى كسع - بضم الكاف وفتح السين - حي من بني ثعلبة كان راعياً وعمل قوساً بعد طول تعب ثم رمى عنها ليلاً فنفذت في الرمية ووقع السهم في حجر ففقد منه الشرر فظن أن السهم أخطأ الرمية ، فرمى ثانياً وثالثاً إلى آخر الأسهم وكانت خمساً ، وهو يظن خطأها فعمد إلى قوسه فكسرها، ثم بات فلما أصبح تبين أن سهمه كلها أصابت فندم ندماً شديداً فضربت العرب المثل به في الندامة .

وَيَحْكُ يا ذاتِ الشَّايَا الْبَيْضِ ما خَلِيتُنِي مِنْكَ بِمُسْتَعِضِ
فَالآنَ إِذْ لَوَّحْتَ بِالْتَعْرِضِ خَلَوْتُ جَوْاً فَاصْفِرِي وَبَيْضِ
لَا تُضْمَ جَفْنَايَ عَلَى تَغْمِضِ ما لم أَشْلُ عَوْضِي مِنَ الْخَضِضِ
فَقَالَتْ كَمْ خَاطِبٍ فِي أَمْرِهَا الْخَا وَهِيَ إِلَيْكَ ابْنَةُ عَمِّ الْخَا

ثم أرسل الى عمه يخطب ابنته ، ومنعه العم أمنيتها ، فألى ألا يرعى على أحد منهم إن لم يُزوجه ابنته ، ثم كثرَت مضرَّاته فيهم واتصلت معرَّاته إليهم ، فاجتمع رجال الحي إلى عمه ، وقالوا : 'كف عنا مجنونك ، فقال : لا تلبسوني عاراً وأمهلوني حتى أهلكه' ببعض الحيل ، فقالوا : أنت وذاك ، ثم أرسل إليه عمه : إني آيتُ أن لا أزوج ابنتي هذه إلا بمن يسوق إليها ألف ناقة مَهراً ، ولا أرضاها إلا من 'نوق' خزاعة .

وكان غرض العم أن يسلك بِشَرِ الطَّرِيقِ بينه وبين 'خزاعة' فيفتريه 'الأسد'؛ لأن العرب قد كانت تحامت عن ذلك الطريق، وكان فيه أسدٌ يُسمَّى 'داداً' ، وحيَّةٌ تُدعى 'شجاعاً' يقول فيها قائلهم :

أَفْتَكُ مِنْ «دَادٍ» وَمِنْ «شُجَاعٍ» إِنْ يَكُ دَادُ سَيِّدَ السَّبَاعِ
فَإِنَّهَا سَيِّدَةُ الْأَفَاعِي

ثم إنَّ بِشَرًا سَلَكَ ذَلِكَ الطَّرِيقَ ، فَمَا نَصَفَهُ حَتَّى لَقِيَ الْأَسَدَ ، وَقَصَصَ 'مَهْرَهُ' فَنَزَلَ وَعَقَّرَهُ ، ثم اختلط سيفه إلى الأسد واعترضه وقطعه ، ثم كتب بدم الأسد على قميصه إلى ابنة عمه :

أَفَاطُمُ لَوْ شِهدَتْ بِبَطْنِ خَبَتٍ وَقَدْ لَاقَى الْهَزْبُ أَخَاكَ بِشَرَا
إِذَا لَرَأَيْتَ لَيْثًا أَمْ لَيْثًا هَزَبَرًا أَغْلَبَا لَاقَى هَزَبَرَا
تَبْهَتَسْنَ حِينَ أَحْجَمَ عَنْهُ مُهْرِي 'مَحَادَرَةً' ، فَقُلْتُ : عَفَرْتُ مُهْرَا

أَنْبَلُ قَسْدَمِيَّ ظَهَرَ الْأَرْضَ لِي رَأَيْتُ الْأَرْضَ أَثْبَتَ مِنْكَ ظَهْرًا
وَقُلْتُ لَهُ وَقَدْ أَبْدَى نِصَالًا مُحَدَّدَةً وَوَجْهًا مَكْفَهْرًا
يُكَفِّكُفُ غِيلَةً لِأَحَدِي يَدِيهِ وَيَبْسُطُ لِلْوُثُوبِ عَلِيَّ أُخْرَى
يُدِلُّ بِمِخْلَبٍ وَبِحَدِّ نَابٍ وَبِالْحِظَاتِ تَحْسِبُهُنَّ جَمْرًا
وَيُغْنِي مَاضِي الْحَدِّ أَبْغِي بِمَضْرَبِهِ قِسْرَاعَ الْمَوْتِ أَثْرًا
أَلَمْ يَبْلُغْكَ مَا فَعَلْتُ ظُلْبَاهُ بِكَاطِمَةٍ غَدَاةٍ لَسَقَيْتُ سَعْمًا
وَقَلْبِي مِثْلُ قَلْبِكَ لَيْسَ يَخْشَى مُصَاوَلَةً فَكَيْفَ يَخَافُ دُعَا
وَأَنْتَ تَرُومُ لِلْأَشْبَالِ قُوَّتَا وَأَطْلُبُ لَابِنَةَ الْأَعْمَامِ مَهْرًا
فَقِيمَ تَسْوَمِ مِثْلِي أَنْ يُوَلِّي وَيَجْعَلُ فِي يَدِيكَ النَّفْسَ قَسْرًا
نَصَحْتُكَ فَالْتَمِسْ يَالَيْتُ غَيْرِي طَعَامًا إِنْ لَحِي كَانَ مُرًّا
فَلِمَا ظَنُّ أَنْ الْغَشَّ نَصَحِي وَخَالَفَنِي كَأَنِّي قُلْتُ هُجْرًا
مَشَى وَمَشَيْتُ مِنْ أَسْدَيْنِ رَامَا تَرَامَا كَانَ إِذْ طَلَبَاهُ وَعَرَا
هَزَزْتُ لَهُ الْخُسَامَ فَخَلْتُ أَنِي سَلَّتْ بِهِ لَدَى الظُّلُمَاءِ فَجَرَا
وَجُدْتُ لَهُ بِجَائِشَةٍ أَرْتَهُ بِأَنْ كَذَبْتَهُ مَا مَنَنْتَهُ غَدْرًا
وَأَطْلَقْتُ الْمُشْنَدَ مِنْ يَمِينِي فَقَدْ لَهُ مِنَ الْأَضْلَاعِ عَشْرًا
فَفَخَّرَ بِجَنْدَلٍ بَدَمٍ كَأَنِّي هَدَمْتُ بِهِ بِنَاءً مُشْمَخِرًا
وَقُلْتُ لَهُ : يَعْزُ عَلِيَّ أَنِي قَتَلْتُ مُنَاسِبِي جَلْدًا وَفَخْرًا
وَلَكِنْ رُمْتُ شَيْئًا لَمْ يَرُمْهُ سَوَاكَ فَلَمْ أَطُقْ يَالَيْتُ صَبْرًا
تَحَاوَلْتُ أَنْ تَعَلَّمَنِي قِرَارًا لَعَمْرُ أَبِيكَ قَدْ حَاوَلْتَ نُكْرًا
فَلَا تَجْزَعُ فَقَدْ لَاقَيْتَ حُرًّا بِحَاذِرُ أَنْ يُعَابَ فُتَّ حُرًّا

فلما بلغت الأبيات عمه بسند ، على ما منعه تزويجها ، وخشي أن تقتله
الحية ، فقام في أثره وبلغه ، وقد ملكته سورة الحية .

فلما رأى عمه أخذته حمية الجاهلية ، فجعل يده في فم الحية وحكّم سيفه فيها وقال :

بِشْرٌ إِلَى المجد بعيدٌ هُـ لَمَّا رآه بالعراءِ عَمُّه
قد تَكَلَّمَتْهُ نَفْسُهُ وَأُمُّهُ جَاشَتْ به جَائِشَةٌ تَهْمُهُ
قام إلى ابنِ اللقلا يؤثُّه فغاب فيه يده وكُمُّه
ونفسه نفسي وسمّي سُمُّه

فلما قتل الحية قال عمه : إني عَرَضْتُكَ طمعاً في أمرٍ قد نسي الله عناني عنه ،
فارجع لأزواجك ابنتي

فلما رجع جعل بِشْرٌ يلاً فمه فخراً حتى طلع أمرد كَشَقَ القمر على فرسه
مدججاً في سلاحه . فقال بِشْرٌ : إني أسمع حسنَ صيْدٍ وخرج فإذا بفلام على
قيدٍ ، فقال : ثَكَلْتُكَ أُمِّكَ يا بِشْرُ إن قتلت دودة وبهيمة تملأ ماضغيتك فخراً ،
أنت في أمان إن سلّمت عمك ، فقال بِشْرٌ : مَنْ أنت ؟ لا أُمُّ لك ؟ قال :
اليوم الأسود والموت الأحمر . فقال بِشْرٌ : ثَكَلْتُكَ من سلحتك . فقال : يا بِشْرُ
ومن سلحتك ، وكرّ كلُّ واحدٍ منها على صاحبه ، فلم يتمكن بِشْرُ منه ، وأمكن
الفلام عشرين طعنة في كُليّة بِشْرٍ ، كلما مسّه شبا السّنان حماء عن بدنه
إبقاءً عليه ، ثم قال : يا بِشْرُ كيف ترى ؟ أليس لو اردت لأطعمتُك أنيساب
الرّمح ؟ ثم ألقي رمحه ، واستلّ سيفه فضرب بِشْرَ عشرين ضربة بعرض
السيف ، ولم يتمكن بِشْرُ من واحدة ، ثم قال : يا بِشْرُ سلّم عمك وذهب في
أمانٍ ، قال : نعم ، ولكن علم شريطة أن تقول لي من أنت ؟ فقال : أفا ابن
المرأة التي دَلَسْتُكَ على ابنة عمك ؟ فقال بِشْرُ :

تلك العصا من هذه العصية وهل تلد الحية إلا الحية

وحلف لا ركب حصاناً ، ولا تزوج حصاناً ، ثم زوج ابنة عمه لابنه

الفن السادس في الروايات

الرواية عبارة عن ذكر قولٍ أو فعلٍ حدثا ، أو أمكن حدوثها .

وخواصها أربعة : الإيضاح ، والإيجاز ، والإمكان ، والتلطُّف .

فالإيضاح : يكون بتقديم فرش للحديث ، وتوطئة للخبر ، يُقرَّب مأخذ الرواية ، وبمراعاة الترتيب الطبيعي في إيراد ظروف الخبر ما لم يكن للراوي غرضٌ لتجاوز هذا النظام ؛ وبالعدول عن كثرة الاستطرادات في إنشاء الحديث لأن ذلك يصرف العقل عن سياق الرواية ويذهب برؤيتها .

والإيجاز : حذف فصول حشو الكلام مع انتقاء أخص الظروف وأنسبها للغة ، ولا بأس بالإطناب إذا ما دعا إليه مقتضى الحال .

والإمكان : ترشيح الرواية للقبول في ذهن السامع .

والتلطُّف : في الرواية أن يبلغ الكاتب كنه القلوب ، ويأخذ بمجامع اللب بأن ينتقل فيها من حال إلى حال لأن النفس قد جبلت على محبة التحول وطبعت على إثارة التنقل .

والرواية ثلاثة أجزاء : صدرها ، وعيقتها ، وختامها . فالصدر ، التوطئة للواقع بحيث يقف السامع على أسماء الأشخاص وطائعهم ، وعلى مكان الواقع وسوابق العمل . والعقدة : هي الجزء الذي على محوره تدور الرواية ، وهو المجال الأوسع الذي تتقابل فيه الأشخاص وتشتبك الأحوال وتضطرم في النفس لواعج الشوق للوقوف على عاقبة الأمر ، فتنتقل من الرجاء إلى الخوف ومن الفرح إلى الحزن .

والختام : الجزء الأخير من الرواية الذي به تفكك الإرربة وتحل رباق الحديث ، فتنال النفوس بذلك مرامها وتفوز بوطرها ؛ ويسمته أن يكون فجائيا مرتبطا مع ما قبله ارتباطا محكما وافيا بالمراد بحيث ترضى به النفوس ، وترتاح إليه القلوب . وشواهد الرواية كثيرة لا نطيل بذكرها ؛ أفردنا الأدباء بالآليف العديدة ، ولنذكر هاهنا بعض ملح لا يزغني عنها المقام .

ليلى الأخيلية مع الحجاج

روى بعضهم أنه بينما كان الحجاج في مجلس ومعه عنبسة بن سعيد ،
إذ دخل الحاجب فقال : امرأةٌ بالباب ، فقال له الحجاج : أدخلها ، فدخلت فلما
رأها الحجاج طأطأ رأسه حتى ظننت أن ذقنه قد أصاب الأرض ، فجاءت حتى
قعدت بين يديه فنظرت فإذا امرأة قد أسننت ، حسنة الخلق ، ومعهما جاريتان
لها ، وإذا هي ليلي الأخيلية ، فسأها الحجاج عن نسبها ، فانتسبت له ، فقال لها :
يا ليلي ما أتى بك ؟ فقالت : إخلافُ النجوم وقلة الغيوم ، وقلب البرد ، وشدة
الجهد ، وكنت لنا بعد الله الرقد . فقال لها صفي لنا الفجاج ، فقالت : الفجاج
مُغبرة ، والأرض مقشيرة ، والبرك معتل ، وذا العيال مختل ، والهالك للقل
والناس مسنتون ، رحمة الله يرجون ، وأصابتنا سنون بحجفة مبلطة ، لم تدع
لنا هُبَماً ولا رُبَماً ، ولا عافطة ولا نافطة ، أذهبت الأموال ، ومزقت الرجال
وأهلك العيال ، ثم قالت : إني قلت في الأمير قولاً ، قال مات ، فأنشأت تقول :

أحجاجُ لا يفللُ سلاحك إنما السمنايا بكف الله حيث يراها
أحجاج لا تعط العضاة منام ولا الله يُعطي للعضاة منهاها
إذا هبط الحجاج أرضاً مريضة تتبّع أقصى دائها فشفاهها
شفاهها من الداء العضال الذي بها غلامٌ إذا هزّ القناة سقاها
سقاها فرواًها بشرّب سجاله دماء رجالٍ حيث مال حشاها
إذا سمع الحجاج رز كتيبة أعد لها قبل النزول قراها
أعد لها مصقولةً فارسيةً بأيدي رجالٍ يحملون صراها
فما ولد الأبتكار والعون مثله ببجيرة ولا أرض يحف ثراها

قال : فلما قالت هذا البيت ، قال الحجاج : قاتلها الله ، ما أصاب صيفتي شاعرٌ
منذ دخلت العراق غيرها ، ثم التفت إلى عنبسة بن سعيد ، فقال : والله إني لأعد
لأمر عسى أن لا يكون أبداً ، ثم التفت إليها فقال : حسبك . قالت : إني قد

قلت أكثر من هذا . قال : حسبك ، ويحك حسبك . ثم قال : يا غلام اذهب إلى فلان ، فقل له اقطع لسانها ، فذهب بها فقال له : يقول لك الأمير : اقطع لسانها ، قال فأمرَ بها حصار الحِجَام فالتفتت إليه فقالت : ثَكَلْتُكَ أملك ، أما سمعت ما قال ؟ إنما أمرَكَ أن تقطع لساني بالصلة ، فبعث إليه يستثبته ، فاستشاط الحجاج غضباً ، وهمَّ بقطع لسانه ، وقال : أرددها، فلما دخلت عليه قالت : كاد (وأمانة الله) يقطع مِيقولي ؛ ثم أنشأت تقول

حجاج أنت الذي ما فوقه أحدٌ إلا الخليفةُ والمستغفر الصمد
حجاج انت شهابُ الحرب إن لقحت وأنت للناس نورٌ في الدجى يقدُ

ثم أقبل الحجاج على جلسائه فقال : أتدرون من هذه ؟ قالوا : لا والله أيها الأمير ، إنما لم نَرَ قط أفصحَ لساناً ، ولا أحسنَ محاورَةً ، ولا أملحَ وجهاً ، ولا أرسنَ شعراً منها . فقال : هذه ليلى الأخيلية التي ماتت توبة الخفاجي من حبها . ثم التفت إليها فقال : انشدينا يا ليلى بعض ما قال فيك توبة ، قالت : نعم أيها الأمير ، هو الذي يقول :

وهل ليلى تبكيه إذا ميت قبلها وقام على قبري النساء النوائحُ
كما لو أصاب الموت ليلى بكيتها وجاد لها دمعٌ من العين سافحُ
وأغبطُ من ليلى بما لا أناله بلى كل ما قرّت به العين طائحُ
ولو أن ليلى الأخيلية سلمت عليّ ودوني جندلٌ وصفائحُ
لسلمتُ تسليم البشاشة أورقا إليها صدّي من جانب الفبر صائحُ

ثم قال : سلي يا ليلى تعطي قالت : أعطِ فمثلك أعطى فأحسن . قال لك عشرون ، قالت : زد ، فمثلك زاد فأجل ، قال لك اربعون . قالت زد فمثلك زاد فأكمل . قال لك ثمانون ، قالت زد ، فمثلك زاد فتمم . قال مائة واعلمي انها غنم ، قالت : معاذ الله أيها الأمير ، انت أجودُ جوداً ، وأجبدُ مجداً ، وأروى زنداً من ان تجعلها غنماً ، قال : فما هي ويحك يا ليلى ؟ قالت مائة من الإبل

برعاتها. فأمر لها بها ، ثم قال : ألك حاجة بعدها ؟ قالت يدفع إليّ النابغة الجعدي. قال : قد فعلت . وقد كانت تهجوه ويهجوها ، فبلغ النابغة ذلك فخرج هارباً عائداً بعبد الملك ، فاتبعته إلى الشام فهرب إلى قتيبة بن مسلم بخراسان فاتبعته على البريد بكتاب الحجج إلى قتيبة بقومس ويقال بخلوان .

بنات الشاعر المقتول

كان لشاعر عدو* : فبينما هو سائر ذات يوم في بعض الطرق إذا هو بعدو* ، فعلم الشاعر أن عدو* قاتله لا محالة ؛ فقال له : يا هذا أنا أعلم أن المشيئة قد حضرت ولكن سألتك الله إذا انت قتلني ان امض لي داري ، وقبض بالباب وقل : « ألا ايها البنتان إن أباكما » فقال : سمعاً وطاعة ، ثم إنه قتله ، فلما فرغ من قتله أتى إلى داره ، ووقف بالباب وقال : « ألا ايها البنتان إن أباكما » وكان للشاعر ابنتان فلما سمعتا قول الرجل « ألا ايها البنتان إن أباكما » أجابته بغير واحد « قتل خنذاً بالشأ من أباكما » ثم تعلقتا بالرجل ، ورفعتاه إلى الحاكم فاستقر رآه فأقر بقتله فقتله .

المرأة المتكلمة بالقرآن الكريم

قال عبدالله بن المبارك : خرجت حاجتاً إلى بيت الله الحرام ، وزيارة قبر نبيه عليه الصلاة والسلام ، فبينما أنا في بعض الطريق إذ أنا بسوادي ، فتميزت ذلك فإذا هي عجوز عليها درع من صفوف وخمار من صوف فقلت السلام عليك ورحمة الله وبركاته ، فقالت : « سلام قولاً من رب رحيم » فقلت لها يرحمك الله ما تصنعين في هذا المكان ؟ قالت : « ومن يضل الله فلا هادي له » فعلمت أنها ضالة عن الطريق فقلت لها أين تريدن ؟ قالت : « سُبْحَانَ الذي أسرى بعبد لهيلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى » فعلمت أنها قد قضت حاجتها وهي تريد بيت المقدس ، فقلت لها أنت منذ كم في هذا الموضع ؟ قالت : « ثلاث ليال سويتاً » فقلت ما أرى مملك طعاماً تأكلين ، قالت : « هو يطعمني ويسقين »

فقلت: فبأي شيء تتوضئين؟ قالت: «فإن لم تجدوا ماءً فتيمموا صعيداً طيباً». فقلت لها: إن معي طعاماً: فهل لك في الأكل؟ قالت: «ثم أتمتوا الصيام إلى الليل» فقلت ليس هذا شهر رمضان، قالت: «ومن تطوع خيراً فإن الله شاكرٌ عليم»، فقلت: قد أبيح لنا الإفطار في السفر. قالت: «وأن تصوموا خيراً لكم إن كنتم تعلمون» فقلت: لم لا تكلميني مثل ما أكلتك؟ قالت: «ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد» فقلت: فمن أي الناس أنت؟ قالت: «ولا تقف ما ليس لك به علم» إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً» فقلت: قد أخطأت فاجعليني في حلٍّ. قالت: «لا تشرب عليكم اليوم يغفر الله لكم» فقلت: فهل لك أن أحملك على ناقتي هذه فتدركي القافلة؟ فقالت: «وما تفعلوا من خير يعلمه الله» قال فأخذت ناقتي قالت: «قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم» فغضت بصري عنها، وقلت لها أركبي. فلما أرادت أن تركب بفرات الناقة، فمزقت ثيابها فقالت: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم» فقلت لها: اصبري حتى أعقلها، قالت: «فهيئناها سليمان» فعقلت الناقة وقلت لها اركبي فلما ركبت قالت: «سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون» قال: فأخذت بزمام الناقة وجعلت أسرع وأصيح. فقالت: «واقصد في مشيك واغضض من صوتك». فجعلت أمشي رويداً رويداً وأترنم بالشعر: فقالت: «فاقرءوا ما تيسر من القرآن» فقلت لها: لقد أتيت خيراً كثيراً قالت: «وما يذكركم إلا أولوا الألباب» فلما مشيت بها قليلاً قلت: ألسنك زوج؟ قالت: «يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسوءكم». فسكت، ولم أكلّمها حتى أدركت بها القافلة. وقلت لها: هذه القافلة فمن لك فيها؟ فقالت: «المال والبنون زينة الحياة الدنيا» فعلمت أن لها أولاداً. فقلت: وما شأنهم في الحج؟ قالت: وعلامات والنجم يهتدون. فعلمت أنهم أدلاء الركب. فقصدت بها القباب والعمارات فعلمت: هذه القباب فمن لك فيها؟ قالت «واتخذ الله إبراهيم خليلاً»، وكنتم الله موسى تكلياً»، «يا يحيى خذ الكتاب بقوة»، فناديت: يا إبراهيم، يا موسى

يا يحيى . فإذا أنا بشبَّان كأنهم الأقمار قد قبلوا ، فلما استقر بهم الجلوس ، قالت : « فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة فليُنظر أيها أركى طعاماً فليأتكم برزق منه » ، فضى أحدهم فاشترى طعاماً فقدمه بين يدي ، وقالت : « كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية » ، فقلت : الآن طعامكم على حرام حتى تخبروني بأمرها . فقالوا : هذه أمنا منذ أربعين سنة لم نتكلم إلا بالقرآن ، مخافة أن تزل فيسخط عليها الرحمن ، فسبحان القادر على ما يشاء . فقلت : « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » .

مروان بن الحكم - وعبدالله بن الزبير

روى عقيل بن خالد عن ابن شهاب أن مروان بن الحكم وعبدالله بن الزبير اجتماعاً ذات يوم في حُجرة عائشة (والحجاب بينهما وبينها) يحدثانها ويسألانها ، فجرى الحديث بين مروان وابن الزبير ساعة ؛ وعائشة تسمع .

فقال مروان :

فمن يشا الرحمن يخفيض بقدره وليس لمن لم يرفع الله رافع

فقال ابن الزبير :

فموضع إلى الله الأمور إذا اعتزت وبالله ، لا بالأقربين ، أدافع

فقال مروان :

ودأور ضمير القلب بالبر والتقى فلا يستوي قلبان قاس وخاشع

فقال ابن الزبير :

ولا يستوي عبدان هذا مكذب عتل لأرحام العشرة قاطع

فقال مروان :

وعبد يحافي جنبه عن فراشه يبيت يناجي ربه وهو راکع

فقال ابن الزُبَيْر :
 وللخير أهلٌ يُعرفون بهديهم إذا اجتمع عند الخُطوب المجامعُ
 فقال مروان :
 وللشر أهلٌ يُعرفون بشكلهم تُشيرُ إليهم بالفجور الأصابعُ
 فسكت ابن الزُبَيْر ولم يُجب ، فقالت عائشة . يا عبد الله مالك لم تُجب
 صاحبك ؟ فوالله ما سمعتُ تجاؤلاً في نحو ما تجاؤلتُها فيه أعجب إليّ من
 تجاؤلكما ، فقال ابن الزُبَيْر : إني خِفتُ عوار القول فكففتُ .

عبيد بن الأبرص - وامرؤ القيس

قبل إنَّ عُبَيْدَ بن الأبرص لقي امرأ القيس يوماً فقال له : كيف معرفتك
 بالأروابد ؟ قال : ما أحببت . فقال :
 ما حبةٌ مِثْنَةٌ قامتْ بِمِثْنَتِها دَرءاء ما أنبتت ناباً وأضراساً
 فقال امرؤ القيس :
 تلك الشعيرة تُسقى في سنابلها
 قد أخرجت بعد طول المكث أكداً
 فقال عبيد :
 ما السُّودُ والبيضُ والأسماءُ واحدةٌ لا تستطيعُ لهنَّ الناسُ تماساً
 فقال امرؤ القيس :
 تلك السحاب إذا الرّحمنُ أنشأها رَوَى بهنَّ بحول الأرض أيباساً
 فقال عبيد :
 ما مرتجاتٌ على هول مراكبها يقطنُ بعد المدى سيراً وأمراساً
 فقال امرؤ القيس :
 تلك النُّجومُ إذا جانت مطالعها شَبَّهتْها في سواد الليل أقباساً

فقال عبيد :

ما القاطعاتُ لأرض لا أنيسَ بها تأتي سِراعاً وما يرجِعن أنكاسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الرياحُ إذا هبَّت عواصِفُها كفى بأياها للشرب كُساسا

فقال عبيد :

ما الفاجعاتُ جهاراً في علانيةٍ أشدَّ من فيلقٍ ملحومةٍ باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك المنايا فما يبقينَ من أحدي يأخذنَ تحمقى وما يبقينَ أكياسا

فقال عبيد :

ما السَّابِقاتُ سِراعَ الطَّير في مهل لا يشتكين ولو طال المدى باسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الجياد عليها القومُ مُدَّنتَجَّتْ كانوا لهنَّ غداة الرّوع أحلاسا

فقال عبيد

ما الماطعاتُ لأرض الجوّ في طلق قبل الصبح وما يسوين قرطاسا

فقال امرؤ القيس

تلك الأمانيُّ يتركن الفقى ملكاً دون السماء ولم ترُفع له راساً

فقال عبيد :

ما الحاكمون بلا سمعٍ ولا بصرٍ ولا لسانٍ فصيحٍ يُعجبُ الناسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أرسلها رب البرية بين الناس مقياسا

أبو تراب - والشريف العباسي

اجتمع يوماً أبو تراب هبةً الله بن السريجي، والشريف العباسي وكانا شاعرين

فقال أبو تراب :

أسلوت حباً بدوراً أم تَتَجَلَّدُ وسهرت ليلك أم جُفونك تَرَقْدُ
فأجاب الشريف بديها :

لا بل 'هم' أَلِفُوا القطيعةَ مثلَ ما أَلِفُوا نزولهم بها فتَبَعَدُوا
فقال أبو تراب :

فإلامَ تصبرُ والفؤادَ متَيِّمٌ ولطى اشتياقِك في الحشى يتوقدُ
فأجاب الشريف :

ما دام لي جلد فلستُ يجازعُ إذْ كان صبري في العواقب يُحمدُ
فقال أبو تراب

أحسنتَ: كِتمانَ الهوى مُستحسنٌ لو كان ماءُ العينِ مما يحمدُ
فأجاب الشريف :

إنْ كانَ جفني فاضحي بدُموعه أظهرت للجلساء أني أرمدُ
فقال أبو تراب :

فهبِ الدموعَ إذا جرت موهتها فيقال لِمَ أنفاسُه تتصعدُ
فأجاب الشريف :

أمشي وأسرعُ كي يظنوا أنها من ذلك المشي السريع تولد
فقال أبو تراب :

هذا يجوز ومثله مُستعملٌ لكنَّ وجهك بالحبّة يشهدُ
فأجاب الشريف

إن كان وجهي شاهداً بهوى فما يُدرى إلى من بالحبّة أقصدُ
فقال أبو تراب

إخضعْ وذللْ لمن تحبّ فليسَ في حُكمِ الهوى أنفُ يشالُ ويعقدُ

فأجاب الشريف :

ذا لا يكون مع الحبيب وإنما مع ساقط متحيل يتعمد

المأمون والمرأة المتظلمة

جلس المأمون يوماً للمظالم فكان آخر من تقدم إليه ، وقد هم بالقيام امرأة عليها هيئة السفر ، وعليها ثياب رثة فوقفت بين يديه فقالت . (السّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فنظر المأمون إلى يحيى بن أكتّم فقال لها يحيى : وعليك السلام يا أمة الله ، تكلمي في حاجتك ، فقالت :

يا خير مُنتصف يهدي له الرّشد ويا إماماً به قد أشرق البلد
نشكو إليك عميد القوم أرملة عدا عليها فلم يترك لها سبب^٢
وابترّ مني ضياعي منمنمتها ظلماً وفرّق مني الأهل والولد^٣
فأطرق المأمون حيناً ثم رفع رأسه إليها وهو يقول :

في دون ما قلت زال الصّبر والجلد عني وأقرح مني القلب والكبد^٤
هذا أوان صلاة العصر فانصرفي وأحضري الخضم في اليوم الذي أعيد^٥
والجلس السبت إن يؤضّ الجلوس لنا نُنصّيفك منه وإلا المجلس الأحد^٦
فلما كان يوم الأحد جلس فكان أول من تقدم إليه تلك المرأة فقالت :

(السّلام عليك يا امير المؤمنين ورحمة الله وبركاته) فقال : وعليك السلام .
أين الخضم ؟ فقالت : الواقف على رأسك يا امير المؤمنين ، وأومأت إلى العباس ابنه فقال : يا احمد بن أبي خالد خذ بيدك فأجلسه معها مجلس الخصوم ، فجعل كلامها يعلو كلام العباس . فقال لها احمد بن أبي خالد : يا أمة الله إنك بين يدي امير المؤمنين وإنك تكلمين الأمير فاخفضي من صوتك . فقال المأمون :

(٢) يحيى بن أكتّم قاضي قضاة الدولة العباسية لعهد المأمون ومن سلالة أكتّم ابن صيفي توفي سنة ٢٤٢ (٣) أصل السبد : القليل من الشعر . ويقال ما له سبد ولا لبد اي لا قليل ولا كثير (٣) قوله : وإلا المجلس . أسقط منه فاء الجواب للضرورة .

دعها يا أحمد ، فإن الحق أنطقها وأخرسه . ثم قضى لها برد ضيعتها إليها ، وأمر بالكتاب لها إلى العامل ببلدها أن يوفّر لها ضيعتها ، ويحسن معونتها وأمر لها بنفقة .

عمر بن الخطاب - والهرمزان

لمّا أتى والهرمزان أسيراً إلى عمر بن الخطاب قيل له : يا امير المؤمنين هذا زعيم العجم وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الإسلام نصحالك في عاجلك وأجلك . قال : يا امير المؤمنين إنما أعتقد ما أنا عليه . ولا أرغب في الإسلام فدعا له عمر بالسيف فلما هم بقتله قال يا امير المؤمنين شربة من ماء أفضل من قتلي على ظمأ . فأمر له بشربة من ماء . فلما أخذها قال أنا آمن حتى أثمرها ؟ قال : نعم فرمى بها وقال : الوفاء يا امير المؤمنين نور أبلغ . قال صدقت لك التوقف عنك والنظر في أمرك . ارفعوا عنه السيف . فلما رفع عنه قال : الآن يا امير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمد عبده ورسوله وما جاء به حق من عنده . فقال عمر : أسلمت خير إسلام فما أخرك ؟ قال : كرهت أن تظنّ أني أسلمت جزعاً من السيف . فقال عمر : إن لأهل فارس عقولاً بها استحقوا ما كانوا فيه من الملك . ثم امر به أن يسير ويكرّم ، وكان بعد يشاوره في توجيه الجيوش لأهل فارس .

إبراهيم بن المهدي - وابن بختيشوع

قال العنبي : تنزع إبراهيم بن المهدي وابن بختيشوع الطبيب بين يدي أحمد بن أبي دؤاد في مجلس الحكم في عقار بناحية السواد ، فأرّبى^١ عليه إبراهيم وأعطل^٢ له فأغضب ذلك ابن أبي دؤاد فقال :

يا إبراهيم إذا نازعت في مجلس الحكم امرءاً فلا أعلن أنك رفعت عليه صوتاً ولا أثمرت بيد ، وليكن قصدك أمماً^٣ وريحك ساكنة ، وكلامك معتدلاً ، ووفّ مجالس الخليفة حقوقها من التعظيم والتوقير والاستيكانة والتوجّه

(١) أرّبى عليه : زاد . (٢) أعطل : اغضبه ، والحفيظة : الحمية والغضب

(٣) الأمم : البين من الأمر والوسط

إلى الواجب، فإن ذلك أشبه بك، وأشكل بمذهبك في تحديك^١، وعظيم خطرك ولا تمجلن فرُبَّ عجلة تهب ريثاً^٢ ، والله يعصمك من خطئ القول والعمل، ويؤتم نعمته عليك كما أتمها على أبويك من قبل إن ربك حكيم عليم .
فقال إبراهيم: أصحك الله، أمرت بسداد، وحضضت على رشاد، ولست عائداً لما يثلم^٣ مروه في عندك ، ويسقيطني من عينيك ، ويخرجني من مقدار الواجب إلى الاعتذار، فهأنذا معتذر إليك من هذه البادرة اعتذار مقرر بذنبه معترف بجرمه ، ولا يزال الغضب يستفزني^٤ ببوادره ، فيردني مثلك بجله ، وتلك عادة الله عندك وعندنا منك ، وقد جعلت حقي في هذا العقار لابن بختيشوع فليت ذلك يكون وافياً بأرثش^٥ الجناية عليه ، ولم يتلف مال أفاد موعدة ، وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الأحنف بن قيس - وقيس بن عاصم

قيل للأحنف بن قيس : بمن تعلمت الحليم ؟ قال : من قيس بن عاصم المنقري، رأيته قاعداً بفناء داره محتبياً^٦ بجنازل سيفه يحدث قومه حتى أتى برجل مكتوف ، ورجل مقتول ، فقيل له هذا ابن أخيك قتل ابنك ، فوالله ما حلّ حبوته ولا قطع كلامه ، ثم التفت إلى ابن أخيه وقال له : يا ابن أخي أسأت إلى رحيك ، ورميت نفسك بسهميك ، وقتلت ابن عمك ، ثم قال لابن له آخر : قم يا بني فحلّ كفاف ابن عمك ووار أخاك ، وسق إلى أمه مائة ناقة دية ابنها ، فلانها غريبة ، ثم أنشأ يقول :
إني امرؤ لا يطبي حسي دنس هجته ولا أفن^٧

- (١) المحدث ، الأصل (٢) الريث : الإبطاء والمقذار (٣) ثلم الإناء : كسره من حرفه (٤) استخفه وأزعجه (٥) الأرض : الدية وما يعطى تعويضاً (٦) احتبى : جمع بين ظهره وساقيه بعمامة أو نحوها ، والاسم من ذلك الحبوة (٧) طباه : دعاه واستهواه . والآفن ضعف الرأي وفعله كفرح .

من مِهْدَرٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُومَةٍ وَالْفُصْنُ يَنْبُتُ حَوْلَهُ الْفُصْنُ
خُطْبَاءُ حِينَ يَقُولُ قَائِلُهُمْ بَيْضُ الْوَجْهِ مَصَاقِعُ لِسٍ^١
لَا يَفْطِنُونَ لَعِيبِ جَارِهِمْ وَهُمْ لَحِيفُ جِيَّارِهِ فُطْنُ^٢

معن بن زائدة - وجاره بين يدي المهدي

قال سعيد بن مسلم: نذر المهدي دم رجل من اهل الكوفة ، كان يسمى في فساد سُلْطَانِهِ ، وجعل لمن دلّ عليه او جاء به مائة الف درهم . فأقام الرجل حيناً متوارياً ثم إنه ظهر بمدينة السلام^٣ ، فكان ظاهراً كغائب خائفاً متربّياً . فبينما هو يمشي في بعض نواحيها إذ بصّر به رجل من اهل الكوفة فعرفه فأهوى إلى مجامع^٤ ثوبه . وقال : هذا بغية امير المؤمنين فأمكن الرجل من قياده ، ونظر إلى الموت امامه . فبينما هو على تلك الحال ، إذ سمع وقع حوافر الخيل من وراء ظهره فالتفت فإذا معن بن زائدة فقال : يا ابا الوليد أجرني اجارك الله فوقف وقال للرجل الذي تعلّق به ، وما شأنك ؟ قال : بغية امير المؤمنين الذي نذر دمه ، واعطى لمن دلّ عليه مائة ألف درهم . فقال : يا غلام انزل عن دابّتك واحمل اخاك . فصاح الرجل يا معشر الناس يحال بني وبين من طلبه امير المؤمنين ! قال معن : اذهب فأخبره أنه عندي . فانطلق إلى باب امير المؤمنين فأخبر الحاجب فدخل إلى المهدي فأخبره فأمر بحبس الرجل ، ووجه إلى معن من يحضر به ، فأقته رسل امير المؤمنين وقد لبس ثيابه وقربت إليه دابته فدعا اهل بيته ومواليه وقال : لا يخلصن إلى هذا الرجل وفيكم عين تطرف^٥ ، ثم ركب ودخل حتى سلّم على المهدي ، فلم يرُد عليه وقال : يا معن أتجير علي ؟ قال : نعم يا امير المؤمنين . قال : ونسعم ايضاً ؟

(١) رجل لسن وألسن فصيح ، ويجمع ألسن على لسن كأحمر وحر (٣) فطن : جمع فطن . كجون : جمع جون ، وهذا جمع نادر (٣) مدينة السلام : هي بغداد ، او قسم منها (٤) مجامع الثوب : ما احاط بالجيب ويقال لها تلايب (٥) طرفت العين : تحركت .

واشتد غضبه ، فقال معن : يا امير المؤمنين قتلت في طاعتكم باليمن في يوم واحدة خمسة عشر ألفاً ، ولي ايام كثيرة قد تقدم فيها بلاني وحسن غثنائي ، فما رأيتموني أهلاً ان تهبوا لي رجلاً واحداً استجار بي ؟ فأطرق المهدي طويلاً ثم رفع رأسه وقد سُرِّيَ^١ عنه فقال قد أجرنا من أجرت ، قال معن : فإن رأى امير المؤمنين ان يصليه فيكون قد أحياه وأغناه ، فعَلَ ، قال : قد امرنا له بخمسة آلاف ، قال : يا امير المؤمنين إن صلوات الخلفاء على قدر جنبايات الرعية ، وإن ذنب الرجل عظيم ، فأجزل الصلة ، قال : قد أمرنا له بمائة ألف ، قال : فتعجلها يا امير المؤمنين بأفضل الدعاء ، ثم انصرف ولحقه المال ، فدعا الرجل وقال له : خذ صلتك والحق بأهلك وإيتاك ومخالفة خلفاء الله تعالى .

معن بن زائدة والأسود

روى مروان بن ابى حفصة عن معن بن زائدة انه قال : لما جد المنصور في طلبي ، وجعل لمن يحملني إليه مالا ، اضطررت لشيدة الطلب ان تعرضت للشمس حتى لوحت^٢ وجهي ، وخففت عارضي^٣ ، ولبست جببة صوف ، وركبت جملاً ، وخرجت متوجهاً إلى البادية لأقيم بها ، فلما خرجت من باب حرب ، وهو أحد ابواب بغداد ، تبسمني أسود متقلد سيفاً ، حتى إذا غبت عن الحرس قبض على خطام الجمل فأناخه وقبض على يدي ، فقلت له : ما بك ؟ فقال : أنت طلبة امير المؤمنين ، فقلت : ومن أنا حتى أطلب ؟ فقال : انت معن بن زائدة ، فقلت له : يا هذا ، اتقى الله عز وجل ، وأين انسا من معن ؟ فقال : دع هذا ، فلاني والله لأعرف بك منك ، فلما رأيت منه الجدة قلت له : هذا عبقد جوهر ، قد حملته معي بأضعاف ما جعله المنصور لمن يحيئه في خذله ولا تكن سبباً

(١) سرى عنه الهم : انكشف ، وقد يحذف المرفوع اكتفاء بالجار والمجرور .

(٢) لوحه العطش والسفر : غيره ولوحت وجهه الشمس : غير لونه (٣) العارضان .

جانبا الوجه ، وما يكون عليهما من اللحية (٤) الطلبة : الحاجة وما يطلب .

لِسَفْكَ دمي ، قال : هاته فأخرجته إليه ، فنظر إليه ساعة وقال كَصَدَقْتَ فِي قِيَمَتِهِ ، وَلَسْتُ قَابِلَهُ مِنْكَ حَتَّى أَسْأَلَكَ عَنْ شَيْءٍ فَإِنْ صَدَقْتَنِي أَطْلَقْتُكَ ، فَقُلْتَ : قُلْ ، قَالَ : إِنَّ النَّاسَ قَدْ وَصَفُوكَ بِالْجُودِ ، فَأَخْبِرْنِي هَلْ وَهَبْتَ مَالَكَ كُلَّهُ قَطْ ؟ قُلْتَ : لَا ، قَالَ : فَانْصَفْهُ ؟ فَقُلْتَ : لَا ، قَالَ : فَتَثْلُثْهُ ؟ قُلْتَ : لَا ، حَتَّى بَلَغَ الْعَشْرَ ، فَاسْتَحْيَيْتَ وَقُلْتَ : أَظُنُّ أَنِّي قَدْ فَعَلْتُ هَذَا ، قَالَ : مَا ذَاكَ بِعَظِيمٍ ؛ أَنَا وَاللَّهِ رَاجِلٌ^١ وَرَزَقِي مِنْ أَبِي جَعْفَرٍ الْمَنْصُورِ كُلَّ شَهْرٍ عَشْرُونَ دَرَاهِمًا وَهَذَا الْجَوْهَرُ قِيَمَتُهُ أَلْفُ دِينَارٍ ، وَقَدْ وَهَبْتُهُ لَكَ وَوَهَبْتُكَ لِنَفْسِكَ وَالْجُودُ الْكَافِرُ بَيْنَ النَّاسِ ، وَلَتَعْلَمَنَّ أَنَّ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا مَنْ هُوَ أَجُودُ مِنْكَ فَلَا تَعْجَبِيكَ نَفْسُكَ وَلَتَحْقِرَ بَعْدَ هَذَا كُلِّ جُودٍ فَعَلْتَهُ وَلَا تَتَوَقَّفَ عَنْ مَكْرَمَةٍ ، فَقُلْتَ : يَا هَذَا قَدْ وَاللَّهِ فَضَحَحْتَنِي وَلَسَفْكَ دمي عَلَيَّ أَهْوَنَ مِمَّا فَعَلْتَ ، فَخُذْ مَا دَفَعْتُهِ لَكَ فَأِنِّي غَنِيٌّ عَنْهُ ، فَضَحَكَ وَقَالَ : أَرَدْتُ أَنْ تَكْذِبَنِي فِي مَقَالِي هَذَا ، وَاللَّهِ لَا أَخَذْتُهُ وَلَا أَخَذْتُ الْمَعْرُوفَ ثَمًّا أَبَدًا ، وَمَضَى لِسَبِيلِهِ . فَوَاللَّهِ لَقَدْ طَلَبْتَهُ بَعْدَ أَنْ أَمِنْتُ ، وَبَذَلْتُ لِمَنْ يَحْيِي بِهِ مَا يَشَاءُ ، فَمَا عَرَفْتُ لَهُ خَبْرًا ، وَكَأَنَّ الْأَرْضَ ابْتَلَعَتْهُ .

معاوية والأعرابية

خَرَجَ مَعَاوِيَةُ مُتَنَزِّهًا ، فَمَرَّ بِحَيَوَاءٍ^٢ ضَخْمٍ ، فَقَصَدَ قَصْدَ بَيْتٍ مِنْهُ ، فَإِذَا بِفَيْنَائِهِ امْرَأَةٍ بَرُوزَةٍ^٣ ، فَمَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ غَدَاءٍ ؟ قَالَتْ : نَسَعَمُ حَاضِرٌ ، قَالَ : وَمَا غَدَاؤُكَ ؟ قَالَتْ خُبْزٌ تَخْمِيرٌ ، وَمَاءٌ تَمِيرٌ ، وَحَيْسٌ^٤ فَطِيرٌ ، وَلَبَنٌ هَجِيرٌ^٥ ، فَتَنَسَّى وَرَكَّهُ وَنَزَلَ ، فَلَمَّا تَغَدَّى قَالَ : هَلْ لَكَ مِنْ حَاجَةٍ ؟ فَذَكَرَتْ حَاجَةَ أَهْلِ الْحَوَاءِ ، قَالَ : هَاتِ حَاجَتَكَ فِي خَاصَّةِ نَفْسِكَ ، قَالَتْ : يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ إِنِّي أَكْرَهُ أَنْ تَنْزَلَ وَادِيًا^٦ فَيَرَفَّ^٧ أَوَّلُهُ وَيَقِفَ آخِرُهُ^٨ .

(١) الرَّاجِلُ : غَيْرُ الرَّكْبِ (٢) الْحَوَاءُ كَكِتَابٍ : جَمَاعَةُ الْبُيُوتِ الْمُتَدَانِيَةِ

(٣) الْبَرُوزَةُ مِنَ النِّسَاءِ : الْكَهْلَةُ الْجَلِيلَةُ تَبْرُزُ لِلْقَوْمِ وَتُحَدِّثُهُمْ مَعَ الْعِفَّةِ .

(٤) الْحَيْسُ : تَمْرٌ يَخْلُطُ بِسَمْنٍ وَلَبَنٍ مَخْضُوضٍ (٥) الْهَجِيرُ : الْخَاطِرُ مِنَ اللَّيْنِ .

(٦) رَفَ النَّبَاتُ : اهْتَزَّ (٧) قَفَ النَّبَاتُ : يَبَسَ .

الأحنف بين يدي معاوية

وقد الأحنف بن قيس على معاوية مع أهل العراق، فخرج الآذنين فقال : إن أمير المؤمنين يعزيم عليكم أن لا يتكلم أحدٌ إلا لنفسه ، فلما وصلوا إليه قال الأحنف : لولا عزيمة أمير المؤمنين لأخبرته أن دافئة دفت ^١ ، ونازلة نزلت ، ونابذة نبذت ، كلشهم بهم حاجة إلى معروف أمير المؤمنين ورءه ، فقال معاوية : حسنبك يا أبا بجر فقد كفيشت الشاهد والغائب .

الأحنف بين يدي عمر بن الخطاب

قدم الأحنف بن قيس التسميمي على عمر بن الخطاب في أهل البصرة ، وأهل الكوفة ، فتكلموا عنده في أنفسهم وما يذوب كل واحد منهم ، وتكلم الأحنف فقال : يا أمير المؤمنين ، إن مفاتيح الخير بيد الله ، وقد أتتك وفود أهل العراق وإن إخواننا من أهل الكوفة والشام ومصر نزلوا منازل الأمم الخالية ، والملوك الجبابرة ، ومنازل كسرى وقيصرو بني الأصفر ^٢ ، فهم من المياه العذبة والجنان المختلفة في مثل حواء السلي ^٣ وحادقة البعير ^٤ ، تأتيتهم ثمارهم غضة لم تخصر ، وإنا أنزلنا أرضاً طرّف في فتلة ، وطرّف في ملح أجاج جانب منها منابت القصب وجانب سبخة نشاشة لا يحيف ثراها ولا ينبث مرعاها ، يخرج الرجل الضعيف منا يستعذب الماء من قعر سخين ، وتخرج المرأة بمثل ذلك ترنق لولدها ترنق العنز ، تخاف عليه العدو واليبيع فإلا ترفع حسيستنا ، وتنشعش ^٥

(١) يقال : دفت دافة أي أتت فئة مهاجرة (٢) بنو الأصفر عند العرب : هم الروم (٣) السلي غلاف رقيق يكون فيه المولود ، والحواء جلدة خضراء مملوءة ماء تخرج مع الولد وهذا يكتنون به عن الخصب وكثرة الماء والخضرة (٤) قال في اللسان وفي حديث الأحنف نزلوا في مثل حدة البعير أي نزلوا في خصب وشبه بحدة البعير لأنها ربا من الماء (٥) غضة : طرية (٦) ارض سبخة نشاشة لا يحيف ثراها ولا ينبث مرعاها (٧) رنق الماء صفا (٨) نعشه : رفعه كأنعشه ، والر كيسة الضعيفة .

رَكِيسَتْنَا وَتَجَبَّرُ فَاقْتَنَّا، وَتَزِدُ فِي عِيَالِنَا عِيَالًا، وَفِي رَجَالِنَا رَجَالًا، وَتَصْفُرُ دَرَهْمَنَا، وَتَكْبُرُ قَفِيزَنَا، وَتَأْمُرُ لَنَا بِجَفَرِ نَهْرٍ نَسْتَعِذُّ بِهِ مِنَ الْمَاءِ، وَلَا هَلَكْنَا، فَقَالَ عَمْرٌ: هَذَا وَاللَّهِ السَّيِّدُ! هَذَا وَاللَّهِ السَّيِّدُ! ثُمَّ كَتَبَ إِلَى أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ أَنْ يَخْتَفِرَ لَهُمْ نَهْرًا.

أُسَيْدُ بْنُ عَنُقَاءَ - وَعميلة الفزاري

كَانَ أُسَيْدُ بْنُ عَنُقَاءَ الْفَزَارِيُّ مِنْ أَكْبَرِ أَهْلِ زَمَانِهِ، وَأَشَدَّهُمْ عَارِضَةً وَلِسَانًا، وَطَالَ عَمْرُهُ، وَنَكَبَتْهُ دَهْرُهُ، وَاخْتَلَسَتْ حَالُهُ، فَخَرَجَ عَمَلِيَّةً يَتَنَقَّلُ الْأَهْلَ، فَسَرَّ بِهِ 'عميلة الفزاري'، فَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَقَالَ: يَا عَمُّ مَا أَصَارَكَ إِلَى مَا أَرَى؟ قَالَ: 'بُخْلٌ مِثْلِكَ بِمَالِهِ، وَصَوْنٌ رَجْهِي عَنْ أَمْوَالِ النَّاسِ، فَقَالَ: لَشَيْءٍ بَقِيتُ إِلَى غَدٍ لَا غَيْرَ رَنٍّ' مَا أَرَى مِنْ حَالِكَ، فَرَجَعَ ابْنُ عَنُقَاءَ إِلَى أَهْلِهِ، فَأَخْبَرَهَا بِمَا قَالَ لَهُ 'عميلة'، فَقَالَتْ لَهُ: لَقَدْ غَرَّكَ كَلَامُ 'غَلَامٍ'، جَنَحَ ظِلَامٌ فَكَأَنَّمَا أَلْقَمْتَ فَاةَ حَجَرٍ، فَبَاتَ مُسْتَمْلِلًا بَيْنَ رَجَاءٍ وَيَأْسٍ، فَلَمَّا كَانَ السَّحَرُ سَمِعَ رُغَاءَ الْإِبِلِ وَثَغَاءَ الشَّاةِ وَصَهِيلَ الْخَيْلِ وَلَجِبَ الْأَمْوَالَ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا 'عميلة'، سَأَى إِلَيْكَ مَالَهُ، فَخَرَجَ ابْنُ عَنُقَاءَ لَهُ، فَفَقَسَمَ 'عميلة' مَالَهُ شَطْرَيْنِ، وَسَاهَمَهُ عَلَيْهِ، فَأَنشَأَ ابْنُ عَنُقَاءَ يَقُولُ:

رَأَيْتُ عَلَى مَا بِي 'عميلة' فَاشْتَكَيْتُ إِلَى مَالِهِ حَالِي أَسْرًا كَمَا جَهَرْتُ
دَعَانِي فَنَاسَانِي وَلَوْ ضَنْ لَمْ يُسَلِّمْ عَلَى حِينٍ لَا بَدُوٌّ يَرَحُّي وَلَا حَضَرُ
فَقُلْتُ لَهُ خَيْرٌ وَأَثْنَيْتُ فَعَمَلَهُ، وَأَوْفَاكَ مَا أَبْلَيْتُ مِنْ ذِمِّ أَوْ شَكَرْتُ
وَلَمَّا رَأَى الْمَجْدَ اسْتَعْبَرَتْ ثِيَابَهُ تَرَدَّى رِدَاءٌ سَابِغُ الذَّيْلِ وَاتَزَرَّ^٦
غَلَامٌ رَمَاهُ اللَّهُ بِالْخَيْرِ مُقْبِلًا لَهُ سَيْمِيَاءُ لَا تَشْتَقُّ عَلَى الْبَصْرِ^٧
إِذَا قِيلَتْ الْعَوْرَاءُ أَغْضَى كَأَنَّهُ ذَلِيلٌ بَلَا ذُلٍّ وَلَوْ شَاءَ لَانْتَصَرَ^٨

(١) القفيز: مكيال (٢) تبقل: خرج يطلب البقل (٣) جنح الليل أو الظلام الطائفة منه (٤) اللجب: الجلبة والصياح واضطراب موج البحر (٥) ساهمه: قارعه أي ضرب القرعة (٦) تزر من الإزار - قلت الهمزة تاء الافتعال -
(٧) السيام والسيماء، والسيمياء والسيمياء: العلامة يقول يفرح به من يراه للطف بحياه (٨) العوراء، الكلمة القبيحة، وقرب من هذا البيت قوله:
يصم عن الفحشاء حتى كأنه إذا ذكرت في مجلس القوم غائب
(٢٧ - جواهر الأدب ١)

الفضل وجعفر ابنا يحيى البرمكي

قال محمد بن عبد الرحمن الهاشمي ^١ : كانت أم جعفر بن يحيى تزور أمي . وكانت لبيبة من النساء ، حازمة فصيحة برزة ، يعجبني أن أجدّها عند أمي فأستكثر من حديثها ، فقلت لها يوماً : يا أم جعفر : إن بعض الناس يفضل جعفرأ على الفضل ، وبعضهم يفضل الفضل على جعفر ، فأخبريني ، فقالت : ما زلنا نعرف الفضل للفضل ، فقلت : إن أكثر الناس على خلاف هذا ، فقالت : ها أناذّرك أحدثك وأقض أنت . وذلك الذي أردت منها ، فقالت : كانا يوماً يلعبان في داري ، فدخل أبوهما فدعا بالفداء وأحضرهما ، فطعما معه ، ثم آنسهما بحديثه ، ثم قال لهما : أتلعبان بالشطرنج ؟ فقال جعفر وكان أحراًهما : نعم ! قال : فهل لآعبت أخاك بها ؟ قال جعفر : لا . قال : فالعبا بها بين يدي لأرى لمن الغلب ؟ فقال جعفر : نعم ! وكان الفضل أبصر منه بها ، فجاء بالشطرنج فصنعت بينهما ، وأقبل عليها جعفر ، وأعرض عنها الفضل . فقال له أبوه : مالك لا تلعب أخاك ؟ فقال : لا أحب ذلك . فقال جعفر : إنه يرى أنسه أعلم بها مني ، فيأنسف من ملاعبي ، وأنا لأعبه لمخاطرة . فقال الفضل : لا أفعل . فقال أبوه لأعبه وأنا معك . فقال جعفر : رصيت ، وأبى الفضل ، واستعفى أباه ، فأعفاه ، ثم قالت لي قد حدثتك فاقض ، فقلت : قد قضيت بالفضل للفضل على أخيه ، فقالت : لو علمت أنك لا تحسن القضاء لما حكمتك ، أفلا ترى ان جعفرأ قد سقطت اربع سقطات تنزه الفضل عنهم ؟

فسقط حين اعترف على نفسه بأنه يلعب بالشطرنج ، وكان أبوه صاحب جد . وسقط في التزام ملاعبة أخيه وإظهار الشهوة لقلبته والتعرض لغضبته . وسقط في طلب المقامرة وإظهار الحرص على مال أخيه . ولرابعة قاصمة الظهر حين قال أبوه لأخيه لأعبه وأنا معك ، فقال أخودلا .

(١) هو محمد بن غسان بن عبد الرحمن صاحب صلاة الكوفة .

وقال هو نعم ؟ فناصب صفّاً فيه ابوه وأخوه ؟ فقلت : أحسنت ، والله وإنك لأقضى من الشعبي ، ثم قلت لها : عزمت عليك أخبريني هل خفي مثل هذا على جعفر ؟ وقد فطن له أخوه ، فقالت : لولا العزّمة لما خبرتُك إن أباهما لما خرج ، قلت للفضل « خالية به » : ما منعك من إدخال السرور على أبيك بملاعبة أخيك ؟ فقال : أمران ، أحدهما : لو أني لاعبته لغلبته فأخجلته ، والثاني قول أبي لاعبه وأنا معك ؛ فما يسرّني أن يكون أبي معي على أخي ، ثم خلوت بجعفر ، فقلت له : يسأل أبوك عن اللعب بالشطرنج فيصمت أخوك وتعترف ، وأبوك صاحب جدّ ؟ فقال : إني سمعت أبي يقول نَعَمْ كَلْهُوُ الببال المكدود^١ ، وقد علم ما نلقاه من كدّ التعلم والتأدب ولم آمن أن يكون بلغه أننا نلعب بها ، ولا أن يُبادر فيُنكر ، فبادرت بالإقرار إشفافاً على نفسي وعليه ، إن كان توبخ فديت من المواجهة به . فقلت له يا بني ، فلم تقول ألاعبه مخاطرة ! كأنك تقامر أخاك وتسكّر ماله ، فقال : كلا . ولكنه يستحسن الدواة التي وهبها لي أمير المؤمنين فعرضتها عليه فأبى قبولها ، وطمعت أن يلعبني فأخاطره عليها ، وهو يغلبني فتطيب نفسه بأخذها ، فقلت لها : يا أمّاه ما كانت هذه الدواة ؟ فقالت : إن جعفر أدخل على أمير المؤمنين ، فرأى بين يديه دواة من العقيق الأحمر ، « حلاّة بالياقوت الأزرق والأصفر ، فرآه ينظر إليها فوهبها له . فقلت : إيه . فقالت : ثم قلت لجعفر : هبك اعتذرت بما سمعت . فما عذرك من الرضا بمناصبة أبيك حين قال لاعبه وأنا معك ! فقلت أنت : نعم ، وقال هو : لا ؟ فقال : عرفت أنه غالي ، ولو فترّ لعبه لتغالبت له ، مع ماله من الشرف والسرور بتحيّز أبيه إليه . قال محمد بن عبد الرحمن : فقلت : بخ بخ^٢ هذه والله السيادة أتم قلت لها : يا أمّاه — أكان منهما من بلغ الحُلم ؟ فقالت : يا بني ، أين يذهب

(١) كده : أجهده وأتعبه .

(٢) يقال : بخ بخ — وبخ بخ : إعجاباً بالشيء وإظهاراً للسرور به

بك ! أخبرك عن صبيين يلعبان ، فتقول : « أكان منهما من بلغ الحلم » ؟ ! لقد كنا ننهى الصبي إذا بلغ العشر ، وحضر من يُستحى منه ، أن يبتسم .

براعة الرشيد في الأدب

دخل سهل بن هرون على الرشيد وهو يضأحك المأمون فقال : اللهم زدّه من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون في كل يومٍ من أيامه مرّياً على أمسه ، مقصراً عن غده .

فقال له الرشيد يا سهل ، آمن روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحّه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لم يعجزه القول .
فقال سهل : يا امير المؤمنين ما ظننت ان احداً تهدمني إلى هذا المعنى . قال بل أعشى حمدان حيث يقول :

رأيتك أمس خير بني 'لؤي' وأنت اليوم خير منك أمس
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

الواصل وابن أبي دؤاد

قال ابو العيناء : دخل ابن أبي دؤاد على الواصل فقال له : ما زال اليوم قوم في ثلبك ونقصك . فقال : يا امير المؤمنين ، لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم ، والله ولي جزائه ، وعقاب امير المؤمنين من ورائه ، وما ذاك يا امير المؤمنين من كنت ناصره ، ولا ضاع من كنت حافظه ، فماذا قلت لهم يا امير المؤمنين ؟ قال : قلت يا أبا عبدالله :

وسعى إلى بعيب عزّة ، معشر جعل الإله خدودهم نعالها

المنصور والربيع بن يونس^١

قال سعيد بن مسلم بن قتيبة دعا المنصور بالربيع فقال : سَلِّني ما تريد ؟
فقد سكنتُ حتى نطقْتُ^٢ وخففتُ حتى ثقلت ، وأقلت حتى أكرثت . قال :
والله يا أمير المؤمنين ، ما أُرْهبُ بخلِك ، ولا أستهْصِرُ عمرك ، ولا أستصغرُ
فضلك ، ولا أغتدِمُ مالك ، وإن يوميَ بفضلك عليَّ أحسن من أمسي ، وغدك
في تأميلي أحسن من يومي ولو جاز أن يشكرك مثلي بغير الخدمة والمناصحة لما
سَبَقني في ذلك احد .

قال : صدقت . علمي بهذا منك أحلُّك هذا المحل ، فسَلِّني ما شئت !
قال : أسألك أن تقرَّبَ عندك الفضل ، وتؤثِّره وتحييه
قال : يا ربيع ، إن الحبَّ ليس بمالٍ يوهب ، ولا رتبة تُبذل ، وإنما تؤكده
الأسباب .

قال : فاجعل لي طريقاً إليه بالفضل عليه .
قال : صدقت . وقد وصلته بألف ألف درهم ، ولما أصِلَ بهذا احداً غير
مومني لتعلم ما له عندي ، فيكون منه ما يستدعي به محبي . وكيف سألت
له المحبة يا ربيع ؟
قال : لأنها مفتاح كل خير ، ومغلاق كل شر ، تستتر بها عندك عُيوبه
وتصير حسناتِ دنوه . قال : صدقت ، وأتيت بما أردت .

الأعرابي السائل

وقفَ أعرابي يسألُ ، فعبيثَ به فق ، وقار : يَمَنُ انت ؟
فقال الأعرابي : من بني عامر بن صعصعة قال من أيهم ؟

(١) الربيع بن يونس هو صاحب المنصور ، توفي سنة ١٧٠ هـ .
(٢) يقول : إنك أطلت السكوت فنبهت بذلك على نفسك ، فقام السكوت
مقام الكلام ، وعلى هذا القياس ما بعده .

قال : إن كنت أردتَ عاطفة القرابة فليتكفك هذا المقدارُ من المعرفة . ليس مقامي بمقام مجادلة ولا مُفاخرة ، وأنا أقول : فإن لم أكن من هاماتهم ^١ فلست من أعجازهم .

فقال الفقي : ما رويت عن فضيلتك إلا النقص في حَسَبِكَ .

فامتعض ^٢ الأعرابي لذلك ، فجعل الفقي يعتذر ، ويخلط الهزل والدُعابة ^٣ باعتذاره ، وأطال الكلام ، فقال له الأعرابي : يا هذا ! إنك منذ اليوم أدبتني بمنزلة ، وقطعتني عن مسألتني بكلامك واعتذارك ، وإنك لتكشف من جهلك بكلامك ما كان السكوت يستره من أمرك ، ويحك ، إن الجاهل إن مزح أسخط وإن اعتذر أفرط ، وإن حدث أسقط ^٤ ، وإن قدر تسلط ، وإن عزم على أمر تورط ^٥ ، وإن جلس مجلس الوقار تبسط ^٦ ، أعوذ منك ومن حال اضطررتني إلى احتمال مثلك .

معاوية والأحنف بن قيس

لما عنَم معاوية على البيعة ليزيد ، كتب إلى زياد أن يوجه إليه بوفد أهل العراق فبعث إليه بوفد البصرة والكوفة ، فتكلمت الخطباء في يزيد والأحنف ابن قيس ساكتاً ، فلما فرغوا ؛ قال : قل يا أبا بجر فإن الميئون إليك أشرع ^٧ منها إلى غيرك ، فقام الأحنف فحميد الله وأثنى عليه ، وصلى على نبيه ﷺ ، ثم قال :

يا أمير المؤمنين، إنك أغلَمُنَا بيزيد في ليله ونهاره ، وإعلانه وإسراره، فإن

(١) الهامات : الرؤوس (٢) امتعض : تألم (٣) الدعابة : اللعب والمزاح (٤) أسقط : أخطأ (٥) تورط في الأمر : وقع وارتبك (٦) تبسط : أكثر من القول وجانب الاحتشام (٧) أشرع : ارفع وأكثر نظراً .

كنت تعلمه لله رضا ، فلا تشاور فيه احداً ، ولا تُقيم له الخطباء والشعراء ، وإن كنت تعلم بعمده من الله ، فلا تزوده من الدنيا وترحل أنت إلى الآخرة فإنك تصير إلى يوم نفي^١ المرء من اخيه ، وأمه وأبيه ، وصاحبته وبنيه . فكأنه أفرغ على معاوية ذنوب^٢ ماء بارد .

فقال له : أقعد يا أبا بجر ، فإن خيرة الله تجري ، وقضاء يمضي ، وأحكامه تفسد^٣ ، ولا معلق لحكمه ، ولا راد لقضائه ، وإن « يزيد » فخر بلوانه ولم نجد في قريش فخر هو أجدر بأن يجتمع عليه منه .
فقال : يا امير المؤمنين . أنت تحكي عن شاهد ، ونحن نتكلم عن غائب وإذا أراد الله شيئاً كان .

الحجاج ورسول المهلب

يروي أن المهلب لما فرغ من امر عبد ربه الحروري^٤ ، دعا بشر بن مالك . فأنفذه بالبشارة إلى الحجاج ، فلما دخل على الحجاج قال : ما سببك ؟ قال : بشر بن مالك ، فقال الحجاج : بشارته ومهلك ، كيف خلقت المهلب ؟ قال : خلقت وقد آمن ما خاف ، وأدرك ما طلب ، قال : كيف كانت حالكم مع عدوكم ؟ قال : كانت البداء لهم ، والعاقبة لنا . قال الحجاج : العاقبة للمتقين ، فما حال الجند ؟ قال : وسعهم الحق وأغناهم النفر^٥ ، وإنهم لمع رجل يسوسهم بسياسة الملوك ويقاثل

(١) الذنوب : الدلو المملأ ، جمعه أذنبه وذائب (٢) اي لا راد لقضائه
(٣) هو المهلب بن ابي صفرة الأزدي . كان شجاعاً مهيماً وقائداً من اكبر قواد الجيوش في الدولة الأموية ، وهو الذي شنت الخوارج ومزقهم كل ممزق . ويقال للبصرة بصرة المهلب لأنه حماها من الخوارج توفي ٨٣ (٤) الحروري نسبة إلى حروراء على غير القياس وهي بلدة بقرب الكوفة ، والحرورية : فرقة من الخوارج كالأزارقة (٥) كذا في زهر الآداب ، وفي تاريخ ابن خلكان ان اسم الرسول ممالك بن بشير (٦) النفل : الغنيمة وجمعه أنفال .

هم قنال الصُّعْلُوك، فلهم منه برّ الوالد، وله منهم طاعة الولد، قال: فما حال ولد المهلب؟ قال: رُعاة السِّبْيَات حتى يَأْمَنُوا، وُحْمَاة السَّرْح^١ حتى يَرُدُّوهُ، قال: فأيهم أفضل؟ قال: ذلك إلى أبيهم، قال وأنت أيضاً، فإني رى لك لساناً وعبارة، قال: هم كالحلقة المُرَغْغ^٢ لا يُدْرَى أين طرفاها، قال: ويحك! أأكنت أعددت لهذا المقام هذا المفال؟ قل: لا يعلم الغيب إلا الله، فقال الحجاج جلسائه هذا - والله - الكلام المطبوع، لا الكلام المصنوع.

حديث معاوية وليلى^٣ الأخيلية

قال بعض الرُّوَاه . بيتا معاوية يسير إذ رأى راكباً فقال لبعض شُرَطَته ائتنني به وإياك أن تروعه . فأثاه فقال : أجب أمير المؤمنين، فقال إياه أردت، فلما دنا الراكب حذرَ لثامه ، فإذا ليلي الأخيلية . فأنشأت تقول :

مُعَاوِيَ لَمْ أَكِدْ أَتَيْكَ تَهْوِي بِرَحْلي نَحْو سَاحَتِكَ الرَّكَّابُ
تَجُوبُ الْأَرْضَ نَحْوَكَ مَا تَأْنِي إِذَا مَا الْأَكْثَمُ قَنَعَهَا السَّرَابُ
وَكُنْتَ ارْتَجَى وَبِكَ اسْتَعَاذْتَ لِتَنْعَشَهَا إِذَا بَخِلَ السُّحَابُ

فقال : ما حاجتك؟ قالت : ليس مثلي يطلب إلى مثلك حاجة ، فتخير أنت أعلى عيناً ، فأعطاها خمسين من الإبل ، ثم قال : أخبريني عن مضر، قالت فإخبر بمضر ، وحارب بقيس ، وكأثر بتميم ، وناظر بأسد .

فقال : ويحك يا ليلي؟ أأكل يقول ناس كان توبة؟ قالت : يا أمير المؤمنين

(١) السرح : الماشية في المرعى (٢) الحلقة المفرغة : المصبوبة قطعة واحدة؛ وهذه الجملة مثل : لا امرأة عربية (٣) ليلي الأخيلية : أشعر امرأة عربية بعد الخنساء (٤) الأكَم : واحدة أكمة - وسكنت الكاف للوزن - تقول : إن ركابها تجول في الأرض قاصدة معاوية ، ولا تتأبى عند اشتداد الحر إذ تتغطى الآكام بالسراب (٥) مضر : أصل لقيس وقيم وأسد . تقول . ان مضر ذات مجد عظيم وقيس أهل البسالة والإقدام وقيم ذوو الكثرة والعدد وأسد أهل الحجة واللدد.

ليس كلُّ الناس يقولُ حقاً، الناسُ شَجَرَةٌ بغِي يُحْسَدُونَ النعم حيث كانت وعلى من كانت ، كان يا أمير المؤمنين : سبط البنان ، حديد اللسار ، شجى الأقران ، كريم الخبر ، عفيف المثرر ، جميل المنظر ، وكان كما قلت ، ولم أبعُدْ عن الحق فيه :

بعيدَ المدى لا يبلُغُ القَرَمُ غورَه . "ألدُ مَلَدٌ يغلبُ الحق باطله"
فقال معاوية : ويحك يا لبلى ! يزعم الناس أنه كان عاهراً فاجراً. فقالت من ساعته مرتجلة :

معاذ النسي قد كان والله توبةً جواداً على العلات جتاً نوافله^١
أغرّ خفاجياً يرى البخل سبّةً تحالف كفاه الندى وأنامله^٢
عفيفاً بعيد الهم صلباً قد نسه جيلاً محيّاه قليلاً غوائله^٣
وكان إذا ما الضيف أرغى بغيره لديه تاد نيله وفواضله^٤
وقد علم الحدب الذي كان سارياً على الضيف والجيران أنك قاتله^٥
وأنتك رَحَبُ الباع يا توب بالقرى إذا ما لثم التوم ضاقت منازلها^٦
يبيتُ قرير العين من كان جاره ويضحى بخير ضيفه ومنازله^٧

فقال لها معاوية ويحك يا لبلى ! لقد جُزّت بتوبة قدره ، فقالت : يا أمير المؤمنين ، والله لو رأيته وخبرته لعلمت أني مُقَصَّرة في نعمته ، لا أبلغ كُنته ما هو له أهل ، فقال لها معاوية : في أي سن كان توبة ؟ فقالت : يا أمير المؤمنين :
أنته المنايا حين تمّ تمامه وأقصر عنه كل قرن يُناضله^٨
وصار كَلَيْتِ الغاب يحمي عرينه فترضى به أشباله وحلائله^٩

(١) القرم السيد ، والألد : الشديد الخصومة ، والملد مبالغة في الألد تقول : لا يدرك غوره مع شدة عارضة تجعل باطله يغلب الحق .

(٢) على العلات : أي على كل حال . والوافل العطايا .

(٣) الفوائل : الدواهي : وفلان قليل الفوائل . أي ليس فيه ما يعيبه العشير .

عطوفٌ حلِيمٌ حين يُطلب حِلْمُهُ وُسْمٌ زُعَافٌ لا تصاب مقاتلُهُ
فأمر لها بجائزة ، وقال : أيّ ! ما قلت فيه أشعر .
قالت : يا أمير المؤمنين ، ما قلت شيئاً إلا والذي فيه من خصال الخير أكثر
ولقد أجدتُ حيث أقول :

جزى اللهُ خيراً والجزاءُ بكفه فقيٌّ من عقيلٍ ساد غيرَ مكلف
فقيٌّ كانت الدنيا تهون بأسرها عليه فلم ينفكْ جَمَّ التصرف
ينالُ عليّات الأمور بهوْنَةً إذا هي أعميت كل خيرٍ قِيَمُ سوف¹

الحارث² بن عوف المري ومصاهرته أوس³ بن حارثة الطائي

يرُوى أن الحارث بن عوف المري قال يوماً للخارجة بن سنان المري .
أتاني أخطب إلى أحد فيردني ؟ قال : نعم ، قال : ومن ذاك ؟ قال : أوس بن
حارثة بن لأم الطائي . فقال الحارث لغلّامه ارْحُلْ بنا . ففعل . فركبا حتى
أتيا أوساً فلما رأى الحارث بن عوف قال : مرحباً بك يا حارث ، قال وبك . قال :
ما جاء بك ؟ قال : جئتُك خاطباً ، قال : لستُ هناك ، فانصرف ولم يكلمه .
ودخل أوس على امرأته مُغضباً - وكانت من بني عبس⁴ - فقالت : مَنْ

(١) الهونة : النودة والخرق ، الفقى الحسن الكريم السجّايا والمسوف : من
يصنع ما شاء لا يردّه أحد .

(٢) هو أحد عظماء ذبيان ومرة : بطن من ذبيان . والحارث أحد السيدين
اللذان سعيّا في الصلح بين عبس وذبيان في حرب داحس والغبراء التي دامت نحو
اربعين سنة وقد احتملا في مالها خاصة غرامة تلك الحرب .

(٣) هو سيد طيء في زمانه ، وفيه يقول الشاعر :

إلى أوس بن حارثة بن لأم ليقضي حاجتي فيمن قضاها
فما وطىء الحصام مثل ابن سعدى ولا لبس النعال ولا احتذاها

(٤) اي لست كفؤاً (٥) عبس وذبيان أبناء عم .

الرجل الذي وقف عليك فلم يُطيل ولم تكلمه ؟ قال : ذاك سيد العرب الحارث ابن عوف المرثي ، قالت : فما لك لا تستنزه ؟ قال : إنه استَحَمْتُ^١ ، قالت : وكيف ؟ قال : جاءني خاطباً ، قالت : أتريد ان تُزوِّجَ بناتك ؟ قال : نعم ، قالت : فإذا لم تُزوِّجَ سيد العرب ، فمن ؟ قال : قد كـا- ذلك ، قلت : فتدرك ما كان منك ، قال : بماذا ؟ قالت : تلحقه فترده ؟ قال : وكيف وقد فرطَ مِنِّي ما فرط إليه ؟ قالت ، تقول له : إنك لقييتني مُقتضياً^٢ بأمر لم يتقدم مِنِّي فيه قول ، فلم يكن عندي فيه من الجواب إلا ما سمعت ، فنصرف ولك عندي كل ما أحببت ! فإنه سيفعل^٣ ، فركب في أثرهما ، قال خارجه بن سنان : فوالله إني لأسيرُ إذ حانت مِنِّي التَّفَاتةُ ، فرأيتُه فأقبلت على الحارث وما يُكلمني غمّاً ، فقلت له : هذا أوسُ بن حارثة في أثرنا قال : وما نصنع به ؟ امض ، فلما رأنا لا نقف عليه ، صاح ، يا حارثُ أربع^٤ على ساعة ، فوقفنا له ، فكلّمنا بذلك الكلام ، فرجع مسروراً .

فبلغني أن أوساً لما دخل منزله قال لزوجته ، ادعي لي فلانة - لأكبر بناتنا فأتته ، فقال : يا بُنية هذا الحارث بن عوف سيدُ من - أدات العرب ، قد جاءني طالباً خاطباً ، وقد أردت ان أزوّجك منه ، فما تقولين ؟ قالت : لا تفعل ، قال : ولمَ ؟ قالت : لأنني امرأة في وجهي رَدّة^٥ ، وفي خلقي بعض المَهدة^٦ ، ولست بأبنة عمه فيرعى رحي ، وليس يجارك في البلد فيستحي منك ، ولا آمنُ ان يرى مِنِّي ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما فيه ، قال : قومي بارك الله عليك ادعي لي فلانة ، لا بنته الوسطى ، فدعتها ثم قال لها مثل قوله لأختها فأجابته بمثل جوابها وقالت : إني خرقاء^٧ وليست بيندي صناعة ، ولا آمنُ ان يرى

(١) استحمت ، فعل فعل الحمى (٢) الاقتضاب ، المفاجأة (٣) ربع عليه : وقف او مال اليه (٤) يقال في وجهه ردة ، أي قبح مع شيء من الجمال (٥) المَهدة ، الضعف (٦) الخرقاء ، التي لا تحسن صنعة .

مني ما يكره فيُطلقني ، فيكون عليّ في ذلك ما تعلم ، وليس بابن عمي فيرعني حقي ولا جارك في بلدك فيستحييك ، قال : قومي بارك الله عليك ، ادّعي لي « بهيسة » - يعني الصغرى - فأتى بها ، فقال لها كما قال لها ، فقالت : أنت وذلك ، فقال لها : قد عرضت ذلك على أختيك فأبتاه ، فقالت - ولم يذكر لها مقالتيهما : لكنني والله الجميلة وجهاً ، الصنّاع^١ يداً ، الرفيعة خلقاً ، الحسبية أباً ، فإن طلقني فلا أخلف الله عليه بخير ، فقال : بارك الله عليك .

قال خارجة ، ثم خرج البنا فقال : قد زوجتك يا حارث « بهيسة » بنت أوُس قال : قبلت ، ثم أمر أمّها ان تهيتها ، وتصلح من شأنها ، ثم أمر ببيت فُضرب^٢ له ، وأنزله إياه ، فلما هيئت بعث بها اليه ، فلم يلبث عندها لاهنية^٣ ثم خرج إلي ، فقلت : بنيت بأهلك ؟ قال : لا والله ، فإني لم أدنوت منها قالت : مَهْ أعيندَ أبي وإخوتي؟ هذا والله ما لا يكون ، قال خارجة : ثم ارتحلنا ، بها ففسرنا ما شاء الله ثم انتحى بها ناحية^٤ ، ولم يلبث ان عاد إلي ، فقلت : أبنتك بأهلك ؟ قال : لا والله فقد قالت أكل يفعل لأمه الجليلة ؟ والسببية الأخيذة^٥ ؟ لا والله حتى ينجر الجزر ، وتذبح الغنم ، وتدعو العرب وتعمل ما يعمل لمثلي ، قلت : والله إني لأرى همة وعقلاً ، وارجو ان تكون المرة مُنْجاة إن شاء الله ، فحلنا حتى قدمنا وأحبسَ الإبل والغنم ، ثم خلا بها ولم يذشب أن خرج فقلت : أبنتك بأهلك ؟ قال : لا - فد قلت لها احضرنا من المال ما ، قد تريدن ، فقالت : والله لقد ذكرت لي من الشرف ما لا اراه فيك ، قلت : وكيف ؟ قالت : أتفرغ للذباء والعرب يقتل بعضها بعضاً ؟ - وذلك في أيام حرب عَيس وذبيان - قلت : فماذا تريدن ؟ قالت : اخرج الى هؤلاء القوم

(١) امرأة صنّاع ، حاذقة في الصناعة (٢) ضرب : أقيم ، وبني له بيت

(٣) الهنية : الزمن اليسير (٤) الجليلة ، المجلوبة

(٥) الأخيذة ، المأخوذة .

فأصلح بينهم ، ثم ارجع الى أهلك فلن يفوتك ، قال خارجة ، فقلت : والله
إني لأرى همة وعقلاً ، قال : «أخرج بنا فخرجنا حتى أتينا القوم فمشينا فيما
بينهم بالصُّلح ، فاصطلحوا وحملنا عنهم الديات ، فكانت ثلاثة آلاف بعير في
ثلاث سنين ، فانصرفنا بأجل الذكر^١
ولو كان النساء - كمثل هذي - لفُضِّلَت النساء على الرجال

سودة بنت عمارة ومعاوية

قال عامر الشعبي : وفدت سودة بنت عمارة بن الأشتر الهمدانية على معاوية
ابن أبي سفيان ، فاستأذنت عليه فأذن لها ، فلما دخلت عليه سلمت ، فقال لها :
كيف أنت يا ابنة الأشتر؟ قالت بخير يا امير المؤمنين ، قال لها أنت القائلة لأخيك
شمّر لفعل أهلك يا بن عمارة يوم الطَّعْمان ومُلَّتقى الأقران
وانصر عليّاً والحسينَ ورهطه واقصد لهند^٢ وابنها بهوان
إمّ الإمام أخا النبي محمد علم الهدى ومنارة الإيمان
فستقْدِر الجيوشَ ويسر أُمّام لوائه قدماً بأبيض صارم وسانن
قالت يا امير المؤمنين مات الرأس وبُتِر الذنب ، فدع عنك تذكّار ما قد
نسي ، قال : هيّهات ، ليس مثل مقام أخيك نسي ، قالت : صدقت ، والله يا
امير المؤمنين ، ما كان اخي خفي المقلم ، ذليل المكان ، ولكن كما قالت الخنساء :
وإن صَخراً لتأتّم الهداة به كأنه علم في رأسه نار
وبالله أسألك يا امير المؤمنين إعفائي عما استغفيتَه ، قال : فعلت ، فقولي
حاجتك ، قالت :

- (١) وقد خلد زهير هذا الذكر الجميل في معلقته اذ يقول من ابیات كثيرة :
يميناً لنعم السيدان وجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تمانوا ودقوا بينهم عطر منشم
(٢) هند : هي أم معاوية .

يا أمير المؤمنين، إنك للناس سيد، ولأمورهم مُفَلِّد، والله سائلك عما افترض عليك من حقنا، ولا تزال تقدم علينا من ينهض بعزك، ويبدسط بسططانك، فيحصدنا حصاد السُّبُل، ويدوسنا دياس البقر، ويسومنا الحسياسة^١ ويسألنا الجلييلة، هذا ابن أرطاة، قدِم بلادِي، وقتل رجالي، وأخذ مالي، ولولا الطاعة، لكان فينا عزاً ومنعة، فإما عزلته فشكرناك، وإما لا فعرفناك، فقال معاوية: أأبائي تهديدن بقومك؟ والله لقد همت أن أردك إليه على قَتَبِ أُمِّس^٢ فينفذ حكمه فيك، فسكتت، ثم قالت:

صَلَّى إِلَهَ عَلَى رُوحِ تَضَمَّنَتْهُ قَبْرٌ فَأَصْبَحَ فِيهِ الْعَدْلُ مَدْفُونًا
قَدْ حَالَفَ الْحَقُّ لَا يَبْغِي بِهِ ثَمْنًا فَصَارَ بِالْحَقِّ وَالْإِيمَانِ مَقْشُورًا

قال: ومن ذلك؟ قالت: علي بن أبي طالب، قال: ما أرى عليك منه أثراً، قالت: بلى، أتيتهُ يوماً في رجلٍ ولاتِهِ صدقاتنا، فكان بيننا وبينه ما بين الغث والسمين، فوجدته قائماً يُصَلِّي فأنفقت^٣ عن الصلاة ثم قال برأفة وتعطف: ألك حاجة؟ فأخبرته خبر الرجل، فبكى ثم رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم اني لم آمرهم بظلم خلقك، ولا ترك حقك، ثم أخرج من جيبه قطعة من جراب، فكتب فيه: بسم الله الرحمن الرحيم «قد جاءكم بينة من ربكم فآوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين، بَقِيَّةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. وما أنا عليكم بحفيظ» إذا أذاك كتابي هذا فاحفظ بما في يدك حق يأتي من يقبضه منك والسلام فعز له يا أمير المؤمنين ما خزمه بخزام ولا ختمه بختام، فقال معاوية: اكتبوا لها بالإنصاف لها والعدل عليها، فقالت: ألي خاصة أم لقومي عامة؟ قال: وما أنت وغيرك؟ قالت: هي والله إذن

(١) سامه الأمر: كلفه إياه. تقول: يحشمننا دنايا الأمور.

(٢) القَب: الرجل الصغير، والأُمس: الحشن الغليظ.

(٣) أنفقت: انصف، ف.

الفحشاء واللؤم ، إن كان عدلاً فشاملاً ، وإلا يسمني ما يسمع قومي ، قال :
هيهات ، لمَظنكم ' ابن أبي طالب الجرأة ، وغرّكم قوله :

فلو كنت بواباً على باب جنةٍ لقلت لهمدان ادخلوا بسلام
وقوله :

ناديتُ همدان والأبواب مغلقةً وشي همدان سنى فتحةُ البابِ
كالهشْدُواني لم تقلل مضاربه وجهُ جميل وقلب غير وجّاب
اكتبوا لها بحاجتها .

أم سنان بنت جشمة ومعاوية

قال سعيد بن أبي حذافة . حبس مروان وهو والي المدينة غلاماً من
بني ليث في جناية جناها ، فأنته جدّة الغلام ، وهي أم سنان بنت 'جشمة'
المدحجية فكلّمته في الغلام ، فأغلظ مروان لها ، فخرجت الى معاوية فدخلت
عليه فأنسبت فعرّفها فقل مرحباً بابنة جشمة ، ما أقدمك أرضنا ، وقد عهدتكَ
تشتميننا وتحضّنين علينا عدونا ؟ قالت : إن لبّني عبد مناف أخلاقاً طاهرة ،
وأحلاماً وافرة ، لا يجهلون بعد علم ، ولا يفسّهُون بعد حلم ، ولا ينتقمون بعد
عفو ، وإن أولى الناس باتّباع من سنّ آباؤُه لأبت ، قال : صدقت ، نحن كذلك ،
فكيف قولك :

عزّبَ الرُّقاد فمَقلتي لا ترقُود والليل يُصدر بالهموم ويُوردُ
يا آلَ مذحج لا مُقام فشمّروا إن العدوّ لآل أحمد يقصدُ
هذا عليّ كالهلال تحفّفه وسط السماء من الكواكب أسعدُ
خيرُ الخلائفِ وابن عم محمد إن يهدكُم بالدور منه تهتّدوا
ما زال مُدّ شهد الحروب مُظفّراً والنصر دون لوائه ما يهقدُ

قالت . كان ذلك يا أمير المؤمنين - وأرجو أن تكون لنا خلفاً . فقال رجل من 'جلسائه' : كيف يا أمير المؤمنين ؟ وهي القائلة .

إما هلكت أبا الحسين فلم تزلْ بالحق تُعرَف هادياً مَهدياً
فأذهب عليك صلاة ربك ما دعت فوق الغُصون حَمَامَةً قَفَرِيّاً
قد كنت بعد محمد خلفاً كما أوصى إليك بنا فكنت وفيها
واليوم لا خلف يُؤَمِّل بعده هيهات نَأْمَل بعده إنْشِيّاً

قالت : يا أمير المؤمنين لسان فطن ، وقول صدق ، ولئن تحقق ما ظننا
فحظتكَ الأوفر ، والله ما ورثتكَ الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء ، فأدحِض
مقاتلتهم ، وأبعد منزلتهم ، فإنك إن فعلت ذلك تزدد من الله قرباً . ومن المؤمنين
حباً ، قال : وإنك لتقولين ذلك ، قالت : سبحان الله ! والله ما مثلك مدح
بباطل ولا اعتذار إليه بكذب ، وإدبك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلوبنا

شكراً لربي الذي أعانني على طباع الجزء الأول ويليهِ الجزء الثاني
وأوله : « الفن السابع في التاريخ »

مع تحيات يحيى الصوفي
مؤسس ورئيس تحرير موقع
القصة السورية
Syrian Story